بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الأول من الوحيد

الحمد لله الذي أوضح الطريق لسلوك عباده إليه، وفتح بابَ دعوتِه لدخول أوليائه عليه، واختصّهم لحضرته، فمِن مُجالسٍ ومُؤانسٍ وقائمٍ بين يديه، كلٌّ ذلك ضربًا للأمثال ليفهموا، ولا يصل الفهم ولا العقل إليه، تعرّف لهم، فبه عرفوه، وَوَصَف لهم ذاته العليَّة، فبالوصف الذي وصفها لهم به وصفوه، وطهّر قلوبهم من الأغيار فما أَنِسوا بغيره ولا أَلَفُوه، وخرق أسماعَ قلوبهم خطابُه فأسكرهم بلذيذ ذلك الخطاب، وتجلَّت لهم صفاتُ جماله فذهلت منهم العقولُ وطاشت منهم الألباب، وأسطلَهم الدَهَشُ فحاروا وعجزوا عن ردِّ الجواب، فلولا ثبّتهم في ذلك المقام وردّهم بعد الصحو والاصطلام فلاطفهم بلطائف ذلك الكلام لصار بناؤهم إلى الإنهدام، واندرست تلك الرسوم والأعلام، ولسارع على وجودهم الاضمحلال والانعدام.

أحمده وهو الحامد لنفسه على الكمال والتمام، وأشكره وبشكره يجب الشكر ويزيد الإنعام.

وأشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً خالصةً مخلصةً مستمرةً على الدوام، وأشهد أن سيّدنا محمدًا عبدُه ورسوله المبعوث إلى سائر الأنام المفرّق ما بين الحلال والحرام والناسخ بشرعته جميع الشرائع والأحكام، صلّى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أفضل صلاة وأفضل سلام.

أمَّا بعد ...

سبب تأليف الكتاب

فإنَّه سألني وليٌّ كريم وصديق حميم بثغر الإسكندرية في العشر الأوائل من ربيع الأولى سنة ثمان وسبعمائةٍ للهجرة النبوية أنْ أجمع له مجموعةً تشتمل على حكاياتِ مَنْ صحبته، وأخبارَ مَنْ رأيته، وما أخبروني به عن أنفسهم، وما حكوه لي عن غيرهم من الأولياء والصالحين والفقراء والسالكين والعلماء والعارفين وأرباب الأحوال

والواجدين، وسالكي طريق الورع والنزاهة والعبّاد والمتوّجهين وأهل الاطلاع والمكاشَفِين، وما بلغني عن الأقطاب والأبدال والأوتاد والأميين في كل إقليم من البلاد والخليفة والإمام والمستخلف في كل مقام، وما أخبروا به عن أنفسهم، وما حكوه لي عن غيرهم، ومن تعدى هذه الأطوار وفات الليل والنهار، وما حقيقة التصريف والتعرّف والتعريف؟ ليكون إلى جناب الله مشوّقًا وللسالكين مطرقًا وللعارفين مثبّتًا ومحقّقًا.

وخشيت على اندراس هذا الطريق وغيره على أهل التحقيق، وألاّ يزعم الذين يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا أن ذلك ما كان أو ما وقع في زمان، أو يعتقد أرباب العلوم الكائنة في الكتب أنّ ذلك كان شيئًا ومضى، أو كبرقٍ لاح وطار ومضى، فهو يحدّس بفكره ويقيس ويغيب عن النفيس برؤية الخسيس، فلا يعرف إلا ما يراه من ملبسه من جنسه، ويقيس بيومه على ما مضى من أمسه، ويضرب الأمثال على أنواع المحال، ويعرض عن الحق بما حلا له من الباطل ولا يرجع فيه إلى عاجل ولا آجل فتراه من سُوء الظن يحول ويترنَّم ويقول:

أَمَّـــا الْخِيَـــامُ فَإِنَّهَـــا كخِيَـــامِهِمْ   وَأَرَى نِسَـــاءَ الْحَـــيِّ غَيْـــرَ نِسَـــائِهَا

هذا وإن كان صدق فيما قاله القائل فإنها كلمة حق أريد بها باطل.

خرقة السادة الصوفية

هذا وإن كانت الخرقة الشريفة قد كثر من المتشبهة والكذبة عليها والجهالة من العباد، وسرى ذلك في كثير من البلاد، وقام لهم الشيطان إمامًا وتعلق في مراياهم أحلامًا فبعضهم يحض عليه ويتولاه، وبعضهم يدفعه عن تبعيته ولا يرضاه؛ لأنه قد أعرض عن الرّحمن ونسي قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ**﴾ [يس: ٦٠].

وقد جعلوا حظهم في هذه الطريقة ألوان اللباس وألوان الطعام، وقنعوا من الأسرار الإلهية والمنازلات الربانية بالبقبقة والتشدق في الكلام، يتبعهم على ذلك الجُهّال من العوام وأرباب الشهوات وأكلة الحرام؛ لأن النفوس محبوسة عن شهواتها ولذاتها بسيوف

الشرائع الظاهرة بالتقوى، وممنوعة عن شرّها وحظوظها بما حدّه الله تعالى من الحدود، وترك الهوى بسيوف الخوف حتى يقود إلى التقوى، فإذا وجدتْ مساعدًا لها على خلاصها من حبسها وإطلاقها في الإباحة لملاذّها وأنسها خرقت سياج شرعها، وأفلتت من شباك زيغها، ولم تراع حق ربها، وزعمت أن هؤلاء هم أفضل الخلق أقوالاً وأعمالاً، وأنهم الأقرب إلى الله تعالى فغيّروا أعلام الطريق، واشتبه على العامة معرفة الزنديق من الصديق فعبّرت عن ذلك مطلقًا قلت فيه محققًا كما قيل عمّن تقدم:

وَتَغَيَّـرَتْ صِـفَةُ الْغُـوَيْرُ فَمَـاْ الْغُـوَيْرُ كَمَـا الْغُـوَيْرُ وَ لا التُّقَـى ذَاْكَ التُّقَـى

السلوك الصحيح

لكـن لـيس برؤيـة المسـتحيل يسـتحيل الواجـب، ولا بوجـود الباطـل يكـون الحـق ذاهبًـا، فالشـمس لا تتغير بما يسترها من السـحاب، ولا يُذهـب الأُسد عويلُ الذئاب، فإنّ الأولياء بحمد الله تعالى في زماننا هذا كثير، وأهل الطريق من كل نوع في السلوك إلى الله تعـالى جمـع كبـير لا يعلمهـم إلا الـذي خلقهـم: ﴿**أَلاَ يَعْلَـمُ مَـنْ خَلَـقَ وَهُـوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ**﴾ [الملك: ١٤].

لا تقف يا وليّ مع الأوهام، ولا بقول من قال بسوء الظن بالطائفة ذاك الكلام، فـإن جعـل الجميـع في سـوء الظـن واحـد، وسـوء ظنـه في الحقيقـة عليـه عائـد؛ لأنـه هـو الشـاهد لصورته في المرآة والمحبوس في سوره فـلا يتعداه، فتراه يميل إلى هـواه ويـرفض مـا سواه، ومن جهل شيئًا عـاداه، ولست لذلك أهلاً ولا إلى ما حملني مستقلاً لأنّ الأمر عظيم والخطب جسيم وجناب الله تعالى منيع وشأنه عزيز وحرزه حريز.

كيف واختلاف الطريق بحسب السالكين، والمطلوب بحسب استعداد الطالبين؟ فهم وإن اختلفت طرائقهم فبحسب أنواعهم وأجناسهم، فاختلافهم بحسب نصيبهم من آثـار الصفات، ونصيبهم بحسب قسمتهم من الميراث والمطلوب واحد، ولا تقبل الوحدة الناقص ولا الزائد، فكيف لي بإجابتك أيُّها السائل؟

مع حجاب الشواغل وتكدر الخواطر وظلمة الباطن والظاهر؟

فنسأل الله العظيم أن يعينني بعنايته ويخصّني بكرامته ويسعدني بولايته ويجعلني له حبيبًا حتى أكون له محِبيًا فلقد هيجت مني ساكنًا وأثرت عندي كامنًا.

هَيَّجْتَ يَا سَعْدُ مِنِّيْ الشَّوْقَ نَحْوَهُمُ وَزِدْتَ نَـارَ الأسـى فِيْ بَـاطِنِيْ عَجَبَـا

فَلَوْ عَلَى الْجَفْنِ مِنِّيْ زُرْتُ رَبْعَهُمُ لَمْ أَقْضِ مِنْ حَقِّهِمْ بَعْضَ الَّذِى وَجَبَا

لكِنْ كَيْفَ لِمَقْصُوصِ الْجَنَاحِ بِالطَّيَرَانِ وَلِمَـنْ عَمَـى بَصَـرُهُ بِرُؤْيَـةِ الأَلْـوَانِ مُتَّبَعَـــــــــــــــا @

فقد ثار حزني وطار أمني وتخلى صديقي عني.

كفَـى حُزْنًـا أَلاّ صَـدِيْقَ وَأَنَّـنِي فَرِيْـدٌ بِـلاَ عَـيْشٍ يَسُـرُّ وَلا نُسُـكِ

كَـأَنِّيْ نَضَـارٌ ظَنَّـهُ الـدَّهْرُ بُهْرُجَـاً فَأَلْقَـاهُ فِي نَـارٍ لِـيَخْلُصَ بِالسَّـبْكِ

كَرِهْـتُ حَيَـاتِي وَاسْـتَطَبْتُ مَنِيَّـتِي إِذَا ضَحِكَتْ سِنِّيْ فَقَلْبِي دَمًا يَبْكِي

وإني وإن كنت على أشنع مما وصفت، ويعلم الله تعالى مني فوق ما علمت وعرفت لأنازع نفسي التوبةَ، وأسأل الله تعالى رفعَ الحوبة، وأجنح إلى المتاب، وأرجو منه حسنَ المآب وإرادف الزفرات على زمان فات، وإن لم أكن من ذلك القبيل ولا مستحقًّا لقالٍ فيه ولا قيل، تنازعني الأشواقُ وتغالبني الأتواقُ وأقول كما قيل:

سَـقَى اللهُ رَبْعًـا فِيـهِ سَـلْمَى مُحِلَّـةٌ مِـنَ الـدِّيَمِ مَـاْ يَهْمِـي بِـهِ وَيَبْسُـمُ

وَإِنْ لَمْ أَكُـنْ مِـنْ سَـاكِنِيهِ فَإِنَّـهُ يَحِـلُّ بِـهِ شَـخْصٌ عَلَـيَّ كَـرِيمُ

فقد أوضحت لك بعض ما عندي، وبيَّنت لك نحسي من سعدي، لأوضح لك بذلك أعذارًا وأقدم لك فيه إنذارًا فإن وقع الخطأ فهو مني، فاسئل الله تعالى لي الإقالة، وإن وقع الصواب فهو من فضل الله تعالى فاسئله لي الإنالة، وكيف لا يقع الخطأ والخطأ واقع؟

مَـنْ ذَاْ الَّـذِيْ مَـاْ سَـاءَ قَـطُّ وَمَـنْ لَـهُ الحُسْـنَى فَقَـطْ

وقد استخرت الله تعالى واستعنته وتبت إليه واستغفرته واستعفيته من قلبٍ قاس وجفنٍ جامد وكمدٍ متزايد، فكيف لي بتحقيق الأطماع مع وجود هذه الأوجاع؟

تَقُولُ نِسَاءُ الحَيِّ تَطْمَعُ أَنْ تَرَي مَحَاسِنَ لَيْلَىْ مُتْ بِدَاءِ الْمَطَامِعِ

وَكَيْفَ تَـرَىْ لَيْلَـىْ بِعَـيْنٍ تَـرَى بِهَـا سِـــوَاْهَاْ وَمَـــاْ طَهَّرْتَهَـــا بِالْمَـــدَاْمِعِ
وَتَلْتَـذُّ مِنْهَـا بِالْحَـدِيثِ وَقَـدْ جَـرَى حَـدِيْثُ سِـوَاْهَاْ فِيْ خُـرُوقِ الْمَسَـامِعِ

لكن تتوب إلى الله تعالى من ذلك فإنَّ تأخير التوبة من الذنب ذنبٌ ثاني، وقد ورد: «**سيروا إلى الله تعالى عرجاً ومكاسير**(١)»، فلا عذر حينئذ في التأخير.

فَسِرْ زَمَنَاً وَانْهَضْ كَسِيْرَاً فَحَظُّكَ الْبَطَاْلَـةُ مَـاْ أَخَّـرْتَ عَزْمًـا لِصِـحَةٍ

وقد ابتدأت بحول الله تعالى وقوّته بعد حمده واستعانته في ذكر ما اعتقده، وما كان عليه مَنْ صحبته وعرفته وسمعته، وعمّن سمعته منه وحكيته من صحة المعتقدات وحسن الاتباع وظهور الكرامات، وما كان عليه السلف والخلف آخذاً عن كتاب الله تعالى وتابعاً لسنة نبيّه صلى الله عليه وسلم، وإيماناً بالله وبما جاء به سيُّدنا محمد ﷺ من عند الله تعالى.

فنحن نشهد ألاّ إله إلا الله، ونشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون.

ونشهد أنَّ الموت حقٌّ ومنكر ونكير حقٌّ، وكلُّ ما أتى به سيُّدنا محمد ﷺ حقٌّ والأنبياء حقٌّ، وأنَّ الصراط والميزان حقٌّ والجنة حقٌّ والنار حقٌّ وأنَّ الساعة آتيةٌ لا ريب فيها وأنَّ الله يبعث مَنْ في القبور، وكلُّ ما ورد به القرآن من الحساب والعقاب والسيئات والثواب حقٌّ.

وأن الله تعالى خالق كلِّ شيء لا يشبهه شيءٌ ولا يشبه شيئًا ولا حلَّ في شيءٍ ولا كمثله شيءٌ ولا هو مثل شيءٍ، وأنه على كلِّ شيءٍ قدير وهو السميع البصير، نموت ونحيا على ذلك، وهذا كان معتقدهم لا يتكلمون في غير ذلك.

التوبـــة

ولنذكر فصلاً مقدماً في التوبة إذ هي أوَّل السلوك إلى الله تعالى، قال الله تعالى ﴿**وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [النور: ٣١].

وأثنى على التائبين في غير ما موضعٍ من القرآن العزيز فقال: ﴿**التَّائِبُونَ العَابِدُونَ**

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/٤٢٢).

الحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ المُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

وذمَّ مَنْ ترك التوبة فقال: **﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾** [الحجرات: ١١].

وورد في الحديث: «**الإسلام يجبُّ ما قبله، والتوبة تجبُّ ما قبلها، والحجُّ يجبُّ ما قبله**[١]»، فليبدأ بالتوبة تطهيراً من الذنوب وتشريفاً للألسنة والقلوب، وتنزيهاً عن الشوائب والعيوب، وتقديماً لذكر المحبِّ والمحبوب؛ إذ التوبة أوَّل كلِّ مقام وآخرُ كلِّ مقام وشاملةٌ لكل مقام ومشاركةٌ في كلِّ مقام على الاستمرار والدوام.

يستوي فيها السائر والواقف والآمن والخائف والسالك والعارف، في نفس التوبة لا في مراتب التوبة؛ إذ توبة كلِّ واحدٍ بحسب حاله، فإنَّ حسنات قومٍ سيئاتُ قومٍ آخرين.

وقد تكون التوبةُ عن التوبة توبةً، وقد يؤاخذ بعضهم باللفتة والخطرة بحسب علوّ مقامه، ويأتي غيره بالعظائم فلا يؤثّر فيه.

إذَا مَا سُمِّيَ الأَوَّابُ حَالٌ وَهِمَّةٌ ... إِلَىْ المَلأ الأعْلَىْ وَأَثْبَتَهُ النَّصُّ
هُنَاْكَ يَخَافُ الْغَيْرُ طَمْسَاً لأَنَّهُ ... صَغِيْرٌ بِهِ مَحْوٌ وَهَفْوَتُهُ نَقْصُ

ومن ذلك استغفارُ الأنبياء والرُّسل -صلوات الله تعالى عليهم وسلامه- إذ لا يصحُّ عندي أن يكون عن ذنب،لأنَّ الأنبياء والرُّسل -صلوات الله تعالى عليهم وسلامه- حجُّة الله تعالى على عباده، قال الله تعالى: **﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾** [النساء: ١٦٥].

فكيف يصحُّ النقص في حجّة الله تعالى والحجّة بحسب المحتجِّ بها والرسول على قدر مرسلهُ، كان رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّه ليُغانُ عَلَى قَلْبي فأَسْتَغْفِرُ الله تَعَالى فِي اليَومِ والليلةِ سَبْعِينَ مرَّةً**[٢]».

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢٠٥/٤)، وذكره ابن كثير (٣٠٩/٢)، والقرطبي (٨٤/٨) بنحوه.
(٢) رواه أحمد في مسنده (٢١١/٤)

وقد يكون الاستغفار أكثر من ذلك وإنما السبعون جاريةٌ في كلام العرب كثير، فمن ذلك قوله تعالى: **﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾** [التوبة: ٨٠].

وهذا لا يقتضي الوقوف على السبعين؛ إذ لو استغفر لهم أكثر من السبعين لم تقع المغفرة، وكذلك في قوله تعالى: **﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ﴾** [الحاقة: ٣٢].

فلم يقتصر رسول الله ﷺ على ذكر السبعين إلا لهذا المعنى، وهو يستغفر على الدوام ﷺ.

واختلف العلماء في استغفاره ﷺ فمن قائل كان يرقى مقاماً بعد مقامٍ فيستغفر من الأوَّل، وذلك عندهم مستحسن بخلاف غيره، ولم أجده عندي كذلك؛ إذ لم يكن استغفاره عن أمّته، وكان استغفاره خصيصاً بنفسه، فإنَّ رسول الله ﷺ كان في كلِّ مقامٍ على أكمل الأحوال بالأخذ عن ربه، فلا ينطق عن الهوى

﴿إِنْ هُوَ إِلاّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤].

فكان في المقامات بالله تعالى لا بنفسه، وكيف يصحُّ أن يكون مقامٌ ناقصاً إلى ما هو أعلى منه في مثل هذا الحال إذا كان مشاهداً لفيض الإلهية ومحل الربوبية؟ فإن كان ارتقاء الرُّتب المعنوية لا يصحُّ فيه الصعود والهبوط وإنما ذلك بحسب الشخص، ويصحُّ العلوّ والنزول في التابع، فإنَّ المتبوعَ مشرعٌ له ومتنزلٌ من علوّ مرتبته إلى أدنى رتب التابعين، كالقارئ للقرآن الحافظ له المعلم للأطفال فإنه مع حفظه للقرآن يبتدئ مع المبتدئ في القراءة وينزل إلى رتبته.

وقد توضأ رسول الله ﷺ مرّةً مرّةً وقال: **«هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به»**(١)، و**«توضأ مرّتين مرّتين»**(٢) وقال فيهما ما قال من الأجر مرتين، و**«توضأ ثلاثًا ثلاثًا»**(٣). وقال: هذا وضوئي ووضوء الأنبياء من قبلي.

---

(١) رواه البخاري (٦/٢٠٥١).

(٢) رواه البخاري (١/٧٠).

(٣) رواه البخاري (١/٧٠).

فمن قال: إنَّ رسول الله ﷺ حين توضّأ مرة واحدة وقال: هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به، ثم توضأ مرتين مرتين.

وقال في الثالثة: «**هذا وضوئي ووضوء الأنبياء من قبلي**(١)».

فمن قال في حقه ﷺ أنَّه كان في الثالثة: أكمل منه في الأولى:، وأنَّ الأولى: ناقصة بالنسبة إلى الثالثة: فقد كفر؛ لأنَّه ﷺ إنَّما تنزَّل من الثلاثة إلى الواحدة للتعليم، وقد تنزَّل معلم القرآن إلى مراتب الصبيان للتعليم، فيقرأ أوَّل سورة للقرآن وهو حافظ لجميعه فلا يكون ذلك للنقص بل للكمال، وذلك من أعلى مقامات الكمال ولم يكن فيه نقصٌ بالنّسبة إليه فإنَّه ﷺ كان يتنزَّل للتعليم ويتكلم للتفهيم.

والذي أراه من ذلك أنَّ رسول الله ﷺ كان في كلِّ زمن فرداً مترقياً لقوله تعالى: ﴿**وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً**﴾ [طه: ١١٤]، والحديث: «**لا بُورِكَ لي في صبيحةِ يومٍ لا أزدادُ فيه علماً**(٢)».

فلما ترقَّي إلى مقامٍ شهد فيه من فضل الله تعالى عليه ما يعجز البشر عن القيام بحقِّ الله تعالى فيه وشكرٍ لنِعَمِه عليه لقوله تعالى: ﴿**وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً**﴾ [النساء: ١١٣].

وقوله تعالى: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ**﴾ [الأنعام: ٩١].

فكان ﷺ يرى نفسه مقصراً مع كماله، ومن كماله أن يرى نفسه مقصراً عن أداء ما يجب لله ﷻ عليه في ذلك، فيستغفر الله تعالى ذلك الاستغفار في اليوم والليلة ﷺ.

التّوبة في حقِّ العموم

وأما التّوبة في حقِّ العموم فلا تصحُّ إلا بالانخلاع عن جميع الذنوب،كبيرها وصغيرها جليلها وحقيرها أولها وآخرها.

وشروطها الظاهرة وهو الانخلاع عن الذنب أولاً قولاً وفعلاً ظاهرًا وباطنًا، والندم الملازم للقلب ثانياً حتى يحرق نيرانُ الخوف كبدَهم، ويظهر ذلك على جوارحهم من البكاء والنحول والذبول والأسف واللهف وقطع علائق القلب بالمنى، وبالعزم الجازم ألاّ

(١) رواه أحمد في المسند (٢/٩٨).
(٢) رواه إسحاق بن راهويه في مسنده (٢/٥٥٣)، والطبراني في الأوسط (٦/٣٦٧).

يعود أبداً حتى يذهل ذلك العزم عقله، ويقطع نياط قلبه الخجلُ مما وقع فيه واطِّلاع الله تعالى عليه، ويجد لذلك ذوقاً ويظهر أثر ذلك عليه، فهذه توبةُ العامة، وأمَّا توبةُ الخاصَّة فهو نوع مما ذكرناه أولاً من الاستغفار المذكور.

التَّوبة النصُوح(١)

وأمَّا التوبة النصوح فإنَّها أخصُّ من ذلك، قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً**﴾ [التحريم:٨].

وهي تكفر السيئات وتبدّلها بالحسنات، وهي تغيِّب التائب عن الخواطر التي تحصل في نفس المتردد، فلا يصحُّ مع التردد إلا حظٌّ جواز الوقوع في الذنب في حالة التوبة، والتوبة النصوح تغيِّبه عن ذلك كله.

وأعرف فقيراً وجد ذلك، وذلك أنه حين وقع في الذنب كان كالغائب عمَّا وقع فيه، فأذهله ذلك وطاش عقله وسُلِبَ لُبَّهُ، وفزع إلى الله تعالى فزعةً استخرجت من قلبه الذنب وأنسته الوقوع فيه حتى رجع إلى الله تعالى بالأُنس به، فإنَّ الخوف إذا اشتدَّ استوحش الخائف، كالقدوم على الملك مع الخوف منه.

ولذلك لما دخل الجنيد على السّريِّ -رضي الله عنهما-(٢) فوجد عنده فكر، فقال: ما بالك يا أستاذ؟ فقال: دخل علي شاب آنفًا فقال ما التوبة؟ فقلت: ألاّ

---

(١)قال الشيخ ابن سبعين-قدس سره- التوبة: هي الرجوع لغةً، وهي الندم على المعصية وتركها، والعزم على عدم الرجوع إليها شرعًا، ونقول: التوبة: هي رجوع التائب عن المعصية بأمر آمر يحكمه إلى رجوعه، ويخوفه ويرغبه، ويترك ما هو عليه؛ لأجل ما نهي عنه، ولأجل ما هو ترك له، ويرجع إلى ما أمر به، وهذا القسم ذكره سيدنا ﷺ في: «الرضوانية»، ونقول: التوبة: هي غسل الإشابة الواقعة في المحل الظاهر، ونقول: التوبة: هي انصراف العبد إلى ربه، ورجوعه إليه بالقوى الجسمانية والروحانية منه، ومشيه على القانون الشرعي صحبة العلم والعمل.

ونقول: التوبة: هي خروج العبد من اختياره وصفاته القائمة به، وأخذه اختيار الشرع وتصرفه به، وتوسط أقواله وأفعاله، وجملته بين الأمر والنهي، ونقول: التوبة: هي الخروج عن الهوية العرضية، والأخلاق السيئة، والدخول في الآنية الذاتية، والتجوهر بالأسماء الرحمانية. وانظر: رسائل ابن سبعين (١٧٠)، .

(٢) انظر في ترجمة ومعرفة مناقب وأخبار كلا من سيدنا الجنيد وخاله سيدنا السري، كتابنا: الإمام الجنيد سيد الطائفتين –طبع العلمية بيروت- وكتاب روضة الحبور لابن الأطعاني- ، طبع دارة الكرز –مصر.

تنسى ذنبك، فردَّ علي وقال لي: بل التوبة أن تنسى ذنبك، فقال الجنيد: الصواب ما قال الشاب(١).

فإن ذِكر الجفا مع الصفا جفا، وكلُّ واحد منهما قال الحقَّ غير أنَّهما متفاوتين في درجات التائبين، فإنَّ الذي يكون في رتبة العوام إذا زايله الخوف رجعت نفسه إلى عادتها وارتكبت المحارم، فإذا كان الذنب بين عينيه والخوف ملازم لقلبه وهو يشاهد ما يواعده الله عليه، هربت نفسه من الذنوب.

وليس كذلك من كان له أُنس مع الله تعالى، وترقَّى في درجات الكمال وشهود صفات الجمال، فإنَّه متى اشتدَّ خوفه قطعه عن السير إلى الله تعالى ثم ردَّ المظالم إلى أهلها من مال وعرض ويحاسب نفسه قبل الحساب ويتخلص من غرمائه قبل يوم المآب، فإنَّ ساعة توبته هي ساعة عرضه على الله تعالى، فلا يترك ذرةً إلا ويتخلص منها، قال الله تعالى: ﴿**وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ**﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقوله تعالى: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراًّ يَرَهُ**﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

ولقد كان نجم الدين بن القرطبي والياً ببلاد قوص، فلمَّا تجرَّد وتاب إلى الله تعالى جعل في عنقه سَلبة، وقاد نفسه إلى غرمائه في البلاد والأسواق وتخلَّص من غرمائه وحللوه.

وبلغني أنَّ أحد الصالحين كانت عنده إبرة فمشى إلى بلادٍ بعيدةٍ حتى ردَّها إلى مالكها.. فهذه وأمثالها سيَّان، وليس المراد استقصاء هذا الفصل في التوبة إذ الوقت يضيق بخفايا النفوس الباطنة، وما يجب على كلِّ تائب بحسب حاله ومقامه وطوره وأفقه، وفيما ذكرناه كفاية لمن كان قصده وجه الله تعالى.

الإيمان بالكرامة واجب(٢)

وأمَّا الإيمان بكرامات هذه الطائفة فهو إيمانٌ بالغيب وهو واجب؛ لأنَّ الإيمان بالرُّسل وبما جاءوا به واجب، وقد جاءت الرُّسل بما وراء العقول، وقد أثنى الله تعالى

(١) انظر: كتابنا في الجنيد (ص٨).

(٢) للاستفاضة في مسألة كرامات الأولياء وما يتعلق بها، انظر كتابنا: «جمع المقال في إثبات كرامات الأولياء في الحياة وبعد الانتقال».

على المؤمنين بالغيب فقال تعالى: ﴿**ألم * ذَلِكَ الكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ *الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ**﴾ [البقرة: ١-٥].

فانظر إلى هذا الوصف الذي وصفهم الله تعالى به، والحديث في الشاة التي وجدت مع الذئب فانْتُزِعَتْ منه فقال الذئب: مَنْ لها يوم السَّبُعِ؟ يومَ لا راعي لها غيري، فقالوا: لا إله إلا الله، ذئب يتكلم؟ فقال رسول الله ﷺ: آمنت بذلك وآمن به أبو بكر وعمر، فأخبر عنهما بالإيمان بذلك ولم يكونا حَاضِرَيْن(١).

ووجه الاستشهاد أنَّ رسول الله ﷺ قال آمنت بذلك، وهو أمر مغيبٌ جرى في زمن بني إسرائيل.

وحديث السيدة خديجة -رضي الله عنها- زوج النبي ﷺ وكونها فُضِّلَتْ على غيرها بإيمانها بالغيب، وهو أنَّ رسول الله ﷺ دخل عليها فوجدها تبكي فقال: «لها ما يبكيك»؟ قالت: يا رسول الله، إني افتكرت القاسم فدرّت ثدياي، فبكيت كوني لم أكمل رضاعه، فلو أكملت رضاعه لكان أخفُّ وأهون عليَّ، فقال لها رسول الله ﷺ: «إنَّ له لمرضعات في الجنة»، فقالت له: لو علمت أو تحققت لهان عليَّ -أو كلمة هذا معناها- فقال رسول الله ﷺ: «أتريدين أن أُسْمِعَكِ صوته في الجنة؟» قالت: لا، وآمنت بالله ورسوله(٢).

فانظر إلى هذا الإيمان الصحيح، كيف استوى عندها الغيب والشهادة بالحسِّ بل قدَّمت الإيمان بالغيب على الشهادة بالحسِّ، لا جرم أنَّ الله تعالى سلَّم عليها لقوله ﷺ: يا خديجة هذا جبريل يُقرؤُك عن ربِّك السلام، ويبشِّرك ببيت في الجنة من قصب،

---

(١) رواه البخاري (٣/٨١٨)، وأحمد (٢/٣٨٢)، وابن حبان في الصحيح (١٤/٤٠٥)، بنحوه.
قلت: وفيه دلالة على أن المنكرين لذلك من أهل الزَّيغ والضلال؛ لعدم إيمانهم بما آمن به ﷺ وأبو بكر وعمر؛ لأن الإنكار مع صحة الحديث إما ردٌّ وإما تكذيبٌ، وناهيك بها زلة في المهالك، والله تعالى هو العاصم من ذلك.
(٢) رواه مسلم (٤/١٨٠٨)، وابن ماجه (١/٤٨٤)، .

لا صخب فيه ولا نصب.

ولأنَّ الشرائع تأتي بما وراء العقول، والوحيُ يأتي بالغيبيّات، وكذلك قِسَمِ الميراث وعدد ركعات الصلوات والطواف بالبيت وتقبيل الحجر الأسود وإخبار النبي ﷺ بالنساء الكاسيات العاريات من ذلك الزمان، وكذلك عمّا وقع في طول مدة الحياة، وما بعد الممات، وما يؤول إليه الحال والاستقرار في النيران والجنان، وما نطق به القرآن العظيم من أنواع المحاسبات والجزاء على الحسنات والسيئات من النعيم واللذات أو الجحيم والعقوبات، وهذا كلُّه غيبٌ يجب الإيمان به والدخول تحت حكمه وامتثال أمره واجتناب نهيه.

وللوليِّ حصته من ميراث رسول الله ﷺ على قدر تبعيّته ونصيبه وقسمته من الأقوال والأفعال والتجليات والأحوال والوجدان والعرفان إذ العلماء ورثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولا يصحُّ ميراثُ الأنبياء من الأموال فإنه ﷺ قال: **«نَحْنُ مَعَاشِرُ الأَنْبياء لا نُوَرَّثُ، مَا تركْنَاهُ صدقة[1]»** فلزم أن يكون الميراث فيما تقدَّم ذكره من أقواله وأفعاله وأحواله ومكاشفاته وتجلياته ووجدانه لقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فاطر:٢٨].

فحيث وُجِدت الخشيةُ أُطْلِق هذا الاسم وإلا فلا، ولذلك استحق هذا الاسم أهلُ العلم بالله تعالى لوجود الخشية فيهم، وعدمها من غيرهم ممن يَقْصِدُ التَّقدمَ على الأقران والارتفاعَ في المجالس والتكالبَ على الدنيا وأخذَ الحطام من غير وجهه والمنازعةَ لغيره في المناصب الدنيوية والمخاصمةَ على العلوِّ في المجالس وترويجَ الكلام على من يقول الحقَّ في جواب المسألة، خشيةَ أنْ يتقدّم عليه، فهذا كلُّه يزيل الخشيَة، بل العلم ضد ذلك كلِّه، ألا ترى قوله تعالى: ﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُواً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ [القصص:٨٣].

ونحن نسأل الله العظيم التوبة مِن ذلك، فإنَّا والله لا نُريد الفساد في الأرض ولا نريد الإهانة فيها فإنْ كان ذلك هو العلوّ فقد خسرنا، ونسأل الله تعالى الإقالة بمنِّه

---

(١) رواه البخاري (١٤٨٠/٤)، ومسلم (١٣٨٠/٣).

وكَرمه، وفيما وصف الله تعالى المؤمنين بالغيب وأخبر عنه نبيُّه ﷺ كفاية لمن كان له قلب.

الجَنين والأسَد

وقد أخبرني السّيد الشريف عبد العزيز المنوفي- رحمه الله تعالى-[١] قال: كان فقيرٌ -ولم يسمّه- خرج قاصدًا إلى الشام ومعه زوجتُه وهي حامل ومعه حمار عليه حوائجهم فخرج عليهم الأسد فقال لزوجه: إنْ تقدّم أحدُنا أخذه الأسد -أو افترسه أو أكله أو كلمة هذا معناها-، وإنْ قدّمنا الحمار فهو رفيقنا وننقطع عنه، وكان قد جاء قطّاع الطريق من خلفهم ولم يجدوا لهم مُخلّصًا، وإذا بصرخةٍ وقعت فولّى الأسد هاربًا، وولّى قطّاع الطريق هاربين، ثم توجه الفقير، ومات بعد ذلك.

وولدت زوجته ولدًا ذكرًا، وصار فقيرًا، وبقي بعد ثلاثين سنة، فسافر هو ووالدته، فلمّا وصلوا إلى المكان الذي كان الأسد والقطّاع خرجوا على أبيه فيه، وكانت هناك شجرة بَقِي أصلها، فقال لوالدته: تَعْرفي ما اتفق لك ولوالدي هاهنا؟ فقالت: لا، فقال: تذكري فتذكّرتْ، فقالت:كنتُ حاملاً بك وكان معنا حمار، فخرج علينا الأسد والقطاع، وبقينا في شدة وإذا بصرخة عظيمة فولّى الأسد هاربًا والقطاع هاربين، فقال لها: تعرفي مَن الذي صرخ؟ قالت: لا، قال لها: والله أنا الذي صرخت في بطنك.

ومثل ذلك كثير، وإنَّما نذكرها فِي موضعها إنْ شاء الله تعالى.

أعَاجيب الزَّمان

ومِمَّا حُكِي عن شيخ الشيوخ ابن مسكين ببغداد، كان خادمه أخذ سجَّاداتِ الفقراء وخرج يوم الجمعة ليفرشها لهم، فنزلَ ليتطهرَ في الشط فطلع بمصر فمشى فوجد رجلاً صبَّاغًا وكان يدري صناعة الصباغة، فاستعمله فيها مدّة وزوّجه بابنتِه وقام معها سبع سنين، وولد منها أولادًا ثم نزل في يوم جمعة ليغتسل في بحر النيل فطلع ببغداد.

---

(١) قال الصفدي: هو عبد العزيز بن عبد الغني بن أبي الأفراح سرور بن أبي الرجاء سلامة بن أبي اليمن بركات بن أبي الحمد داود ويتصل بالحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب الينبعي المجيد الإسكندري المولد . أخبرني العلامة أثير الدين أبو حيان قال : مولده سنة سبع وستمائة. وانظر: الوافي في الوفيات (٢٦٨٧/١).

ووجدَ السجَّادات على المكان الذي تركهم فيه، فأخذها وفرشها لهم وصلُّوا صلاةَ الجمعة فقال له الشيخ: أبطأت في هذه المرة فقال له: يا سيدي جرى لي كذا وكذا، وقصَّ عليه القصة، فقال له الشيخ: هل كنت تفكرت في شيء أو أنكرت شيئًا؟ قال: تفكرت في قوله تعالى: ﴿**فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾ [المعارج:٤].

فقال له: يا ولدي، إن الله تعالى يبسط الزمان في حقِّ قوم ويقبضه في حق قومٍ آخرين، وقد أراك الله تعالى ذلك، ثم أرسل الشيخُ إلى مصر وأحضر أولاده إلى بغداد.. فهذا وأمثاله جائزٌ ولا يمتنع على الله تعالى شيء من ذلك كله.

وهذه الحكاية وأمثالها وإنْ كانت غريبَّة في خَرقِ العوائدِ وإدخالِ الواسعَ في الضيّقِ، فلا يمتنع على قدرة الله تعالى وقوعُها، وأمثال أمثالها إلى ما لا نهاية له.

وذلك لأنَّ القدرةَ لا يَمتنع عليها شيء، والشيئيّة والقدرة لا حجر عليهما، ويجب الإيمان بذلك كلِّه، وله مثالٌ ظاهُر:

فإنَّك إذا أردتَ أنْ تقرأ القرآن بالحروف والأصوات حرفًا حرفًا، وقرأتَه على هذه الهيئة عرفْتَ قدرَ الوقت الذي قرأت فيه، فإذا سنحَ لكَ في خاطرِك كان كاللَّمحةِ الواحدةِ بالنسبة إلى ذلك الوقت، حتى حُكِيَ أنَّ شخصًا قرأ سبعين ألفَ ختمةٍ في اليوم الواحدِ، وحكايته مشهورة بالسَندِ بمكةَ، شرّفها الله تعالى، وهي عن الثقاة الصالحين، وتركتُ الكلام فيها لما نحن بصدده.

وكذلك إذا أردت أنْ تكتبَ الختمةَ -أعني القرآن جميعه- فأدنى ما تقدر عليه أن تكتبها في ستةِ أيامٍ أو سبعةٍ مع السرعةِ، فإنْ نقشْتَ الختمةَ في طابعٍ وطبعتَ به على ورقةٍ واحدةٍ أو غير ذلك مِن القَابِلِ فإنَّها تُرسَمُ في لَمْحِ البَصرِ، فهذا وأمثالُه كثيرٌ.

وضربُ الْمِثالِ في إدخالِ الواسعِ في الضيِّقِ، وكالقدح من الخردل، إذا نثرتَه في الأرضِ يحتاجُ إلى أرضٍ واسعةٍ، فإذا جمعتُه اجتمعَ في القَدحِ.

وكذلك السِنَةُ من المنام، يرى النائمُ فيها مِن البلادِ البعيدةِ والأقطارِ والرِّحابِ الواسعةِ من الفَيافِي والقِفَارِ، حتى أنه يرى كل ما سمعته أذنُه مِن جبل (ق) وغيره مِمَّا لا يقدر على الوصول إليه في مدةِ عُمْرِه، فيبْصر ذلك في اللمحةِ الواحدةِ، وقد يتزوَّج ويتوالد في منامه، ويُقِيمُ الْمُددَ والسنين في اللَّمْحَةِ.

وقد يَرى الله تعالى وأنبياءَه ورسلَه وملائكتَه، وكلّ ذلك في لَمْحَةِ بصرٍ مِن السِنَةِ فِي النَّومِ وهو لا يشكُّ في ذلك.

فافهم ذلك، وإيَّاك والاعتراضَ، فقد وضحَ السبيل ورُفع النصُّ حكمَ التأويلِ، ألا ترى إلى قوله تعالى في قصةِ بلقيس لَمَّا طلب السيد سليمان عليه السلام العرش:

﴿قَالَ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ *قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِراً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِه وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل:٣٨-٤٠].

فانظرْ إلى قَولِ الأول :«قبل أنْ تقومَ مِن مقامِك»!.

وانظر إلى قَولِ الثاني :«قبل أنْ يرتدَّ إليك طرفُك»!.

هذا والمسافة واحدة إلى ما بين حالتي الشخصين وسرعة الوقت مع بعد المسافة، ومِن كونه هناك ومِن كَونِه صارَ هُنا.

فإنْ قيل: إرتدادُ الطرفِ لا يَقْتَضِي سعةَ الأَزْمِنةِ، والعرب تقول: هززت الحسامَ ثمَّ ابتدأتُ، فلَم تكُن (ثمَّ) هنا تقتضي قبله، والله تعالى يقول:

﴿**وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**﴾ [الأحزاب:٤].

وما كان جائز لله تعالى فعلُه ولا يمتنع عليه أنْ يفعلَه يَجِبُ الإيمان به، ومَنْ لَمْ يُؤْمِن به فهو كافِرٌ.

الـوَرَعْ

وأمَّا الورعُ فالتوبةُ تستدعيه كما يَسْتَدْعِي الخَوفُ التوبةَ، والخوفُ المعرفةُ تَسْتَدْعِيه، فالأَسدُ لا يخافُه مَنْ لا يَعرفُه، والحديث: «**أنا أعرفكم بالله وأشدكم منه خشية**[1]».

فمَن عرفَ خافَ، ومن خافَ تابَ، ومن تابَ أنابَ، ومن أنابَ تورَّعَ، ومَن تورَّعَ تزهدَ، ومَن تزهّدَ توَّكلَ، ومَنْ توّكلَ صبرَ، ومَن صبرَ رَضِيَ، ومَن رَضِيَ شَكر، ومن

(١) ذكره الحسيني في البيان والتعريف (١/٢٩٤)، والعجلوني في كشف الخفاء (١/٢٣١).

شكر رجَا، ومن رَجَا أحبَّ، ومَن أَحبَّ قرُب، ومن قرُب استُهلِك، ومن استُهلِك فَنِيَ، ومَن فَنِيَ مُحِي، ومن مُحي أُثْبتَ، ومن أُثبِتَ رجَعَ، ومن رَجعَ من عند الله أَخْبَرَ عن الله بالله.

فبه يرى وبه يسمع وبه ينطق وبه يقوم ويقعد، كما ورد في الحديث فيكون محلاً لموارِدِ الإرادةِ، وصدور الأفعال في الأمر والنهي قائمًا بالأمر شاهدًا للإرادة ملازمًا للحكمِ ناظرًا للحِكْمةِ في، أَمرِ الإرادةِ وإرادةِ الأمر، بحسبِ أُفْقِهِ وطَوْرِهِ وقُوّتِهِ واستعدادِهِ ومَا أَعْطَاه من نشأته وخلقه.

﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾[طه: ٥٠].

ومِمَّا سَمِعْته عمَّن أخبر أنه بجامع بغداد وقد أُغلقت الأبوابُ وإذا بالشيخ على رأْسِه سلّة فأرخى الْمِصْبَاحَ وأخرجَ كراريسَ يقرأُ فيها وإذا بفأر قد قرب من الفتيلة قال له ارجع فرجع وعاد، وربما كرر العَودُ فقال له الشيخ: أوَ بغيرِ إذني يا فاسق وأنا مصدرُ الأُمور، مني تبدو وعليّ تَنْزل، إذنْ فاحرقْ نفسك فدنا فوضع خرْطومَه في السِراجِ فحرقَ نفسه إلى أنْ ذهبتْ نفسُه.

ومِنهم مَنْ كَمُلَ في نفسِهِ ولَمْ يَكْمُل لتَكْمِيلِ غيرِه، ومِنهم مَن سلك على طريقِ نبيٍّ من الأنبياء، وعلى قلب ولي من الأولياء، ويكون ذلك حدَّه ومقامَه لا يتعدّاه، ومنهم الموسوي والعيسوي والسليماني والإبراهيمي، وغير ذلك من سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومنهم مَنْ سلكَ على طريقِ السيد آدم عليه السلام، وأعْرف فقيرًا وجد ذلك، وعلى طريق السيد يحيى بن زكريا، وأعرفُ فقيرًا سلك ذلك وخُوطِب باسم السيد يحيى عليه السلام.

وقيل له: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾[مريم:١٢].

مقام الكمال

ومنهم **المحمديّ** وهو نهايةُ الطريقِ، وهي درجةُ الكمالِ ومقامُ الفحولِ من الرجالِ لا بَعْدَه مَقامٌ يُطْلَبُ ولا مَحِلٌ يُرْهَبُ، ومِن هذه المقاماتِ تَظْهرُ آثارٌ لا يدركُها إلاّ مَن عرفَ حقيقةَ هذه الطريق، فمِن ذلك ما يَجِدُه بعضُ السالكين على طريقِ الأنْبياء عليهم السلام عند موتهم فيذْكُرون الأنبياء الذين سلكوا على طريقِهم فيذكر بعضهم السيد عيسى عليه السلام، وبعضهم يذكر السيد موسى بن عمران عليه السلام فيزعم مَن

لا عِلم له بهذه الطريقِ أنَّه تنصَّر أو تهوَّد وليس كذلك وإنما هو الطريق الذي سلَكَ عليه فأقرَّ به عِند خُروج رُوحه وانتهاء عِلْمه فيموت عليه ويبعث على ما مات عليه.

لَكِنَّه وإنْ سَلَك به في طريق ذلك النبيّ فهُو مِن المقامِ المحمدي إذ الطرق كلُّها مجمّعة في طريقِه والمقامات كلُّها في مقامه، والكلامُ كله في كلامه ﷺ ألا تراه ﷺ كيف قال؟: «**أوتيت جوامع الكلم**(١)».

فانظر كيف نسخ الله تعالى بشريعته الشرائع؟ وكلّ الشرائعِ وما أتت به منزه وجُعلَت له الأرض مسجدًا وطهورًا.

وكيف كان السيد آدم عليه السلام أبو البشر مظهرَ الأجسَامِ ويَعْسُوبُ(٢) الأشباحِ، وكان هو ﷺ مظهرَ الكونِ ويَعْسُوبُ الأرواحِ وَكَيفَ أَتَى آخر الرسلِ وهُو المقَدَّم في المعِنى والفَضْلِ، وكيف ختم الله تعالى به الرُسَل؟! وأَكْمَلَ به الدينَ ولو بَقِي حاجةٌ لتكميلِ الدينِ لَمَا خَتَمَ به، ولو بَقِي نوْع مِن الإرشاد والهداية وتيسير الطريق وإقامِة الحُجَّةِ لَمَا كان خاتمًا.

ألا ترى قوله تعالى؟: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**﴾ [الأنعام:١٥٣].

وقوله: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾ [يوسف:١٠٨].

وكيف قال: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً**﴾ [المائدة: ٣]. ولم يرضَ إلاّ ما كان خيرًا.

ولأنّ كلَّ نبيّ كانت رسالتُه على قَدرِ أُمتهِ في الهداية والتبيين، وكيف كان علماء أمته كأنبياء بني إسرائيل؟، وكيف افترَقُوا في المذاهبِ وآثارِ الصفاتِ؟كافتراق الأنبياء المتقدمين في الإرسال فيكون هذا يأمر أمته بأمرٍ، وهذا يأمر أمته بأمرٍ آخرٍ والمرسلُ واحُد، والجميع على الحقّ، والآخذون عن الله تعالى مِن الأولياء كلِّهم على الحق، وإن وقع الاختلاف بحسب نصيبهم مِن آثار الصفات؛ إذ طريقُ الرجاء غيرُ طريق الخوف.

والكمال الاعتدال في الجَمْعِ بينهما ولنذكر مِن كلِّ مقامٍ نبذَة يسيرَة، وإشارَة

(١) رواه البخاري (١٨٧/٣)، ومسلم (٣٧١/١)، وأحمد في مسنده (٢٥٠/٢).

(٢) اليعسوب ذّكر النحل، والمراد بأنها صدرت عنه كما تصدر سلالة النحل من الذكر.

لطيفَة مِمَّا قدَّمنا ذكرَه ليجدَّ السالكُ السبيلَ إلى سلوكِ طريقِ مَن تَقدّمَ مِمَّن سَمّيتُه له مِن فَقْدِ أَزْمَانِنا، وما كانوا عليه.

لأنَّ ذكر مَن تقدَّم من الأولياء والأكابرِ وصفاتِهم، وذِكْرِهم- نفع الله تعالى بهم- وما سنُّوه وبينُوه، ومواجيدِهم وما كانوا عليه قد يرى السالكُ نفسَه عاجزَةً عنه فيكون ذلك سببًا لتأخيرِه عن المسيرِ، فإذا ذكرْنا له أهلَ زمانِهِ لعلَّه يجدُ الحجةَ وإقامةَ الدليلِ على نفسِهِ مِمَّن هو في عصرِهِ وزمانِه، ويتشبَّه إن لم يتَّصف، ويتواجَد إنْ لم يَجِدْ، ويتباكى إن لم يبكِ، ولا يجد لنفسه عذرًا فيمن سبقه.

وكيف ورد الحديث: « **واشوقاه إلى إخواني! قيل يا رسول الله: أليس نحن إخوانُك؟ قال: أنتم أصحابي، إخواني الذين يأتون بعد، أجر العامل منهم بخمسين منكم، وقيل بسبعين، فقالوا: منهم؟ فقال: بل مِنكم فإنَّكم تجدون على الخير أعوانًا ولا يجدون على الخير أعوانًا**[١]»، وبيَّن العلّة.

وفضلُ الصحابةِ على غيرِهم محققٌ معلومٌ، وذِكْرُ الْمُدِّ والنَّصيفِ وأحوال الصحابة، رضي الله تعالى عنهم، وذِكْرُ صفاتِهم وجلالتِهم وفضلِهم لا يسعه هذا الكتاب، ومقصودُنا التحريضَ والتشويقَ إلى جنابِ الله تعالى، والحديث:

«أمتي كالمطر لا يُدرَى أولُه خيرٌ أم آخرُه [٢]».

وحديثُ المهديِّ أليس هو كائن وصفاتُه مشهورةٌ؟ فما بالُنا عَن النّهوض عاجزون؟ وعن السعادةِ متأخرون؟ ﴿**ذَلِكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِينُ** ﴾[الحج آية:١١].

وتطلبُ مَع ذلك مراتب الكَمالِ ومَنازِلِ الأبْطالِ وفُحول الرجالِ، وتَطْمَعُ بالمنازلاتِ والأحوالِ مع سوءِ الأَحْوالِ، ما هذا ظنُّ عاقلٍ.

فَمَنْ رَامَ وَصْلاً يَبْذُلُ الرُّوحَ دُونَه   مُطِيعًا لأَنَّ الحبَّ مَسْلَكُهُ وَعْرُ
ويَنْظُرُ أخذَ الرُّوحَ مِنهُ تَصَدُّقًا   عَلَيه وإلاّ حظُّه الصَدُّ والْهَجْرُ

فاستَيقِظْ يا نائم، واقعدْ يا راقد، وانهضْ يا قاعِد، وسرْ يا واقف، وسارعْ يا

(١) رواه مسلم (٢١٨/١)، وابن حبان (٢٢٤/١٦)، وابن خزيمة (٦/١).
(٢) رواه الشهاب القضاعي في مسنده (٢٧٦/٢).

سائر، وسابقْ يا مسارع، وانظر إلى قول ربِّك ﷻ: ﴿**وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ**﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقوله تعالى: ﴿**وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ المُقَرَّبُونَ**﴾ [الواقعة: ١٠-١١] فإنْ لَمَ تَقْدِر على المسابَقةِ فلا تتأخرْ عن المسارعةِ، فإنْ فاتتك القُرْبَةُ لم تَفُتْكَ المغفرةُ والجنة والرحمة.

ولفظُ الحديثِ: «**تعرّضُوا لِنَفَحاتِ الله تعالى وإِنَّ لله تعالى نفحات فتعرّضوا لها**[1]».

ولا تنزلْ بمنزلةِ البهائمِ، يأكلون ولا يعقلون، وينامون ولا يعملون ﴿**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ**﴾، ﴿**فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ**﴾ [البقرة: ١٨].

فيا ليتَ شِعري ما الذي تعوّضهُ من ذلك؟

ولقد كتبتُ لأحد الإخوانِ ورقَّة فيها: «**أيُّها الأخُ، كلُّ نَفَسٍ فاتَك من الله تعالى فَهو عليك خُسْرانٌ، وإنْ عوِّضْتَ به ألفُ جنةٍ؛ فإنَّ في الله تعالى عِوضًا عن كلِّ شيءٍ، ولَيس في شيءٍ عِوضًا عن الله تعالى**».

وفي هذا الكلامِ غُنية عن غيرِه.. وقد قلت فيه شعرًا:

إذا لم تَكُـنْ تَجْـري عَليـكَ الْمَـدَامِعُ ... وأُفْـنِي بِهَـا عُمـرِي فَعُمـرِي ضَـائعُ

لَقَـد غَلَّقْـتَ أَبـوابَ كـلِ مُؤمِـلٍ ... وانقَطَعَـتْ إلاّ لَـديكَ الْمَطَـامِعُ

وبابُـكَ مَفْتُـوحٌ بِـه كُـلُّ قاصـدٍ ... ولَـيس عَليـه دُونَ فَضْـلِكَ مَـانِعُ

وقَـدْ ضَـيَّع الـوُدَّاعُ كـلَّ وَدِيعـةٍ ... لَـديهم ومَاخَابـتْ لَـديكَ الودائـعُ

وهَـا أَنـا مَطْـرُوحٌ ببابِـك واقِّـف ... إلى نَظْـرةٍ مِـني بطيفِـك قـانعُ

غَرِقْـتُ بِبَحـرِ الجُـودِ مَـا لي سـوى ... الرضَا لَديكَ وَأنْ أَبْقَى بِعِزِّك خاضعُ

معرفةُ الله تعالى

وأمَّا معرفةُ الله تعالى فإنَّها واجبٌة على كلِ مَن عَقل عَن الله تعالى مِن إنسٍ وجنٍ

(١) رواه الطبراني في الكبير (١/٢٥١)، وابن أبي شيبة (٧/١١١)، وأبو نعيم في الحلية (٣/١٦٢).

ومَلَكٍ وشَيطانٍ، وهي مُثْبَتَة في سائر الحيوان وغير الحيوان، وكلُّ موجودٍ سوى الله تعالى يَعقِلُ وجودَ خالقِه مِن حيثُ وُسْعِهِ وأُفُقِهِ أمّم أمثالُكم، قال الله تعالى: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**﴾ [الإسراء: ٤٤].

فشملتْ الجمادَ والحيوانَ والإنسان والنبات والتراب والماء.

ومَعرفةُ الله تعالى قائمَة بوجدانِ القلوب وبداهةِ العقول، ظاهرَة بالدلائلِ، باطنَة في الضمائرِ، كامنَة في السرائرِ، يعتقدُها المؤمنُ ولا يجحدُها الكافر، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**﴾ [الزخرف:٨٧].

لَقَدْ ظَهَر فلا يَخْفَى على أحدٍ   إلاّ عَلى أَكْمَهٍ لا يُبْصِرُ القَمَرَا

وهو واحدٌ في نفسه، وفي كلِ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنَّه الواحدُ؛ إذ الوحدةُ تمنعُ الاشتراكَ فَلا يصحُّ فيها التنويهُ والكثرة، وأنتَ تَجِدُ ذَلك في نفسِك فلا تحتاجُ إلى خارجٍ عنك؛ إذ أنت في نفسِك مسئولٌ على الموجوداتِ بتسخيرِها لك.

قال الله تعالى: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ**﴾ [الجاثية: ١٣].

وتعلمَ منها ما لا تَعلمُهُ مِنكَ، ووجودُها لنفعِك، فانظر إلى تسخيرِ الشمسِ والقمرِ، قال الله تعالى: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**﴾ [إبراهيم:٣٣].

والنجومُ للاهتداء، والملائكة للاستغفار، والسحاب للإمطار، وانظر إلى ما في الأرضِ من الحيوان وغيرِها.

وقوله تعالى: ﴿**وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ [النحل:٨].

وقوله تعالى: ﴿**وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ*وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ *وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [النحل: ٥-٧].

وانظر إلى الحيوان من البرِ والبحرِ كيف سخّرها لمأكلِك ومشربِك؟ وذهابِ أنفسِها لصلاحِ نفسِك وإن لم يكن لضرورة، وكيف أباح لك عند الضرورة ما عدا

ذلك مما حظره عليك؟ وكيف جعل لك ما له بمحضِ الكرمِ؟

وإيجادك من العدم، وإن لم يكن من شيء ومِن شيءٍ هنا عبارة عن شيءٍ موجودٍ أوجدَك منه، بل قدرةُ الله تعالى أقدرُ من ذلك، بل اسم العدم موجوٌد ليتبيَّن به الوجود والعدم، وهو شيء في نفسِه فخلقَك من لا شيء وكذلك جميع الأشياء أوجدها من لا شيء وخلقك على أحسن خلق وفي أحسن تقويم وجعل لك سمعًا وبصرًا وعقلاً وإدراكًا وذوقًا وحواسًّا ولمسًا ومسامًا لقدرك بذلك جميع الكائنات والمعلومات.

ولن يسعَ هذا الكتابُ ذلك ولو أنْ ملءَ الأرضِ أوراقٌ وأقلامٌ لا يُحصون ما لله تعالى مِن النِعمةِ، وما أوجده من العوالم، وفي قوله تعالى: ﴿**وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا**﴾ [إبراهيم:٣٤] كفاية.

ومقصودنا أنْ تعلم أنَّك -وإن كنت مَلِكًا على الموجودات في تسخيرِها لك وتَعَلُّقُ علمُك بها وعدمُ علمِها بك، واستيلاؤك عليها بالقَهرِ والغَلَبةِ لَمَا مَلّكك الله تعالى- فأنتَ تَعلم عجزَك في نفسِك، وأنَّك أنتَ ما خلقت نفسك، وأن لك موجدًا أوجدَك، إذ تعجز عن أن تشبع في وقتِ الجوعِ، وعن الجوع في وقت الشبعِ، وعن إدخالِ الطعام في جوفِك، وعن إخراج الرويةِ من جوفك، وإذا تعسّرت عليك هلكتَ، وكذلك البولُ أو الفسوةُ:

عِلـــــةُ البـــــولِ والخَـــــرا حـــــيّرا كـــــلَّ مَـــــن يَـــــرى
فهمـــــا آفـــــةُ الـــــوَرَى سُـــــــهّلا أوتَعسّـــــــرا

فَمَن كان بهذه المثابةِ يقُل أو يعتَقِد في نفسِه أنَّه خلقَها أو خلقَ غيرِها، فكيف لو آلمه ألمٌ في رأسِهِ؟ أو ضربَ عليه عِرْقٌ في جِسمه؟ أو وَجَعته عينُه أو ضِرْسه؟ كيف يجده عند هذه النوازل الضعيفة بالنسبة إلى خلق الله تعالى لما هو أكبر منها؟ وما تواعده الكفارَ والعصاةَ يومَ القيامة؟ وما يوجد من الآلام التي هي أكبر منها؟.

وهذه حقائُق ذوقية لا تقدر على إنكارِها من نفسِك، فإنَّ حلاوةَ العسل ومرارةَ الصبرِ لا يقوم عليهما دليلٌ؛ لأنَّ ذوقَهما أوضح من دليلِهما.

فلو قهرت شخصًا على أن يعتقدَ أنَّ الصبرَ حلوٌ أو العسل مرٌ لما حصل له الاعتقاد بالقهر، وإن أقرَّ كرهًا فلا يعتقدُه، وإن مات فإن الحقائق لا تُبَدل.

ولو قال أحدٌ ذلك على حكم النادر، فإن ذلك لا يكونُ إلا عن انحرافٍ أو جنونٍ لا عَن صحةٍ في عَقلٍ ولا ذَوقٍ ولا عِلمٍ ولا عَمل مخالفة للطبائع، والحقائق والعقول والأديان والشرائع وما جبل الله تعالى خلقَه عليه واستعبدهم،إنَّ ذلك لا يكون إلا عن فسادٍ في العقلِ والدينِ والمزاج والعلم، بل يستغني عن ذلك كلِّه بزوالِ عقلٍ كما قيل:

إذا اجتمعَ الناسُ على واحِد ... وخالفَهم في الرِّضا واحدُ

فقد دلّ إجماعُهم دونَه ... على عَقْلِهِ أنَّه فاسدُ

وإذا عَرَفْت أنَّك المملَّك على العالم كلِه، والكون كله في تسخيره لك، وعرفتَ هذا العجزَ العظيمَ مِن نفسِك، فقد تحقّقتَ أنْ لك موجدًا أوجدَك وخالقًا خلقك وأنَّه واجبُ الوجوبِ لذاتِه، يجبُ له الكمالُ الذاتيُّ من كل وجهٍ وبكل وجهٍ ويستحيل عليه النقصُ من كل وجه وبكل شيء، ويجوز له فعلُ ما يشاء ويختار من كل وجِه وبكل وجِه.

وهذه الأوصافُ لا يجهلُها وليُّ الله تعالى، وقد تحقَّقتَ أنَّه خالق كل شيء وأنه على كل شيء قدير بما ظهر لك في نفسِك وكون الأشياء دون رتبتِك، وتحققت أيضًا أنَّه واحُد إذ يستحيل أن يكون غيرَ واحِد إذ التنويةُ والكثرةُ مستحيلات لوجودِ الصمديةِ، إذ الوحدة في نفسها قائمة بنفسها لا بوجود غيرها معها لانتفاء الضد والند والنظير والشبيه والمثيل.

﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا**﴾ [الأنبياء:٢٢].

إذ لو كان لَمَا كان والاقتضاء إراداتٌ مختلفات، وذلك محالٌ وتقديرُ المحالِ محالٌ وكذلك الاشتراك واذا كان الجوهرُ في الفرد إذا بسطته في العقولِ إلى حدٍ لا يقبلُ القسمةَ لا يستحيل عليه القسمةَ فكيف بخالقِ الجواهرِ والأعراضِ.

والوحدة قائمُة بذاتِها لا يصحُّ معها الكثرةُ، منفردةٌ عن الثنويةِ ووجودِ الغيريةِ لا يُفهمُ مع وجودِها وجودُ غيرِها.

وقد وضحَ فيك بالذوقيةِ الحقيقةِ في نفسِك معرفةُ ربِّك وخالقِك بكمال

الصفات واستحالة النّقصِ عليه، والمشاركة له وحقيقة الوحدة وأنّه خالق كل شيء ومالكُه وموجدُه، فلا شيء يشبهُه ولا يشبهُ شيئًا ولا حلَّ في شيءٍ ولا حلَّ فيه شيءٌ لأنَّ وجودَه سابقُ الوجود والخَلق فلا يصح قَبل وبَعد في حقّه تعالى ولا القرب والبعد إلا بالنسبة إلينا فالحقائق في أنفسها شواهد لأنفسها والدليل حجاب عليها، وقد قال الله تعالى: ﴿**وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ**﴾ [الذّاريات: ٢١].

ثم ما جاءتْ به الرسلُ عن الله تعالى يجبُ عليك الإيمانُ به، إذ هم حُجَّةُ الله تعالى الواضحةُ القاطعةُ الدامغةُ للمخالِفين لأنَّهم، صلوات الله عليهم وسلامه، أَتَوا بالمعجزات الباهراتِ والآيات البيّناتِ، والإخبارِ عن المغيّباتِ وتحدُّوا بذلك وأتوا بما عجزَ البشرُ أنْ يأْتُوا بمثلِهِ أو ببعضِه، كإحياء الأمواتِ وانشقاق القمرِ وكلام الحجر والشجر وكلام البعيرِ وغير ذلك من الخوارق.

وكلَّما طُلِب منهم من الإعجاز طُلِب الدليلُ مِنْهم على أنَّهم رسلُ الله، وأنه في وقته، وتحدّوا به وكل ما وعدوا به من خيراتِ الآخرة وكل ما تواعدوا به مَنْ خالَفهم من العقابِ ونزولِ العذاب في الدنيا وقع، وما تواعدوا به في الآخرة يقع،كقوم نوح بالغرق وقوم هود بالريح وقوم صالح بالعذاب بعد سوادِ الوجوه وقومٍ بالخسف.

وأنواعُ الهلاكِ والعذابِ في الأمم الخاليةِ لمخالفَتِهم للرسلِ وما وعدوهم به كثيرٌ، مستقصى به أهل السلف عن الخلف والجمُّ الغفير الذي لا يقع الاختلاف فيه

- أعني في نفس العذاب- وصدق الأنبياء عليهم السلام فيما تواعدوهم به وإن وقع في أنواع العذاب، وقد ذكر الله تعالى في كتابِه العزيز ذلك فقال تعالى: ﴿**وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ**﴾ [الإسراء:١٧].

وفي معجزاتِ نبيّنا ﷺ من الغرائبِ والعجائبِ ما لا يُحتاجُ معها إلى دليلٍ، إذ المعجزات كلها في معجزاته ﷺ فإذا استقصيت وجدتها كذلك، فتارَة ظاهرَة وتارَة متضمنَة في الجملةِ وتارَة باطنَة، وأَتى بالقرآن العظيمِ الذي أَعجزَ الخلائقَ كلَّها والفصحاء وهو باقٍ فينا لا يقدر أحد منذ ظهر رسول الله ﷺ من سبعمائة عام وإلى الآن أن يأتى بسورةٍ من مثلِه، ولو اجتمعت الإنس والجن والخلائق أجمعون لَمَا أَتوا بذلك، ولا يأتون بذلك أبدًا فقد وجبَ الإيمانُ بالجميعِ.

وقد كانوا متفقين على وحدانيةِ الله تعالى وربوبيته وعلمِه وقدرتِه وإرادتِه وكلامِه وسمعِه وبصرِه وجميعِ صفاتِه، وأنَّه على كلِّ شيءٍ قدير، وأنَّه خالقُ كلِ شيءٍ وإليه المصيرُ.

لم يختلفوا فيما يجبُ لله تعالى ويجوز له ويستحيل عليه، كلٌّ منهم مؤمنٌ بِمَن قبله ومَن بعده مبشّرين ومنذِرين وبشَّروا بنبيّنا محمدٍ ﷺ، وكلٌّ منهم مؤمن بآياته، وما جاء به غيرُه من الأنبياء عليهم السلام، قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٨٦].

ونحن نؤمنُ بالله وملائكتِه وكتبِه ورسلِه لا نفرّق بين أحدٍ من رسلِه، ونؤمنُ بإيمان رسولِ الله ﷺ وبما أُنزل إليه من ربِّه، وما أُنزل إلى الرسل من ربِّهم، ونؤمنُ بالقدرِ كلِّه خيرِه وشرِّه حلوِه ومرِّه، فلم يختلف الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه في وحدانية الله تعالى وربوبيتِه ومعرفتِه وصفاتِه وما أتوا به من عند ربِّهم، كلمتُهم في ذلك واحدٌة واعتقادُهم واحُد.

عضَّدهم بالعصمة فلا يقع منهم نَقِيصٌة، والإعجاز الذي عجز البشر من الإنس والجن أن يأتوا بمثله، ويستحيل عليهم الكذبُ فيما أتوا به من عند ربِّهم وغيرِه ولا ملك إلا ما أتى من ربه.

وجعلهم من البشرِ لتقومَ الحجةُ على الخلقِ وإنْ اختلفوا في الإرسالِ بالأوامرِ المختلفةِ فذلك دليلُ نفاذ الأمر بالإرادةِ وعلوِّ القدرةِ واستيلاء القهر والإرادة الشاملة.

مخالفةُ المخالفين

وأمَّا مخالفةُ مَن خالفَ من الناسِ فلأسرارٍ خفيةٍ من حقائقِ الألوهيةِ يعجزُ إدراكُ أربابِ العقولِ عن ذلك، وإنَّما يفتح الله تعالى على مَن يشاء من أوليائه بما يشاء في العلمِ من علمِه منها على قدرِ وُسْعِهِ واستعدادِ قلبِه لورودِ ذلك عليه، فإنَّ الله تعالى

يأمرُ الأمرَ ولا يريدُ وقوعَه فلا يقعُ، كأمرِه لأبي جهلٍ وغيرِه من الكفار ممَّن لم يؤمنْ ويأمرُ بالإرادةِ فيقعُ ولا يقعُ خلافُه ﴿**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُون**﴾ [النحل: ٤٠].

فتارَةً تكون المعصيةُ لظهورِ كرمِ الله تعالى على عبدِه لورود الحديث: «**والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله تعالى بكم ولجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم**[1]».

فانظر إلى هذه اللطيفةِ إذ لا يكون الاستغفارُ والتوبةُ إلاّ عن ذنبٍ ولا تكون المغفرةُ إلا للمذنبِ المستغفرِ فأمَّا مَن أحسنَ فلا سبيل عليه لقوله تعالى: ﴿**مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ**﴾ [التوبة:٩١]، فصفاتُ الكرمِ والجودِ والعفوِ والمغفرةِ والإحسانِ والرّضا والرحمةِ وغيرِ ذلك من صفاتِ الأخلاقِ الجميلة للمسيئين، فظهرَ بمعصيةِ العبادِ صفاتُ كرمِ الله تعالى عليهم مِن استغفارِهم.

وهنا يطيبُ عيشُ العارفين لأنَّهم يرون محوَ صفاتِهم إبقاءً لصفاتِ الله تعالى وآثارِها فيهم، فانظر إلى أثرِ رحمةِ الله الحادثِ مع صفاتِ الربِّ القديمةِ، وأنَّى يكونُ لِمَن أصلُه العدمُ وجودٌ مع واجبِ الوجودِ، ولا سيَّما إذا استولى الشهودُ وتجلّى المعبودُ وارتفعت الرسومُ والحدودُ وتدكدكتْ الجبالُ واستولى الاضمحلالُ.

ولذلك قلتُ:

اللهمَّ امحُ ما منِّي إليك بإثباتِ ما منكَ إليَّ حتى أكونَ في كل شيء بك لا بنفسي، واخترْ لي فإنِّي لا أَملِك خيرَةً لنفسي، ومنهم مَن يسرُّه ظهورُ كرمِ الله تعالى على وجودِه، وإنْ ظهرتْ المعصيةُ منه فيسرُّه ظهورُ كرمِ ربِّه بمعصيةِ نفسِه ونقصِه بظهورِ كمالُه ﷻ.

وقد قال أحدهم: الحمد لله على ظهورِ كرمُك بمعصيتي وكمالُك بنقصي، وكذلك يجبُ عليه الرّضا بقضاءِ الله تعالى ويُسرُّ به ويُسرُّ بظهورِ كرمُه، ولا يُرضِي نفسَه بمخالفةِ ربِّه إذ المعصيةُ مِن صفاتِ نفسِه وكسبِه وإنْ كانت مخلوقة لله تعالى فيه.

---

(١) رواه مسلم(٢١٠٦/٤)، وأحمد في مسنده (٢٨٩/١).

ومنهم مَن يرتفع عنه الاختيارُ؛ لأنَّه يرى اختيارَه مع وجود اختيارِ ربِّه منازعًة فيكون سليبُ الاختيار، وهكذا في جميعِ الأوصافِ فإنَّ خطرَ اختيارٌ أنابَ وتابَ ورجع، ومن هنا تكون المؤاخذة، وينشأ الذنب عن اختيار العبد تارًة وعمَّا يحدِّثُ في نفسه من أمرٍ ينشأُ، يعتقد فعلَه ذنبًا فيُحدِثُ الذنبَ القسوةَ والحجابَ للقلبِ كوقوعه على زوجته على فراشِ غيرِه يعتقد أنَّها غيرُها فيحدث الذنب.

وإن كان مخلوقًا لله تعالى فتثبت إرادتُه واختياراتُه وتفني بجوامع الله تعالى في شهودِ الإرادةِ وشواهدِ الإيرادِ في مقام الاهتياب فلا يقع منه الذنب، ولذلك قلت:

لولا حُظُوظِي فيما قد قضَيتَ به　　لكانَ فعلي في العِصيانِ كالقُربِ
إذكنتُ محوًا بلا علمٍ ولاعملِ　　لَمَّا لفِعلِك لم أَحضَرْ ولم أغبِ
شطحًا لِمَا مِنكَ لا منِّي إليك　　فمَا عينُ الحقيقةِ مِن قَصدٍ ومِن طلبِ
أنا الحجابُ الذي قدكان يَحجِبُني　　فارفعْ بحقِّك ماكوَّنتَ مِن حُجبِ

وَمثالُ ذلك أنَّك لو كنتَ بحضرةِ ملكٍ من ملوكِ الدنيا، وبين يديه مَن يُحبُّه مِن جمالِ الصورةِ والوصائفِ الْمُستَحسنةِ، هل كنتَ تستطيعُ أن تنظرَ إليهن بعين الشهوة؟ وتلاحظهن في تلك الحضرةِ وتُعرضُ عن الملكِ مع ملاحظتِه لك بالمراقبةِ في حركاتِك وسكناتِك.

فانظر إلى هذا القياسِ فضلاً عن أنْ تفعلَ ما هو أكبر مِن ذلك، فلو أنزلتَ الله من نفسِك منزلةَ هذا الملكِ لَمَا وقع منك معصيةٌ البتة، ولو وافقتَ مرادَ الله تعالى فيك، ما أمرك به ونهاك عنه، كما فعل بالمخصوصين من المرسلين والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والأولياء والصدّيقين، وممَّا يُوجب وممَّا يُوجب عليك القصاصُ وتحتج لنفسِك بالإرادةِ ولم تعلم ذلك إلاّ بعد وقوعِها منك أنَّك إذا صدرَ منكَ فعلٌ قبيحٌ نسبتَه إلى إرادةِ الله تعالى فيك وما سبق به القلمُ، فإنْ صدر من غيرِك نسبتَه إليه وعاقبتَه عليه، فلو كنت في الثاني :كالأول :في شهود الإرادة من الله تعالى، لا يرى فعلَ غيرِه ولا يشهدُ سواه لَمَا رأيتَ ذلك فاعلاً أصلاً ولا آخذتَه على فعلِه، فكيف تطلبُ أمرًا يحكمُ لك ولا يحكم عليك؟

وهذه لطيفةٌ ومن ورائها أمورٌ لا يمكننا استقصاؤها خشيَةً على مُنكرِها، وإنّما قصدُنا التشويق، وهذه النُّبذةُ اللطيفة في المعرفةِ كافيّةٌ إن شاء الله تعالى، وأسرارُ العارفين ومواهبُهم عظيمّة ليس هذا مكانها.

الخَــوف

وأمَّا الخوف فهو ينشأ عن المعرفةِ وينقسم على قسمين: تارَةً مِن شهودِ العظمةِ والإلهيّةِ، وتارَةً من شهودِ السطوةِ والعذابِ فتحرقُ نيرانُ الخوفِ قلبَ الخائف بما يتوّقعه، ولا يكون الخوفُ إلا لِمُتَوقعٍ، فمنهم مَن يشيبُ قبلَ أوانِ شيبه، وأعرف مَن حصلَ له ذلك، ومِنهم مَن يذهلُ عقلُه.

واتفقَ للشيخ أبي العباس الملثم(١) أنَّه كان نائمًا فاستيقظَ فَزِعًا مرعوبًا قد تغيّر لونُه وظهرَ ذلك عليه، فَسُئل عن ذلك فقال: رأيت النارَ فدخلتُها، ورأيتُ ما أعدَّ الله تعالى لأعدائِه فيها مِن أنواعِ العذابِ مِمَّا لا يُطاقُ وصفُه وما وصفه الله تعالى في كتابه العزيز، ورآني مالكٌ خازنُ النار فقال لي: اخرجْ، ما أنت من أهلها.. فمِن صيحتِه وهيبتِه حصل لي ما حصل.

هذا مع كونِه أمنّه فكيف لو خوّفه؟

---

(١) قال الشيخ المناوي: هو أحمد بن محمد الشيخ الصالح أبو العباس الملثم.

كان من أصحاب الكرامات والأحوال والمقامات، ويحكى عنه عجائب وغرائب.

وكان مقيمًا بمدينة قوص، وله بها رباط، وعرف بالملثم لأنه كان دائمًا بلثام، وكان من المشايخ المعمرين.

بالغ قوم حتى قالوا: إنه من قوم يونس عليه السلام.

وقال آخرون: صلّى خلف الشافعي، وأنه رأى القاهرة أخصاصًا قبل بنائها.

وكان يدعو من لم يعرفه ولا رآه قط باسمه واسم أبيه وجده فلا يخطئ.

وذكر له رجل أنه يريد الحج فقال: القافلة التي يريد السفر فيها تؤخذ، والمركب يغرق، وكذلك كان.

ومن أخص الناس بصحبته تلميذه الشيخ عبد الغفار بن نوح، صاحب كتاب «الوحيد في علم التوحيد»، وحكي فيه كثيرًا من كراماته.

وسئل عما ذكر أنه من قوم يونس، و أنه صلى خلف الشافعي فقال: ما أنا من قوم بونس، أنا شريف حسيني، وأما الشافعي فمتى مات؟ ما له كثير. نعم، صليت خلفه. وكان يحج كل سنة وهو مكانه.

وانظر: الوافي في الوفيات (١/٢٧٠٦)، ولسان الميزان (٦/٧٠)، الطالع السعيد (١٣١)، حسن المحاضرة (١/٢٤٠)، جامع الكرامات (١/٣٠٨).

أعاذنا الله تعالى وإيَّاكم من النيران ومن سَخَطِ الرحمن ثم مِن مَلِكٍ غضبانٍ بمنّه وكرمه.

وأخبرنا الشيخ الشريف عبد العزيز بن عبد الغني المنوفي- رحمه الله تعالى- قال: رأيت في النومِ -وذكر شيئًا غابَ عني- فخفتُ مِن الله تعالى، فبُلتُ في النومِ الدمَ، واستيقظتُ مرعوبًا، فوجدت الدمَ قد ملأ سراويلي.

خوفُ المتقدّمين
ورحمة الرحمن الرحيمن

وأمّا خوفُ المتقدّمين فهو مذكورٌ في الكُتب، وقصدُنا الآن ذكرَ **أهلِ زمانِنا** ومَن أَفرطَ به الخوفُ أدّاه إلى القنوطِ؛ فإنّ إفراطَ الخوفِ ينشأُ عنه القنوط واليأس وتهرب النفسُ مِن القدومِ على ما تخافه فيكره لقاء الله تعالى فيكره الله تعالى لقاءه، وإنّما يُرَوِّحُ بالرجاء بقوله تعالى: ﴿**لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً**﴾ [الزمر:٥٣].

وقوله تعالى ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ [الأعراف:١٥٦].

وقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ**﴾ [الانفطار:٦].

فهذا تنبيُه على كرمِهِ ﷻ، فيقول: غرّني كرمُك، ولذلك معان كثيرة لقوله تعالى: ﴿**مَا عَلَى المُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ**﴾ [التوبة:٩١].

تكون الرحمة والمغفرة والجود والكرمُ والمنّةُ والإحسان واللطف والحنانُ، وكذلك جميع تعلقات صفات الجمال للمسيئين.

وإنَّما ورد: «**أنا عند ظنِ عبدي بِي فليَظُنَّ بي ما شاء**[١]».

و«**رَحْمَتِي سَبَقتْ غَضَبِي**[٢]» فينتهي به السير إلى الرحمةِ وهي السابقةُ، والخاتمةُ مطويَّة في السابقة، ولا يفرط في الرّجاء أيضًا لأنَّه ينشأ عنه قلةُ الأدب، وقلةُ الأدبِ ينشأُ عنها البعدُ، ولذلك قيل لجبريل وإسرافيل: «كونا على ذلك ولا تأمنا مَكْرِي» فيعتدل عن ذلك خوفُ المؤمنِ ورجاؤه إذ في قوله جلَّ مِن قَائلٍ: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ**

(١) رواه أحمد في مسنده (٣/٤٩١) وابن حبان (٢/٤٠١).
(٢) رواه البخاري (٦/٢٧٠٠)، وابن ماجه في سننه (١/٦٧).

العِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧] إشارةٌ لاعتدالِ خوف المؤمن ورجائه، ومَن كان له أُنسٌ بالله تعالى يتحفَّظ ويتحرَّز من الانبساط في إساءةِ الأدبِ مع الله تعالى فإنَّ كثرةَ البَسطِ والإفراطِ فيه يُؤدي إلى إساءةِ الأدبِ ووجودِ الوحشة والقبضِ وقد قلت:

وأَصْفيتَ لي مِنك الودادَ فحيثُ مَا ... سَلبْتَ به لُبّي وصرتَ به أُنْسِي

تجافيتَ عَنِّي حيثُ لا لي حيلةٌ ... ورَمَيتَنِي بالصَّدِّ في الجنِّ والإنسِ

العظمةِ والهَيبة

وأمَّا شهودُ العظمةِ والهيبة فهو مقامُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والعارفين بالله تعالى بحسبِ ميراثِهم مِن نبيِّهم ومِن الصحابةِ والتابعين وأهلِ زمانٍ مِمَّن كان لذلك أهلاً فقد كان رسول الله ﷺ إذا هبت الريحُ يتغيَّرُ وجهُه وفي سؤاله لَمَّا حصلَ بالمسلمين ما حصلَ مِن الكفَّار وسؤاله ربَّه وقوله ﷺ: «**إن تهلك هذه العصابة لن تعبد بعدها في الأرض**[1]» بعد تقدم الوعد له بالنصر وقول أبي بكر رضي الله عنه: إن ربَّك منجُز لك ما وعدَك - أو كما قال رضي الله عنه -، وذلك أنَّ أبا بكر رضي الله عنه وقف مع وعدِ الله تعالى له، ورسولُ الله ﷺ نظرَ إلى ما لله تعالى فعلُه فإن المشيئة لا حِجرَ عَليها، وإنَّ الله تعالى يفعل ما يشاء ويختار وفي قوله تعالى: ﴿**فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شيئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً**﴾ [المائدة:١٧] كفايةٌ عمَّا قلناه في هذه الوقائع.

وأمَّا شهود العظمة وتلاشي وجودُ العبد عند ظهورِ وجود الله تعالى له وتجلّي العظمة لا يثبت له شيء ﴿**فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً**﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فمِن ذلك قال: ليتني كنتُ كذا، وقال أبو بكر رضي الله عنه: ليتني لم أكُ شيئًا، وقال عمر رضي الله عنه: ليت أمُّ عمرَ لم تلدْ عمرَ، وهذا مقامُ الهيبةِ، ولا يكون ذلك إلاّ عن الخوفِ

(١) رواه مسلم (٣/١٣٨٣)، وأحمد (١/١١٧).

مِن متوقع.

لأَنَّ الله تعالى قد بشَّره بالمغفرة لِمَا تقدَّم مِن ذنبه وما تأخَّر، وكذلك الصحابة، والشكُّ يستحيل عليه ﷺ، ولأنَّه معصومٌ من ذلك والصحابةُ، رضوان الله تعالى عليهم، قد بشَّرهم رسول الله ﷺ بالجَنةِ فلا يشكُّون في ذلك، وإنَّما مقامُ الهيبة يقتضي رؤيةَ العظمةِ واستصغارَ أنفسَهم ومحقَها حتى يتمنَّوا أن لا وجود لهم، هذا مع البِشارة لهم بالجنة.

وقلت:

باتَــتْ لوعــدِك عَيــنِي غــيرَ راقــدةٍ ... والليـلُ حـيٌّ الـدَّياجِي مَيِّـتُ السَّـحرِ

هـذا وقَـدْ بـتُّ مِـن وصـلٍ على ثِقـةٍ ... فكيـفَ لـو بـتُّ مِـن هَجرٍعلى خَطَـرِ

وأما التوبة فهي تنشأُ عن الخوف وقد تقدَّم نُبذةٌ منها، والورع والاحتراز ينشأان عن التوبةِ، والورعُ عبارةٌ عن الاحترازِ حتى يتركَ ما لا بأسَ بِه خشيَةَ مِمَّا به البأسُ، وتكون الأشياء عنده كالحيَّاتِ والعَقاربِ يَخْشَى أنْ تَلْسَعه، فتراه يخافُ مِن كلِّ شيءٍ ولولا ضرورةُ المطعمِ والمشربِ الذي لا تَقومُ العبادةُ وأداءُ الفرائضِ إلا بِهما لَمَا أكلُوا وما شَرِبُوا.

وقناعتُهم في الدُّنيا بل في كلِ الأشياء معروفُة، وقدْ كان الصحابة يتركون تسعةَ أعشارِ الحلالِ مخافَةً من الوقوعِ في الحَرام، وكانت نساءُ الأنصار يخرجن خلفَ أزواجِهن إلى الأبوابِ ويقلُن لهم: الله الله في أمرِنا فإنَّا نصبرُ على الجوعِ ولا نصبرُ على النارِ .

وأعرفُ فقيرًا كان لا يأكلُ إلا ما يتحقَّق من حِلّه ويكون مطحونًا وحدَه، وكان لا يجتمعُ بالناسِ، ولا يسألُ، ويسافرُ في البرِّ بغيرِ زادٍ حتى كان يقتاتُ بالصبرِ المملوحِ وما أشبهه، وكان بعضَ الأحيانِ يُفْطِرُ بعدَ العصرِ على فُولةٍ، وكان منهم من يقبضُ على أنفِه مِن شمِّ المِسكِ ويقولُ إنَّما ريحُه، ومنهم من لا يمشي في نورِ سراجِ الظالِمِ، ومِنهم مَن لا يشرب مِن الأنْهارِ المحتفرةِ.

وكان فقيهٌ عندنا يتورعُ مِن أشياء كثيرةٍ مباحة، وكان إذا دخل مِن بابٍ وفيه شيء مكتوبٌ من كلامِ الله تعالى تحنَّى، ولا يطلع مجلسًا تحته كتابة من القرآن، وقد كانت جماعةٌ كثيرة يتورّعون في أقوالِهم وأفعالِهم ومأكلِهم ومشربِهم، وورعُ القبَّاري[1]

(١) أبو القاسم بن منصور بن يحيى السكندري القباري. زاهد أخلص في العمل، واجتهد في قطع الأمل، =

بالأسكندريةِ مشهور وبعدَه ابنُ القصَّاص.

وأخبرني عامر بن نسيم-وكان فقيرًا مجرّدًا من أصحاب الشيخ الفارسيِّ، وكان صاحبَنا مدّة ولم يكن له لباسٌ إلاّ سجّادًا في وسطِه وسجادًا على كتفِه وطاقيةٍ على رأسه، وكان قد أسنَّ- قال: كنت مرّة بظاهر مدينةِ إسنا من بلادِ الصعيدِ، فأويتُ إلى مسجِد خرابٍ بابُه مسدوٌّد بالشوكِ فأقمتُ أشهرًا- لا أدري قال شهرين أو ستة أشهر- لم يكن قوتِي إلا مِمَّا يُرْمَى على الأكوامِ حثالةَ الحشفِ فإنَّهم يصقلونه وتَخرجُ خاصيتَه فيعملون منها الخلَّ، ويرمون تفلَه على الأكوامِ فكنت آكل منه، وربما أكلتْ الكلابُ مِن جانبٍ وأنا من الجانب الآخر، واسترحتُ بهذه الحالةِ مدّة، فخرجتُ ذاتَ يومٍ من المسجدِ لقضاء حاجةٍ- أو للوضوء أو لا أدري إلا أنه خرج من المسجد- فبصرني شخصٌ أو قال رآني شخص فقال لي:

﴿ **أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ** ﴾[مريم: ٥٩].

وأخبرني الشيخ أبو الفتوح الدماميني أنَّه أقامَ عشرَ سنين يأكلُ مِن حبِّ العُنصلِ مِن التربةِ، وسنذكر حديثه في موضعه إنْ شاء الله تعالى.

ورأيت فقيرًا عراقيًا وكانت له أحوالٌ، وكان لا يشربُ مِن هذه الكيزان ويشرب من آنية من الجلد.

وأصنافُ الورعِ كثيرةٌ في الأقوالِ والأفعال حتى كان أحدُهم مِمَّن أعرفه يحسبُ كلماتِه في اليومِ والليلةِ ويتعب عليها، ومنهم مَن كان يمسكُ الكلمةَ بين شفتيه حتى يظهرَ له نورُها أو ظلمتُها مِمَّا لا بأس به من الكلامِ لأنَّ أنواع الورعِ في الفضولِ مِن الكلامِ أعظمُ إذ آفةُ اللسانِ مِن أكبرِ الآفاتِ لحديث: **«وهل يكبُّ الناسِ على وُجوهِهِم في النَّار إلاّ حصائدُ ألسنتَِهم[1]»**.

=

ومال إلى العزلة، واستعد للرحلة، كان كثير الورع والخضوع، غزير الإخبات والخشوع، مبارك الطلعة، مشهور الذكر بين الصوفية والسمعة، يأمر بالمعروف واقتفاء آثاره.وله بستان يقتات منه، ويطعم الناس من ثماره.مات بالإسكندرية سنة اثنين وستين وستمائة، عن خمس وسبعين سنة.وانظر: الشذرات (٥/٣١٢)، طبقات الأولياء (٣١٩)، والكواكب الدرية (٤٧٨) .

(١) رواه ابن ماجه في سننه(٢/١٣١٤)، والبزار في مسنده(٦/٢٧٣).

وأما الغيبة والنميمة فما هما داخلان في الورع بل هما داخلان في المحرمات التي تجبُ التوبةُ منها، فهذا كلُه يندرجُ في التوبةِ إذ لا يصح أنْ يتوبَ مِن بعضٍ ولا يتوب من بعض، ولأن يكون طائعًا عاصيًا في زمنٍ واحِد.

والورعُ يورّثُ الزهدَ كما أنّ الخشيةَ تورّثُ المراقبةَ.

المراقبَــــة

والمراقبةُ حالٌة تختصُّ جميعَ كليةِ العبدِ بين يدى ربِّه ﷻ بجملةِ قلبِه وجوارحِه، فلا يبقى فيه ذرّة إلاّ وهي قائمةٌ شاخصة خاضعة، لا تتحركُ منه الشعرةُ، ولا يطبق الجفنُ على الجفنِ من مراقبتِه لربِّه تعالى، كأنَّ السيفَ مشهورٌ على رأسه، والجبلَ هابطٌ عليه، والسموات والأرض قد اجتمعت عليه وهو بينهما.

وأخبرني الشيخ أبو العباس الملثم، رحمه الله تعالى، أنَّه رأى ذلك، وذلك أن المراقبةَ نتيجةُ الهيبةِ، والهيبةَ نتيجةُ العظمةِ.

فسبحان مَن تفرَّد بالعظمةِ والكبرياءِ و تعالى عَن الأمثالِ والأشباه والنظراء، وتقدَّس عَن النوّابِ والحجّابِ والوزراء، وحيث انتهت العقولُ إلى عظمته وكبريائه فهو أعظم، وأكبر من ذلك، وحيث سرى بك كشفُك واطّلاعك إلى شيء مِن معرفتِه فلستَ هنالك وحدَك.

فمِن المعرفةِ العجزُ عن المعرفة، وأنت عن معرفة العجزِ عاجز، وبينك وبين ذلك حاجز.

والمراقبةُ من المقاماتِ العليّة إذا تحقق الْمُرَاقِبُ بالكمال واستولى عليه سلطان جلالِ الجمالِ يضمحلُّ وجودُه إلى أن يتجلّى عليه جمالُ الجلالِ فيكون بين جمالِ الجلالِ وجلالِ الجمالِ مبهوتًا لا يَطْرُفُ طرفةَ عينٍ:

كـأنّ رقيبًـا مِنـكَ يَرعَـى جَـوارِحِي ... وآخـرَ يَرْعَـى خَـاطِرِي ولِسَـانِي

فَمَا خَطَرَتْ فِي باطنِ القلبِ خطرةٌ ... لِغَـيرِكَ إلاَّ قُلْـتُ قَـدْ سَمِعَـانِي

وأَخبرني ابن العربي في كتابِه: «مدينةِ العارفين» أنَّه رأى فيها مَلَكًا واقفًا بين يدى الله تعالى مُطْرِقًا إلى الأرضِ طرفُه على موضعِ قَدَمِه لا يتحركُ منه شعرة، وهو هكذا

على الدوام، يتعلَّم العارفون منه المراقبةَ.

والمراقبةُ تقتضي الملاحظةَ للحركاتِ والسكناتِ والكلماتِ وعددِ الأنفاسِ حتى أنيَّ أعرف من كان يعدُّ كلماتِه التي يتكلم بها.

وبلغني عمَّن كان يعدُّ أنفاسَه، وبلغني عن الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد القُشيري- رحمه الله تعالى- قال: ما تكلمتُ كلمَة قط إلاّ وعلمتُ أنيِّ أُعرضُ على الله تعالى وأقولُها بين يديه، وهي أدنى أحوالِ المراقِبين.

الزهـــد

والورعُ يستدعي الزهدَ لأنَّه إذا اشتبهت عليه الأمورُ تركَها، فهو عبارَة عن التركِ، زهده. إذا تركه وقلاه، وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: **«ازهد في الدنيا يُحبُّك الله، وازهدْ فيما في أيدي الناسِ يُحبُّك الناس[1]»**.

وهنا دقيقٌة وذلك أنّ الدنيا لَمَّا كانت مبغوضٌة لله تعالى فإنَّه وردَ أنَّ الله تعالى مُذ خلقَ الدُّنيا ما نظر إليها، ولَمَّا تكلمتْ قال لها: اسكتي يا لا شيء.

فلمَّا أبغضَ هذا الزاهدُ ما أبغضَ اللهُ تعالى أحبَّه الله تعالى، ولَمَّا تركَ للناس ما أحبوه أحبَّه الناس، فانظر ذلك وفيه راحةُ القلبِ والبدنِ مِن أَمرِ التكليفِ؛ فإنّ الرزق الْمُقدر مضموٌن له كما ورد: **«يا داود، أمَّا زهدُك في الدُّنيا فقد استعجلت لنفسِك الراحةَ، وأمَّا انقطاعُك إليَّ فقد تعزَّزتَ بي، فهل واليتَ لِي وليًّا أو عاديتَ فيّ عدوًّا؟[2]»**.

وهذه رتبةُ الحبِ في الله تعالى، والبغضِ في الله تعالى مِن وراء الزّهدِ.

والزهدُ فيه أقوالٌ منها قطعُ علائقِ الدُّنيا بالكليةِ ورفضُها من النفسِ والقلبِ فإنَّ تركَها لِمَا ينالُه في الآخرةِ فيكون قد تعوّض باقٍ عن فانٍ، وهذا ليس بزهدٍ، والزهدُ أنْ يترَكها لله تعالى كما قيل:

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه (١٣٧٣/٢)، والشهاب في مسنده (٣٧٣/١)، وانظر تخريجنا له مطولاً في كتاب «الدرر واللمع في بيان الصدق في الزهد والورع» لسيدنا القطب الشعراني، طبع دارة الكرز.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٨٤/١٠)، والطبراني في الأوسط (٣٤٥/٢)، والخطيب البغدادي في التاريخ (٢٠٢/٣)، وابن قدامة في المتحابين في الله (ص٣٤).

وحقِّك لا نظرتُ إلى سِواكَا بعينٍ مرّةً حتى أراكَا
أراكَ مُعَذِّبِي بفُتُورِ لحظٍّ وبالخَدِّ الْمُورَّدِ مِن جَناكَا

وقيل: الزهدُ تركُ ما سوى الله تعالى، وهذه حقيقةُ الزهدِ على أنَّه وإنْ تحقَّق أنَّه ليس شيء يتركه فما ترك إلا ما ليس له، كما قيل:

لأُخلِصَنّ عَذاري في مَحبَّتِكم بِحَولِكم لا بِحَولِي لا ولا حِيَلِي
وأَترُكَ الكونَ حَتى لا أَرَاهُ ولا أَرَى اللُّحوظِ لِتركِ التركِ مِن قِبَلِي
الخَلقُ خلقُكُمُ والأمرُ أَمْرُكُمُ فأيُّ شيءٍ أَنا لا كنتُ مِن طَلَلِ
الحقُّ قلتُ وما فِي الدَّارِ غيرُكُمُ أَعوذُ باللهِ مِن عِلمِي ومِن عملِ
مَا للحِجابِ مكانٌ فِي وُجُودِكُمُ إلاّ بِسرِّ حروفِ انظرْ إلى الجَبلِ
أَنْتُم دَلَلْتُم عَلَيكُم مِنْكُمُ بِكُمُ دَيمومةٌ عبَّرتْ عَن غَامضِ الأَزلِ

فهذا وإنْ كان شَهِدَ التركَ فإنَّه لم يشهدْ إلاّ بحولِ اللهِ تعالى وقوتِه، وقدْ قلتُ:

أأزهدُ ومَا لِي في العَوالِمِ ذرةٌ ولا الكونُ مِن شَأنِي ولا حَاصلٌ عِنْدِي
ومـا أَنا إلاّ عبدُ رقٍّ لِمَالِكِهِ فَمِنْ غَيرِ إذنٍ لا أُعِيدُ ولا أُبْدِي

وأمَّا الزاهدون فهم على قدرِ هممِهم وعلوّ شأنِهم ومطلوبِهم ومقاصدِهم ونياتِهم وسلوكِ المبتدئ والمتوسطِ والمنتهي في الزهدِ.

وقد رأينا مَن تجرَّد وانْخلعَ مِمَّا كان عليه من مالٍ وجاهٍ، فمِنْ الولاةِ الشيخُ نجم الدين القرطبي -وقد تقدَّم ذِكرُه- حتى انخلع من ولايته وطافَ الأسواقَ والبلدان والسَّلبةُ في عنقِه حتى تخلَّص من غُرمائه، ورأيتُه يجلسُ على كومٍ وعليه دَلْق أو هدمُة مجردًا، وكان رجلاً مباركًا- رحمه الله تعالى- ولم أكرر ذكره إلا كان في الأول لتخليصِه من المظالِمِ وذكرتُه الآنَ للزهد والتجريد.

ومنهم ابنُ اليمامِ تجرَّد عن الولايةِ وتزهَّد، وجاء منه شيخ وبنى زاوية ونزلَ عندي وله أصحابٌ بسمهود من بلاد الصعيد.

وتجرُّد الشيخُ عامر بن نسيم عن ميراثِ أبيه، وكان جملًة كثيرة، وقد ذكرتُه ومدةَ معرفتِنا به لم يكن عليه شيء غيرُ سجّادةٍ مرقعة في وسَطِه، وسجادة على كتفِه وطاقيةٍ على رأسِه، ينام حيث حلَّ إمَّا مسجد أو على حائطٍ أو كيف ما كان، وكانت له حالات نذكرها في موضع تسميتهم إن شاء الله تعالى.

وأخبرني الرّضي بن الأصمع قال: طلعتُ إلى جبلِ لبنان فوجدتُ فقيرًا فقال لي: رأيتُ البارحةَ في المنامِ قائلاً يقول:

لِلَّــهِ دَرُّكَ يَــا بَــنِي طَلْحَــةَ مَاجِــدًا ... تَــرَكَ الْــوِزَارَةَ عَامِــدًا فَتَسَــلْطَنَا

لاَ تَعْجَبُــوا مِــنْ زَاهِــدٍ فِي زُهْــدِهِ ... فِي دِرْهَــمٍ لَمَّــا أَصَــابَ الْمَعْــدَنَا

قال: فأصبحت فجئت إلى الشيخ لأجد السلطان الملك الأشرف على بابه، وهو يطلب الإذن عليه، فبقيت حتى خرج السلطان.

فدخلت عليه فعرّفته بما قال الفقير فقال: إن صدقت رؤياه فأنا أموت إلى أحد عشر يومًا، وكان كذلك.

وكان ابن طلحة وزيرًا وتزهد وانقطع إلى الله تعالى وترك الوزارة، وأخبرني الشيخ عبد العزيز- رحمه الله تعالى- عن فقيرٍ قال: أخذ الشيخ عبد الله الماردايي بيدى وأدخلني في فندق وقال لأحد التجار من أصحابه: ائتنا بشيء نأكل وثمانين درهمًا فأحضر الجميع فأخذهم الشيخ وخرج، فلمّا بعدنا قال لي: خذ هؤلاء فقلت له: ما أفعل فإنّي تعرّيت وعورتي مستورة ولا سبيل إلى أخذ شيء حتى أحتاج إليه فقال لي: خذ هذا فهو كفن زوجتك ونحن نصلي عليها الصبح فكان كذلك، فانظر إلى هذا الزهد.

التجريــد

والتجريد يدخل في الزهد والتجريد عبارة عن تجرّد الظاهر والباطن من المألوفات والمعلومات والعادات وخلع الثياب وقطع الأسباب ورفع الحجاب حتى يخلع النعلين ويرفض الكونين ويرفع حكمَ الكيف والأين، وقد ورد «**تحفّوا أحيانًا واخشوشنوا**[1]»

(١) رواه ابن حبان (٢٨٦/١٢)، والبيهقي في الكبرى (١٠/١٤) بنحوه.

والواجب على الرجلِ سترُ عورته وهو ما بين سرته وركبته.

ومن تجرّد ظاهره ولم يتجرّد باطنه فذلك من التدليس، وأوصاف التلبيس وحبائل اللعين إبليس، وذلك من علامات النفاق وسوء الأخلاق؛ فإنّ من أظهر خلاف ما أبطن فهو منافق، فيعمل على تجريد باطنه من غير ربِّه تعالى.

طهارة القلب والنفس

وليبدأ بتطهير نفسه وقلبه؛ فإنّ الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب ولا صورة، فكيف تتنزل الأسرار الإلهية والتجليات الربانية على ثبوت قلب مشحون بصورة الشهوات النفسانية؟ وكلابِ الصفات المعنوية ونجسِ القاذورات الدنيوية، قد رقد فيه أنواعُ أمثالِ صفاتِ الشياطين والصورةُ الجامعةُ لصورةِ المارقين، ونبح فيه الكلبُ الذي ينبح عنه كلابُ الغاوين، واستحوذ عليه الشيطان، وأنساه ذكر الرحمن فنسأل الله تعالى الأمان والنجاة من العدو والشيطان، ويطهّر قلوبَنا من هذه الصفات حتى يبدِّل سيئاتنا بحسنات إنه أكرم الأكرمين.

وأعرف فقيرًا قام به خاطرُ التجريدِ وربَّما كان في وقت الظهيرة حين استواء الشمس وحدّتها فقصد التجريدَ والخروج عن عادته -إذ كانت نفسه محبوسة بذلك، وهي حالةُ العُسر على المبتدئين، لا سيما من المتفقهة؛ لأنَّهم يرون تعظيمهم بالصورة الظاهرة في ملبسهم؛ لأنَّ فطامَ العادة أصعبُ من فطام الرضاعة، والعوائدُ قُطّامٌ على طرق التوبة يقطعون الطريق على كل سالك، ما لم يعان بالتأييد- فنازعته نفسه في ذلك نزاعَ فقيه وقالت له: ألست تعلم أنَّ عبادة الله تعالى في السرِّ أسلمُ للعابد من آفات الرياء والشهرة بالصلاح؟ قال: نعم، فقالت لا تغيِّر زيَّك ولا تخلع ثيابك، واعبد أنت ربَّك كيف شئت، فقال لها: يبقى عليك شيءٌ، وهو ألاّ يكون لك حظٌ في ملبسٍ ولا مأكلٍ ولا مشربٍ، ويستوي عندك الجوع والشبع والعري واللباس بعد ستر العورة الشرعية، ولأن التزام التجريد يوجب لك الدوام بالشرط.

فقالت: قد استوى عندي ذلك كلُّه من اللباسِ والعري ولو كانت خيشةٌ أو حِلْةٌ مع ملازمة الباطن للعمل، ويستفيدُ الصدقُ والستر ويتخلص من شبكة الرياء

ورؤية الناس، فقال لها: إن كانت دعواك صادقّة فدعيني أُجرّب ذلك؛ فإنَّ الامتحان يُظْهِرُ عيبَ الدعي.

ثم وضع يده ليخلع ويتجرّد فجاءها الموت عند تغير زيّها وأن يراها الناس على صورة التجريد، وإذا هو يسمع صوتًا عليًّا يقول: يا من خرب بيت عقله لتدع لى عرضك معي، و الذي أحبه يسمو على الأكوان تخلّع عند ذلك واستمر على ذلك على حاله.

التوكّــل

وأمّا التوكّل فهو نتيجةُ الزهد؛ فإنَّ كل من ترك ما سوى الله تعالى انقطع إلى الله تعالى وآوى إليه واعتصم به وتوكل عليه وفوّض أمرَه إليه واعتمدَ في جميع أحواله عليه، وهو كالطفلِ الرضيع الذي لا يعرفُ غيرَ أمّه في طعامه وشرابه وسكوته ومنامه، لا يفرح إلا بها ولا يحزن إلا عليها ولا يعرف شيئًا سواها. ويدخل في التوكل التفويض وهما شيْء واحُد، قال الله تعالى: ﴿**وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾ [إبراهيم:١٢].

وقال الله تعالى: ﴿**وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِين**﴾ [المائدة:٢].

وقال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِين**﴾ [آل عمران:١٥٩].

وقال عزّ من قائل: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾ [الطلاق:٣].

وورد في الحديث: «**لو أنكم تتوكلون على الله تعالى حقَّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا**[١]».

وقوله تعالى في كفالة زكريا مريم عليها السلام فقال عزّ من قائل: ﴿**وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [آل عمران: ٣٧].

الرفيــق

وأعرف فقيرًا كان إذا توجّه إلى جهةٍ لا يحمل معه شيئًا، ولا يسلك مظآنَّ الناس، ولا يسأل أحدًا شيئًا، ولا يأكل إلا شيئًا مخصوصًا مما يصح عنده حلّه، فاتفق أنه قصد يومًا أنه يتوجه إلى مكان في البر يتوجه فيه، فسأله فقير أن يكون رفيقه -وكان

(١) رواه الترمذي (٥٤٣/٤)، وابن ماجه (١٣٩٤/٢)، وأحمد (٣٠/١)، وابن حبان (٥٠٩/٢).

حاله لا يقتضي ذلك- فقال له: أنت على حال وأنا على حال غيره، ولا أقدر على صحبتك فقال: لا بد من ذلك، اجعلني إبريقًا لا يتكلم ولا حكم له.

قال: فتوجّهنا، حتى إذا كان وقت العشاء الآخرة بظاهر دمامين، فبينما الفقير يتوضّأ وإذا إنسان مسكَه وحلف بالطلاق من زوجته لا بد أن يسير معه إلى منزله، فسار حتى أتوا منزلِ الرجل، فأخرج مائدة وعليها مأكول من خبز وغيره، فجعل ذلك الفقير الذي سأله الصحبة يلحظه ملاحظةَ المنكر عليه، فإنه يعرف أنه لا يأكل الأشياء مخصوصًا، ويعلم منه الوقوف مع الشرع، فهو يرى أنه لو أكل حلَّ عقده وإن لم يأكل آذى صاحب الطعام، فبينما الرجل يعدل المائدة وقبل أن يقول الصلاة وإذا فقير قد دخل وعلى رأسه لوح خبز وقال: والله يا سيدي، لقد جهدت اليوم على الحلال حتى صحّ لي أجّرت نفسي حصّادًا في ساقية فلان-وذكر رجلاً مشهورًا بالخير- قال: وأخذت أجرتي وطحنتها لنفسي بيدي وعجنت وحملت العجين على رأسي إلى الفرن ولم أستعمل فيه غيري، وها أنا خارج، وأنا أسأل الله تعالى أن أجدك لتأكل من كسب يدي ووضع رغيفًا بين يديه فأكل.

فلمَّا أصبح وسافر هو وذلك الفقير اعترضهما رجل بدوي ومسكه وقال: والله ما أفارقك، أنا رأيت البارحة منامًا، ثم سار به وبرفيقه إلى البرية، فإذا بيتا شَعرٍ فيهما امرأتان، فخرجت إحداهما ودخلت عند الأخرى، ودخلنا البيت الذي خرجت منه، فإذا بقرة مربوطة في غرارة قمح بين البيتين، وقعد البدوي يحدثنا حديث الطريق إلى الله تعالى فأسكرنا حديثه، وقال: أنا من بني عامر..

فبينما هو يحدثنا إذ فرغ ما عملوه، فأحضروا قصعة فيها كالمقطعة التي تعمل من الدقيق واللبن وعليها السمن، فأكلنا واكتفينا.

قال: ونهض الفقير قائمًا فقال له الذي صحبه وكان اسمه إبراهيم: يا سيدي، إلى أين؟ فلم يكلمه، فقال له: هذا مكان خلوة ورجل صالح وزاد حلال، فإلى أين تمضي؟ فلم يكلمه وسار، فاحتاج تبعه. وذلك فيه عذر للفقير؛ لأنَّ الإقامة في مكان فيه معلوم يفسد عليه حالة توكّلِه.

وكان إبراهيم حين خرج مع الفقير حمل مما أكلاه شيئًا في جرابه، فقال له الفقير:

لا تصحبني. قال له: ولم؟ قال: لأني متوكل على الله تعالى وأنت استصحبت الزاد معك وكأنك تريد أن تسكن النفس إلى العادة والزاد فترجع من الله تعالى إلى الرغيف.

قال له إبراهيم: والله لو رأيتك ميتًا من الجوع ما أطعمتك شيئًا من هذا فلا تخشَ من ذلك.

فلمّا سارا من عند الأعرابي حصل لهما عطش شديد فنزلا من الحاجر إلى المراعي التي كانت الرعيان فيها ترعى أغنامهم ليجدا شيئًا من الحسيان التي كانوا يشربون منها، فوجدا حسيًا طلع الماء على غير العادة فشربا وتوضأا، وملأ إبراهيم إبريقًا من ذلك الماء - ولم يكن من عادة الفقير أن يفعل ذلك- فاستشعر الفقير أن إبراهيم قصد أن يطلع أصحابه على ذلك، وأن ذلك كرامة.

فسكت الفقير إلى أن وصلا المسجد الذي بالبر، فوقف الفقير يكنسه ويصلحه وإبراهيم يستعجله للسفر وورود البلد الذي فيها أصحابه، وكلَّمه في تركِ إصلاح المسجد بكلامٍ مؤلمٍ فلم يرجع الفقير إلى قوله، ثم إن إبراهيم خرج وترك الإبريق في المسجد فأخذ الفقير الإبريق وتوضأ بما فيه من الماء ورشّ بقيته في المسجد وصلّى ركعتين تحية المسجد وجلس في القبلة، فلما جاء إلى الإبريق ووجده فارغًا، فوَجَدَ من ذلك وجْدًا عظيمًا، وصدر منه من الكلام المؤلم المفحش أمرٌ عظيم فلم يكلمه الفقير كلمة واحدة.

فلما تعب من سبه وشتمه قال له: أشتهي أن توصلّني إلى البلد؛ فإني لا أعرف الطريق - وكان الفقير يعرف الطريق - فسار به إلى البلد وأحضر لهما زادًا، وأخرج إبراهيم ما في جرابه فإذا هو قد تغير ودوّد فلعله قال: انظر إلى إلهك الذي ظلْت عليه عاكفًا..

وقد قلت:

حَاشَى جَنَابُكُمُ الْعَزِيزُ مِنَ الَّذِي ... يَعْتَاضُ عَنكُمْ بِالمحَالِ الْبَاطِلِ
أمْ كَيْفَ يصلحُ أن يُقَاسَ لِوَاجِبٍ ... بِالاسْتِحَالَةِ فِي قِيَاسِ الْعَاقِلِ
بَل لاَّ قِيَاسٌ وَلاَ مِثَالٌ فِي الْهَوَى ... إلاَّ لِمَثَلٍ مُوَضِّحٍ لِلجَّاهِلِ

وَجَنَــــابُكُمْ هَــــذَا الرَّفِيــــعُ مُنَــــزَّهٌ عَـنْ كُـلِّ ذَلِـكَ أَوْ وُضُـوحِ دَلَائِـلِ

الأَكتَـــع

وأخبرني الشيخ مجير أنه مرّ به البغدادي-وكانت له أحوال- فقال: صحبت سيدي الشيخ علي- صاحب فم الديل بالعراق- وجرت له أمور ليس هذا مكانها، نذكرها في موضعها، وإنما حكى لي قال: رأيت فقيرًا مقطوع اليد اليمنى، فقصدت أن أسأله فهبته فسألته الصحبة، فقال: صحبة اختيار؟ فقلت: نعم.

فسار في البريّة، وتبعته على غير طريق وبغير زاد ولا ماء، فبقي أربعين يومًا، فلمّا كان كمال الأربعين يومًا نزل على البصرة، وعبرنا على دار الولاية، فوجدنا شابًا قد قطعت يده اليمنى وهي في يد المشاعلي يريد رميها في الطاجن ليقليها.

فتقدم الفقير المقطوع اليد إلى الكف المقطوعة وأخذها من المشاعلي ووضعها على ساعد الشاب ومسح يده على وجه نفسه فعادت يده كما كانت بقدرة الله تعالى. فحصل للناس بهتُة وولّى والناس سكوت، فصاح الشاب الذي كانت يده قطعت: يا سيدي، سألتك بالله تعالى إلا ما رجعت، فرجع فقال له: ماذا قلت حين وضعت يدك على وجهك؟

قال:ما لك حاجة أو مالك في ذلك حاجة.

فأعاد عليه القسم، قال: قلت بسم الله الرحمن الرحيم. قال: فقط؟ فحين قال ذلك انحلّت يده وسقطت وولى وخرج من البلد.

وكان قد خطر لي في نفسي حين رد الكف؛ أمقطوع الكف يوصل الأكف؟! فلما خرج من البلد سمّاني باسمي ولم يكلمني إلا ذلك اليوم، فقال لي: يا فلان، أنت صحبتني لتعلم سبب قطع كفي ما هو؟ قلت: نعم، قال: وجدت لك الآن سؤالاً آخر، أمقطوع الكف يوصل الأكف؟ فقلت: نعم. قال لي: أما سبب قطع كفي فكنت عاهدت الله تعالى ألاّ أمد يدي إلى شيء من الدنيا حتى ألقاه، وطربني ما رأيت من السياحة، فبينما أنا ذات يوم في السياحة وقد أنسيت العهد لطول المدة، وإذا أنا أنظر تفاح من المباح أو كمثرى، فوضعتها في يدي، وإذا بالخيل قد غارت علي وقبضوا

علي، وأحضروني إلى دار الولاية وقالوا: هذا اللص.

فقال قائل منهم: شاوروا على قطع يده. فقالوا: هذا ما يحتاج إلى مشاورة لتكرار الفعل، وكان قد ألقي علي شبه لص تكررت منه السرقة، فقطعوا يدي فزيّقت فقلت:

إلهي، عبدك وابن عبدك تفعل ما تشاء وتحكم ما تريد فما السبب؟

وأنا أسمع قائلا يقول: يا عبد السوء، مددت يدك لنقض عهدنا فقطعناها، فلو مددت الأخرى لقطعناها.

فتبتُ إلى الله تعالى وسجدت لله تعالى على الأرض وقلت: الحمد لله الذي كانت المعصية باليد الواحدة ولم تكن بالاثنتين، وكانت العقوبة في البدن ولم تكن في القلب، وكانت بالعتاب ولم تكن بالحجاب وكانت في الدنيا ولم تكن في الآخرة.

فلمّا نظر إليّ الوالي والجماعة رموا نفوسهم على الأرض وقالوا: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والله ما هو هذا السارق، وجعلوا يستعطفونني، وأنا أقول: جعلكم الله تعالى في حل.

فهذا كان سبب قطع كفي، وأما كوني مقطوع أُوصل الأكف، فاعلم أن الله تعالى قضى على هذا الشاب بقطع يده، فلما رأيته شفعت فيه فألجأه القدر، إلى أن سأل فقلت له التسمية، فلم تقع عنده ببال، فنفذ القضاء وقبلت الشفاعة.

وقد قلت:

طَعْمُ الْعَذَابِ عَلَى وِصَالِكَ يَعْذُبُ وَالْمَوْتُ أَحْلَى فِي الْوِصَالِ وَأَطْيَبُ

إنْ كَانَ قَدْ قُطِعَتْ يَدِي فِي حُبِّكُمْ فَلِنَقْضِ عَهْدٍ أوْ لأَنِّيَ أَكْذِبُ

فَالْعَفْوُ مِنكُمْ لِلْمُسِيءِ سَجِيَّةٌ وَلأَجْلِ عَفْوِكُمُ أَنَابَ الْمُذْنِبُ

وَلَقَدْ مَنَنْتُمْ لِي بَقِيَّةَ مُهْجَتِي فَبِحَقِّكُمْ يَا سَادتي لاَ تَغْضَبُ

وأخبرني الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- وعني به عن الشيخ أبي الفتح

الواسطي -رحمه الله تعالى-(١) وكان شيخه- قال: كنت آوي إلى مسجد، وكان والدي عمَّره وأحسن عمارته ونضارته، وفرش فيه بسطًا، فكان يوصيني ألاّ يلحقه شيء، فكنت أكون جالسًا، وإذا بشخص فقير مُوَلٍ يدخل المسجد ورجلاه مملوءتان طينًا، فيمشي على البسط ويلوثها، ويقعد في القبلة في دخوله ولا يتكلم، فأقوم وأمسحها، ثم يقوم بعد ذلك يخرج ويلوثها في دخوله وخروجه، وهو لا يتكلم وأنا لا أكلمه.

فلما كان في أحد الأيام سمعته يقول: إن لم تطعمني شواءً حارًا بعسل نحل بكيت، وخرج فتبعته، فبينما هو يمشي، وإذا شخصان قد مسكاه، وإذا بواحد منهم على رأسه حويجة عليها شواءٌ حارٌ وعسل نحل، فجعلا يقطعان من الشواء ويجعلاه في العسل ويدخلاه في فمه، وهو يأكل إلى أن اكتفى، فأشار إليهم برأسه أو بلحيته بالإمساك فتركاه ومشيا، فتبعته إلى أن خرج إلى ظاهر البلد فالتفت إلي وقال: ما بالك يا أبا الفتح؟ فقلت: ما هذا الدلال على الله حتى تقول إن لم تطعمني كذا وكذا بكيت؟ فقال لي: يا أبا الفتح، أنا بكيت على الله تعالى بالدموع حتى نفدت، ثم بكيت الدماء حتى نفذت، فوعدني ألاّ أبكي أبدًا بعدها، فلو أقسمت عليه بزوال السموات والأرض إلا بكيت لفعل.

وقد قلت:

أَبَدًا عَلَيْكَ عَلَى الدَّوَامِ تَوَكُّلِي ... يَا مَقْصَدِي يَا مَلْجَئِي يَا مَأْمَلِي

---

(١) هو شيخ سيدي الغوث أبي الحسن الشاذلي –قدس سره- قال ﷺ: لما دخلت العراق اجتمعت بالشيخ الصالح أبي الفتح الواسطي، فما رأيت بالعراق مثله، وكان مطلبي القطب. كما في تعطير الأنفاس.

وقال المناوي: ولما قدم الشاذلي الإسكندرية، وكان بها أبو الفتح الواسطى، فوقف بظاهرها واستأذنه فقال: طاقية لا تسع رأسين، فمات أبو الفتح في تلك الليل؛ وذلك لأن من دخل بلدًا على فقير بغير إذنه- فمهما كان أحدهما أعلى- سلبه أو قتله، ولذلك ندبوا الاستئذان. كما في الكواكب الدرية (٢/٣٤٣).

مَـا لِي سِـوَاكَ وَإنْ عَجَـزْتُ بِحِيلَـةٍ أَغْنَيْتَـــنِي عَـــنْ حِيلَـــتِي وَتَحَيُّلِـــي
فَأَنَـا الَّـذِي إنْ صَـحَّ أنِّي عَبْـدُكُمْ لاَ مَثَــلَ لِي لاَ مَثَــلَ لِي لاَ مَثَــلَ لِي

والمتوكلون على الله تعالى في صفاتهم متفاوتون، فمنهم من يرى توكله علّة في توكله إذا كان يستدعي بتوكله منه الرزق، فهو علة إذ الحق مستحق أن يلجأ إليه ويتوكل عليه من غير إطعام ولا إرزاق، فالتفويض أولى؛ إذ هو من حقائق المتوكلين وطرائق العارفين، ألا ترى إلى قوله تعالى عمَّن آمن من آل فرعون: ﴿**وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**﴾ [غافر:٤٤].

وقوله تعالى: ﴿**أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ**﴾ [الملك:١٤].

وقوله تعالى: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾ [الطلاق:٣].

فإذا كان الله تعالى حسبه وهو العالم بمصلحته من نفسه فلا حاجة إلى استدعائه في توكله شيئًا، فإن استدعاءه علّة في توكله، أو تهمة بخالقه، أعوذ بالله تعالى من ذلك.

سلب الاختيار و التسليم

والتسليم وسلب الاختيار من حقائق المتوكلين، وصفات المتوجهين؛ لأن التوكل يستدعي التفويض، والتفويض يستدعي التسليم، والتسليم يستدعي سلب الاختيار.

وسلب الاختيار حالة يستوي فيها القرب والبعد، والحياة والموت، والجنة والنار، والسعادة والشقاوة، والعلم والجهل، والخير والشر، والإعراض والإقبال، والمنع والعطاء، والعز والذل.

ترتفع فيه الأغيار ويتساوى فيه الليل والنهار والدنيا والآخرة والعاجلة والآجلة، لا تتناقض عليه حالة بحالة غيرها ولا له مطلوب يرجوه ولا مرهوب يخشاه، قد ترك اختياره لاختياره وعمله لعلمه وإرادته لإرادته، قد سلب اختياره وظهرت أعذاره.

وهو كما قلت:

لم يَبْــقَ لِي فِيمَـــا أُرِيـــدُ إرَادَةٌ كَــلاَّ وَلاَ لِي فِي الْعَـوَالِمِ مَطْمَـعُ
سُـلِبَ اخْتِيَـارِي فِي هَـوَاكَ فَحَيْثُمَـا دَفَعَـتْ بِـهِ أَيْـدِي اخْتِيَـارِكَ أَدْفَـعُ
فَأَنَـا الْمُرِيـدُ لِمَـا تُرِيـدُ حَقِيقَـةً لاَ أَنْثَـنِي لاَ أَرْتَجِـي لاَ أَجْـزَعُ

وَأَنَا الْمُحِبُّ لِمَا تُحِبُّ وإن تَشَأ طَمَعًا فَإِنّي فِي وِصَالِكَ طَامِعُ
هَذَا وَإنْ قَنَّعْتَنِي بِخَيَالِكُم فَأَنَا الّذِي بِخَيَالِكُمْ أَتَقَنّعُ

ولقد رأيت من لا يختار إلا ما اختاره الله تعالى له، ولا يحب إلا ما يحبه الله تعالى، حتى في المؤلمات.

وما ذكر عن أحد العارفين أنه قال: لو وضعت النار على عيني الواحدة ما سألته أن ينقلها إلى الأخرى.

وليس للمفوّض حالة اختيار مع المفوَّض إليه، ولا اعتراض فيما يفعله عليه؛ لأن اعتراضه ينقص تفويضه، وهو علّة مفسدة للتفويض، كما أن توكله إذا لم يكن لأجل ما وصل إليه منه علّة في توكله مفسدة له.

وأعرف فقيرًا إذا وقع له أمر رجع بالتفويض إلى الله تعالى فيه، ولا يقع شيء إلاّ ويكشف عاقبته إلى الخيرة فيه مع كونه مؤلما عند وقوعه، ووجد ذلك غير مرة، قال الله تعالى: ﴿**وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شيئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ**﴾ [البقرة:٢١٦].

وقال تعالى: ﴿**فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شيئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً**﴾ [النساء: ١٩]، وهذا كان في ذلك.

وقد قلت:

أَتَيْتُ وَطَرْفِي فِي الْعَوَالِمِ يَرْكُضُ وَأَبْسُطُ كَفِّي تَارَةً ثُمَّ أَقْبِضُ
وَلاَ لِي فِي كَوْنِ الْوُجُودِ الْتِفَاتَةٌ وَلاَ عِوَضٌ عَنكُم بِهِ أَتَعَوَّضُ
وَلاَ لِي قُرْبٌ لاَ وَلاَ بُعْدٌ فِي الْهَوَى وَلاَ لِي إقْبَالٌ وَلاَ أَنَا مُعْرِضُ
فَفَوِّضْ لأَمْرِي أَن يُفَوِّضَ أَمْرَهُ إلَيْكَ فَإِنّي إنْ تَشأ مُفَوِّضُ

وأما التسليم فهو حالة الخليل عليه السلام وولده إسماعيل- صلى الله عليهما وسلم - في أمر الرؤيا وقوله:

﴿**قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَ وَتَلَّهُ للجبين**﴾ [الصافات:١٠٢، ١٠٣]

وهذه هي حقيقة الاستسلام والتسليم لله تعالى فيما هو له من غير تروٍ ولا تثبط ولا سؤال ولا اعتراض ولا اختيار في هذا الموطن العظيم، وهو ذبح الوالد لولده بيده، ورضا الولد بالذبح لنفسه، وهذا موطن يتحقق فيه الاختيار وتظهر فيه حقائق الخلّة، وتقوم به الحجة على كل ملّة، وإن كان المرئي المذبوح- وهو الكبش- مستعدًّا في صورة إسماعيل لموقع الاختيار، فقد عزم الخليل عليه السلام على ذبح ولده إسماعيل، وكان المراد العزم على الذبح لا وقوع الذبح،وحصل الذبح للكبش لقوله تعالى: ﴿**قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا**﴾ [الصافات: ١٠٥]، ولم يقل المرئي، وثبت المقام للخليل ولولده إسماعيل فما أسعدهم لا جرم، أتاه النداء بالتصديق، وعجل له بالفداء على التحقيق، وقيل له: ﴿**إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**﴾[الصافات: ١٠٥] وكان ذلك هو البلاء المبين.

ولم يكن ذلك لأحدٍ قبل إبراهيم عليه السلام، وقد أقيما في درجة الإحسان؛ لأنه محل العبادة على الشهود ودرجة الإسلام، كما تقدم عن نبيك سيدنا محمد ﷺ في سؤال السيد جبريل عليه السلام عن الإسلام والإيمان والإحسان فقال في الإحسان: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**[١] ».

وقد قيل في ذلك:

أَرَاكَ بِعَيْنِ الْقَلْبِ فِي مُضْمَرِ الْحَشَا وَلَيْسَ عَلَى عَيْنِ الْفُؤَادِ رَقِيبُ
خَيَالُكَ فِي عَيْنِي وَذِكْرُكَ فِي فَمِي وَحُبُّكَ فِي قَلْبِي فَكيفَ تَغِيبُ

وقد تقدم للسيد إبراهيم عليه السلام -فيما نقله الأخيار- حديث كثرة غنمه.

وأنه كان له خمسة آلاف كلب مطوقة بالذهب لحراسة الغنم، فسمع اثنين يقولان: لا إله إلا الله فأهاج بلبابه ذكر الحبيب حين ذكراه، فقال لهما: أعيدا عليّ هذا الصوت، فقالا: بنصف غنمك يا إبراهيم، فقال لهما: ولكما النصف، فأعاداه، فقال لهما أعيداه ثانيًا فقالا: بنصف غنمك الآخر، فقال لهما: ولكما النصف، فأعاداه، فقال لهما: أعيدا عليّ ثالثًا وخذاني لكما عبدًا أخدمكما، فرجعا عن حالهما وقالا له:

---

(١) رواه البخاري (١/٢٧)، ومسلم (١/٣٧).

حقت لمثلك الخلّة يا إبراهيم.

وقد قلت:

أَعِدْ ذِكْرَ مَنْ أَهْوَاهُ يَا سَابِقَ الظَّعْنِ وَخُذْ مَا عِنْدِي وَخُذْ مُهْجَتِي مِنّي
وَشَنِّفْ بِعَوْدِ الذِّكْرِ يَا سَعْدُ مَسْـ مَعِـي لِتَشْهَدَهُ عَيْنِي وَتَسْمَعَهُ أُذُنِي
وَخُذْنِي بَعْدَ الْمَالِ عَبْدًا لِخِدْمَةٍ وإن كُنْتَ لاَ تَرْضَى فَنَفْسِي بِهِ تَرْضَى

ولما ألقي إبراهيم في نار النمرود التقاه سيدنا جبريل عليه السلام وهو هابط إلى النار فقال له: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا. قال: فاسأل ربك. قال: هو أعلم بي. **فانظر** إلى هذه الأمانة على الأسرار الإلهية كيف سترها عن جبريل عليه السلام مع كونه رسول الله وأمينه على شرائعه والواسطة بينه وبين أنبيائه ورسله -عليهم الصلاة والسلام- فلم يسمح له بذلك، ورد العلم إلى الله تعالى فيه؛ لأن قلبه خزانة الملك، والأسرار وديعة الله تعالى في قلبه، ووقوع ذلك الاختيار في مثل ذلك الموطن يتحقق به من هو أهل لها، والمِلك أعلم بما أودع في خزائنه وليس له أن يبديه بلسانه ولا يُظهر السؤال للملِك ولا يعترض عليه في فعله في ملكه وهو أعلم لقوله تعالى:

﴿**اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾ [الأنعام:١٢٤].

وقد قال تعالى: ﴿**وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى**﴾ [النجم:٣٧].

وقد قلت:

وَلَقَدْ جَعَلْتُ السِّرَّ فِيكَ مُكَتَّمًا عَنْ سِرِّ سِرِّي وَعَن قَوْلِي وَعَن مُلْكِي
وَأَخْفَيْتُهُ عَنْهُ وَفِيهِ عَنِ الْخَفَا حتَّى أُخْفِيَ وَخَفِيَ عَنْ دَارَةِ الْفُلْكِ
وَأَصُونُهُ مِنِّي وَعَنِّي غِيرَةً مِنِّي عَلَيْهِ وَإِنِّي رُمِيتُ بِمُهْلِكِ
إِنِّي رَضِيتُ عَذَابَ جِسْمِي نِعْمَةً مِنْهُ عَلَيَّ وَسِتْرُهُ لاَ يُهْتَكُ

وقد جاد إبراهيم عليه السلام بالملك أولاً، ثم جاد بالولد ثانيًا، ثم جاد بالرُّوح ثالثًا قال الله تعالى: ﴿**قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ**﴾ [الأنبياء:٦٩].

أما قول الخليل عليه السلام: (بل فعله كبيرهم هذا) بعد أن ﴿**فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلاَّ**

كَبِيراً لَّهُمْ لعلَّهُم إِلَيهِ يَرْجِعُون﴾ [الأنبياء:٥٨].

فلا يخفى ما في ذلك من التهكّم والاستهزاء بهم وقيام الحجة عليهم، وذلك كثير في القرآن في غير هذا الموضع.

في قوله تعالى: **﴿لاَ تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾** [الأنبياء: ١٣].

غيبةً عن الكلام، فإن ذلك كان للاستهزاء بهم بعد خراب منازلهم، ومنه قوله تعالى: **﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ﴾** [الأنفال: ٣٠]، فإن ذلك عائدٌ على وصفهم الذي عاد عليهم بقوله: **﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾** [الأنعام: ١٣٩]. وقد قلت:

أعُوذُ بِرَبِّي مِن صِفَاتِي فَإِنَّهَا ... تُولي لِسَعْدِي فِي الْقِيَامَةِ أَوْ نَحْسِي

فإن كانَ خيرًا كانَ وَصْفِي مُنْعِمِي ... وَإِن كَانَ شَرًّا صَارَ وَصْفِي إلى نَحْسِي

وَأَسْأَلُهُ تَبْدِيلَ وَصْفِي بوَصْفِهِ ... وَعَفْوًا بِهِ إِطْلاَقُ نَفْسِيَ مِنْ حَبْسِي

ورد أن إبراهيم يقول في القيامة، وينسب إلى ذاته الشريفة ما ينسبه عند سؤاله الشفاعة، فلأن المقام يعطي الذل لله تعالى، وأن ينسب لنفسه ما هو في ظاهر الأمر والعادة عند أهل الظاهر، فلأن صفات الأنبياء عليهم السلام ظاهرة وباطنة، وكان كذلك ﷺ، وكذلك قوله تعالى: **﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾** [الصافات: ٨٨، ٨٩].

وقوله: **﴿هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾** [الأنعام: ٧٨].

وهو محمول على استيلاء المحبة على قلبه حتى رأى الله تعالى في الأشياء، ورأى الأشياء بالله تعالى، فما قال هذا ربي إلا عن الله تعالى، والكوكب حجاب لرؤية الرائين، فإن الخلة درجة خاصة في المحبة؛ ولأجل ذلك لما غلبت المحبة على زليخا، كانت تسمي الماء يوسف والخبز يوسف، فإن صورة يوسف ظهرت في مرآة قلبها فسترت الأشياء وأسماءها فسمّت كل شيء يوسف، ومقام الخليل في حبه لله تعالى أجلُّ من مقامها في حبها ليوسف، وإلا كيف يصح من الخليل عليه السلام الجهل برؤيته

تعالى والتحيز له؟! والله تعالى يقول: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ**﴾ [الأنبياء: ٥١].

وإنما الحب متى غلب أحرق من القلب كل شيء سوى المحبوب، فلا ترى إلا المحبوب.

كما قيل:

إذَا شِئْتِ أنْ تَرْضِي وَأَرْضَى وَتَمْلُكِي زِمَامِي مَا عِشْنَا مَعًا وَقِيَادِيَا
أَلاَ فَانْظُرِي الدُّنْيَا بِعَيْنِي وَاسْمَعِي بِأُذُنِي فِيهَا وَانْطِقِي بِلِسَانِيَا

فهذا شهود من الله تعالى في الأشياء، وحيث غلب الحب واستولى على القلب استيلاءً كليًّا محى منه كل شيء سوى محبوبه، فلا يشهد إلا المحبوب فيه، يجد ذلك أرباب الوجدان في هذا الشأن ولذلك يجدون فيما يجده المجنون في المخلوقين، كما جرى لقيس بن الملوح وجميل بثينة وغيرهما من المحبين استدلالاً، وإن لم يكن ثم مناسبة لأرباب المواجيد وأهل محبة الله تعالى؛ إذ لمحبة الله تعالى محققة لعبده، والمحبة من العبد محققة لربه لقوله تعالى:

﴿**يُحِبُّهُم وَيُحِبُّونَهُ**﴾ [المائدة: ٥٤].

والشهود مختلف، وقد ورد في الحديث:

«**عرضت علي الجنة والنار في عرض هذا الحائط**[١]».

وإن كان الحائط بالنسبة إلى الجنة التي عرضها كعرض السماء والأرض في صغر الحجم وقلة الطول والعرض كالخردلة بالنسبة إلى الأرض الفلاة، وإنما يفهم من ذلك ضرب الأمثال.

ولما كان مخلوقًا كالأمثال فافهم الإشارة ولا تقف مع العبارة، وأوضح من ذلك أنك تشهد في المرآة الصقيلة صورة نفسك وثيابك بحيث لا يخفى عليك من نفسك المقابلة للمرآة، فلو قدّرت أنك قابلت المرآة بألوان كثيرة ومواضع مختلفة لرأيتها في مرآتك، بل لو قدرت مرآة مقابلة للسموات والأرض لأبصرت في المرآة ذلك كله،

(١) رواه البخاري (١/ ٢٠٠).

فمرآة القلوب المصقولة بأنوار الإيمان كيف تحجب عنها الجنة في عرض الحائط بمن كان يرى بنور الله تعالى؟ بل من رأى وسمع بالله لا يُحجب عنه شيء من ذلك.

فافهم ما تحت ذلك من رؤية الملائكة والأنبياء في المنام، ورؤية البارئ ﷻ في الدار الآخرة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وقد تضيق الألفاظ عن بعض أنوار الكشوف؛ إذ تنظر في اللمحة الواحدة من الفرش إلى العرش وما هو وراء ذلك، وما لا تصل إليه الأفهام والعلوم، وكذلك مثال في النائم الذي تأخذه السِّنة يرى الأرض بأسرها ويرى البلاد البعيدة التي وصل سمعه إليها كجبل قاف وغيره، ويجوز أن يرى الأنبياء عليهم السلام ويرى الله تعالى في السِّنة.

وذلك أنه لما ركدت حواسه الشاغلة عن ذلك، وارتفع القلم عنه بالنوم الذي يرفع عنه ما يجب عليه سرت الرُّوح التي لا يحجبها الجدران ولا يبعد عليها البلدان، ولا يستوي في حقه البعد والقرب، فإن البعد والقرب صفات الأجسام، والمساحة في التقدير من أوصاف المحسوسات، فلا يصل إلى بغداد وغيرها من البلاد أو جبل قاف أو ما ذكرت من سعة الأرض إلا في السنين الكثيرة، وقد يفنى عمره وهو لا يصل إلى ذلك، فكيف بالوجدان الحقيقي والنظر بالنور الإلهي؟ بل كيف من أبصر بالله وسمع بالله كما ورد «**فبي يرى ويسمع**[1]».

الخُلّـــة

والخلّة من المقامات العلية من المحبة، وقد يكون ذلك تعليمًا، وقد يكون توبيخًا واستهزاءً وإقامةً لحجة الله تعالى على من يعتقد أن النجم والشمس والقمر ربه، وكذلك الأصنام والحجارة، بل قال: ﴿**بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا**﴾ [الأنبياء:٦٣].

وقد يكون الاستفهام مع التوبيخ «**أهذا ربي؟**» إذ تقول لمن تستصغره عن رتبة نفسك: أهذا مثلي؟ ومثل ذلك، وقد قيل ما لا يصلح للمقابلة والمماثلة..

---

(١) رواه الحكيم في نوادر الأصول (١/٣٨٢)، وأصله في البخاري «كنت سمعه وبصره».

وَلَــــوْ أَنِّي بُلِيـــــتُ بِهَــــاشِمِيٍّ   خَوَّلْتُـــهُ بَـــنِي عَبْـــدِ المـــدَانِي
لهَـــانَ عَلَـــيَّ مَـــا أَلْقَـــى وَلَكِـــنْ   تَعَـــالُوا فَـــانْظُرُوا بِمَـــنِ ابْـــتَلاَنِي

ثم يظهر بطلان الاعتقاد ممن يعتقد ذلك في أفوله ويقول **«لا أحب الآفلين»** إلى استيفاء تلك المظاهر، فقال: ﴿ **لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ القَوْمِ الضَّالِّينَ**﴾ [الأنعام:٧٧].

فلا تعتقد أن خليل الله تعالى عليه السلام جهل ما يجب لله تعالى ويجوز له ويستحيل عليه وفهمته أنت مع قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ**﴾ [الأنبياء:٥١]. مع وجود العصمة وكونه حجة الله على عباده.

الصبر

وأمَّا الصبر فإن التوكل يقتضيه، كما أن الصدق تقتضيه التقوى؛ إذ كل متوكل صابر على ما يرد من الله تعالى، والصبر من المقامات العلية وهو يدخل في كل مقام، ولذلك يؤتى أجره مرتين، وقد قال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ**﴾ [آل عمران:١٤٦].

وقال تعالى: ﴿**وَالصَّابِرِينَ فِي البَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ البَأْسِ**﴾ [البقرة:١٧٧]

فانظر كيف مدحهم بهذا الوصف وحث على الصبر في قوله تعالى: ﴿**وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ**﴾ [النحل: ١٢٦].

وقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [الزمر:١٠].

وكيف قال لنبيه ﷺ: ﴿**وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ**﴾ [النحل:١٢٧].

بيد أن البشر لا يستطيع الصبر على هذه المكاره إلا بالله تعالى وبقوته وبتأييده وعنايته، والأحاديث في الصبر وعلو درجته كثيرة مشهورة.

فأما الواجدون للصبر في البأساء والضراء وحين البأس فمنهم سيدنا أيوب عليه السلام وقصته مشهورة، ولقد صبر حتى عجز عنه الصبر، والذي ذكره أصحاب التواريخ من أحوال يضيق عنه هذا الكتاب وينبو السماع منه ويتغير له الطباع؛ إذ كانت شفته العليا غطت وجهه، والسفلى على صدره، والدود له وجب في جسمه، وهو مع ذلك لا يتحرك منه شعرة إلا بالرضا.

ولقد ذكروا أن دودة خرجت من مكانها فتألم بخلو موضعها من نعمة الله تعالى بالبلاء عليه؛ لأن الله تعالى ينعم بالبلاء ويبتلي بالنعماء فقيل أنه قال:

﴿**مَسَّنِيَ الضُّرُّ**﴾ [الأنبياء:٨٣] لذلك، وقيل غير ذلك.

ولما أخرجوه من البلد خشيةً أن يصيبهم بلاؤه، وأظهروا له أن ذلك من غضب الله تعالى عليه، وحملته زوجته إلى ظاهر البلد، وذكر أنه دخل عليه أصدقاء ثلاثة خرجوا إلى زيارته فقال أحدهما للآخر: لقد ابتلي أيوب ببلاء عظيم، فقال الآخر: لقد صبر أيوب صبرًا عظيمًا، فقال الثالث: لو كان له عند الله تعالى حظ ما ابتلاه بهذا البلاء.. وهم يظنون أنه لا يسمعهم فقال: ﴿**مَسَّنِيَ الضُّرُّ**﴾.

وعلى الجملة لم يكن أيوب عليه السلام متبرمًا ولا شاكيًا ولا جزعًا ولا مختارًا غير الحالة التي هو فيها.

وقد تكلمت الطّائفة في الصبر بحسب مواجيدهم، وكل ذكر ما يجده أو ما وجده فمن قائل: قال الحلاج إنه يقطع يدك ورجلك وأنت تضحك فقال الراوي: والله لقد رأيته بعد ثلاث وقد قطعت يده ورجله وهو يضحك، ومن قائل أن الصبر يجرّع غصصًا ومرارات أدناها الموت، ومن قائل: إن الله تعالى إذا أراد أن يعذب البلاء أنزله على فقير؛ لأن البلاء إنما يعذب من يتألم به أو يتعذب به، أما إذا كان يتلذذ به فما يعذب إلا البلاء لأنه يعمل في غير معمل.

وأعرف فقيرًا مع كونه شابًا قطع الجذام أصابع يديه ورجليه وأعمى بصره، وكنت بمكان وهو فيه، فكرهت أن أراه خشيةً من الألم عليه، فسمع بحضوري -وكان عندي قوّال- فخرج وطاب وتواجد كثيرًا وطرح نفسه على الأرض، وقام وعانقني وقال: والله يا سيدي إني طيب منشرح الصدر فلا تتألم، ثم بعد ذلك مات رحمه الله تعالى فقيرًا.

وكان قد اجتمع بنا وهو متوجه إلى الحجاز، فلما وردنا مصر لم أره فقيل لي أنه حصل له مانع، فسرت إليه فوجدته والجذام قطع أصابع يديه وأقدامه وهو من حسن صورته على زيادة مما أعهده، لم يظهر عليه أثر الألم ولا شيء منه.

ورأيت شيخًا من المشايخ كان إذا أوذي أو بلغه ما يؤلمه يفعل ما يفعله للذي يغص باللقمة ولا يتكلم كلمة واحدة، وربما أحسن إلى من آذاه، والصابرون في الله ولله

كثيرون.. وقد قلت:

تَجَرَّعَ كَأْسَ الصَّبْرِ مُرًّا فَمُذْ رَأَى جَمَالَكُمُ صَارَتْ مَرَارَتُهُ شَهْدَا
وَقَدْ رَكِب الأَهْوَالَ شَوْقًا إلى اللُّقَا إِذْ انْشَقَّ الرَّيْدُونُ وَالْبَانَ وَالرَّنْدَا
وَأَنْسَاهُ مَا قَدْ نَالَ مِنْ أَلَمِ السَّرَى إِذَا جَدَّدَتْ أَجْفَانُهُ بِالسَّرَى عَهْدَا

الصبر عن الله تعالى

وأمّا **الصبر عن الله تعالى** فهو ما لا يطاق يعجز فيه الصبر، فكيف بالصابر؟ والتصبر يذهل فيه العقول والضمائر وتخاطر في أنفسها فيه الخواطر وتغيب عن سرها فيه السرائر وقد قلت:

وَلَمَّا رَأَيْتُ الصَّبْرَ قَدْ عِيلَ صَبْرُهُ وَلَمْ أَسْتَطِعْ عَنكُم سَلْوًا وَلاَ صَبْرَا
بَكَيْتُ عَلَى قَلْبِي بُكَاءَ مُوَدِّعٍ وقُلْتُ لَهُ أبْدَيْتَ عَلَى مَوَدَّتِكَ الْعُذْرَا
وَأَظْهَرْتَ لِي مَا كَانَ مِنِّي مُكَتَّمَا فَنَادَيْتُ فِي الأَطْلاَلِ عِنْدَ الحِمَا جَهْرَا
ألاَ فَارْحَمُوا مَنْ كَانَ لاَ يَعْرِفُ الجَفَا وإلاَّ فَقَتْلِي فِي مَحَبَّتِكُم أَحْرَا
فَقَدْ بِتُّ لاَ أَدْرِي الضَّلاَلَةَ وَالْهُدَى وَلَمْ أَسْتَطِعْ طَعْمَ الحَلاَوَةَ وَالمرَّا
وَقَدْ كُنْتُ لاَ أَخْشَى مِنَ الْهَجْرِ سَاعَةً فَأَصْبَحْتُ لاَ أَرْجُو وِصَالُكُمْ شَهَرَا

وقد قلت:

وَيَجْمُلُ عِندي الصَّبرُ فِي كُلِّ شِدَّةٍ وَعِنْدِي رَأيْتُ الصَّبْرُ لاَ يُجْمَلُ

لما انقطع الوحى عن رسول الله ﷺ في ابتداء أمره كاد يتردّى من شواهق الجبال مع قوته ﷺ وجلالته ومعرفته بربه تعالى، هذا مع كونه سيد ولد آدم من الأوّلين والآخرين، والمعصوم والمغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، لم يقدر على حمل ذلك حتى آنسه بقوله تعالى: ﴿**مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى**﴾ [الضحى: ٣].

فكيف لغيره إذا قطعه بعد وصله وأوحشه بعد أنسه وأبعده بعد قربه، لا طاقة لأحد بذلك، نسألك العفو يا رب كل شيء.

وقد قلت:

ولما بدَا الهِجرانُ يومًا وليلةً وأصبحتُ في يومي كئيبٌ على أمسِي

فكـدتُّ أُردي الـنفسَ في مهلـكِ الـرَّدَا وطَـابَ لهَـا مـن بعـد بعـدِكُم رَمسـي
فأبـــدلتموا هجـــرانَكم بوِصـــالِكُم وبـــدّلتموا تلـــكَ القطيعـــةَ بـــالأُنسِ

فـإن مـن اعتـاد الوصـال كيـف يطيـق الهجـر؟! ومـن اعتـاد الأنـس كيـف يطيـق الوحشـة؟! ومـن اعتـاد القـرب كيـف يطيـق البعـد؟! ومـن اعتـاد الإقبـال كيـف يطيـق الإعراض؟! كما قيل:

عـــوّدوني بالوصَـــالِ والوصـــل عـــذبُ ورمَـــوني بالصّـــدود والصـــدُّ صـــعبُ
زعمـــوا حـــين أعرضُـــوا أن ذَنـــبي فـــرطُ حـــبي لهُـــم ومـــا ذاكَ ذنـــبُ
لا وحَـــقِّ الخضـــوعِ عنـــد التلاقـــي مـــا جـــزاءُ مـــن يحـــبُّ ألاّ يحـــبُّ

كـان السّـري جالسًـا وزوجتـه عنـده، فـدخل عليـه الشـبلي، وهـو ينشـد هـذه الأبيات، فأرادت زوجته أن تقوم فقال لها: ليس هو بحاضر، فلمّا بكى قال: تنحّي، فقد حضر، وكان الشبلي -رحمه الله-(١) بالمحل المشهور.

وقد قلت:

ولاطَفَـــني بـــالأنسِ حـــتى ألفتَـــهُ وصَـار لقلـبي موضِـعُ السـمعِ والبصـر
فأوحشـــني لمـــا رمـــتْ بي حيلـــتي يُعـــبّر عَـــنّي فِي الهَـــوَى السّـــنُّ العـــبر
فـإنْ أنـتَ لم تسـمح بعـودي إلى الرّضـا فـلا عَـين لي مـن بعـد ذاك ولا أثـر

فآلام الصبر عن الله تعالى وشدته أكبر من أن يوصف وأعظم من أن يعرف إلا لواجدها، أعاذنا الله تعالى من وجدانها.

وأشد من ذلك أن يكون إعراضًا أو صدًا أو إبعادًا أو قطيعةً أو هجرًا أو حجابًا

---

(١) قيل اسمه: جعفر بن يونس، وقيل: جعفر بن دلف. أصله من الشبلية قرية، ومولده بسامراء، وكان أبوه من كبار حجاب الخلافة، وكان خاله أمير الأمراء بالإسكندرية، وولي هو حجابة أبي أحمد الموفق، ثم لما عزل أبو أحمد من ولاية حضر الشبلي مجلس بعض الصالحين، فتاب، ثم صحب الجنيد وغيره، وصار من شأنه ما صار، وكان فقيهًا عارفًا بمذهب مالك، وكَتَب الحديث عن طائفة، وقال الشعر، وله ألفاظ وحكم، وحال وتمكن، وكان يحصل له استغراق وسُكْر.

مات سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة عن سبع وثمانين سنة ودفن بمقبرة الخيزران.

وانظر: سير أعلام النبلاء (١٥/٣٦٧)، وتاريخ بغداد (١٤/٣٨٩)، والرسالة القشيرية (ص٤٣)، وكتابنا الإمام الجنيد (ص٨٠).

أو أشدّ من ذلك، أن يكون عن غضبٍ أو سخطٍ أو مقتٍ، فتلك أكبر المصائب.

أعاذنا الله تعالى وإياكم من ذلك كله، وجعل في حجابنا عين الرضا منه وعنه، ونعوذ بالله تعالى وبرضاه من سخطه وبمعافاته من عقوبته ونعوذ به منه.

وقد قلت:

وأصغيتَ لي منكَ الودادَ فحَيثمَا ... ملكتَ به قلبي وصرتَ به أنسِ

تجانبتَ عنّي حيثُ لا لي حِيلةً ... ورمَيتني بالصدّ في الجنِّ والإنسِ

والصبر متفاوت الدرجات، وهذه الحالة اشتد فيها المحاق والهلال، ولا يجد السالك لذوقها مساغًا، وهي أشد عليهم من شرب الحميم.

وقد قلت:

سقيت لوشك البين كأسًا من المر ... وجرعتُها صبرًا أمرَّ من الصَّبرِ

فكانت كشربٍ للحميمِ مقطّعًا ... لأمعاءِ قلبِ الصبِّ في حالةِ السُّكرِ

فما النارُ إلا دونَ صبري عنكمُ ... وقام عذولي فيكم باسطًا عذري

عسى رحمةً منكمْ لعلَّ تعطفًا ... فقد خانني صَبري وقد حِرتُ في أمري

لعلكم تودوا لعبدِ عبيدِكم ... عسى تجبِروا في الحبِّ يا سادتي كسري

الصبرُ مع اللهِ تعالى

وأمّا **الصبرُ مع اللهِ تعالى** فهو فوق هذه الأحوال، تستوي فيه الأحوال وتقف مع الشهود، وفيه تأنيس للصابر لكونه يشهد وجود الحق معه فيستعين على صبره بشهوده ويقوى على آلامه بوجوده لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [البقرة: ١٥٣].

وفي هذا الموطن يُقال:

ويُستعذَبُ التعذيبُ فيكُم لأنَّكم ... تروا أنِّي لأجلِكم أتَعذبُ

وقيل:

صبرتُ لأمرِ اللهِ في كلّ شدةٍ ... وعزَّيتُ نفسي بالرِّضا وبالصبرِ

وتفهم قوله تعالى: ﴿**أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ [الأنفال:١٢].

وقوله: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ [الحديد: ٤].

وقد قلت:

عَلى مثلِ بُعدِك لا أصبرُ ... ومَنْ ذا بحبِّك لا يعذرُ

رميتَ فؤادي بنارِ الجفا ... فهَا هي في مهجتي تُسْعِرُ

فداوتْ بوصلِك هجرانَه ... فأنتَ بهِ في الهوى أخبرُ

وإذا كان الله تعالى معهم كيف يجدون ما وجد من حُجب عنه وأُبعد منه، وقيل له اصبر عنه فهذا يقول:

وكيف أخافُ الخوفَ في كلّ مهلكٍ ... إذا كُنتُموا في كلّ معضلةٍ معي

الصبر بالله تعالى

وأمَّا **الصبر بالله تعالى** فصاحبه قوي بالله تعالى عليه ومستروح فيه، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿**وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ**﴾ [النحل: ١٢٧].

وصاحب هذه الحالة يستحلي المرارة ويستعذب العذاب ويلذُّ له فيه العقابُ.

وقد قيل:

أُحبُّك لا أخذًا للثّوابِ ... ولكنِّي أحبُّك للعقابِ

وكلُّ مآربي قد قلت منها ... سوى ملذوذِ وجدي في العذابِ

ولقد رأيت صاحباً لي ضُرب بالسياط غير مرةٍ وهو مظلوم في ذلك وهو لا يتكلم، ويترك المرسِّمين عليه وقوفاً، ويجلس ويتحدث في السّير إلى الله تعالى والسلوك في الطريق إليه من غير تغيّرٍ ولا اضطرابٍ، وسأذكر عنه صفات في الرضا أو في موضع المروءة إن شاء الله تعالى.

إذا كنتم في حالةِ الضربِ مشهدي ... فَكيفَ يمسُّ الضربُ قلبي ولا جلدِ

فكُلُّ أذى إن كان في الناسِ ظاهرًا ... فها هو في ذَوقي ألذُّ مِنَ الشهدِ

وكُلُّ الذي تَرضَوه أرضَاهُ في الهَوى ... وأُتبِعهُ بالشكرِ مني وبالحمدِ

وإنّما أعرضت عن تسميته وتسمية إخوان أعرفهم وصحبتهم وأعرف أحوالهم خشية على من لا يعرف منهم ما عرفت ولا يصفهم بالذي وصفت، فقد يقع منه ما وقع من غيره من الإنكار أو الاعتراض، فذلك شأنهم في المتقدمين والمتأخرين.

وإنما لأهل كل زمان ما يخبر عن محاسنهم إلى من سيأتي بعدهم وأهل زمانه نفسه ما يخبرهم عنهم إلا من يلحق بهم وكان خاليًا من الأغيار والحظوظ، فخشيت أن أكون سُلّمًا لهم إلى النار في الوقيعة في أهل الله تعالى، وغيرة على هذه الطريق، فأنا تارةً أذكر أسماءهم وتارةً أسكتُ عنها في مواضع بحسب المذكورين، وإلا فَهم كذلك.

وأخبرني عدل من أكابر العدول عن زين الدين عيسى الأرمنتي - وكان فقيرًا وكان صاحبًا لي، وكنت أعرفُ منه أحوالاً جليلة في أمر الرضا والصبر على القضاء، وكان أكثر الناس لا يعلمون ذلك- قال تقي الدين عبد الملك العدل: حصل علينا طلبةُ السلطان، وقُدِّرَ على كلِّ واحد باسمه إحضار شيء، وإن لم يحضر ذلك الشيء ضُرِب، حتى أنَّه ضرب في ذلك اليوم أكابر البلد ولا حاجة لتسميتهم، ولم يحصل لي القدر المطلوب مني فحصل عندي دهشة لكوني أُضرب وهو شيء لا أعرفه قط ولا طاقته نفسي، وكذلك نفوس الفقهاء وأرباب الرئاسات لا يتحملون مثل هذه الأمور، وهو من الفقهاء.

فبينما أنا كذلك وإذا أنا بزين الدين عيسى بن مظفر[1] حضر فقال لي: ما لك هكذا؟ فقلت له: أما تنظر ما نزل بي؟ طولبت بكذا وكذا، وقد قرَّروا على من لم يحضر شيئًا ضرب، وقد ضربوا فلانًا وفلانًا - الأكابر الذي ينتمي إليهم هو - فسكتَ وخرجَ، فأورد ما كان قُرِّرَ عليه فقالوا: قد أورد زينُ الدين عيسى فقال لهم: هذا عن تقي الدين عبد الملك[2]، وأنا فما قَدِرْتُ على شيء، فضُرب ضرباً شديداً، فتألمتُ لذلك ألماً شديدًا، فقال لي لا تتألَمْ، فإنِّي أرى أن الله تعالى قدَّر عليّ ذلك وأنا راض، فمالك أنت بذلك عادة.

وقد قلت:

---

(١) انظر: الوافي في الوفيات (١/٢٢١٩).

(٢) هو الأرمنتي، وانظر: الوافي للصفدي (١/٣٠٩٤).

الصادقُ المحبُّ لا يخشى مِنَ العارِ والعارُ في الحبِّ أنْ يخلو مِنَ العار
لا سترَ في الحبِّ إلا وهو مُنهتكٌ والسّترُ فيه بأنْ يضحى به عَار
علامةُ الحبِّ لا تخفى على أحَدٍ يغُصُّ بالماء أو يلتذُّ بالنار
في القربِ والبعدِ لا ينفكُّ ذا حزن قَد حازَ عدلاً عليه دمعُه جاري
إن كنتَ تهوى الهوى فاسلُك مَسالكَه ما بين سهلٍ وأتعابٍ وأوْعاري

والصبر بالله تعالى من المقامات العليّة لكونه من مقامات رسول الله ﷺ، ففيه الأنس من الوحشة والقرب من البعد، وهو يستدعِي الرضا.

الرضا

والرضا من المقامات العلية لقوله تعالى: ﴿**رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ**﴾ [المجادلة:٢٢].

وهو من صفات رسول الله ﷺ، فقد كان يرضى بكل ما يرد من عند الله تعالى على كلِّ حال ومع كل حال، وكل رضا حصل للأولياء بما يرد من القضاء فإنما هو بحسب ميراثهم من نبيهم ﷺ، والرضا يستوي عنده العذاب والعذوبة والحلاوة والمرارة والنقمة والنعمة، ويستوي عنده الحالات ويرتفع عنه المغايرات لرضاه بما يرد من القضاء، ويعلم أنه مقدَّر وقوعه، وأن الله تعالى قدّره وأراده، فلا يختار إلا ما يختار الله تعالى، ولا يرضى إلا ما يرضاه، فيقف مع ما يرِد من غير زيادة ولا نقصان، مع إمساك الأوامر والوقوف عندها، فإن العبد يقف عند الأوامر ولا اعتراض له على مالكه.

وقد يدخل سلبُ الاختيار في الرضا، وهو من أعلى درجات الرضا.

حكايات في الرضا

وقد تعرفت بفقير يسمى عامر بن نسيم- رحمه الله تعالى- أخبرني الشيخ عبد العزيز بن عبد الغني المنوفي -قدّس الله تعالى روحيهما- قال: كنا مجتمعين أو مسافرين، وكان لعامر أخ يسمى عطاء الله، وكان عطاء الله رجلاً صالحاً، وكان يخدم الفقراء فقال لنا ذات يوم: يا فقراء، أشتهي أن تؤاخوا بيني وبين أخي عامر فقلنا له: هو أخوك، فقال: أريد أخوّة الفقراء فآخينا بينهما.

ثم بعد ذلك تكلم عطاء الله مع فقير من الفقراء، فرفس ذلك الفقير عطاءَ الله

فمات، فبقينا مبهوتين لا ينطق منا أحدٌ إلا بعد ساعة، وعامر رفع رأسه وقال: يا فقراء، مالكم جلوس؟ قوموا جهِّزوا عطاء الله.. فما قال عامر كلمةً غيرَها، فجهزناه ودفناه.

فانظر إلى هذا الرضا في مثل هذه الواقعة.

واتفق يوماً أنّ زين الدين عيسى بن مظفر عبر علينا وقد طُلِبَ من جهة السلطان ومن جهة ديوان أمير من الأمراء، فضربوه هؤلاء، فبينما هو كذلك إذ أخبروه بوفاة زوجته أو شيء من ذلك فراح لينظر ذلك فردُّوه، فبينما هو كذلك إذ أخبروه بوفاة ولده فراح يجهِّزه، فبينما هو كذلك إذ قيل له: اخرج إلى الساقية، فقد غارت البئر بالبقر، قال: فخرجتُ فوجدتُ البئر قد غارت، والبقرة وقعت في البئر، فتبسَّمت أو ضحكت وقلت: إيش لي في هذا وهذا؟ كلّه ملكك، تفعل به ما تشاء.

وربما قيل لي أن تلك الواقعة كانت خامس واقعة وقعت له في ذلك إلى الظهر، رحمه الله تعالى.

وحكى لي القاضي ابن السكري خطيب القاهرة عن الشيخ أمين الدين النحوي المحلي قال: كان جامع مصر قد احترق، فشقَّ ذلك على ولي الأمر، فأمر أن يجمع الناس في الجامع ويُغلق عليهم، وتُكتَبُ أوراقٌ بما يُفعَلُ بكل واحد منهم، فجمعوا الناس وكتبوا أوراقاً بأنواع العقوبات من الشنق والضرب والحبسِ وغيرِ ذلك، فاتفق أنه وقع في ورقة شخص يُشْنَقُ، وفي ورقة شخص يضرب فنظر صاحب الورقة التي فيها الشنق إلى ورقته وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم، لو لم يكن لي بنات أخشى عليهن الضياع، فقال الشخص الجالس إلى جانبه أنا غريب ولا لي أحدٌ أخشى عليه، وقد وقع في ورقتي الضرب، فخذها وأعطني ورقتك، فاعتمد ما في ورقة الآخر وآثره على نفسه.

وأمَّا الرضا في حال المتقدمين، فقد ذكره غيرنا، فقصدنا الآن ذكر ما رأيناه من أهل زماننا مع كوننا لم نسافر.

وحكايات أخرى

وأما رضاهم بالرزق والقناعة فأمر يكاد لا ينحصر، فكان الفقيه محمد بن

سدوس قدس الله تعالى روحه له عيال كثير وزوجات، وكان مع ذلك من القلّةِ والفقر على حالة عظيمة، ولا يشغله ذلك عن ذكر الله تعالى وكان مستديمَ الاشتغال وله من الأحوال الجليلة التي ذكرها لي كثيرٌ، نذكرها إن شاء الله في موضعها، وكان عبد الرازق القارئ مع كثرة العيال وعدم المكسب لا يشغله ذلك.

وكان الكمال عبد الغفار -قدّس الله تعالى روحه- مدةَ عرفناه كان على هيئة العدولِ من الثيابِ واللباس كالعمامة بالعدية والأكمام الكبار، وكان قُوته نصفُ رغيفٍ، وتارَّة خمسة فلوس وتارَّة ثلاثة فلوس، وكان له دكان موقوفة أجرتها عليه كذلك.

وكان إن احتاج إلى ثوبٍ في كل سنةٍ يكونُ أوانَ الأجرةِ و ما تكفيه لسترتِه، وبقي على ذلك إلى أنْ ماتَ رحمه الله تعالى، وكان إذا قدَّمنا له شيئًا يأكلُه يعجز عن أكله، وربما مرض.

وأخبرني الشيخ عبد العزيز بن عبد الغني المنوفي رحمه الله تعالى عن فقير قال: رأيت إنساناً جالساً على دكان بزاز، وعليه ثياب مثمنة ومغفار، فوقع في نفسي أنه من الأولياء، فسكتُّ حتى قام، فجئت للبزاز فقلت له: يا أخي، هذا الرجل من أين؟ فقال: ما أعلم إلا أنه يقول: إني كنت جنديًا وما صلُحت لخدمة الملك، فقام فمشيت خلفه إلى أن نزل دجلة ونزل الماء بعد أن خلع ثيابه وفي وسطه بلين صوف، فجعل يصطاد به الأوراق التي يرميها البقالون حين يغسلون البقل، فحصَّل منها شيئًا جعله من داخل ثيابه، ومشى، وتبعته من حيث لا يعلم، حتى دخل إلى خربة فأخرج تلك الأوراق البقل وكفَّاً من ملح فوضعها، وجعل يأكل إلى أن فرغ فقال: الحمد لله، ثم خرج. فجئت إليه وقلت له: ياسيدي، سألتك بالله إلا ما جئت معي إلى منزلي، وثقلت عليه فمشى معي، وأجلسته ورحت أتيت بفوطة مملوءة من الشي والحلوى والمأكول الطيب، فقلت: يا سيدي، سألتك بالله تعالى إلا ما أكلت من هذا فهو حلال، فقال لي: ما لي بهذا عادة. فألحجت عليه وكنت قدمت إليه ثلاثمائة دينار - أو قال مالاً - فأبى أن يأخذه وقال: ما لي به من حاجة.

قال: فأكل لما أكثرت الإقسام عليه فأصبح مريضًا فقلت له: يا سيدي، ما بالك؟ ألا أتيتك بطبيب؟ فقال: يا أخي، لي اليوم خمسون سنةً على هذه الحالة التي

رأيتها ما علم بي أحدٌ ولا تغيرت عليَّ حالتي.

وربما مات رحمه الله تعالى، ولا أتحقق مات لثالث يوم أم لا.

وأخبرني الشيخ عبد الله الدلاصي بمكة شرفها الله تعالى - وهو هناك يقرأ القرآن العظيم - قال لي: أقمتُ بمكة شرفها الله تعالى ثلاثين سنةً، وكان معي فقيران كنا أكلُنا بعدَ كلِّ ثلاثة أيام بخمسة أفلسة مرق قمحية، وأقام معي الفقيران عشرين سنةً وكمَّلت الثلاثين سنةً، وكنت أطوف كلَّ يوم، يعنون أسبوعاً بستين حزب قرآن إلى الظهر، وكنت أروح في كلِّ جمعة إلى زيارة النبي ﷺ ماشيًا.

فانظر إلى هذه الأحوال الشريفة في زمانك وعصرك، فلا ترضى لنفسك بالهوان بسبب الرزق والعيال، فهؤلاء فيهم أرباب عيال مع هذه الأحوال بما قسم الله تعالى لهم وقوفَهم مع القضاء والقدر.

وقد قلت:

رضاؤُك لِي بالقضاء لِي رضا ... وعينُ اختيارِك لِي مطلبُ
فَما بعدت فيكم شقةٌ ... وكلُّ بعيدٍ بكم يقربُ
فذاتُ الجحيمِ بكم جنةٌ ... ونفسُ العذابِ بكم يعذبُ
فكلُّ حديثٍ بكم طيبُ ... وكلُّ سماعٍ بكم مُطربُ
فإنْ شِئتمُوا سادتي تُنْعِمُوا ... وإنْ شِئتِمْ سادتي عَذِّبُوا
تَساوى جَميعًا متى شِئتمْ ... إذا كنتُ في الحبِّ لا أُحجَبُ
إذا شِئتِمُوا بما شِئتِمُوا ... وما كنتُ شيئًا فمَنْ يغضبُ

الشكر

وأمَّا الشكر فالرضا يستدعيه، والشكر من منازل الأكابر وهو من صفات النبي ﷺ، وهو يستدعي المزيد، وقد أمر الله تعالى بالشكر فقال تعالى: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ**﴾ [البقرة:١٥٢].

وقال تعالى: ﴿**أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ**﴾ [لقمان:١٤].

وفي الحديث: **«أفلا أكون عبداً شكوراً[1]»**، والشكر يجب على النعمة، وكل نفس أو لفظة أو حالة حياة أو حركة أو لقمة أو سُكنى أو زوجة أو مطعم أو لباس أو فراش أو خادم أو ذرة أو أكبر أو أصغر، كل ذلك نعمة من الله تعالى على عباده ولا في نعمة الله قليل؛ لأنَّ عدَّ النِّعمة الواحدة لا تحصى، فكيف بنعم متوالية مترادفة مستمرة؟ وكيف بإيجادك من العدم؟ وخلقك في أحسن خلق وأحسن تقويم، ثم أعطاك العقل الذي هو أكمل المخلوقات، ثم الحواس من السمع والبصر والذوق والشم واللمس، ثم المعالي، ثم الجوانح الباطنة والجوارح الظاهرة، ثم جعلك مسلماً، ثم رزقك رزقاً حسناً، ثم علمَّك ما لم تكن تعلم، هذا مع عصيانك وقلة شكرك ووجود غفلتك عن ربِّك وخالقك، فأيُّ نعمة أذكرها وأيُّ نعمة أشكرها؟

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤].

فيجب الشكر في كل خطرة ولفتةٍ، وزمن فرد ولمحة طرف، وهاجس نفس ونظرة عين، ولمحة بارق وجناح خافق، وجرعة ماء أو لذة شهوة أو دفع نقمة أو سقم أو ألم أهلك للشكر، فيجب الشكر له عليك بتأهيلِك لشكره، فإنك لا تصل إلى ذلك إلا به، فشكرك على نعمة يستدعي الشكر فلا يتناهى.

ولو سجدت على الجمر في كل نعمة ما أديت حقَّها ولا وفَّيت بعهدها، فليس لك إلا الجهد ولا لك على حد علمك وعملك، فافعل جهدك وقم في جدك ولا تغفل عن واجب حق الله تعالى عليك، فإنَّ نهاية العلم بمعرفته ونهايته توالي الشكر واستدامته مع الأنفاس والحركات والسكنات والخطرات والإرادات، باطنًا وظاهرًا على الاستمرار والدوام.

وفي كل نفس وزمن فرد تتجدد عليك النعم وتتوارد عليك الألطاف، بزيادات يعجز عنها الإدراك وتقف العقول عن معرفتها، والسماوات والأرض عن حصرها أو حصر أو معرفة جزء منها.

---

(١) رواه البخاري (١/٣٨٠)، ومسلم (٤/٢١٢٧).

وشكر هذه النعمة كلها من الله تعالى يوجب الشكر عليها، فكيف بالشكر إلا بالعجز عنه، فله الحمد أولاً وآخرًا والشكر والثناء بما هو أهله وما علمه بما يستحقه لدلائله ودلالته، و في قوله ﷺ:

«**لا أُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك**[١]» كفاية عن كثرة الكلام فيه.

وقول الصديق رضي الله عنه: «**العجز عن درك الإدراك إدراكُ**[٢]» وذلك إدراكُ العجز، ونحن نعجز عن إدراك العجز عن الشكر والثناء والحمد، فكيف بالاستحقاق؟[٣]

ولا يشكر الله تعالى حقَّ شكره ويحمده حقَّ حمده ويثني عليه حقَّ ثنائه غيرُه؛ إذ المعرفة به حقيقة المعرفة، وما يستحقه حقيقة الاستحقاق مستحيل من غيره ولا يعلمه سواه، وقد قلت:

شَكرتُ وما شُكري ببالغِ قَدْرَكم ... ولا همَّتي تَعْلُو لذاكَ ولا قَدرِي
وماالشكرُ إلانعمةٌ مستحقةٌ ... علىَّ بشكرٍ ليسَ يبلُغُه شُكري
فحيثُ انتهى شُكري فعَجْزِي مقدمٌ ... ولا عذرَ في عجزٍ يقومُ به عُذري

---

(١) رواه مسلم (١/٣٥٢).

(٢) هو أثر مشهور عند السادة الصوفية عن سيدنا الصديق –رضي الله عن سيدنا- ودلَّ على أن ثَمَّة أمر يُعجز عن إدراكه، وإن التوحيد هي الوحدة الحقيقية التي لا يُزاد عليها شيء لا من حيث الظهور، ولا من حيث البطون؛ لأنه تعالى من حيث إطلاقه المنزه عن الإطلاق، والتقييد، والتشبيه والتنزيه غير الظهور والبطون، وأفراد العالم كلها، مع أنه ليس بخارج منها، ولا داخل، ولا مُتصل، ولا منفصل ظاهرًا وباطنًا؛ إذ لا يجوز أن يكون معه شيء زائد؛ لأن ذاته غنية عن العالمين.

(٣) قال سيدي أبو المواهب الشاذلي: حقيقة: حضور العبد حضور العجز عن محاضرته في حظيرة مشاهدته، ومطالعته هو نهاية من اعترف وذاق الشراب واغترف.

والعجزُ عن دركِ الإدراكِ شمسٌ **ضحى** ... جرت بها فوق جو الشكِ أفلاكُ

دقيقة: العجز سلب، والإدراك وجود، فكيف جعل الصديق ذلك غاية المقصود؟!

نعم تفهمه إذا أدركت حقيقة الفنا، وتتحقق به إذا تجلَّت به لك الحسنى بأسمائها الحسنى.

فرُحمَاك يا ربِّي بما أنتَ أهلُهُ   فقد حارَ فيما قد أتيتَ به أَمري

وقد يكون بين الشكر والحمد والثناء فُرقان بحسب كل واحد، وإن كان المشكور والمحمود والمثني عليه واحد، فإن الشكر في العرف قد يكون على استدامة النعم والعطاء، والحمد قد يكون على النِّعم والبلاء وما نزل من القضاء، فيقع الفُرقان ما بين التعارف والعرفان.

الحمدُ على البلَاء

والحامدون على النِّعم كثير، والحامدون على البلاء قليل، وقد تقدم ذكر من حصل له البلاء رحمه الله تعالى، وبلغني أنَّ فقيراً أتى ابن أبي المنا بقنا فسأله شيئًا فأعطاه دينارًا فقال الحمد لله، فأعطاه آخر فقال الحمد لله، فأعطاه آخر فكلَّما حمَدَ الله تعالى أعطاه دينارًا حتى وصل تسعةَ عشر دينارًا فدَعَا له، فأمسك عنه وقال له: لو حمدت الله تعالى لم أبقِ معي شيئًا حتى أعطيه لك.

الثنَّاء

والثناء قد يكون على جميل الصفات في نفسها وإن لم يلزم منها، فلذلك وقع الفرقان، فإنك تثني على الكريم من الناس وإن لم تعرفه ولا وصلَ إليك كرمُه، وتثني على جميل الصورة -كجمال السيد يوسف عليه السلام وغيرِه من ذوي مكارم الأخلاق وإن كانوا في غير زمانك- فقد نجد في ذلك فرقًا ما بينه وبين الوصف الآخر وقد قيل:

وإنِّي امرؤٌ حبيتُكم لمكارمٍ   سَمعتُ بِها والأُذنُ كالعينِ تعشقُ

والأوصاف الجميلة محمودة محبوبة بالضرورة من غير معرفة دليل؛ إذ الخصائص الإلهية والأدوات الوجدانية تشهد لأنفسها والدليل لها يحجبها، فإنَّك إذا أردت أن تعرف جذب المغناطيس الحديد وأردت أن تقيم الدليل عليه لتوضحه فقد زدته حجابا، وهو أوضح من دليله، وكذلك حلاوة العسل ومرارة الصبر، فشُكْرُ اللهِ تعالى والثناءُ عليه والحمدُ له لا ينتهي العبد فيه إلا إلى العجز والحيرة وهو حده من المعرفة بتلك الأوصاف.

وقد قلت:

تحيَّرتُ لا علمٌ عليكَ يَدُلُّني   ولا عملٌ يجدي ولا نيةٌ تَكفي

ولا الصدقُ والإخلاصُ منِّي بنافعٍ ولا قابلُ عذري لديك ولا صَرْفِي
ولا وصفَ لي أرجو به نيلَ قربةٍ تبرأتُ مِن نفسي إليكَ ومِن وَصْفِي
إذا لَم تكُن أنتَ الدليل فلا هدى وإنْ أنتَ لَم تشفِ مِنَ الدَّاء مَنْ يشفِي
فيَا دعوةَ المضطرِّ قد آن وقتُها ويَا بادي الألطافِ جُدْ لِي باللُّطفِ

الذِّكر من لوازم الشكر

والذكر من لوازمه الشكر؛ إذ الشاكر ذاكر، فنفس شكره نفس ذكره للمشكور، وإن كان بينهما فُرقان، فقد تذكر المحبة فيه؛ إذ المحبة تستدعيه، ومن أحب شيئًا أكثر من ذكره، ولسنا في هذه العجالة نستدعي إيضاح الفرقان بين كل صفات الله تعالى لمكان ما ذكرناه والتزمناه.

وأمَّا الذكر فقد قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً**﴾ [الأحزاب:٤١،٤٢].

وقال تعالى: ﴿**وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ**﴾ [الأحزاب:٣٥].

وقال: **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ**﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ [آل عمران:١٩١].

وقد تكلموا في الذكر بحسب وجداهم ومعارفهم.

ومنهم من يكون ذكره يستدعي الموجودات فيسمع ذكر الموجودات، وقد كان السيد داود عليه السلام يسبح معه الجبال والطير، قال تعالى: ﴿**يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الحَدِيدَ**﴾ [سبأ:١٠].

ومنهم من يجد ذلك في نغمة طائر وتسبيح الرياح والأطيار ونسيم الأسحار وقد قلت:

باللهِ قُصِّي لنا يا نسمةَ السَّحرِ حديثَ سَعْدِى وقُصِّي أطيبَ الخبرِ
فقد طربت لذكراك أحبتَنا لمـاّ تكررَ في سمعِي وفي بصرِي

وقــد ســكرتُ فــلا أدْري لأيّتِهــا رمَـاني السـكرُ مِـن وَصـلٍ أم خطـرِ
مـا كنـتُ قبـلَ سمـاعِ الـذكرِ غـيرُ فَتى أُمْسي وأُصْبحُ مِن خَوفي على حَذرِ
حَتى سَمعتُ فأفنـاني مَـا سَمِعت فـلا أُخــبرُ اليــومَ عــن عَيــني وعَــن أَثَــرِ

وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ

وأخبرني الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- قال: دخلنا على عتبة الشيخة، وكان الفقراء يَرِدُون عليها وكانت عندها سبحة، فإذا ورَد الفقراء قالت لهم سبِّحوا بينما يتهيأ لكم الغداء، فجعلنا نسبح في السبحة ومعنا فقير، فجعل يمسك حبة في السبحة فيبطئ دوران السبحة بسبب ذلك، فكلموه في ذلك حين فرغ التسبيح فقال للشيخة: أشتهي أن تعطيني هذه الحبَّة، فقالت: ولم اخترت هذه الحبة على غيرها؟ -أو قالت: حتى تخبرني – فقال: لأني أسبح في هذه السبحة جميعها ولم يسبح معي منها غير هذه الحبة فقالت: تعرف من أين هذه الحبة؟ قال: لا.. قالت: هذه من سبحة سيدي القرشي، والله لا أعطيكها أبداً. قال: فإن لم تعطها لي وإلا أخذتها بقلبي.

قال: فأخذتْها ووضعتْها في الصندوق وقفلتْ عليها. قال: فزيّق الفقير، وأدخل يده في كمه -وكانت له سبحة صغيرة- فأخرجها والحبة منظومة فيها فقالت: أخذتَها؟ قال: نعم، قالت: كيف يحلُّ لك أن تأخذ ما ليس لك؟ قال: أنا ما أخذتها بيدي، فإنَّ الشرع إنما خطر على أن أمدَّ لها جارحةً وما مددتُ لها جارحةً، وقد تصرف فيها مالكُها قالت: فهاتها حتى أملِّكها لك فتكون من الوجهين. فدفعها لها حتى ملَّكته إياها.

وأخبرني الشيخ عبد العزيز المنوفي-رحمه الله تعالى- أنه رأى بالجيزة غنمًا، وأنَّ عنزًا منها رفع رأسه وقال: لا إله إلا الله.

أيضًا قال: بينما أنا أمشي إذ رأيت كلبًا عضَّ كلبًا فالتفتَ إليه الكلبُ المعضوضُ وقالَ له اتقِ الله تعالى.

وقد سبح الحصى في كفِّ رسول الله ﷺ، والمعجزة هنا تسبيح الحصى بلسان الآدميين وإلا فالحصى لم يزل مسبحًا لله تعالى.

قال تعالى: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُورا**﴾ [الإسراء: ٤٤].

وإذا كان كلُّ شيء من الجمادات والنبات والحيوان والإنس والجان والملك والشيطان والنار والماء والتراب والهواء والصامت والناطق من جميع الخلائق يسبحون الله تعالى، فما تخلفُّك أيُّها الإنسان عن ذكر الذي خلقك لمعرفته؟ وقدَّمك على خلقه، قال الله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: ٥٦]، قيل ليعرفون: ﴿**أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً**﴾ [لقمان: ٢٠].

ولا تقدر أن تحصي نعمة واحدة من ذلك ليلاً ولا نهارًا ولا سرًّا ولا جهارًا مع تيسير الذكر عليك، وهو مفتاح قلبك ونور تبصير عجائب ربِّك، وينفِّرَ الشيطان ويقرب منك الرحمن ويخلع عليك خلع الرضوان، وينور بصيرتك لتجليات العرفان فلِمَ تسمح لنفسك بالفترة؟ وتسبقك الملائكة الكرام عليها وهم لكم يستغفرون، وقد قال تعالى عنهم: ﴿**يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢٠].

وأنت تعلم أن كل نفس فات، من الله تعالى لا يعود، وهو حسرةٌ لا يقضى ولا عوض عن ذلك النفس في شيء من الدنيا والآخرة، لأن في الله تعالى عوضًا عن كل شيء، وليس في شيء عوض عن الله تعالى.

مقامات الذِّكر

والذّاكرون لله تعالى بحسب تواجيدهم بالذكر، فتارة يكون الذكر بالجوارح وتارة يكون باللسان، وتارةً يكون بالقلب وتارةً يكون بالإسرار وتارةً يكون بالإعلان، والجامع للجميع ذاكر كامل مع الصدق والإخلاص.

وقد يكون الذكر يمتد من القلب فينتشر في الجوارح والأعضاء واللسان فيذكر الله تعالى كل عضو بحسب حاله، وهذا ذكر القلب، ولا ثبوت للشيطان مع هذا الذكر، ولا وصول له إلى صاحبه البتة وهو أفضل في حق صاحبه من ذكر اللسان، وليس ذلك لكل سالك.

وتارةً يكون الذكر باللسان والتكرار والملازمة بالموالاة بالذكر لتكون الكلمة

للكلمة كالواحدة لا يقع بينهما تخلل ذهني، يأخذ منه الشيطان نصيبه، فإنه في مثل هذا الموطن بالمرصاد، لعلمه بضعف السّالك عن سلوك هذه الأودية لبعده عن عادته، لا سيما إذا كان قريب عهد بالسلوك وفراق العوائد ما لم يجد على ذلك مساعداً ودليلاً وقائداً، وهو بحسب ما يلائمه في سلوكه من الذكر إن قال: لا إله إلا الله أو قال: سبحان الله أو قال: الحمد لله أو قال: الله الله.

والأصل في ذلك جمع القلب بكليته على الله تعالى ورفع الشواغل عن القلب والاضطرار إليه فهذا هو الذكر وهذه هى الصلاة وهذا هو الدعاء، وقد قيل:

ذكرْتُكمـوا لا أنَّ قلـبي نَسِـيكُموا وأَيسـرُ مـا فِي الـذِّكرِ ذكـرُ لسـاني

أحوال الذاكرين العارفين

وأمَّا الخلوات القلبية، فبحسب السالكين، وما يراه السالك بالمعنى، والخلوات الحسية مشهورة معروفة وهو أن يكون طول القامة في الطول وقدر الجلسة في العرض ولا تكون فيها كوّة أصلاً؛ لأن الخشية من الكوة استراق البصر النور فتقع التفرقة بالمبصرات والظلمة فيها جمعية.

والقصد الجمعية بالقلب وألاّ يكون في شيء خارج عنه وتوالي الذكر كما قدمناه من غير تخلل لا إله إلا الله ولا إله إلا الله، وكذلك ما بين قوله الله الله وهذا أسرع فتحًا للقلب وقربًا من الربِّ ﷻ، وهو أن يذكر بلسانه ويوالي الذكر إلى أن يشارك القلبُ اللسان ويخرق نورُ القلب السموات والشيطان فحينئذ يقوى نور القلب ويستولي ذكره فيضعف ذكر اللسان عند ذلك وتمتلئ الجوارح والجوانح بالنور ويتطهر القلب من الأغيار، وينقطع الوسواس، ولا يسكن بساحته الخناس، ويصير محلا للواردات، ومرآة صقيلة للتجليات والمعارف الإلهيات.

ومنهم من يكون سلوكه على غير هذا المنهاج، فإنَّ طرقهم إلى الله تعالى بحسب عدد نفوسهم وأنفاسهم، وتعرفات الله تعالى إليهم غير محصورة ولا معقولة ولا معلومة، ومنهم من يكون ذكره آية من كتاب الله تعالى كآية الكرسي، ومنهم من يكون خلوته قل هو الله أحد.

وأخبرني ابن العربي[١] أنه أدخل مريدًا له بيته بقل هو الله أحد فرفع في ليلته، وذكر عن نفسه أنه فتح له بها في ربع ليلة.

وكل ذلك بحسب مواجيدهم وطبائع قلوبهم والجمعية بكلية القلب.

وعدم التفرقة في الذكر هي المطلوبة في السلوك وفي الصلاة فإن حضور القلب هو المطلوب في الصلاة، ومتى صلى بغير حضور قلب فليس هذه عند هذه الطائفة صلاة.

وأخبرني الشيخ محمد الموصلي -رحمه الله تعالى- عن دادا عمر عن قضيب البان[٢]، وكان قد صحبه وجرت له معه أمور يضيق الوقت عنها، قال الشيخ محمد:

---

(١) هو سيدنا حضرة الشيخ الأكبر، والمسك الأزفر، والكبريت الأحمر، قُدِّس سرُّه الأطهر، العارف الكبير، محيي الدين بن عربي، ويقال ابن العربي: محمد بن على بن محمد الحاتمي الطائي الأندلسي.

قال الشيخ الشعراوي عنه في كتاب «نسب الخرقة»: كان مجموع الفضائل، مطبوع الكرم والمائل، قد فض له فضلة ختام كل فن، وبلّ له وبله رياض ما شرد من العلوم وعن، ونظمه عقود العقول، وفصوص الفصول.

وحسبك بقول زروق وغيره من الفحول ذاكرين بعض فضله: هو أعرف بكل فن من أهله، وإذا أطلق الشيخ الأكبر، في عرف القوم، فهو المراد... فهو من تغني شهرته عن معرفته.

(٢) هو أبو عبد الله الحسين بن عيسى بن يحيى بن عبد الله الحسني. ذو الأحوال الباهرة والكرامات الظاهرة المتكاثرة، كان عظيم الشأن ورحلة السالكين المعروفين بالعرفان. سئل عنه الشيخ عبد القادر الكيلاني ﷺ فقال: هو ولي مقرب، ذو حال مع الله تعالى وقد صدق عنده، فقيل له: ما نراه يصلي فقال: إنه يصلي من حيث لا ترونه، وإني أراه إذا يصلي بالموصل أو بغيرها من آفاق الأرض يسجد عند باب الكعبة.

وقال الشيخ خليل المالكي ﷺ صاحب «المختصر المشهور»: الولي إذا تحقق في ولايته تمكن من التصور في روحانيته، ويعطي من القدرة التصوير في صور عديدة، وليس ذلك بمحال؛ لأن المتعدد هو الصورة الروحانية.

وقال- وقد اشتهر ذلك عند العارفين-: لما حكى عن قضيب البان ﷺ لما أنكر عليه أحد الفقهاء الصلاة في جماعة ثم اجتمع ذلك الفقيه به فصلى بحضرته ثمان ركعات في أربع صور ثم قال له: أي صورة لم تصلِّ معكم فقبل يد الشيخ وتاب.

=

قلت لدادا عمر أخبرني عن الشيخ قضيب البان بشيء. قال: اخترنا مرة بالجامع وقت صلاة المغرب، فسألته أن يصلي مع الناس وقلت له: يا سيدي، الناس يقولون إنك ما تصلي.. فسألته، فدخل الجامع، فلما أحرم الإمام وأحرم الناس صاح الشيخ بالإمام وقال له: سودت الصلاة، فوقع بالجامع ضجة وتركوا الصلاة وقالوا: لا تصلي ولا تدع الناس يصلون؟ ولحق الامام شيء فلما أفاق قال للناس: بالله اسمعوا كلامي، فقالوا له: قل، فقال: خرجت من بيتي الصبح وأوصتني زوجتي على حِملِ فحم فأُنسيت ذلك إلى أن أحرمت الساعة بالصلاة فذكرته في الصلاة فها أنا أدور عليه الموصل كلها وأنا في الصلاة، فمثلي ما يصلي بمثل هذا.

وإنما ذكرنا هذه الحكاية استشهادًا بأنَّ حضور القلب هو الذكر وهو الصلاة وهو الدعاء، وما عدا ذلك فليس بذكر ولا صلاة.

وقد قلت:

إذا كنتَ فِي قَلبِي وسَمعِي ونَاظِري وفِي لِساني وفِي فَهمي وفِي فِكري

ولَيس لِي شعرةٌ كلا ولا بشرٍ إلا وأنتَ منِيّ مكان النورِ مِن بَصري

فمَا ذكرتُك عَن بُعدٍ ولا حجبٍ إلا لأَقضِيَ به الأوطارَ عن عُمري

أقول: القلبُ الغافل متعرضٌ للعقوبة، ولقد ورد في الحديث: «**أنا جليس من ذكرني**(١)»، ولا يخفى أنّ مَن جلس في مَجلس الملك بقِلّة الأدبِ والالتفاتِ يمينًا وشمالاً، ونظرَ إلى مملكتِه بعينِ الشَّهوةِ وجواريه بعينِ الفسق، ماذا يستحق؟ هذه حالةُ الذاكر الغافل المشغول قلبُه بشهوات نفسه، وأحوالِ مجازاته ومقاصده بحسب حاله.

وسواء في الذكر الحقيقي إذا كان المقصود هو الله تعالى أن يذكره أو يذكر أنبياءه أو رسلَه أو أولياءه أو مَن انتسب إليه أو من تقرب إليه بوجه من الوجوه أو بسبب من

=

مات بالموصل قريبًا من سنة سبعين وخمسمائة. وقبره بها ظاهر يزار.

وانظر: الكواكب الدرية (٤٣٨)، والانتصار للكردي (ص٥٤١)، كلاهما .

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (١٠٨/١)، وابن أبي عاصم في الزهد (ص٦٨).

الأسباب أو بقول أو فعل، بنحو قراءةٍ أو ذكرٍ أو شعرٍ أو غناءٍ أو محاضرةٍ أو حكاية، فذلك بقدر شوقك وحبك.

ويكون قربُك مِن ربِّك في مجالسته بحسب ضرب المثل، والله تعالى متعالٍ عن المجالسة المعقولة وإنَّما ذلك ضرب مثال، فافهم القرب والبعد في نفسك، فإنَّ الله تعالى يطلق القرب والبعد لضرب الأمثال بما يفهموه: ﴿**وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ**﴾ [إبراهيم: ٢٥].

والحقُّ تعالى متعالٍ عن القرب والبعد والمسافة والتقدير فإنّ هذه من صفات الأجسام، والقرب والبعد من صفات العبد، فبُعد العبد من الله تعالى لوجود الحجاب والقفل والران على قلبه، وقربُه من الله تعالى يرفع تلك الحجب عنه، والله تعالى منزه عن القرب والبعد والملاء والخلاء، موجود بذاته واجب الوجود ليس له مثل ولا هو مثل شيء، تعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

فالذكرُ بحسب المواجيد، والمواجيد بحسب تَعرُّف الله تعالى إلى عبيده بحسب قوة كل واحد واستعداده، وبحسب نصيبه من ربه تعالى وإرثه من نبيه وطريقه ومسايرته على قلب الوليِّ الذي سار على قلبه.

وأعرف من يجد قلبه في نغمة طائرٍ وتحريك عودٍ وسماع صوتٍ وإنشاد شعرٍ، وقد قلت:

أراكُم بعينِ السَّمعِ فِي كلِّ ناطقٍ ... ولا ناطقٌ إلا بكم في مسامِعي
ولا ذكرٌ إلا عن لسانٍ ذاكرٍ ... ولا فيضٌ إلا عن مسيلِ مدامعِي
ولا شوقٌ إلا واشتياقِي يشوقُه ... ولا نارٌ إلا في الحَشا من أضالِعي
فإن طمعتْ رُوحي بوصلِي إليكُم ... فلاَ غَروَ لما أن طمعتْ بالمطامعِي
وما لي شفيعٌ فيكم بسواكُم ... ومَنْ لِي إلَيكم غيرُكم بشافعِي

وأعرفُ مَن فُتح له بحكايةٍ حُكِيت، وأعرف شخصًا من الفقراء الصالحين الواجدين حصلت عنده وقفةٌ فاستوحش وامتنع من سلوكه فحدثني في ذلك فقلت له: اسمع مني. فقال: أي والله. فقلت له: ارم كلَّك على الله تعالى فليس يحملهُ عنك غيره

وألقِ نفسك عليه بالكلية ففُتح له في تلك الكلمة وقامَ ورقصَ

وظهر عليه السرور، ولما قيل للسيد الجنيد عند موته: يا أستاذ قل: لا اله الا فأنشد:

إنَّ بيتًا أنتَ سَاكنُه   غيرُ محتاجٍ إلى السُّرجِ

ومريضًا أنت عائدُه   قَد أَتاه اللهُ بالفرجِ

وجهُك المأمولُ حجتُنا   يومَ يأتي الناسُ بالحججِ

ولقد رأيت الشيخ **أبا الطاهر إسماعيل**- رحمه الله تعالى- عند وفاته ولسانه لا يفتر عن الذكر ولا يسمعه أحد، وقال في ذلك الوقت: أين أصحابي؟ والله لا رضيت لهم إلا بالفراديس العُلا.

ثم ذكر شيخه أبا يحيى وقال: يا أبا يحيى، أنا صاحبك في الدنيا والآخرة، فعلمت أن الشيخ قد حضر، فقمت وتجهّزت للسفر معه إلى جبانة قنا، فما وصلت البيتَ إلا وخادمُه قد لَحِق بِي، وقال: قضي الشيخُ، فحملناه بعد أنّ صلَّينا عليه، وسافرْنا به إلى جبانةِ قنا، ودفن هناك رحمه الله تعالى.

وقد كان برباط ابن شعبان[١] فقيران أحدهما اسمه يحيى والآخر مخلص، فلمّا استحضر يحيى قال له مخلص: يا سيدي يحيى، اذكر الله تعالى فقال له: يا ولدي، وإيش نحن هنا نعمل؟

ولقد رأيته بعد موته في المنام فقلت له: يا سيدي أبا الطاهر، أوحشتنا وقعدت في هذه القبور فقال: والله لو جئت عندنا لكان خيرًا.

ولما دنت وفاة الشيخ أبي العباس كان لا يكاد يجلس في مكان وكنت أقول له: يا سيدي، اجلس.. فيقول: يا مبارك، عليَّ أورادُ الأولياء، وعليَّ كذا وكذا، وقد قرب موتي وقد بقي أربعون سنةً - أو شيئًا هذا معناه - ولما توفي بالأقصرين لم أكن حاضرًا، وبلغني أنه توفي ساجدًا لله تعالى.

(١) ذكره الشيخ المناوي في طبقاته الكبرى عند كلامه على الشيخ ابن شافع القنائي (٢/٢٠٣).

ولما دنت وفاة الشيخ ناصر الدين المعروف بابن شعبان وهو شيخه قال: أخرجوني إلى بيتي. فقالوا له: أنت في بيتك. قال: لا. وخرج على دهليز المكان ومسك صهره - وكان حاكمًا - وقال له: دع هؤلاء يخرجونى إلى بيتي. فأصبح توفي إلى رحمة الله تعالى.

وكان مواظبًا على صلاة الصبح في الجامع لا أعلم أنه انقطع إلا لمرض يعجزه عن القيام حتى مات رحمه الله تعالى، وكان يقول إنه ما يفتح له إلا عند الممات، ويعزي ذلك القول إلى فقير قاله له

وكان له ولد يسمى على مرض ليلة فأصبح متألمًا لدرس فاته من الحديث فقلت له: يا ولدي، إذا استرحت نعيده عليك، قال لي: أنا أموت اليوم، وحلف على ذلك فمات بعد العشاء أو بعد المغرب، وكان قبل أن يبلغ الحلم.

ولما دنت وفاة الشيخ يعيش -رحمه الله تعالى- قال: الليلة عرسي، فأصبح توفي رحمه الله تعالى.

ولما دنت وفاة الشيخ جلال الدين سمع قائلاً يقول:

تَعالوا نُجدد عهدَ الوصال فكلٌّ يكلُّ على كلِّ حال

أنواع الذكر

والذكر تارةً يكون بالقلب وتارةً يكون باللسان وتارةً بالجوارح كلها، وتارةً يستولي الذكر على الذاكر فيشهد المذكور فيغيِّبه عن الذكر.

هذا هو الذكر الحقيقي، حقيقة الفناء في المحبة فهي من أعلى الدرجات، وغاية المقامات، يُدي العجائب ويُظهر الغرائب لأن الشكر يستدعي الذكر، والذكر يستدعي المحبة ومَنْ أحبَّ شيئًا أكثر مِن ذكره.

والمحبة وصف لا يوصف، وأمر لا يُعرف، تحار فيها الأفكار ويصغر فيها الكبار ويكبر فيها الصغار، يشيب فيها الولدان ويذل فيها الشجعان، لا تدرك حقيقتها بعبارة ولا يفهم نعتها بإشارة، ارتُكِبت فيها الأخطار والأهوال وتختلف فيها الصفات والأحوال وتتعارض فيها الأقوال والأعمال.

فالناس في عمر الدنيا فيها يتكلمون، وأرباب العقول يحدسون ويحبُّون، ينطق بوصفها كل خطيب وشاعر، وسلبت معانيها الأوائل والأواخر، وكلّ ما ذكروه من الأشواقِ والأتواقِ والإحراق واللهف والأسفِ والشغف والحزن والأنين والوجدِ والغرق والاصطلامِ والفناء والمحو والهباء والسكر والصحو والبقاء والنحول والذبول والأرق والقلقِ والملق والسهر والسهاد والوحدة والانفراد والعزلة والانقياد والبهتة والدهشةِ والحيرة والغيبة والسكون والحركة والسلم والحرب والضمة واللمة والشفاء والسقامِ والغمة والأوهام والبلاء والصبا والبكاء والخضوع والخشوع والدموع والنيرانِ والأشجان والبوح والنوح والكتمان والسر والإعلان والموت والفوت والحيَاة والنشور والتعب والفوق والتحت والعقاب والشهود والخمود والعهود والإطراح والسجن والسراح والعتق والرق والجمع والفرق، وما لا يحصر في كلام، ولا تحدُّه الأفكار والأوهامُ.

فكلُّ ذلك صفات المحبة، وفعلها بالمحب بحسب استطاعته وقوته واستعداده، وهي أعظم مما ذكروا وألطف مما وصفوا، يدق معناها عن المعنى ووصفها عن الصفاء ولطفها عن لطائف العقول والهوى كما قيل:

أَلمَّ بنا وصفٌ يجلُّ عن الوَصف ... أدقُّ من المعنى وأخفَى مِن اللطفِ
تمازجت الأرواحُ وهي لَطائفٌ ... إذا هو روحُ الروحِ والرَّوحُ كالطرفِ

واسم المحبة مأخوذ من حبة القلب، وهي سويداؤه، وقيل من الحباب الذي يطفو على الكأس، وقيل غير ذلك.

وقيل: المحبة نار تحرق من القلب ما سوى المحبوب، وعندي أن ذلك تجلي صفات المحبوب إلى صفات المحب بالاستيلاء حتى يفنيها ويمحقها ويمحو أثرها وعينها، فيبقى بصفات محبوبه وتغيب عنه صفاتُ نفسه، فيسمي باسمه كلَّ شيء وينظره في كل شيء ولا يجد معه شيئًا كما قيل:

إذا شئتِ أنْ تَرضي وأَرضى وتَمْلكي ... زِمامي ما عشْنا معًا وقِيَاديا
ألا فانْظُري الدنيا بعيني واسمعِي ... بأُذُنِي فيها وانطقِي بلِسانيا

سرُّ المحبَّة

وإن كان ذلك فهي إشارات للمعنى واستعارات عن المعنى، وإنما نحن نضرب الأمثال على تقارب الحقائق والأحوال، فإنَّ تجليات الجمال بما يقابل القلوب بالصقال عند استعداد القلوب لرؤية المحبوب، فحيث تتجلى صورة الجمال على قلب المحب مع هذا الاستعداد يستوفيه ويستولي عليه ويلهيه ويغيبه عن نفسه ويذهله عن رسمه كما قيل:

ومــا هــي إلا أنْ بَـدَت لِي فَجـأةً فأَبْهَـتُ لا عُـرفٌ لـديَّ ولا نكـرُ

وأصل هذه الأبيات:

وإنّي لَتَعْـروني لـذِكراكِ فَـتْرةٌ كَما انْتَفَضَ العُصفورُ بَلَّلهُ القَطْر
أمَا والذي أَبْكى وأَضْحك والذي أماتَ وأحيا والذي أمرُه الأمرُ
لقد تركْتِيني أحسُدُ الوحشَ أنْ أَرى أَلِفَين منها لا يروعهما الذعُر
عجبتُ لِسعي الدهرِ بَيني وبينها فلمَّا انْقَضى ما بيننا سكنَ الدهرُ
ومـا هِـي إلا أنْ بـدت لي فَجـأةً فأَبُهَـتُ لا عُـرفٌ لـديَّ ولا نُكـرُ
فيا حبَّها زِدْنِي جَوىً كلَّ ليلةٍ ويا سلوةَ الأيَّامِ موعدُك الحشرُ(١)

وإنما هي من الأسرار الإلهية التي لا تدركها العقول، ولا تخالطها الأوهام والالتباس ولا تخرج في صورة المثال، ولا تنحصر بقيلٍ ولا قال، ولا تُشهد حقيقتها بالعيان ولا يقوم عليها الدليل والبرهان؛ إذ هي الشاهدة لنفسها والظاهرة بآثارها على من اتصف بها.

والحقائق في أنفسها شواهد لأنفسها والدليل لها حجاب عليها، ألا ترى أنَّ الله تعالى شهد لنفسه بالألوهية والوحدانية؛ إذ لا يشهد لذاته العلية بحقيقة معرفته سواه فقال تعالى: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا العِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ**﴾ [آل عمران:١٨].

وكرّر الشهادة، وذكر أولو العلم؛ إذ الشهادة بالعلم غير الشهادة بالذوق، فمن

(١) الأبيات من الطويل، وهي لأبي صخر الهذلي في ديوانه البيت الأول مطلعها، وفي الحماسة البصرية للبصري ص (٨٢٤)، وتم تصحيح ما صحف منه في الأصل.

شهدوا علوا بما عَلِموا وإن لم يعلموا حقيقة ذاته العلية ذوقًا ووجدانًا، وذلك يقتضي الإحاطة بها وذلك مُحالٌ، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

وإنّما يعلمون على قدر ما وسعوه وعلموه، ألا ترى المغناطيس يجذب الحديد جذبًا ظاهرًا معقولا معلومًا لِمَن رآه بالحسِّ من غير ارتياب؟ فلو سألتَ عن حقيقة جذبِه والجاذبِ له ما هو لَما قدرت على تحقيق ما طُلب منك، إلا أن تكون خاصية من الخواص وسر من الأسرار لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى، ولا تقدر على إقامة الدليل.

وكذلك إذا سئلت عن ذوقك لحلاوة العسل ومرارة الصبر، وطلب منك حقيقة ذلك وماهيته لا تقدر على إقامة الدليل في نفس طعم الذوقية؛ إذ هي أوضح من دليلها، وكذلك إقامة الدليل على وجود النهار هو واضح من دليله، فكيف بحقيقة وجدان ذلك فيك وقيامه منك فغايتك بعد قدحك فكرتك وقدح بصيرتك أن ترده إلى الله تعالى خالقه وموجده، فليس لك من علمه إلا ما علمت، ولا من وسعه إلا ما وسعت ﴿**لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾ [البقرة: ٢٨٦].

فالمحبة سر من أسرار الله تعالى.. وقد قلت:

سرى السرُّ في سِرّي إلى السرِّ مِن سري ... فغبــتُ فــلاَ أَدْرِي بــأَنِّي لا أَدري
وأصبحتُ ذا سكرٍ عَنِ السكرِ فِي الْهوى ... بخمــرٍ بــلا سُكرٍ وسـكرٍ بِـلا خمـرِ
وعربــدتُ فِي الكــونين شــرقًا ومغربًــا ... وقـد صـرتُ في سكرٍ يجلُّ عـن السكرِ
فـلا غَـرْو إنْ عربـدتُ تِيهًـا علـى الـوَرى ... ولَمْ ألتفــتْ يومًــا لزيــدٍ ولا عَمْــرو
فعُـــذري لعِـــذري في المحبـــةِ ظـــاهرٌ ... وتـركُ اعتـذارِي فيـك أَوْلى مِـنَ العُـذر

محبّـة الله

والمحبةُ سرٌّ من أسرار الله تعالى يختصُّ بها من يشاء من عباده، وأمَّا محبة الله تعالى لعبده فجائزة، ومحبة العبد له كذلك مع عدم المناسبة ونفي الملائمة والمماثلة من كلِّ وجهٍ، وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿ **يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾ [المائدة:٥٤].

وفي ذلك أقوال من محبته عز وجل لهم ومحبتهم له بحسب حال كلِّ مَن قال.

فمن قائل: محبة الله تعالى لعبده إحسانه إليه، ورحمته له وفضله عليه، ومن قائل: محبة الله له تقريبه له بأوصاف الطاعات وحفظه عن المعاصي والسيئات وإكرامه بأنواع الكرامات.

وكلٌّ من الأقوال له فيه احتمال بحسب ما وجد في مقصده وما قصد، وذلك لأنه ورد:

«ما تقرب إليَّ المتقربون بمثل أداء ما افترضته عليهم، ولا يزال العبد يتقربُ إليّ بالنوافل حتى أحبُّه، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمعُ به وبصره الذي يبصرُ به[(١)]».

وورد: **«ما تقرَّب إليَّ بشبرٍ إلا تقرَّبتُ له ذراعًا و ما تقرَّب إليَّ ذراعًا إلا تقرَّبتُ منه باعًا وما أتاني يمشي إلا أتيتُه هرولةً[(٢)]».**

فانظر إلى ضرب هذه الأمثال مما يفعله من المثال ﴿**وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ**﴾ لأنّ لهم مثال، ﴿**فَلاَ تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ**﴾ لأنه ليس له مثال.

فمحبته لهم جذبتهم إليه، ولا تُعْقَلُ حقيقتها، كما قيل:

قُلْ لذى المُعْرِض عنَّا ... إنَّ إعراضَك مِنَّا
لو أردْناك لأَضحى ... كلُّ ما فِيك يُرِدْنا

كلام في المحبّة

والذي أراهُ أنَّ المحبة أثرٌ إراديٌّ وتخصيصٌ إلهيٌّ واختيارٌ ربانيٌّ، وذلك في القِدم قبل إبراء النسم وخلق اللوح والقلم، ألا ترى إلى ما ورد: **«كنت كنزًا مخفيًّا لا أُعْرَفُ فأَحْبَبْتُ أن أُعْرَفَ فخلقت خلقًا فتعرَّفتُ لهم فبي عَرفوني[(٣)]».**

فكان أصل إيجادهم بالحب واختصاصهم للقرب، فجذبهم حبُّه لهم للمحبة فيه وتعرُّفه لهم بالمعرفة به، ألا ترى إلى قوله تعالى للسيّد موسى عليه السلام: ﴿**وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى**﴾ [طه: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿**وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي**﴾ [طه: ٤١].

---

(١) رواه البخاري (٢٣٨٤/٥)، وابن حبان (٥٨/٢).
(٢) رواه البخاري (٢٦٩٤/٦)، ومسلم (٢٠٦١/٤).
(٣) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١٧٣/٢).

وفي ذلك اعتبار لك وفتحَ بابَ الفهمِ عنه بنوع من ضرب المثال، فإنك إذا اخترت لك شيئًا من الأشياء دون غيره، أو عبدًا من عبيدك دون سائرهم، وأردته وخصصته لذاتك واصطنعته لنفسك فقد ظهر حبُّك له، فكيف إذا صنعت صنعة وحسنتها وجعلتها في أحسن صورة وأكمل خلقة وهيئة وجعلتها على أحسن ما توصف من محسوس، كالصنائع المحسوسة أو صورة معنوية كالمعاني اللطيفة المبتكرة والأشعار الرقيقة المحكمة، وجعلت ذلك لنفسك ولم تسمح به لغيرك، فكيف ترى اعتبار بها ومحبتك لها؟.

فكذلك ما هو ملكك ولم تكن صنعته، كفرسك إذا اخترتها لنفسك بعد كمال صفاتها وحسن هيئتها كيف ترى عجبك بها؟ وكذلك زوجتك أو جاريتك التي أحببتها، وشغفت بها كيف تصطنعها لنفسك، وتختارها لذاتك؟ وليس هذا وإن كان ضربًا للمثال، فالله تعالى لا يُوصف بما وصفت نفسك، ولا يُعرف بما عرفت به معناك وحسك، فإن رحمة الله ليست كرحمتك، إذ رحمتك لغيرك رفعًا للرقة المؤلمة لقلبك حين رحمته وشفقت عليه فما رحمت إلا نفسك، ورحمة الله تعالى ليست كذلك، وهكذا في جميع الأوصاف، تعالى الله عن ذلك، فإنَّ رحمته لا عن رقة ولا ألم، بل رحمته قائمة بذاته، وصفة من أوصافه يرحم بها كلَّ شيء ولا يبالي كما ورد: «**هؤلاء في الجَنَّةِ ولا أُبَالي وهؤلاء في النَّارِ ولا أُبالي**[١]».

وكذلك غضبه، يهلك به كلَّ شيء ولا يبالي، فالذرة من رحمة الله تعالى- على ضرب المثال إذ لا يوصف بالجزء والبعض والكل، وإنما ذلك للتفهيم- إذا نزلت ذرة من رحمة الله وسعت كل شيء خلقه و في حديث أمِّ الفرخ: «**لله تعالى أرحَمُ بعبادِهِ من أُمِّ الفَرْخِ بأَفْراخِها**[٢]»، فهذا نوع من المحبة على زعم من اعتقد أن محبة الله تعالى لعبد يرجو رحمته، وكذلك الإحسان لأن المحب يحسن إلى من أحبه، وكذلك الفضل والعطاء منه ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ [الزمر: ٥٣].

(١) رواه وأحمد في مسنده (١٨٦/٤)، وابن حبان (٥٠/٢).
(٢) رواه أبو داود في سننه (١٨٢/٣).

وما ذكرناه من أنّ أصل إيجادهم للمحبة والمعرفة بالتخصيص الإرادي والسرِّ الإلهي والاصطناعِ الربَّاني فإنَّ المحبة لا يصحُّ معها العذاب ولا يضرُّ معها الذنبُ لقوله تعالى: ﴿**وَقَالَتِ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ**﴾ [المائدة: ١٨] لأن المحب لا يعذب المحبوب، والاختصاص الإرادي والتخصيص الإلهي والاصطناع الذاتي ينافي التعذيب، ويوجب التنعيم والتقريب حتى يلحق به كل من انتسب إليه وفيه حتى ورد:

«**وجبتْ محبتي للمتحابين فيَّ والمتزاورين فيَّ**[1]»، فانظر إلى هذه النعمة التي لا يقابلها مقابل.

وقد قلت:

لا شيء كنتُ أنت كوَّنْتَني ... فظهرْتُ عنك ومنك لا أنِّي أنا
فَقْري إليك حقيقةٌ وتحققٌ ... وعَن العوالمِ كلِّها أنا فِي غِنا
أَعْطِيتَني كلَّ الفخارِ بنسْبَتِي ... عبدًا فصرتُ أَنا وإلا مَن أَنا
إنْ كانَ لِي فيما أردتَ محبةٌ ... فلِيَ المنا ولِيَ الغِنا ولِيَ الهَنا
لم أستطعْ قولاً وفِيك محبتي ... والحبُّ ما منعَ الكلامَ الألْسُنا
ما كنتُ أُذْكَرُ فِي العَوالمِ كلِّها ... اسمًا ولا نعتًا ولا بعضَ الكُنا
حتى نُسبِتُ إليكَ صرْتُ مكرَّمًا ... بينَ الأَنامِ ونِلتُ غَاياتِ المنا

محبةُ العبد لربه

وأمَّا محبةُ العبد ربَّه . تعالى بنفسه . جاذبة له القرب إذ لا يستطيع العبد أن يكون محبًّا لربه لعدم المناسبة ووجود المباينة، وإنما سرُّ جذبه إليه ورده منه عليه وهو في ضرب المثال كجذب المغناطيس الحديد لا يعقل معناه مع تحقيق رؤياه، فالعبد ما أحبَّ اللهَ تعالى إلا بهِ أو بحبِّ الله تعالى كما قيل:

(١) رواه أحمد (٥/٢٢٩)، ومالك في الموطأ (٢/٩٥٣)، وعبد بن حميد في مسنده (١/٧٢).

أعارتْــــه طرفًــــا رآهــــا بـــــه فكـــــان البصـــــيرُ لهــــا طرفهــــا

وقد قلت:

ســرٌّ ســرٍّى قبــلَ خلــقِ اللــوحِ والقلــمِ محجــبٌ بحجــابِ العقــلِ والكلــمِ
سَــرَى إلى سُــدى الأقمــارِ فَانبعثــتْ بنــورِه تجَلِّــي الأنــوارِ في الظُلُــمِ
ولاحَ منـــه لمعـــنى الحُســـنِ مُظْهــرَة ستــرًا مـــن وراء الســجنِ والخــيمِ
فأشــعلتْ نــارَ شــوقِي في القلــوبِ كمَــا ســرت بــين فــروع الضــال والســلم(١)
وأبدلتْــــه مكـــــانَ الـــــبرءِ بالسُّـــــقم فهيَّجـــتْ كـــلَّ صـــبٍّ فِي صــبابتِه
بكـــلِّ عضــــوٍ بهــــا ســــقم تخَلَّلــــه فــنحنُ مــن أجلِهــا جلــدٌ علــى عظــم
يَــبْرِي العظــامَ بأَسْــيافِ الغَــرامِ كمــا يَسْــري بهــا في نُشــورِ البعــثِ والــرَّقم

وسرٌّ سار من وراء سائر العلوم والأفهام، يُستَرُ تارَة بالإحسان وتارَة بالإنعام وتارَة بالامتنان، وتارةً بالإكرام وتارةً في وصف الجمال، وتارةً في نظم الكمال وتارة في صفات الكمال، وتارة في مطوَّرات الأنام وتارةً في تمايل الأشجار، وتارةً في نغمات الأطيار وتارةً في النبات و الأزهار، وتارةً في نسيم الأسحار، وكلَّما لاح وصف الجمال في طور من الأطوار هاج المحب وثار وباح بما عنده من الأسرار، وركب الأهوال والأخطار ومنع النوم والقرار وتلذذ بالتهتك والإشهار، وطاح عنه ما كان من الكتمان والاستتار وصاح بالافتضاح بعد الاعتذار، إنَّ تركَ العار في الحب عارٌ.

وقد قلت:

ارضَ لِي يــا صــاحبي كــلَّ عــارٍ وابــكِ عَــنِّي بالــدموعِ الغــزارِ
لاحَ لِي بـــارقُ الحـــيِّ وهنـــا لمَ أَطِـق بَعْـدَ مـا لاحَ لِي اصـطبار
فأنـــا النـــائحُ الحـــزينُ بشـــجوٍ كلَّمـــا لاحَ بـــارقٌ في الـــديارِ
لا تَلُمـــني عَلـــى احـــتراقٍ بقَلـــبي أحـرقَ الحـبُّ مُهجـتي وهـو نـار

(١) الضال: هو السدر البرى واحده ضالة. والسلم: هو شجر السنط، واحده سلمة.

سترَ الحبُّ بارقَ الحي عني بحجَابٍ أستارُهُ مِن نهارِ
وأتى طائرُ الأراكِ سَحيرا ناحَ عنِّي بسَاحتي ثم طار

درجات المحبّة

والمحبون لله تعالى متفاوتون في درجات المحبة بحسب وجدانهم ووسعهم واستعدادهم وطرائقهم ومعارفهم بحسب تعرُّف الله تعالى إليهم على قدر خلقهم وما أعطاهم في شأنهم ﴿**أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾ [طه: ٥٠].

ومنهم من تعرَّف له من محبته بالإحسان.

ومنهم من تعرَّف له باللطائف والكتمان.

ومنهم من تعرَّف له في محبته بالمقاطعة والحرمان.

ومنهم من تعرَّف له في محبته بالحور والولدان.

ومنهم من تعرَّف له في محبته بالشواهد والبرهان.

ومنهم من تعرَّف له في محبته بالكشوف والأعيان.

ومنهم من تعرَّف له في محبته بالحجاب والرَّان.

ومنهم من تعرَّف له في محبته بالجلال في الجمال.

ومنهم من تعرَّف له في محبته بجمال الجلال.

ومنهم من تعرَّف له في محبته بأوصاف الكمال.

ولنقتصر على هذا؛ إذ البحر عميق، والسابح فيه غريق، وكل واحد من هؤلاء الأوصاف وإن لم يجد من الماء إلا السراب، ولم يسمع من الخطاب إلا طنين الذباب بالنسبة إلى علو المقام، واستحقاق الرتبة العرية عن الأوهام، فكلٌّ يعتقد أنَّه لم يصل أحد إلى ما وصل إليه وإن ثقل المجيد ما حمل عليه كما قيل:

وكلٌّ يدَّعِي شغفًا بليلى وليلى لا تقرُّ لهم بِذاكا
إذا انهلَّتْ دمُوعٌ في خدودٍ تبيَّن مَن بكا ممن تَباكا

من علامَات المحبّة

وأمَّـا الأشـواقُ والأتـواق والحـرق والقلـق واللهـب والتعـب والأسـف واللهـف والرسيس، والحزن والكمد والكآبة والأرق والسهاد والبكاء والعويل، والتلف والشغف والسقام والغرام، والنحول والذبول والرعشة والدهشة والحيرة والبهتة، والفناء والاصطلام والمحو والانعدام، والهباء والصحو بعد المحو، فكلُّ ذلك وإن لم يستوفه من صفات ظاهر القلب وباطن الجسم، وإن ظهرت عليه آثاره، والقلب والكبد والفؤاد، والشفاف والصميم والسر والضمير وسر السر وقلب القلب، فكلُّها حقائق معنوية لا يعبر عنها إلا بالاصطلاح، ولا سبيل إلى ذوقها إلا بالوجدان، وكلُّها من علامات المحبة لا حقيقة نفس المحبة.

وقد توجد بعض هذه الصفات في المتحابين من الآدميين، كقيس بن الملوح وعروة بن حزام[١].

ومن كان على مثل حالهم قد بلغوا إلى ذهاب العقول وموت النفوس، ولا تحققوا بالمحبة ولا موت المحبوب، ولا عرفوا إلا ما عرفوه من وصفهم ووجدانهم به.

ولسنا نبسط القول في صفات المحبة والمحب؛ لأنه يستدعي أوقاتًا واسعًة وآذانًا واعيًة وقلوبًا حاضرًة وبواطنًا بالله تعالى عامرًة، وإنما قصدُنا التشويق ونبذة يسيرة من كل مقام، وإن كنا لم نستوف المقامات إلا بالإيماء والإشارات إذ كل مَقام فيه كل مُقام ويشاركه كل مقام بحسب من ينسب إليه؛ إذ المطلوب من الجميع واحد.

وهذه الأوصاف التي ذكرت من المحبة هي نوع واحد من أجزاء أوصاف المحبة، فلا يقدر على رفعه إذ كل سالك يجد ذلك وإن لم يجده سالكٌ فما سلك، لأنه في الوصف يستدعيه فإنَّ العطش يستدعي الرى، والعلم يستدعي المعلوم، والناظر يستدعي المنظور، وهذه العلامات تستدعيها المحبة بوصفها.

وقد قلت:

عويلٌ ولكن ليس يحرِّني عن البعدِ وشوقٌ على شوقٍ ووجدٌ على وجدِ

(١) انظر: الأغاني (٣/٧٤)، (٢٤/ ١٢٣).

وبالقلبِ مالوا بالجبالِ لصُدِّعَتْ ... وبالنَّجمِ لم يطلعْ بنحسٍ ولا سعدِ
وبي مِن هوى: نعم غرامٌ لو أنَّه ... بصلدٍ لعيل الصبرُ بالحجرِ الصلدِ
وأصبحتُ من داءِ الفراقِ كأنَّني ... حليفُ الضنا والبينِ من ساعةِ المهد
رماني الهوى بالصدِّ والبينِ والقِلى ... كأنَّ النَّوى شيءٌ خُلِقتُ لَه وحْدي
ولوعةُ بينٍ جاوزَ الوصفُ حدَّها ... فلم تنْتهي بالصبِّ يومًا إلى حَدِّي

مقام الإحسَان

وأمَّا تعرُّفُ الله بالإحسان لمحبة العبد له، فما يخفى في العرف أن من أحسن إلى شخص كائنًا مَن كان أحبَّه ذلك الشخص، والإحسان يتفاوت وتتفاوت المحبة بحسبه، فكلّما زاد الإحسان زادت المحبة.

فكيف بإحسان الله تعالى إلى من أوجده من العدم، وأسبغ عليه سوابغ النعم، وخلقه في أحسن تقويم، وكرمه بأعظم تكريم، وسخر له ما في السموات وما في الأرض، وحتى ذهاب أرواح الحيوان لأجله، مع مطعمه ومشربه ومنكحه وملاذه وشهوات نفسه في كل نسمة أو سمة أو تنفس نفس نعمة لا تحصى؟

ولا يخفى أن من كان لا شيء فأصبح فوجد نفسه وقد كان نائمًا في العدم فأصبح وجد دارًا وديارًا وفرشًا وزوجات وغلمان وأثاثًا وآلات وكلَّ نوع من الأرزاق والفواكه والمطاعم والمشارب والملابس والأذواق، والمحسوسات والمعنويات.

وكان لا يدرك شيئًا من ذلك ولا يعلم ما هنالك فوجد له عينًا يبصر بها جميعَ الألوان والمساكن والجنان وملكوتَ السموات والأرض، وأذنًا يسمع بها الأصوات واختلاف اللغات وإدراك القبيح من الحسن وسائر المسموعات من الأصوات الطيبات والنغمات اللذيذات، وكلام رب العزة والقرآن وغير ذلك.

ووجد له لسانًا يتكلم به عمَّا في نفسه من العلوم وما يهجس في النفوس من الخواطر والنيات وما يحدث من الحاجات، ويجاوب به غيره عمَّا يتكلم به معه فيه وسر اللسان كثير.

وكذلك وجد له ذوقًا يستطعم به الحلاوة من المرارة، والملوحة من العذوبة، ويفرق

ما بين مطعوم الأطعمة، ويتلذذ بكلٍّ منها على حسب طعمه، وكذلك وجد له مشامًا يدرك الأرياح الطيبة من الخبيثة على اختلاف أنواعها وأجناسها من الرياحين والشمومات كلها، والمسك والعنبر والنّدّ والعود والقرنفل وكل مشموم يفرق به بين المطبوخ من الأطعمة بالمشام، وكذلك في سائر هذه الحاسية.

وكذلك حاسية اللمس يدرك فيها جميع الملموسات من الخشونة والنعومة والحرارة والبرودة، ويرى به في جميع معانيها المخلوقة لها، وجعل له يدًا يبطش بها وينتفع بها في مأكله ومشربه ومدخله ومخرجه، ويدفع بها عدوَّه وكتابة ما يحتاج من ذلك، ويدًا أخرى لقضاء حاجته، وللمس ما يختار أن يلمس بيمينه، وكذلك جعل له رجلين يسعى بهما في مهماته وحركاته وسكناته إلى انتهاء النفع بهما، وجعل له بطنًا يجمع له فيها من الغرائب والعجائب ما قدَّمنا ذكره من أحوال القلب والأسرار الإلهية، وما لا يسع هذه العجالة شرحه وستر ما فيه عن الناس وجعله أمينًا عليه ووكَّل به من يحفظه له، وفيه ما لا يحتاج ذكره، وكذلك جعل البطن الذي هو محل الطعام والشراب ورمي الفضول وأخذ الطيب، وجعل لذلك مدخلاً للطعام ومصرفًا للتفل وستره عن أعين الناظرين وغيرَ ذلك، وجعل في النفس أمورًا وخواطر وسترها عن الخاص والعام، فلو اطَّلع أبوك وأمك على ما في نفسك لمقتوك، وهو مع هذا كلِّه يستره عليك مع عصيانك ومخالفتك له.

وفي بعض ذلك كفاية، فلو انتبهت من نوم عدمك إلى يقظة وجودك وجدت هذه الخيرات كلَّها وهذه المعاني كلّها لك، وعلمت من نفسك أنَّك عاجز عن بعض ذلك وتحققت وقيل لك: لم تحيرت في أمرك؟ وسألت عن من فعل لك ذلك؟ فقيل لك: فعله لك عظيمٌ قادرٌ قاهرٌ غنيٌّ عالمٌ حيٌّ باقٍ مريدٌ فعَّالٌ متصفٌ بأوصاف الكمال ويستحيل عليه النقصان، لا يقدر أحدٌ أن يصل إليه إلا به، ولا يعرفه الا بتعرفه، مالكُ كلِّ شيء وخالقُ كلِّ شيء، وهو على كل شيء قدير وهو السميع البصير، خلقك وأعطاك هذا كلَّه وجعله ملكك، وإذا شكرته زادك وهو يحبك، وإذا أحببته زادك، وإذا تقربت إليه تقرب إليك أكثر مما تقربت إليه.

فأنت لا شك تحبه بكل قلبك وتشتهي أن تراه وتستحث نفسك على رؤيته ولو

أن نفسك تهلك عليه، لا سيما إذا عرفت أنك إذا قُتِلت فيه أعادك أحسن إعادة وأبقاك أحسن بقاء وأحياك أحسن إحياء.

فبهذا تجد المحبة له بطبعك ولا تقدر على ترك حبِّه أبدًا؛ إذ أنت تجد من نفسك إذا أهدى لك شخص هدية مرّةً بعد مرةٍ من غير تقدم إحسان، كيف تجد في قلبك من محبته؟ والاعتناء بأمره والقيام بحقه وخدمته في غيبته وحضوره- فكيف إذا لاطفك بكلامه ومكاتباته وأحسن إلى أصحابك وغلمانك؟ فانظر ما بين الحالتين، وشتان ما بين الوصفين مع كونك تعلم أنه ما فعل ذلك إلا بمراد الله تعالى وتقديره، وتشتهي أن تكافئه وتقابله على فعله، فأين الشأن من الشأن؟ و﴿**هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ**﴾؟ فهذا نوع من تعرف الله تعالى على عبده بمحبته له بالإحسان.

ويليه التعرُّف الثاني: بالمحبة بما وعده به في الدار الآخرة من الحور الحسان والغرف في الجنان، وما وراء ذلك، فهذه العوالم الأخروية التي يعجز عنها اللسان ويقف دونها الجنان، وذلك معروف في القرآن، وقد قام عليه الدليل والبرهان فلا حاجة فيه على بيان.

جمَال الجلاَل وجلاَل الجمَال

ولنذكر الثاني: الجامع في حق الإنسان في حقوق الله تعالى لمحبته في معاني الجمال وصفات الكمال، وكذلك جمال الجلال وجلال الجمال، وذلك محبوب بالضرورة في كل صورة حسِّية أو معنويةٍ ظاهرةٍ أو باطنةٍ، مشهودةٍ أو مسموعةٍ.

وقد يهلك خلق كثير في المحبة والعشق بسماع المحاسن في ذلك، لأن صورة الحسِّ في السماع تظهر في لطافة التخيُّل والتفكر على أحسن ما يتخيل ويتفكر في المسموع عنه، فيحبه وحيث تقع رؤية التفكر بعد حاسية السماع ويتجلى في مرآة التخيل قويت المحبة واشتدَّ الشغف، وكان تجلي الصورة في المرآة ألطفُ من شهودها فيقع التهتك من قبل رؤيةِ عين الحسن، وحصل ذلك لجمع كثير، و أعرف شخصًا من الفقهاء المفتيين حصل له ذلك غير مرةٍ وأحبَّ مرةً صورةً مصورةً في حجر.

وقد قلت:

وأحببتُكم مِن قبل رؤيةِ ناظِري ... سماعًا وأُذني مثلُ عيني تَعْشقُ

يخـيّلكم فكـري فأَشـتاقُ وَصـلَكم ويَشْـهدُكم سمعـي فـأَبكِي وأَطـرقُ
فطـرْفِي مطـروفٌ ودمْعِـيَ سـاكب وجسْـمِي محـروقٌ وقَلِـبي مخفـقُ
ومـا جُعِلَـتْ نـارُ الأسى في جَوانِحي علـى بُعـدِكم إلا لأنيَّ أُحـرقُ

وأمَّا إذا كانت صورة الحسن ظاهرة في الحس كصورة السيد يوسف ﷺ فقد وقع في ذلك ما لا ينحصر، لأنَّه قيل أنَّه مات في يومٍ واحدٍ من شهود رؤية الصدّيق أربعون ألفًا، وقيل أنَّه لمّا دخل على مصر أقام الناس أربعين يومًا مبهوتين بالنظر إليه لا يأكلون ولا يشربون، فانظر إلى هذه الحالة التي قامت بهم والمعنى الذي اصطلَمهم والسرَّ الذي أخذهم كما قيل:

معني به يَسْبي العقولَ سوى الذي يـدعي الجمـال ولسـتُ أرى مـا هـو

وهذا فيما شهدوه من حسن صورة السيد يوسف ﷺ، وكيف لو شهدوا صورة الحسن التي حسنُ الصورةِ لها كالحجابِ عليها، كستارة الشمس بالسحاب، فما ظنُّك بتجلِّي ربِّ الأرباب بكمال صفات الجمال من وراء العقول، والحجاب لمرأى القلوب والألباب من غير شك ولا ارتياب، هل يثبت لهذا التجلي الإنسانُ؟ أو يبقى مع وجوده ليلٌ أو نهارٌ؟ ألا ترى قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً**﴾ [الأعراف: ١٤٣]؟ هذا ولو كُشِفَ حجابُ العزةِ لأحرقتْ سبحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، والانتهاء هنا حدٌّ للموجودات لا حدٌّ لرؤية البارئ ﷻ وتنزّه وتقدّس وتعالى.

صفَات المعاني وصُورة الحس

ولنرجع إلى محبة صفات الكمال من غير رؤية لحقائق الذات ولا تحديد لمعاني الصفات، وإن جازت الرؤية في هذه الدار لكن مع عدم الأغيار، والاستقراء موجود في محبة صفات الكمال لسماع الآذان ورؤية العقول والأذهان.

فإنك إذا سمعت بكمال مكارم الأخلاق في أيِّ شخصٍ كان أحببته، وإن لم تره كما ذكرنا أولاً في المحبة بالسماع بحسن الصورة، وهذه صورة الحس؛ لأن الكمال الذاتي محبوب، فإذا سمعت بكريم مطلق الكرم لا تخصيص في كرمه ولا يضجر من الطلب ولا

يردَّ الطالبَ، ولا يسأم العطاء ولا يملّ السؤالَ، وهذا على الاستمرار والدوام، وكذلك العالم في كمال علمه واطلاعه وكشفه، وكذلك في مكارم أخلاقه وحسن صفاته، والوفاء بكل صفة مطلوبة منه، ألستَ تحبُّه؟ فانظر إلى صورة نبيك محمد ﷺ وقولِ ربِّك ﷻ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

وانظر إلى محبتك له واعتقادك فيه، وكذلك حين قصَّ عليك قصصَ الأنبياء -صلوات الله عليهم وسلامه- وكذلك صفة الملائكة السادة وصفة السيد جبريل عليه السلام، فانظر كيف تجدُ قلبَك في المحبة والتعظيم؟ لأنَّ صفات المعاني أجمل من صفات الحس، فكيف بمن جمع بين الحس والمعنى؟ وقد قلت:

يا جامعَ الحسنِ في خَلقٍ وفي خُلقٍ	يا كاملَ الوصفِ في الأَخلاقِ والشيّمِ
يا مالكَ الحسنِ بالخُلقِ الجميلِ ويا	معنى الكمالِ الذي في الجودِ والكرمِ
يا خاتمَ الرسلِ يا كنزَ العصاةِ ويا	خَيرَ البريةِ من عُربٍ ومن عجمِ
جذبتَ بالحبِّ مغناطيسَ القلوبِ إلى	سرِّ الجمالِ الذي لم تُبده نِعَم
وقمتَ في الرُّسلِ عالٍ فوقَ رتبتِهم	في أمةٍ أصبحتْ تعلو على الأممِ
شُقَّتْ عليك قلوبٌ في محبتِها	وقلدت في الوَغى أجيادُها بدمِ
قد نلتَ فوقَ الذي ما قالَهُ أحدٌ	مِنَ الأنامِ بما قَد خُطَّ بالقلمِ
وَلِي إليكَ احتياجٌ إنْ مننتَ بِه	عندَ الإلهِ فقُلْ ما شئتَ مِن ألَمِ
فهُوَ العليمُ بما في القلبِ مِن أَلَمٍ	وهو الحكيمُ الذي يُشفِي من السّقمِ
صلَّى عليكَ إلهُ الخلقِ قاطِبة	قبلَ الصلاةِ وقبلَ الخلقِ في القِدمِ

أحوال صفات الجَمال وصفات الكمَال

وإذا عرفت صفات الجمال من صفات الكمال، وأنَّ صفات الكمال محبوبة إذ الرضاع للطفل محبوب حتى ينفطم وتقوى عنده شهوة الأكل؛ فلا يرجع إلى ثدي أمه أبدًا، فإذا بلغ الحلم واشتدت شهوة النكاح عنده ترك لأجلها شهوة الأكل وعَمِل

عليها أكثر مما عداها، وتُرْتَكبُ الأهوالُ في تحصيلها، حتى إذا ظهرت له صورة العقل والكمال، طلبت نفسه العلوَّ والرئاسةَ، وحينئذٍ يترك لهما شهوة النكاح وكلَّ ما كان دونها وطلب صفات الكمال، وشغف بها الشغف الكليّ وأحبَّ كلَّ من اتصف بها من نبي أو وليّ أو صديق حتى استُكْمِلَت في رسول الله ﷺ، فأحببته هذا الحب الذي هو حقيقة إيمانك وحُبك لربِّك ﷻ.

وإذاكان هذا حبك لصفات الكمال المخلوقة في نبيك، فما ظنُّك بصفات خالقك ﷻ ومالكك وموجدك من العدم المحض؟! واجب الوجود والكرم وكمال صفاته وعلو ذاته العلية القديمة الأزلية، وخالق كل شيء، ومالك كل شيء، موجد الموجودات من العدم، وباعث الأموات والرّمم، فمحبتك له تعالى وتقديسه بحسب ما تعرَّف إليك به من محبته بأوصاف كماله وجماله وجلاله وعلو شأنه وعنايته، واستحقاقه للكمال من وجه وبكل وجه، واستحالة النقص عليه من كل وجه وبكل وجه، وهي صفة قديمة باقية قائمة بذاته.

فلو ظهر لك منها لمحة بارقٍ أو خيال طارق، لردَّك إلى الفناء بالإلحاق واستولى على وجودك الذهابُ والمحاقُ، ولصارت ذاتك بعد الوجود إلى العدم لاستيلاء صفات القدم؛ لأنه لا مقابلة لصفات الحادث بصفات القديم، ولا ملائمة له في الحديث ولا القديم، فكيف اذا تجلّي الذاتُ؟ ورفعَ حجابَ العزةِ عن الوجه الكريم، ونورِ السبحات إذاً لأحرق الكون بالكلية ولانعدمت الأولية والأخروية.

أخبرني الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- أن فقيرًا حصل له حضور فلم يملك أن يبول ومسك ذَكَرَه، ومات لقوة الحضور والشهود، فلم يجد في الكون مكانا يبول فيه فمات.

وقد هلك جمع كثير من قوة الحضور والشهود، وإن كان هذا الشهود من حيث أنفسهم وظهور الحق لا قوة للبشرية على تجلِّيه فإنه يفنيه ولا يبقيه ﴿**فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً**﴾ [الأعراف: ١٤٣] فلولا ما منَّ به من الألطاف من حجاب الرحمةِ على هذه الأوصاف لذهلت العقول وطاشت الألباب ولشغلهم ما أدهشهم عن الطعام والشراب، ولانقطع النسل من عدم النكاح وانفصل العقل عن

محلِّه وطاح، وتخرَّبت هذه الدار واندرست العوالم والآثار وبطلت المعايش والمكاسب، وذهب إلى البراري كلُّ ذاهب ولكانوا كالوحش في القفار ولغابوا عن معرفة الليل والنهار، فلمَّا حجبهم بالعقول والعلوم، وأبقى عليهم الأطلال والرسوم، وثبت فيهم الشرائع والأحكام، وفرق ما بين الحلال والحرام، وأرسل الرسل مبشرين ومنذرين، فبلغوا الرسالة وأدُّوا الأمانة وقاموا بما أمرهم وحذروا مما حذرهم، وأوضحوا السبل وأقاموا الدليل ونصحوا الأمة ورفعوا الغمة، وأظهروا الحكم وبينوا النعمة من النقمة، فاستجابت لهم أرباب العقول وحكموا عليهم بالمعقول والمنقول، وبيَّنوا الضلال من الهدى والبصر من العمى، وظهر الخليل والكليم، والتعديل والتقويم، وقامت الصفات المحمدية بالكمال وختمت بعد كمال الدين بالإرسال.

وبقي من بقي ممن لاح له بارقةٌ من صفات الجمال ولمحةٌ من آثار صفات الرحمة أو الجلال، لا يعقله عاقل ولا يحجبه حاجب، غير ما لمح من ذلك الجمال قد سُلبوا العبارة ورفعوا الإشارة فلم تحكم عليهم الشرائع بحال، ولا رتبت على أقوالهم وأفعالهم فعال، تلاحظهم العيون ويرميهم أهل العقول بالجنون، قد ذهلوا عن الأوامر وغابوا عن الصغائر والكبائر، فمنهم من تراه في جنونه عاقلاً وهو في عقله مجنون، ومنهم من تراه فاتنًا وهو في فتنته مفتون.

وقد قلت:

مجانينٌ في البيداء صَرعى مِنَ الهوى ... وليسَ لهم إلا الوصالُ طبيبُ

يخبرُهم عنهم فلا يُخبرونَهم ... ويذكرُ فيهم عشقَهم فيغيبُوا

ويذكرُ أيامًا بالحِمى قد مضتْ لهم ... فتحيي بهم أشواقُهم فيطيبُوا

هُم القومُ لا يدرُون أين توَّجهُوا ... وليسَ لهم إلا الحبيبُ حبيبُ

وأعرف فقيرًا بأُسوان يُسمَّى الحلواني كان عليه ثوبٌ أزرقٌ صاف، وكان يصيح بهذا ويقول:

لأَلْبِسنَّ عليكم أزرقًا صافي ... وأقولُ في حبِّكم وا قلةَ إنصافي

وكان يؤثِّر في القلوب، ويوجد البكاء من قوة حاله، وكان يدور ويقول هذا الكلام، وكان له صاحب كنت أجلس أنا وإياه أكثر الليل على ناحية البحر ونذكر حديثه، وكان كالمولِّه، ولقد طاح مرّةً بنفسه من مئذنة الصيرفي إلى الأرض، وتحته الجبل، وهي من المآذن الشواهق، فلم يصبه شيء فسئل عن ذلك، فقال:

قــدَّرتُ يــدي في يــدِ حبيــبي وطِحْــتُ فلــم يضــرَّني

وقد قلتُ:

قد غبتُ عن العذلِ وأعطيتُكم كُلِّي وطاحَ مني بكم يا سادَتي عقْلِي
إن كنتُ لأرتَجِي في الحبِّ بكم وصْلي قتَلْي بكم طيبٌ لا حبٌّ بلا قتلي

ورأيت فيها مولهًا آخرَ وكان عجيب الأحوال لا تنضبط أحواله.

ولقد رأيت بمكة -شرفها الله تعالى- شخصًا مكشوف الرأس مخيط الأكمام لا يخرج يده لأحد ولا يأخذ شيئًا - وكان من العبَّاسيين من بيت الخلافة - وكان يضع رأسه على حجر في المطاف في وقت الظهيرة أيام الصيف، وكنا لا نستطيع الطّواف من شدة الحر وحرارة الشمس وحدِّها، وهو على تلك الحال، ولا يكلم أحدًا غير أنيّ حصل لي ضعفٌ وأشرفت فيه على الموت، فطلع إلي وأنشدني بيتًا من الشِّعر - وأظنُّه كان فيه بشارة بتأخير الأجل - وقيل لي: إنه لم يتكلم منذ كان بمكة شرفها الله تعالى سوى تلك الساعة بذلك الشعر.

وكنت أعرف فقيرًا جلس يتكلم في شيء من المحبة، فسمع صريرَ السقف وتمايُلَ الحيطان.

وقد قلت:

طربتْ لحسنِ حديثِك الألحَانُ وتمايلتْ طربًا له الحيطانُ
وترنَّمَ السقفُ المخيمُ فوقَها وبَدَا له عمَّا به الكتمانُ
شوقًا إليك وإنها لجَوامد فعَلامة حَالة الوَاله الحَيران
فقلوبُ أهلِ العشقِ فيك طروبةٌ تسري لك الأرواحُ والأبدانُ

لا تستفيقُ من الغرامِ محبَّةً   فالكلُّ من كلٍّ به سكرانُ

ولقد كنا ليلةً بمسجد القرابة بظاهر قوص - وكنا ثلاثة أو أربعة - وجرى الحديث في الطريق إلى الله تعالى أو في محبة الله تعالى، وكان بالقبة قنديل معلق وكانت تحته أرض مجصَّصة، فسقط القنديل على الجصِّ و [استقر(1)]على كعبه لم ينثلم منه ذرةٌ وبقِيَ يَقُد علينا.

وكان بأُسوان شخص اسمه- محمد القميّني- وكانت له أحوال عجيبة، وكان لا يصلي ولا يصوم، وضربه الحاكم وحبسه، وكان قد وقع في كلام أيضًا، أفتى بعض الفقهاء بكُفرِهِ، وكنتُ تحدثت مع الحاكم في تركه لما تحقّقت أنه غير مخاطب، وسألت عنه من يعرفه بحضرة الحاكم،كفخر الدين بن الكمال رحمه الله تعالى فقال: رأيته ذات يوم وقد خرج من الحمام بما عليه من الهدمة أو غيرها مبلولة، وقعد على التراب وجعل يأكل التمر والحصى لا يفرق بينهما، ورأيته وقد عض على أنملته والدم سائل على لحيته وخرَّ حتى اتصلَ بالأرض، وهو لا يعقل على ذلك.

وأخبرني الشيخ يوسف بن العابد - وكان جارًا له - قال: إنه كان بمكانٍ بجواري يُسمى دار الحدقة على حالةٍ واحدةٍ ليلاً ونهارًا، لا يستظل من الشمس في النهار ولا من البرد في الليل، فقلتُ للحاكم: ما هذه حالة من يحكم عليه بما يحكم على أهل العقول؟ فقال: إنَّه في بعض الأوقات يقرأ القرآن ويلعب الشطرنج، ومن كان بهذه المثابة كيف لا يعقل ما يجب عليه؟ قلتُ: إنَّ كل ما كان محفوظًا في الذهن قبل استتار العقل يبقى مرسومًا في مرآة ذهنه بعد استتار العقل، فتراه يفعله عادةً لا عن عقلٍ.

وكانوا يخبرون عنه عجائب من الكشف، ولهم فيه اعتقاد كبير، وبها توفي وقبره يزار هناك، وكان شيخه كما ذُكر بدمشق في قمين الحمام على هذه الحالة، وقد قلت:

نسيتُ في الحُبِّ روحي   وقد غابَ عنيِّ صِلاتِي

وكان في الحبِّ موتِي   فصار فيه حياتِي

قتلي عليه مباحٌ   فعجِّلوا بوفاتِي

---

(1) في المخطوط جلس.

لا شـــيء أطيـــبُ عنـــدي مـــــن شـــــربَتي وســـــقاتِي
وســـكرِتي طـــولَ عُمـــري فيهـــا الحيـــاةُ لـــذاتِي

ولقد رأيت آخرَ على قريب حاله، ورأيت مولَّهًا كان بمدينة قوص يلعب في التراب بالنوى والحصى، ويقول:

مـــن أتبـــعَ الـــنفسَ هواهـــا لا يـــدخلُ الجنـــةَ ولا يراهـــا

يكرر ذلك دائمًا، فانظر إلى هذه الإشارة أخذها من قول الله تعالى:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى* فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

فتدبُّر الخطاب يقتضي أنَّه إن لم ينهها عن هواها وأتبعها مناها لا يدخل الجنة و لا يراها.

وأمَّا الزينُ الوَلِهُ الذي كان بمدينة قوص أيضًا، وإن لم أكن اجتمعت به لحالات مختلفات، وكان أصحابنا يجتمعون به يمشي بادي العورة، وربما مشى في طلب شيء من الخبز برجله ويطعم الكلاب ما يعطوه، وكان يخبرهم بالعجائب، وكان يأوي إلى قبر، وعرَّفهم بموته في قبرٍ معروف فوجدوه ميتًا فيه.

ورأيتُ شخصًا آخرَ وكان من أهل قوم وكان يتكلم كلامًا كثير الغرائب من الكلام والمواعظ مختلف العبارات والأحوال، وليس في ذلك خروج عن الشرع، وكان يصلي، وتوجه إلى الحجاز الشريف ورمى بنفسه من المركب ومات، وقيل أنه قال: يا بحر الله، خذ عبد الله.. وقلت:

بقـاءُ نفسـي في يـومِ النوى عجبٌ لأنَّ مـوتِي مـن بعـضِ الـذي يجـبُ
ومـا بقيـتُ ونفْسـي لستُ أملكُهـا ولـــيس لي في حيـــاتِي بعـــدَهم إربُ
ومـدَّعي الحـبَّ قبـلَ المـوتِ منهم دعـــواه إن لم يمـــت في حبِّـــه كـــذبُ

ورأيت شخصًا يُسمَّى شافعٌ بالأقصرين مُولهًّا كان يطعم الكلاب، ويأوي المقابر.

ورأيت شخصًا آخرَ ببلاد الأشمونين كانت له حالة عجيبة تستولي عليه، لا

سيما إذا جرى الحديث في هذه الطريقة الشريفة، يصيح صيحةً عظيمةً ويغيب غيبةً عظيمة، وكان يجتمع بي كثيرًا ثم يغيب، وكانت أحواله عجيبة تعجبني، ودخل بعد ذلك في الأسباب للعيال بالشهادات وغيرها، فلم ينضبط حاله لاستيلاء الأحوال عليه، وكان يحكي لي الغرائب والعجائب من أحواله، وله قصيدة عجيبة كقصيدة السيد عمر بن الفارض رحمه الله تعالى التي هي نظم السلوك وعلى وزنها، وهو ابن الصابوني رحمه الله تعالى.

من آثار محبة الله

وأعرف شخصًا كان نصرانيًا وأسلم -رحمه الله تعالى- يُسمى إسحاق، وتوجَّه إلى الله تعالى، وأسلم أولادُه وزوجتُه، وكان له أحوال وبكاء وسهر لا يكاد يفتر ساعةً واحدةً فقيل له في ذلك؟ فقال: كنت أعشق امرأةً، وكنت لا أنام، وأتسلق الحيطان فكيف بحبي لله تعالى؟ وبنى زاويةً وأقام بها ودفن بها رحمه الله تعالى.

وأخبرني الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- قال: كان مروان شيخ الشيخ مسلَّم البدوي نصرانيًا، وكان يبيع الملح والحناء، وكنا ننبسط عليه، وكان بمدينة منوف، فأسلم وتوجه إلى الله تعالى، وكان منه ما كان وصار شيخًا، ومن بعض مريديه الشيخ مسلَّم.

وأخبرني الشيخ إبراهيم الواسطي -أو الموصلي- وكنا بالأقصرين، قال: دخلت على الشيخ أبي الغيث(١) باليمن فرأيته أدمًا أحمرَ العينين فقلت في نفسي إنك عبدٌ

---

(١) أبو الغيث بن جميل، بحر الحقائق، موضع الدقائق، الملقب شمس الشموس اليمني، عارف تأرّج الكون بعرفه، وصوفي ظهرت الأسرار على لسان كشفه، منزله محط الرحال، وملجأ أرباب القال والحال، ينثر على الناس جواهره الفاخرة، ويزجرهم بمواعظه الباهرة.

وكان من قطاع الطريق، فخرج لذلك مع أصحابه، فقالوا: اصعد هذه الشجرة، انظر من يمر في الطريق، فسمع قائلاً يقول:

يا صاحب العين، عليك العين

فوقع ذلك من قلبه، فنزل منكسر القلب، صفيًّا خاضعًا، وطرح ثيابه وسلاحه، وهام على وجهه حتى وصل إلى الشيخ على بن أفلح بزبيد، فأقام عنده مدة طويله حتى ظهرت عليه الكرامات، وتوالت منه =

وَحِش، فحين خطر لي ذلك رفع رأسه إلى وقال لي: عبد وحش يا إبراهيم وأنت من أصحابي؟

قال: فلم أملك رجلي، ووقعت على الأرض وقبلت قدميه وبكيت. فقال: اسكن. فلما سكنت قال لي: أتعرف سبب توبتي؟ قلت: لا قال: يا إبراهيم، أنا كنت مقدم خمسمائة سيف ودرقة في قطع الطريق، وكانت فيَّ خصلة ما كنت آخذ رَكْبًا فيه امرأة خشيةَ أن تنتهك، قال: فبينما أنا نائم وإذا قد جاء ركب فقال بعضهم لبعض خذوا هذا الركب، فقالوا: حتى يستيقظ المقدم، فقال بعضهم: إن استيقظ ما يدعكم تأخذونه لأن فيه امرأة، وأنتم محتاجون، فخذوه، فأخذوا الركب وكان في الركب امرأة فأخذوها، وراودها واحد عن نفسها فامتنعت، فقتلها وزنى بها ميتة. قال: فسمعت صيحةً عظيمةً فانتبهت واستيقظت، فوجدت الأرض قد أخذت الرجل الزاني على نصفه فما وصلت إليه إلا وقد خسفت به الأرض، قال: فوضعت سيفي ودرقتي هناك فهذا سبب توبتي.

قال إبراهيم: وأقمت عند الشيخ أبي الغيث أيامًا، أو أحدَ عشرَ يومًا، فرأيت منه أنه طلب ذات يومٍ إلى السلطان الملك المنصور، فدخل عليه شخص وبيده غلٌ فقال له: عليك سمعًا وطاعةً لمولانا السلطان، فقال الشيخ: نعم فتشوش الفقراء فقال الشيخ: لا يجيء معي إلا إبراهيم، قال: وكان عند الشيخ تقدير خمسة آلاف فقير، فركب الشيخ دابة وخرجتُ معه إلى الخيام -وكان السلطان بالخيام- فدخلنا على السلطان ووجدنا عنده رجلاً فقيهًا وأظنُّه الذي وَشى بالشيخ والله تعالى أعلم هل كان ذلك أم لا وجلس فقال له لسلطان: يا شيخ، علمني الكيمياء. فقال الشيخ: وإيش تكون الكيمياء؟ وكان الشيخُ رجلاً بدويًا لا يعرف هذه الأشياء، فقال له: بتستهبل عليَّ؟ إن لم تعلمني الكيمياء شنقتك، فجعل الشيخ يده على خده وجعل يقول: كيمياء ما أعرف كيمياء ما أعرف. فطلعت سحابةٌ من البحر فاسوَّد الجوُّ وظهر ريحٌ عاصف فقلع خيام السلطان ورمى بها على الخيل، فمات له ستة رءوس خيل، ووقع الضجيج

=

خوارق العادات.نشر المحاسن (٣٧٠،٢٩٨،٧٢)، روض الرياحين (٥٥)، جامع الكرامات (٢٨٣/١).

في العسكر، وخشينا أن تكون القيامة قد قامت، فوضع السلطان رأسه تحت ذيل الشيخ وقال: يا سيدي، إن كنت ما ترحمني فارحم المسلمين، قال: فجعل الشيخ يسكن والريح يسكن إلى أن رجع الحال على ما كان عليه وتاب السلطان، وكان السلطان حينئذ الملك المنصور عمر بن سلطان رسول اليمن -رحمه الله تعالى-.

قال إبراهيم: ورأيت من الشيخ أبي الغيث -رحمه الله تعالى- أنه دخل على أصحابه فوجدهم قد عملوا أسرَّة في الأخصاص التي هم بها، لأَّن في الأرض حيوان شديد القرص يسمى القعموس، شبيه بقرص الحيوان الذي بالحرم الشريف، فأمر الشيخ بحرق تلك الأسرة والأخصاص وقال: صحبتموني على الراحة في دار التعب. وبقوا ثلاثة أيام حتى شفع فيهم بعض أصحابه أن تكون أخصاصًا بلا أسرَّة.

وقال: قال لي الشيخ أبو الغيث -رحمه الله تعالى-: يا إبراهيم، وعدني ربِّي ﷻ أن كل من قطعت عليه الطريق يكون من أصحابي ولم يبق عليَّ إلا تاجرًا أخذت له عشرة آلاف درهم، قال إبراهيم: فبينما نحن جلوس والخادم قد دخل على الشيخ وقال: يا سيّدي، رجل تاجر يطلب الإذن عليك فأذن له قال: فدخل الرجل، فقام الشيخ وقال: لا اله إلا الله، هذا والله الذي قطعت عليه الطريق وأخذت له عشرة آلاف درهم، ثم قال: يا أخي، أخذت لك عشرة آلاف درهم في الوقت الفلاني في المكان الفلاني، فقال: يا سيدي، قد أبرأت ذمتك منها وهذا جميع مالي قد خرجت عنه لله تعالى، قال: وتاب وحلق رأسه وبقي من جملة الفقراء.

فانظر رحمك الله إلى هذا التخصيص الإراديّ والأثر الرحمانيّ والمحبة الإلهيّة التي ما ضرت معها الذنوب، وقادَ إلى السعادة الجمَّ الغفير فسعد وسعد به من رآه بحسن الاعتقاد حتى من قطع الطريق عليه، وكان قطع الطريق إشارة إلى انقطاعهم عن الدنيا ورجوعهم إلى الله تعالى.

أحوال أهل المحبة الإلهية

والمحبون لله تعالى متفاوتون في درجات المحبة بحسب استعدادهم وجذبهم إلى الله تعالى: فمنهم المخطوف، والمجذوب، والسكران، والواله، والتائه، والواقف، والصاحي، والغارق، والذاهب، والراجع، والصامت، والناطق، والبائح، والكاتم، والسابح، والنائح،

والصائح.

فمنهم المأخُوذ

حكى لي الشيخ عبد العزيز رحمه الله تعالى أن الشيخ عسكر النصيبيني أقام أحدَ عشرَ سنةً مأخوذًا حتى نبت القصب بين أصابع رجليه ثم رجع بعد ذهابه، وصحى من سكرته، وعقل من بعد توهانه، ولبس الثياب الرقيقة، وقيل له في ذلك فقال: رجعت من الله إلى رسوله ﷺ، وهذا كلام يدل على أنه رجع من الأحوال وغلبتها إلى المعارف وشواهدها، ومن غيبته في الله تعالى عن الأشياء إلى شهوده الأشياء بالله تعالى، ومن رفع الوسائط لغلبة استيلاء الأخذة بجميعه الحضورِ والشهودِ إلى رؤية الوسائط بالله تعالى ومن الله تعالى وسماع كلام الله تعالى على لسان رسول الله ﷺ بقوله تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾ [الحشر:٧].

وهي درجة الكمال وحال العارفين.

وأنشدني الشيخ عبد العزيز رحمه الله تعالى للشيخ عسكر النصيبيني -رحمه الله تعالى-:

قد كان يُسكِرِني مزاجُ شرابِه   واليومَ يصحِّيني لذيذُ صرفِه
ويغيبُ رُشْدِي عندَ أوَّلِ نظرةٍ   واليومَ أستحليه ثم أرفه

ومنهم المبهوت

وأخبرني الشيخ الحموي عن والده قال: قال لي: إنِّي رأيت محمود السوراني الرومي وقف ثلاث سنين مبهوتًا والنحلُ يدخل في فمه ويخرج، وهو لا يعلم فانظر إلى هذا الاصطلام المتوالي والأخذةِ المطبقةِ، وقد قلت:

سلبُوا عقلي مِنّي   أخذُوا قلبي عَنّي
لستُ أدرِي كيفَ أَدري   كيفَ عقلِي كيفَ جنِّي
غيَّبَني فيه حضوري   وسُروري فيه حُزني
فَفُنُونِي فِي جفُونِي   وجُنُونِي فيه فَنِّي

ومنهم الشاخص إلى السماء

وحكى لي الشيخ أبو العباس الملثم -رحمه الله تعالى- قال: رأيت شخصًا واقفًا وقد سفي السافي على نصفه وهو شاخصٌ ببصره إلى السماء وفاه مفتوح ويداه مبسوطتان، فصعدت إليه ومسكت يده فوجدتها رطبة، وسألت عنه فقيل لي: له كذا كذا سنة منذ وقف هذه الوقفة. رضي الله عنه ورضي عنا به.

وقد قلت:

شربتُ بكأسِ الحبِّ خمرًا بلا خمرِ ... فبي سكرةٌ منه تجلُّ عن السكرِ

فغيَّبني عنِّي فلا أنا حاضرٌ ولا ... أنا أدْرِي أنَّني فيه لا أَدْري

فسيَّان عِندي اليومُ والدهرُ كلُّه ... وسيَّان ماضي العمرِ أو باقِي العمر

فإنْ كنتَ ذا جهلٍ بما صنعَ الهوى ... فها خَبَرِي يُنبْيِك عَن كُنهِهِ خبري

ومنهم الغائب

ومنهم من كان يحضر في وقت ويغيب في وقت آخر كالشيخ أبي الطاهر، كان بعض الأوقات يُؤْخَذُ ثلاثةَ أيامٍ كما بلغني لكن كان أكثر أوقاته محفوظة عليه مما يجب من العبادات والأوراد وغير ذلك، وكان ذلك في وقت.

ومنهم من كان يخلي جسده ويصيرُ كالفخارة التي لا روح فيها، كما أخبرني عيسى بن مظفر -رحمه الله تعالى- عن الشيخ شمس الدين الأصفهاني -وكان عالِمًا عاملاً ومدرسًا، وكان حاكمًا بقُوص، وكان له صحبة بالشيخ وليِّ الدين على الكردي[١]- قال زين الدين عيسى: أخبرني الشيخ شمس الدين عن السهْرَوردِي الشهيرِ قال: كان يخلي جسده ثلاثةَ أيامٍ ثم يرجع إلى حاله الذي كان عليه.

ومنهم من تحفظ عليه عبادته

ومنهم من يحفظ عليه وقته حين أداء الفرائض الواجبات كما أخبرني الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- عن فقير أنه كان يؤخذ إلى أن يؤذن المؤذن فيحضر فإذا صلى الصلاة أخذ إلى الصلاة الأخرى، هكذا كان حاله.

---

(١) هو صاحب الوصية التي أجاب عنها وشرحها الشيخ الأكبر، وهي شرح روحانية الشيخ على الكردي-تحت قيد الطبع بدار الكتب العلمية- مع رسائل أخرى، .

وحكى لي عن ابن أخت الشيخ حسين النَّجار السعرتي، قالَ: سألتُه بجامع مصر عن الشيخ حسين، هل أخرج يده من الكفن بعد موته وصفق؟ فإنه كان يشهر عنه ذلك لأنه كان في طول ليله ونهاره مشغولاً بآلاتِ الطربِ من الدفوف والشبابات إلى حين أوقات الصلوات فيصلِّي ويعود إلى حاله، قال: هو خالي وشيخي، وأمَّا إخراج يده فلم يقع، لكني أذكر لك الذي وقع وما كان عليه.

كان الشيخ حسين -رحمه الله تعالى- يقول لأصحابه الفقراء: يا فقراء، أنتم مريدو حسين ولاّ مريدو أنفسكم؟ فيقولون: يا سيدي، مريدو حسين فيقول: من صلى منكم غير الفرض أنا بريء منه في الدنيا والآخرة، ومن صام منكم غير رمضان أنا بريء منه في الدنيا والآخرة، والعبوا، وكان مستغرقًا في حاله إلى أوقات الصلوات فإنه كان يحضر فيها، وكان لا تفارقه الشبابة والدفوف من بعد ما يصلي إلى وقت الصلاة الأخرى، لا ليلاً ولا نهارًا.

وكان أكابر البلاد ينكرون عليه من ذلك، وكانت قوة حاله تمنعهم من الإيذاء له، وكانوا لو أَعطوا الفتوحَ للنَّصارى ما أعطوه له لأنَّهم رأوا شيئًا لم يكن عليه الفقراء ولا عَرَفُوه، فكان الناس يكونون في شهر رمضان في قراءة القرآن وصلاة التراويح، وهو على تلك الحال، فلما كان يومٌ من الأيام قال الشيخ: اطلبوا النقيب فحضر فقال: أحضروا الفقراء فحضروا قال لنا: أنتم مريدو حسين أم مريدو أنفسكم؟ فقلْنا: مريدو حسين قال: فأنا اليومَ الفلانِي أموتُ، وكلّ مَن قال خلف نعشي: لا إله إلا الله أو قال شيء من ذلك أنا بريء منه إلا كما كنا في الدنيا نكون في الآخرة.

قال: فلما كان اليوم الذي ذكر أنه يموت فيه أصبح بوجهه إلى القبلة ومات، فبقينا متحيرين أو متفكرين كيف نعمل فيما قاله لنا؟ فجهَّزناه وكفَّناه، ووضعناه في النعش، فوقع الخلاف بين الفقراء: فمنهم من يقول نخرجه على عادة الناس لأنا إنْ أخرجناه كما قال خشينا على أنفسنا من الناس؛ لأنَّه كان له حال يمنعهم منه ونحن نخشى منهم، وقال آخرون: هذا شيخنا وما خالفناه قط فنخالفه ساعة وفاته، أهذا ما نفعله؟ فاتفق الحال على ألاّ يفعلوا ما قاله، ولا يفعلوا عادة الناس ويحملوه وهم سكوت، قال: فلما اتفقنا وقصدنا حمله فلم نقدر على حمله فوضعنا أيدينا في النعش

فلم يرتفع، فجمعنا الفقراء على حمل النعش فلم يستطيعوا حمله فشاع ذلك في المدينة فكلُّ من كان يسيء الظن قال: ما قبله الله تعالى، ولما ظهرت هذه الآية العظيمة خرج السلطان وقاضي القضاة وجمع السلطانُ الناسَ وجعلوا المحاجن في سواعد النعش على أن يحملوه فلم يستطيعوا حمله ولم يتحرك من الأرض.

قال: فبقينا نعيب بعضنا بعضًا وقلنا لو فعلتم ما قاله الشيخ ووصَّاكم به لم يقع هذا الذي وقع، وكنّا قد استرحنا من هذا فسمعَنا الحاكم فقال: يا فقراء، هذه الطائفة لها أسرار مع الله تعالى فأشتهي تخبروني ما هذه القضية؟ قلنا له: القضية كيت وكيت وقصصنا عليه القصة، وما وصى به الشيخ فعرَّف القاضي السلطانَ، فأرسلَ السلطانُ وأحضر الملاهي، فعندما غنُّوا وضع أربعة أيديهم في النعش فحملوه فحلف السلطان أنه ما يركب ويمشي حافيًا.

قال: وحملناه فلم يمكن أحد يصل إليه من كثرة الناس والنساء والبنات وصُلِيَ عليه وامتلأتْ تلك الساحات من الجبال والتلال وغيرها، أو كلام هذا معناه.

فلمَّا صلَّينا عليه أردنا حمله فلم نقدر نحمله فقال السلطان: يا فقراء، بقي معكم وصية أخرى؟ قلنا: لا قال: فبينما نحن كذلك وإذا بفقيرٍ أقبل من البرية فتقدم وصلَّى على الشيخ فسألوه عن الشيخ هل عنده علم به؟ فقال: نعم، هو شيخي، وقال لي إنه يموت هذا اليوم، وأنه ينتظرني حتى أحضر وأصلي عليه، وأنا جئت من اليمن، وقال إن نعشه لا يحمل حتى يقرأ عليه هذه الأبيات، وأخرج رقعة من مرقعته مكتوب فيها:

يـــاويْلتي مِـــنْ قلِـــبيَ القَاسِـــي ... ومـــا جَـــري منْـــه علـــى رَأسِـــي
الفقـــرُ موجـــودٌ لِمَـــن يشْـــترِي ... وإنَّمـــــا الآفـــــةُ إفْلاسِـــــي
إنْ تُنْكِـــــروا دَنِّي وشِـــــبابَتِي ... وهـــزَّ عَطْفِـــي بـــينَ جُلاسِـــي
لا غَـــرو أنْ أَفتُـــوا علـــى علمِهـــم ... لأنَهُـــم مـــا شـــربُوا كاســـي

قال فلمَّا غنَّى المغني هذه الأبيات، وضع أربعة أيديهم في النعش فحملوه ودفن [بقبر ظاهر يُزار] سره قدس الله تعالى روحه ونوَّر ضريحه.

بيان الوجه الشرعي لمن توجه على ظاهره إنكار

فانظر إلى هذا الاستغراق الدائم، والحضور مع الله تعالى الملازم، وهذه اللذة التي استغرقته طول عمره، وهذه الأخذة التي سلبته صفات نفسه ورؤية غيره، وهذا الحفظ الذي حفظ به أوقات الواجبات من الصلوات والصيام، وفي قوله لأصحابه: «كل من صلى منكم غير الفرض أو صام غير رمضان أنا بريء منه» ففيه إشارة، وعنها أجوبة، منها حديث الأعرابي الذي سأل النبي ﷺ عما افترض الله تعالى عليه من الصلوات الخمس والزكاة وصوم رمضان والحج؟ كما ورد في الحديث المشهور:

«قال: يا رسول الله هل عليَّ غيرُها؟ قال: **لا إلا أن تطوع فأدبر الأعرابي يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه**، فقال رسول الله ﷺ: **أفلح إن صدق**[(١)]».

فهذا وجه الاستدلال، وفيه اطّلاع الشيخ على أصحابه وأحواله وجمعية قلوبهم على التفرقة في الأعمال، وفيه ما تقرَّب إلى المتقربون بمثل ما افترضته عليهم، وجمعية القلوب على الله تعالى هي المطلوبة في الصلاة وفي غيرها فإذا فاتتهم الجمعية فلا فائدة بكثرة النوافل، مع تفرقة القلوب عن الله تعالى والاشتغال بشواغل الأوهام من دواعي النفوس وما يحدث فيها من الأهوية المختلفة الحاجبة عن جناب الله تعالى، فهذا وأمثاله من شأن الشيخ المربي المطلع على قلوب أصحابه ومعرفته بدوائها وسقامها.

وأمَّا قولُه: «كل من قال خلف نعشي: لا إله إلا الله، فأنا بريء منه».

يريد -قدس الله روحه- ألا يتكلموا بهذه الكلمة إلا حقيقة، لا سيما في تلك الحالة التي تذهل، فإن من فارق مثل هذا الرجل العظيم الشأن يذهل عقله ويضطرب ولا يحقق ما يقول لشغل خاطره بما نزل به، وفي ذلك إشارة لما وقع في وفاة النبي ﷺ، وكون السيد عمر رضي الله عنه ذهل وقال: من قال: إن رسول الله ﷺ مات علوته بسيفي هذا،

---

(١) رواه البخاري (١/٢٥)، ومسلم (١/٤٠).

وأقعد السيد عليّ كرم الله وجهه مع شهامته وشجاعته وهمَّ أن يقوم فلم يستطع.

وليس مرادنا إلا أنه قد يكون عَلِمَ منهم أن قولهم لا إله إلا الله لا يكون بالمحل الذي يرضاه لهم ولا يرضاه لنفسه؛ إذ هو في الصدق مع الله تعالى في مدة حياته وبعد وفاته، ومن ذلك قول أبي يزيد لمريده في الحكاية المشهورة لأنه كان له مريد من المتفقهة وكان يرى أصحاب الشيخ يفتح عليهم فقال له: يا سيدي، ألست من أصحابك؟ قال: بلى قال: أولست أقوم بالوظائف التي يقومون بها؟ قال: بلى قال: فلم لا يفتح عليّ كالفتح عليهم؟ قال: قلب محجوب قال: فبماذا؟ قال: بنفسك فقال: فهل لهذا من دواء؟ قال: نعم قال: فداوني قال له: انزع هذه العمامة وهذه الثياب واحلق رأسك ولحيتك وحف قدميك وخذ مخلاة مملوءة جوزًا، ومَن صفعك من هذه الصبيان أعطه من الجوز شيئًا فقال: سبحان الله تقول لمثلي هذا؟ قال: لا تقل سبحان الله فإنك إنَّما استعظمْت نفسك فسجنتها.

والذي قاله الشيخ ﷺ متوجه؛ لأنه لم يقل سبحان الله إلا للتعجب من الشيخ، لم يقصد تنزيه الله تعالى ولا تسبيحه، كذلك صاحب العلاوة، وإذا قال: صلُّوا على محمَّد فليس قصده إلا أن يُفسح له الطريق، وكذلك السماسرة إذا صلُّوا على النبي ﷺ أو سبحوا فإنما ذكره لتحسين السلعة.

إختلاف معاني «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ» بحسب حال القائل

وفي قول العبد «لا إله إلا الله» بعد الإسلام كلام كثير في تحقيقها كلّما ردَّدها إذ كل من قال: «لا إله إلا الله» لابد له من معنى غير المعنى الأول.

وليس ذلك لمن قال «لا إله إلا الله» في أول الإسلام إذ ذاك نفي لما سواه فيما يتوهم فيه الألوهية من الأصنام، وغيرها من سائر المعبودات من دون الله تعالى.

أمَّا مَن كان مسلمًا وآباءه وأجداده فكيف يكون ذلك في حقه؟ لا سيما لمن عقل أن نفي النفي محال، وإثبات الثابت محال، فإن نفيهم لما سوى الله تعالى من الألوهية فلم يكن سواه حتى نفوه، وإثباتهم لألوهية الله تعالى فإنها لم تزل فما نفي في الحقيقة ولا أثبت وإنما ذلك نفي توهموه، وإثبات لما جهلوه وعموا عنه.

وأمَّا تردد الذكر فإنه أن يكون مرةً بعدَ مرةٍ إلا بمعنى غيرَ المعنى الأول :- وأدنى

درجات الذاكر أنه كلما قال لا إله إلا الله لا يكون في نفسه شيء غيره إلا ونفاه من قلبه ويلتفت إليه في حالة ذكره فقد أنزله منزلة الإله من نفسه لقوله تعالى: ﴿**أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**﴾ [الفرقان:٤٣].

وقوله تعالى: ﴿**لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ**﴾ [الإسراء:٢٢]، وقوله تعالى: ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ**﴾ [يس:٦٠].

والحديث الوارد: «**تعس عبد الدنيا وتعس عبد الدينار**(١)».

وإن كان الدينار والدرهم لا يعبدان بحالة سجود ولا ركوع، وإنما ذلك بالتفات القلب إليهما فلا يصح منه لا إله إلا الله إلا بنفي ما يجده في نفسه وقلبه مما سوى الله تعالى.

ومن ذلك قول الشيخ عبد الرحيم - قدس الله تعالى سره - قلت مرة: لا إله إلا الله ثم لم تعد لي، وكان في تيه بني إسرائيل عبد أسود كلَّما قال: لا إله إلا الله ابيضَّ من رأسه إلى قدمه ويعني الكلام.

وبتحقق العبد بقول لا إله إلا الله بحر عميق ليس هذا موضعه، فإنها حالة من أحوال القلب لا يعبّر عنها اللسان ولا يقوم بها جنان(٢).

وأمَّا الشهادة باللفظ فلا تكفي إلا للخروج من الكفر إلى الإسلام، ولذلك ورد في الحديث: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقِّها وحسابهم على الله تعالى**(٣)».

والحديث أيضًا في الذي قال لا إله إلا الله: «**هلا شققت عن قلبه** (٤)».

وليس هذا موضع الكلام في تحقيقها، وإن كانت خلاصة الخلاصة من

---

(١) رواه البخاري (١٠٥٧/١).

(٢) أفرد كثير من أهل العلم تصانيف في موضوع الكلمة المشرفة، كلمة الإخلاص منهم: الشريف الجرجاني ٧٤٠ هـ، والبدر الزركشي ٧٤٥ هـ، وعبد الله الهبطي ٩٦٣ هـ، وابن مسعود اليوسي ١١٠٢ هـ، وإدريس بن أحمد الشريف الحسني الوزاني ١٢٧٥ هـ، والشيخ ميارة، ومحمد قطب من المعاصرين.

(٣) رواه البخاري (٥٠٧/٢)، ومسلم (٥٣/١).

(٤) رواه مسلم (٩٦/١)، وأحمد (٢٠٧/٥).

التوجهات، وهي مفتاح حقائق القلوب، وترقِّي السالكين إلى عوالم الغيوب، وإنما أردنا أن نُشير إلى ما أشار به الشيخ لأصحابه خشيةً من أن يعترض معترضٌ أو ينكر منكرٌ من غيرِ علم، وقد قلت:

ألا أيَّها اللاحِي على الحبِّ والهَوى ... ثكلتْكَ مَن لاحَ يلوحُ على الحبِّ
أَتلْحَى ولا تلحَى على التاركِ الهَوى ... وتركُ الهوى عِندي عظيمٌ من الذنبِ
وتُنْكرُ أحوالَ المحبين جهرةً ... ولا في الهَوى عيبٌ ولا فيِه مِن عيبِ
كأنَّك لم تسمعْ بما صنعَ الهَوى ... ولم تدرِ ما بُعدَ الديارِ من القربِ

ومما حكاه لي الفقيه جمال الدين محمد بن سدوس نفع الله تعالى به قال: كنت أدخل على الشيخ أبي يحيى ﷺ فأجده كالْمَلكِ والناسُ بين يديه لا ينطقون كأنَّ الطير على رءوسهم ويكون عندي سؤال في نفسي فيتكلم الشيخ أبو يحيى قدس الله تعالى روحه ويقول: جرى لأحد أصحابي كذا وكذا أو فعل كذا وكذا فأجد الجواب من غير أن يعلم أحد.

وجئت شيخي يومًا فوجدته مشغولاً مع العيال فقال خادمي: تروح إلى الشيخ الحسن لعل نجد حاجتنا عنده قال: فمضينا على الشيخ الحسن -قدس الله تعالى روحه- فما وجدت الحال التي أعهدها من الشيخ أبي يحيى، ولا النظام الذي أعرفه من الفقراء الذين عنده ولا أحوالهم في آدابهم معه، وذكر ذكرًا خفيًا وقدَّمني للصلاة فخرجت من عنده وأنا في ألمٍ منه - أو قال كلمة شذّت عني- قال: فحلفت ألاّ أفتح لخادمي ثلاثةَ أيام لكونه ضيَّع عليَّ ذلك النهار.

قال: فنمت تلك الليلة فرأيت في المنام كأنّ مَلَكَاً نزل إلى قنا، ومعه جنّة ونار، وقائل يقول: من لم يدخل الجنة أدخلته النار فقلت والجنة لمن؟ قال: للحسن ابن عبد الرحيم، قال: ففكرت في نفسي أو قلت في نفسي: أنا أسأت به الظن كيف أعمل؟ ثم قلت: إنَّ الفقراء إذا أذنب أحد واستغفر قبلوه، فأنا أروحُ وأستغفر.

قال فتوجهت إليه، فوجدته على منبر والناس دونه فدنوت منه، ولم أخبره بما جرى مني في حقه، بل سألته الجنةَ؟ فأعطاني مفاتيحها وقال لي: هي لك إن شئت أن

تدخل أو لا تدخل.

ثم استيقظت من منامي فما بقي يمكنني إلا الرّواح إليه.

فرحت إليه، وضربت الباب ففتح لي الشيخ، فكشفت رأسي ووقفت في الاستغفار فقال لي: ما بالك يا محمد؟ قلت يا سيّدي، أنا أستغفرُ الله تعالى فقال: يا ولدي العقوبة على قدر الذنب، فقد لا يقتضي ذنبُك كشفَ رأسِك، فقلت: يا سيّدي، اتفق لي أمس عندك كذا وكذا حين كنت عندك، ووقع عندي إساءة الظن، فرأيت البارحة كذا وكذا، وقصصت عليه الرؤيا فقال: يا محمد، هي لك إن شئت أن تدخل أو لا تدخل، كما قيل لي في المنام.

فبينما نحن كذلك وإذا بالباب يُطرق، فقمت لأفتح فمنعني الشيخ -رحمه الله تعالى-.

وهذا المنع عندي فيه من الشيخ للمريد تأديبان: أحدهما ألاّ يُتعدى على منزله بغير إذنه، والثاني :ألاّ يستخدم ضيفَه.

قال: فقام الشيخ وفتح الباب، فدخل رجلٌ أعجميٌّ، فجال بعينه الواحدة، فرأيت الشيخ سلَّم عليه سلامًا كثيرًا ما سلَّمه على غيره، والتفت إليَّ وقال: سلِّم على الشيخ فسلَّمتُ عليه، وقلت: يا سيّدي ومن هذا الشيخ؟ فقال لي: هذا الشيخ محمد السائح.

قال: فبينما نحن نتكلم إذ دخل أحد أصحاب الشيخ فقال: الأمير عند الشيخ أبي يحيى والقاضي أو شيئًا من ذلك، وذكرَ شيئًا فقال له الشيخ الحسن: اقفلوا الباب؛ فما وقتنا يسعُ أحدًا.

ثم قال: خلُّوه مفتوحًا؛ سوءُ اعتقادِ أهل «قنا» فينا ما يدع أحدًا يجيءُ إلينا، فقال له الشيخ محمد: وأيُّ شيءٍ يعتقدوه؟ أو أي شيء معتقدهم؟ فقال يعتقدون أنِّي أفسد أولاد الناس وحرمهم وأضرب الزغل، فقال الشيخ محمد: أبشر أبشر أبشر، فقال: بماذا؟

فقال الشيخ محمد السائح: سمعت - أو كنت في السياحة - وسمعت براهب في صومعته يجمع له الناس في كل سنة من جميع الأماكن في وقت مخصوص فيطَّلعَ عليهم

من صومعته ويشير إليهم فيرجعون مسرورين بالمغفرة.

قال: فسافرتُ إلى أن وصلت ذلك المكان في ذلك الوقت المخصوص، فرأيتَ الناسَ كأنَّهم حُشِروا للحشر، وإذا بالرّاهب قد طلع وأشار إليهم فرجعوا مسرورين فلمَّا لم يبقَ أحدٌ ناديتُ: يا راهبُ، فاطَّلع عليَّ فقلت له: واللهِ لا فارقت هنا أو تُطلعني إلى عندك فانظر في أمرك قال: فلمَّا عَلِمَ مني الجدَّ نزل وقلعَ حجرًا وأدخلني في موضعه وردَّه إلى مكانه وأطلعني الصومعة.

قال: فوجدتُه على دين السيِّد إبراهيم عليه السلام، وبين يديه الصحفُ، ولم تبلغْه الدعوة فقلت له: ما اسمك؟ فقال لي اسمي «أفرسم».

فقلت: منذ كم سنةٍ وأنت هنا؟ قال: منذ خمسين سنة.

فقلت له: إنَّ هذه الشريعة نسخت بشريعة نبيِّنا محمّد ﷺ فقال: بماذا جاء؟ فقلت: بالقرآن فقال: اقرأْ عليَّ شيئًا، فقرأت عليه فقال: هُوَ هُوَ، أشهد ألاّ إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسولُ الله.

ثم سمَّيته عليًا، ثم سألني عن السُّنة؛ فجلست عنده أحدَ عشرَ يومًا فما بقي يحتاج إلى شيء لأنه كان عالِمًا في نفسه.

قال: ثم نزلتُ من عنده وسافرت إلى بلد يضيق الوقت عن ذكرها وطولها وعرضها قال: فبينما أنا أمشي وإذا أنا بشيخ يمشي وخلفه خمسمائة فقير وكأنَّ الطير على رءوسهم، وبين يديه شاب جميل الصورة قال: فمشيت معهم إلى أنْ وصلوا إلى المسجد الجامع فدخلوا وتقدم الشيخ فصلى بهم، ووقفوا خلفه ولم أجد لي مكانًا أصلي فيه في الصف، ففسح لي شخص وأدخلني في الصف على سجادته، فلما سلَّم نظرت إليه لأجده عليًا الهنديَّ -أي الراهب الذي كنت عنده- فقلت له: شيخ علي؟ قال: نعم. فقلت له: وما الذي جاء بك إلى هنا؟ فقال لي: لَمَّا فارقتني وجدت عندي شوقًا إلى إخوانِي الفقراء، فنزلت وطفت البلاد فوجدت هذا الشيخ، وطريقه عجيبة فامضِ معنا ننظر هذه الطريق، فقلت له: وما هذا الشاب؟ فقال: هذا خادمه، وعنده خادم أحسن صورة منه اسمه عمر.

قال: فمشيت معهم إلى أن وصلوا إلى دار عجيبةٍ تصلح للملوك، فطرق الباب ففتح عمر، ودخلنا إلى إيوان جلس الفقراء جميعهم في الإيوان، وربما لم يكمل ودخل

الشيخ إلى خلوة له، قال: وفي القاعة فسقية كبيرة والفاكهة كثيرة فمدَّ عمر أطباقَ مشمشٍ قبلَ أن يمدَّ الطعامَ، فرأيت شيئًا ما رأيته قط، فمددت يدي وأخذت حبَّةً من المشمش متعجبًا لها، فلاحت مِنِّي التفاتة، فنظرت إلى عمر الخادم فأخذ من قلبي، وأكل الفقراء وفرغوا وعندي غيبة أو بهتة، وإذا بعلي الهندي الراهب وضعَ يدَه عليَّ لأجد الناس قد فرغوا من الأكل، وإذا بالشيخ يقول: أحضروا الفقير الوارد عليكم.

قال: فأخذوا بيدي كما يؤخذ من يوقفوه بين يدي الملوك، فلما أوقفوني بين يديه قال لي: يا محمد قلت: نعم قال: أعجبك المشمشُ وأعجبك الشابُّ؟ فقلتُ: يا سيدي، أنتم جواسيس القلوب فقال الشيخ: خذوا هذا الطبق المشمش والشاب وهذا الفقير وأدخلوهم هذه الخلوة -وأشار إلى خلوة- واقفلوا عليهم وهاتوا المفتاح، قال: فأدخلوني والشاب والطبق الخلوة وأقفلوا علينا الباب، فعندما جلست وإذا بالمشمش قد صار حيّات وأحدقوا بي، وإذا الشاب قد انقلب خنزيرًا وظهرت أنيابه وتقدم إليَّ.

قال: ولحقني من الخوف والألم والبكاء ما لا أقدر على وصفه، وبقيت أستغيث فلا أُغَاث، والفقراء الجميع قد كشفوا رءوسهم وهم يبكون ولا يتجاسرون عليه بالشفاعة لعلمهم به.

قال: ولم أزل على ذلك الحال حتى طرحَ عليَّ الهنديُّ نفسه على باب خلوة الشيخ وقال: يا سيِّدي، سألتُك بالله إلا ما عفوت عنه؛ فإنَّه كان سببَ دخولي في الإسلام، وفي هذه الطريقة الشريفة، قال: أخرجوه فأخرجوني وأوقفوني بين يديه قال لي: محمد، كيف كان حالك مع معاشيقك؟ فسكتُّ ولم أستطع جوابًا، ثم قلت لعليٍّ الهنديِّ: أشتهي أن تأخذَ لي دستورًا بالسفر قال لي: وأين تجد مثل هذا الرجل وهذه التربية؟ فقلت: لا طاقة لي بطريقه.

فأخذ لي دستورًا، وسافرتُ من عنده، ودخلت في مدينة يقصر الوقت عن ذكر سعتها وما فيها، غير أنِّي رأيت فيها أقوامًا مُبْتَلِين في الطرقات فقلت: يا أخي هذه البلد بلد المبْتَلِين؟ قال: لا وإنَّما هنا شيخٌ يركب يومَ الجمعةِ أيُّ مَنْ وضعَ يدَه عليه برئَ من بَلائه، فترى الناس يجيئون من البلاد ويجلسون في الطرقات التي يركب فيها إلى الجامع، فقلت: على مثل هذا أنا أطوف.

قال: فبينما أنا كذلك وإذا بشيخٍ على بغلةٍ وهيبة، وإذا الناس قد أطبقوا عليه، وقد هممت بالوصول إليه، وإذا شخص يقول لي: هذا الرجل رجلٌ صالحٌ ، ولكن احذرْ شيخَه؛ فإنَّه شيخ زنديق.

قال: فوقع في قلبي محبةُ الزنديق حين سمَّاه لي، فتركت الشيخ ومشيت أبحث عن بيت الزنديق فلم يخبرني أحد عنه لسوء معتقدهم فيه قال: وسألت الطوائف من الفقهاء والفقراء والعوام، فرأيتهم في سوء معتقدهم، وإذا هم يسخرون بي، ويقول بعضهم لبعض: يا فلان، تقرَّب إلى الله بإيصاله إليه، حتى أنني أقمت ستة أشهر وليس لي حاجة إلا أن أصل إليه، ومن سوء معتقدِهم فيه لم يوصلوني إليه فلمَّا ضاقَ بي الأمرُ نزلتُ السوقَ و فتحت كمي فرمى لى الناس كواغدَ فيها قراضةُ الذهبِ - وعادتُهم يتصدقون بذلك- فحصل لي شيءٌ جيدٌ فوجدتَ صبيانًا يلعبون، فرميتُ بتلك الكواغدِ في حِجْرِ واحدٍ منهم.

فقالَ لي: يا عم، ما تريدُ منِّي؟ فقلتُ: تُريني بيتَ الزنديق قال: من بعيدٍ قلت: من بعيدٍ.

قال: فمشي أمامي حتى أوقفني، وأشار إلى باب عليه نصفُ دِثْرَاية، وقد سفي السَّافي عليها مِن عَدمِ الدُّخولِ والخروجِ، قال: فوقفت على الباب وقوفَ المتأدب وسألت الله تعالى، وإذا الباب قد فُتح، فدخلت، لأجدَ شيخًا على نخلة وقد ملأ الوجود نورًا، فقال: محمدٌ، لك ستةُ أشهرٍ تطلبُ الزنديقَ ما تصلُ إليه؟ قلت: يا سيدي الله أعلم وأنت أعلم -أو كلمة قالها غابت عني- فقال: نعم، قصدك صحيح يا محمد، قد سألتُ الله تعالى فيك وقد أعطاك جميعَ ما تطلب، اخرج باسم الله.

قلت: يا سيّدي، سألتك بالله اسمع مني كلمتين -أو قال: كلمات- فقال: قل وأوجز، فقال:يا سيّدي، هذا مريدك على هذه الصورة، وأنت على هذه الصورة، قال: يا محمد، وقت كنا نلعب كنا كذا، قلت: يا سيدي، سألتك بالله تعالى ما سبب سوء معتقد الناس فيك ونفارهم منك؟ قال: يا محمد، هل أحببتَ شيئًا قطَّ؟ قلت: نعم قال: فهل تشتهي أحداً يصل إلى محبوبِك؟ قلت: لا، قال: الأمر كذلك، اخرجْ، فتشبثتُ بالباب قال: فقام وأخرجني وقفل الباب.

قال: فخرجت وسافرت مدةً وسحت، وإذا أنا أسمع أن شيخًا ظهر وله أتباع

فسافرت فإذا هو عليٌّ الهندي الراهب فقلت: شيخ علي، ما هذا؟ قال: هو من جهة الزنديق، أقمت في طلبه ستة أشهر حتى وصلت إليه، وقد أعطاني الله تعالى زائدًا عليك درجة، ولو لم أقف لك لما وصلت إليَّ، لكن يا محمد قال الشيخ [يعني الزنديق]: إنَّ الله تعالى أعطاك ما تريد فدورانك على أيِّ شيء؟.

حكى هذه الحكاية الشيخ محمد بن سدوس نفع الله تعالى ببركاته، وكان عدلاً ورجلاً صالحًا وكانت له أعمالٌ وأحوالٌ نذكرها إن شاء الله تعالى في موضعها، فهذه نبذة يسيرة من بعض أحوال المحبين والسالكين الذين رأيناهم، وبعض أوصاف المحبة فيمن شاهدناه وسمعنا به، من أهل زماننا في بلادنا وإن لم نستقصِ ذلك ولا بحثنا عنه، وقد صنَّف الناس كتبًا في ذلك يضيق الوقت عن ذكرها(١).

ولو كان الناس كُتَّابًا والبحرُ مدادًا والشجرُ أقلامًا وأقاموا عمر الدنيا لما استطاعوا أن يكتبوا بعض أوصاف محبة الله تعالى وآثارها في المخصوصين والمحبين، وإنَّما ذكرنا هذه النبذة اللطيفة في أهل زماننا تشويقًا للطالبين، حتى يغبطوا أهل زمانِهم فيما هم فيه، ولا يعتقدون أنَّ ذلك كان في الزمان الماضي، ولم يكن في هذا الزمان فاقتصرنا على ذلك، ولله الحمد والمنة.

وصف الفقير

ولنذكر نبذة يسيرة في وصف الفقير كما وصفه الله تعالى في كتابه، واصطلاح الطائفة في تسمية وصفه، وبعض ما جرى لهم من أهل زماننا؛ إذ الفقر اسم جامعٌ لجميعِ الصفاتِ المحمودة، ونافٍ لجميع الصفات المذمومة، يدخل فيه جميع المقامات والأحوال، وينحصرُ في تسمية الأقوال والأعمال، ولا ينحصر في حال من الأحوال، ولا يعرَّف بقيل ولا قال(٢).

---

(١) قلت: من ذلك الرسالة القشيرية، وطبقات السلمي، والطبقات للشيخ الشعراني، والكواكب الدرية للمناوي، والانتصار للموصلي، وروضة الحبور لابن الأطعاني، وجامع الكرامات للنبهاني، وغير ذلك كثير لا يحصى.

(٢) انظر: الرسالة الفقيرية للشيخ ابن سبعين -قدس الله سره- في الكلام على معنى الفقر، ضمن رسائله، رقم (١)، .

فنبدأ بما قال الله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً**﴾ [النساء:١٢٢].

قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ [فاطر:١٥].

وهذا وصف يعُمُّ جميعَ الموجودات بالافتقار إلى موجدها وخالقها ومخرجها من العدم إلى الوجود، فكلُّ شيء مفتقر إليه كما قال الله تعالى: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**﴾ [القصص: ٨٨].

ووقع الخطاب لمن يعقل؛ إذ من لا يعقل لا يتوجه إليه الخطابُ، وإن كان قوله تعالى: (يا أيها الناس) للتخصيص، فالجنُّ والإنسُّ والملائكةُ يعقلون ويُكلَّفون ولذلك قال الله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقال تعالى عن الملائكة: ﴿**لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [التحريم آية: ٦].

الافتقار إلى الله تعالى

وأمَّا الافتقار إلى الله تعالى فهو يعُمُّ كلَّ موجود سوى الله تعالى، وكل ما وُجد من العدم كان مفتقرًا إلى الله تعالى في إيجاده فأوجده من العدم، وإن كان قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل:٦٨].

فوقع الخطاب لمن لا يعقل، فقد يكون وحى وإلهام وما جبلهم عليه حين خلقهم وتعرُّفه إليهم سبقهم لمعرفته.

وقوله تعالى: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**﴾ [الإسراء:٤٤]، وسبَّح الحصى في كفِّ رسول الله ﷺ والمعجزة في تسبيحه بكلام الآدميين، فإن الحصى لم يزل مسبحًا في نفسه، ومعرفة كلِّ شيء بربِّه من جامد وناطق ويافع ونابت وحيوان وإنسان وملك وشيطان، أمم أمثالكم لا يجهله إلا من أَعْمى اللهُ تعالى قلبَه، وجعل الغشاوة على بصره وبصيرته.

وأمّا قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي**﴾ [المائدة:١١١].

فهذا وحى على ألسنة الرُّسل -عليهم الصلاة والسلام- وحقيقة الافتقار في

الموجودات وافتقارها إلى موجدها من عدمها إلى وجودها وفي حال وجودها وما يئول إليه أمرها ظاهر، أظهرُ من الظهور نجده بالذوق الذي هو أظهر الدليل، والدليل عليه حجاب عليه، كذوق الحلاوة والمرارة، فلا حاجة إلى استقصائه، وكذلك وصف فقراء الاحتياج، وعدم المال، وعدم الاكتساب في الصدقات عليهم فقد ذكرهم في إعطاء الصدقات؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]. وذكر أصنافَ الاستحقاق للصدقات.

الفقير عند القوم رضي الله عنهم

وأمَّا **الفقير المخصوص المطلوبُ**، وما اصطلحت عليه الطائفة في تسميتهم (الفقير) وأوصافه، فقد قال الله تعالى: **﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً﴾** [البقرة: ٢٧٣].

فقد وصفهم الله تعالى بصفات ظاهرة لا تخفى عليهم في أنفسهم، ولا تخفى على الناس فيهم، فمن كان موصوفًا بما وصفه الله تعالى به فهو من الفقراء وإلا فلا، وذكَرَهم ووصفَهم لإحصارهم في سبيله وعدم الاستطاعة، فصار إحصارهم في سبيل الله عائد على مجاهدتهم لأنفسهم من مخالفتهم لهواها، فإنه لا بدَّ للسالك إلى الله تعالى من ترك الهوى والحظوظ النفسانية، وخلع العادات وترك المألوفات، من كلِّ نوع مألوف من مأكل ومشرب وملبس ونكاح ومصاحب ومؤانس وغير ذلك، فلا بدّ خلو باطنه من كل موجود سوى الله تعالى، حتى يصلُح لتلقِّي الواردات ويصير محلا للأسرار الإلهيّة والتجليات الربانية.

وكذلك نفرته عن كل شيء، والتوحش عن كل شيء، حتى يجد الأنس بربه تعالى؛ فإنه من أنس بالله تعالى استوحش مما سواه، ومن أنس بشيء سوى الله تعالى وجد الوحشة من الله تعالى، وبحسب ما تترك من نفسك لله تعالى وعلى قدر ما تحرق في نفسك من العوائد لله تعالى، يخرق الله لك العوائد في ملكه وملكوته فافهم ذلك.

فإحصارهم في سبيل الله تعالى بحسب المبايعة بالأنفس والأموال لقوله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ﴾**[التوبة:١١١].

وهذا وجه من وجوه الكرم الإلهيّ الذي ليس له مقابل ولا مجازات عليه إذ إيجادهم من العدم بمحضِ الكرم لا لحاجة فيهم، ولا إليهم، ثم تكميلهم ونشأتهم في أحسن خلقة وأحسن تقويم من سائر الموجودات والحيوانات الحسيات والمعنويات، ثم تخصيصهم بالإيمان، ثم نسب أنفسهم لهم بالملائكة، وإلى نفسه بالشراء منهم، كل ذلك ليزيدَهم بكرمه كرمًا على الكرم بأنَّ لهم الجنة، وهم في نفس الأمر مِلْكه، والجنة ملكه، وله أن يعدمهم بعد الإيجاد، وله أن يقبلهم من غير مجازات بجنة، ولا منع من نار.

فانظر إلى هذا التلطُّف في إيصال الخير إلى العبد، وحثه عليه وتعليم سلوك الطريق إليه بنوع الملاطفة في معنى المجاهدة، وقوله تعالى: ﴿**يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ**﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وهذا فيه إشارة الزهد وترك ما في أيدي الناس حتى يعتقدوا فيهم الغنى والعفة، والتعفف نوع من الزهد، ومنه عفَّ عن الشيء إذا تركه وتعفف نوع منه، وقيل في ذلك:

ويَا نفس صبرًا إنَّما شرفُ الفَتى ... إذا عَفَّ عن لذَّاتِهِ وهو قادرُ

وفيه أيضا إشارة إلى كتم الأحوال وسترها عن الناس حتى يعتقدون فيهم الغنى مع الفقر والحاجة ولا يطلعون على أحوالهم في الحقيقة، وقوله تعالى: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً﴾ [البقرة:٢٧٣].

هذا تخصيص للنبي ﷺ لأن معرفته من الله تعالى بما يُريه من مشاهدات الكشوف ومطالعات الملكوت، وما ينفث في رَوعِه من رُوح القدس.

والسيما معنى قائم أو صفة قائمة بالمؤمن في وجهه أو في صفته أو حركاته أو سكناته، فهو معروف بتلك الصفة المعنوية، تظهر عليه للشاهد لها أظهر من شهود حسه، كذلك المجرم لقوله تعالى: ﴿**يُعْرَفُ المُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ**﴾ [الرحمن: ٤١].

وهذه صورة الانعكاس.. نسأل الله تعالى العافية بمنِّه وكرمه.

الوارث

وللوارث من النبي ﷺ من معرفته السيما نصيب بحسب القسمة في الميراث، والاستعداد لفك الحجر عنه، وقوله تعالى: ﴿**لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً**﴾ [البقرة: ٢٧٣] يحتمل وجوه في السؤال بحسب الاعتبار والأحوال والحاجة والاضطرار:

فمنها: أنهم لا يلحفون في السؤال ولا يخجلون ولا يسألون إلا عند الحاجة الماسة، ويُجملون في الطلب ولا يسألون إلا للضرورة، وعند الضرورة تقع الإباحةُ في القَدْرِ الذي يسدُّ الخِلة تلك الساعة، لدفع المضرة المؤدية إلى الموت، وترك الواجب من حقوق الله تعالى.

و**الثاني:** لا يسألون الناس شيئًا لا قليلاً ولا كثيرًا، فإنْ جاءهم شيء أخذوا منه قدر ضرورتهم تلك الساعة، وهذه حالة من أحوال المتوكلين، والأولى: من أحوال السالكين.

و**الثالث:** يشهدون ما قُدِّر لهم من الرزق والعطاء على أيدي العباد، وتنقله من خازن إلى خازن ومن خزانةٍ إلى خزانة، والأيادي عندهم ظروف وخزائنٌ لمجاري الإرادة ولسوق العطاء وأداء الأمانة، وهؤلاء يأخذون ما هو لهم من تحقيق وبصيرة، وسواء عندهم طلبوا ما لهم أو جاءهم من غير طلب فما أخذوا إلا مِنَ الله تعالى، ولا طلبوا إلا من الله تعالى، فهؤلاء هم الذين لم يسألوا الناس شيئًا من مال الناس إلحافًا أو إلحاحًا، أو خجل المسئول بأن سأله بين أقرانه وأصحابه أو عند من يستحيي منه، فهذا ليس ممن ذكرناه أولاً ولا ثانيًا ولا ثالثًا؛ فإن هؤلاء يضربون الناس بأسواط الحياء، ويؤذونَهم بأنواع من الأذى حتى يستخرجون منهم أموالَهم من غير طيبةِ أنفسهم، وقد ورد: «**لا يحلّ مالُ امرئ مسلمٍ إلا عن طيبِ نَفْسٍ منه**[1]»، وهم يدخلون في الحديث:

«**لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى وليس في وجهه مزعة لحم**[2]»، وهو أشدُّ على أرباب النفوس الرئيسة وذوي الهيئات، والأكابر وولاة الأمور من الظَّلمة؛ إذ الظالم لا يتجرأ على كلِّ أحدٍ إلا على من استضعفه.

(١) رواه أحمد في مسنده (٥/٧٢).
(٢) رواه مسلم (٢/٧٢٠)، وأحمد في مسنده (٢/١٥).

ومن الناس مَنْ يدفعُ الظالمَ عن نفسه، لا سيما إن كان أميز منه عند ولاة الأمور، ولا يقدر يدفع هؤلاء الذين يتشبهون بذي الصلاح، وهم أظلم من الظلمة؛ إذ يُخجلونه ويُجبرونه ويَخشى على عرضه من كلامهم عليه عند غيره من الأكابر، بل إن ولاة الأمور مظلومون معهم، لأنَّهم يجابهونَهم بالكلام وبالتخجيل، ويخشون من قبح الأُحدوث، وأن يقال ما أعطى الملك الفقيرَ شيئًا، أو ما أعطاه إلا شيئًا قليلا، وكذلك الأمير وكلُّ من له رتبة، ولسنا نتكلم في هذا الباب ولا هو من قصدنا، إلا لوقوع الكلام وتبيين المباح في السؤال من الحرام، ليعلم السائل ما يطلب والمسئول ما يعطي.

ووصف الفقراء أيضا ثانيًا ومن كان من قبلهم ومن جاء من بعدهم فقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ المهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ المفْلِحُونَ * وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:٨-١٠].

فلينظر الفقير صفته في كتاب الله ﷻ في اسم الفقراء ووصفهم، وفيمن تقدمهم ومَنْ تأخر عنهم، فقد وصفهم له، وليعرض أخلاقه على القرآن بوصف الصدق كما وصفه الله تعالى فيه، فمِن هنا يَعلم نفسَه من أيِّ الأوصاف التي وصف الله تعالى هل هو متصف بذلك أم لا؟ فإن كان عَريًّا من ذلك فليعمل على الاتصاف ولا يدَّعي ما ليس له، ولا يحب أن يحمدَ بما لا يفعل فقد ذم الله تعالى من كان بهذا الوصف وتواعده بالعذاب الأليم.

ولا يدخل أيضًا في وصف الظَّلمة بالكذب على الله تعالى لقوله تعالى: **﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾** [الأنعام: ٩٣].

فإنه لا يكون أظلم منه، وليفقه معنى قوله تعالى: **﴿لِلْفُقَرَاءِ المُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً﴾** [الحشر: ٨].

خروج السادة الصوفية عن الدنيا لربهم

فأمَّا الخروج من الأموال الظاهرة والأموال المملوكة التي بأيديهم فهذا معلوم، وأعرفُ مَنْ فارق أهلَه ووطنَه ولم يعدْ إليهم إلى الموت، وهم جماعة لا أحصيهم.

فمنهم أبو الطاهر إسماعيل بن عبد المحسن المرائغي، خرج وهو شاب كما أخبرني، واجتمعَ بالشيخ يحيى فما رجع إلى أهلِهِ، ومات بمدينةِ قوص، ودفن بجبانة قنا.

ومنهم عامر بن نسيم، خرج من بلدِهِ أسيوط، ودفن بقنا.

ومنهم الشيخ أبو العباس الملثم، خرج عن ملكيةِ أبيه ببلاد المشرقِ ولم يعد.

ومنهم الشيخ محمد العجمي، خرجَ من وطنِهِ فما رجعَ ولا عادَ إليه، ومات بمصر.

ومنهم الشيخ يعيش، خرج من وطنه وما رجع إليه، ومات بقوص.

ومنهم الشيخ أبو الفتح الواسطي، خرجَ من وطنه وما رجع إليه، ومات بالإسكندرية.

ومنهم جمعٌ كبيرٌ لا يُحصى عددُهم، مثل الشيخ أبو عبد الله المرسي، خرج من وطنه وما رجعَ إليه، ومات بقوص.

ومنهم الشيخ أبو عبد الله المرسي الشاذُلِي، خرج من وطنهِ ولم يَعد إليه، ومات بالإسكندرية.

ومنهم الشيخُ عبد الحق إمام الْمَرقَي الذي قرأنا عليه القرآنَ.

ومنهم أبو عبد الله المغربي، ومات بقوص.

ومنهم الشيخ أبو عبد الله البرحي، والشيخ الفارسي، وغيرهم من أكابر المشايخ خرجوا ولم يعودوا.

ومنهم الشيخ محمد بن المرابعي، خرج من بلدِهِ ومالِهِ وماتَ بجبل الصالحيةِ، وكانت له كراماتٌ ومكاشفاتٌ وأحوالٌ جليلةٌ.

ومنها ما ذَكرَ لي تاجُ الدين الكاتب أنَّه قال: للصّاحبِ زين الدين أَحْضِرْ ألف دينار وإلا تغرم سبعين ألف دينارٍ، فأحضرَ خمسمائة دينارٍ ولم يوافقْ نفسَه على تكملة الباقي فغَرِمَ سبعين ألف دينارٍ.

وحَكى لي روايةً أخرى أنه قال: تصدَّقْ بسبعين ألف درهم وإلا تغرم سبعين

ألف دينار، فلم توافق نفسُه على ذلك، فدفعَ البعضَ فغرم ذلك.

ومنهم جماعةٌ أحياءٌ الآنَ، خرجوا من ديارهم وأموالهم، وما نعلم هل يُقدَّر لهم الرجوعُ إلى بلادهم أم لا، وإنما ذكرنا من رأيناه ومات.

وأمَّا مَن أخبَر عنهم المشايخُ ولم نرهم فما نحصيهم، وأمَّا من أخبرَنا عنهم المشايخُ كالشيخة التي وردت إلى ثغر الإسكندرية، امرأةٍ شيخةٍ كان عمرُها ثمانين سنةً، وكانت كأنَّها الشمسُ الضاحية من الحسن، وكانت بنتًا بكرًا، وخطبها الشيخ تاج الدين بن الرَّمَّاح فلم تفعل.

قال الشيخ: فسألتها عن سبب خروجها، قالت: كان أبي مَلِكًا، فخرجنا إلى بستان للفرجة، فوقفتُ تحت شجرةٍ، فسمعتُ كلَّ ورقة فيها تسبّحُ الله تعالى بلغةٍ غيرَ لغةِ الورقةِ الأُخرى، فمن ثمَّ ما رجعتُ إلى مُلْكِ أبي إلى الساعة، فقلت لها: لم لا تتزوجي؟ فقالتْ: إنِّي حججتُ البيتَ، وسألتُ الله تعالى ألا يجعلني لِمَن لا يستحقني، فكفاني مؤنة ذلك، فقلت لها: كيف رأيت مشايخ الغرب؟ فقالت خضت بحر معرفةِ الجميعِ فما وصلوا بي إلى الرُّكَبِ.

فقلت: بماذا؟ فقالتْ: إنيِّ أَدْخلُ على الشيخ فيراني بمَحِلِ امرأةٍ ويَرى نفسَه بمحلِ رجلٍ -والمعاني ما فيها ذكورية ولا أنوثية فمن ثمَّ يسقط- فقلت لها: كيف أنا عندك؟ فقالت: مِن جملة القش، فقلت لها: هذا الشيخ تاج الدين بن الرَّمَّاح رجلٌ عظيمُ القدر، وذكرت لها من صفاته ما ذكرت، فقالت لي: صدقت، لكن إذا كان بزازًا تُطلبُ عنده خرقةُ طرحٍ، وما يوجد عنده ذلك الطرح الذي قصدتُه عنده يلزم من هذا ألاّ يكون بزازًا، قلت: لا، قالت: فإنّ حاجتي ما وجدتُّها عنده.

وإنَّما ذكرْنا ذلك لأجل خروجها من بلدها.

ومن الأعجام جماعةٌ خرجوا ولم يعودوا إلى بلادهم، ومنهم الشيخ محمود الأصفهاني، كان رجلاً صالحًا خرج عن أهلِهِ ومن بلدِهِ ولم يعدْ، ومات بالبحر المالح بناحية عيذاب، وهو متوجه إلى الحجاز.

ومنهم الشيخ أبو بكر، وهو الآن حيٌّ بقوص، وجمعٌ لا أحصيهم ممن خرج من ديارِهِ وأهلِه ومالِه.

ومنهم الشيخ عبد الله الجبلي -قدس الله تعالى روحه ونوَّر ضريحَه- سألت ولده الشيخ جمال الدين يوسف -وكان من العلماء الصالحين- عن تسمية والده الشيخ عبد الله الجَبَليّ لم سُمِّي الجَبَليّ وهو رجل مغربي؟ فقال: سألت أبي عن ذلك فقال لي: يا ولدي، كنتُ لَمَّا قصدتُ التوجهَ إلى بيت الله تعالى الحرام، وكان لي أختٌ جميلةٌ مفرطةٌ في الجمالِ فقصدتْ التوجه معي، فخشيتُ عليها من نوائبِ الزمان؛ فإن بلادنا بعيدةٌ من هذه البلاد، فتركت السفر وتكرر ذلك، فكلَّما طلبتُ السفرَ تطلبُ مني السفرَ معي، فلمَّا طالَ ذلك خرجتُ خُفْيةً منها فلحِقَتني على ثلاثة أيام، فسافرت، بها إلى أن وصلت إلى بلاد الأشمونين، وكان بها شيخٌ مغربيٌّ يُسمَّى: أبو الحجاج، فتركتَها عند زوجتِهِ في بيت الشيخ، وصعدتُ الجبلَ، فكنت أقيم به مدةً وأنزلُ أبصر الأختَ وأعود، فتحدث معي الشيخُ في زواجها، فقلت له: يا سيِّدي، أمرها إلى نفسها، قال: فتحدث معها لي، فتحدثت معها فقالت: يا أخي، أنا ما تركت أهلي ومالي إلا طلبًا لله سبحانه وتعالى، وإذا تزوجتُ تجبُ عليَّ حقوقُ الزوجية للشيخ ومطاوعته فتفوتني مقاصدي ومطالبي ولا أقدر على ذلك للشيخ، فقال الشيخ: أنا أكون عونًا لها على مقاصدها وطلبها وأحجّ بها، وتحدّثت معها، وكان قصدي أن تكون عند الشيخ، فإنَّني سلكت على يدِهِ وانتفعت به، وأحببت لأختي تزويجَها للشيخ، فتزوجتْ، وسكنت النفس من جهتها وبقيت أطلع إلى الجبل فأقيم فيه.

فبينما نحن كذلك إذ قيل: الشيخ أبو الفتح الواسطي وصل، قال: فتقدمت إلى الشيخ وقلت: يا سيِّدي، هذا الشيخ أبو الفتح الواسطي قد وصل، ولا بدَّ لي من الاجتماع به، فقال لي: يا ولدي، ما أمنعك، رُح إليه؛ فإن وجدت عنده زيادةً عمّا عندي فلك أن تطلب مصلحتك، وإن كان ما عنده إلا ما عندي فإني أحقُّ بك لأنِّي ربيتك. فقلت له: ولك ذلك.

قال: فتوجهت إلى الشيخ أبي الفتح، فوجدته قد نزل بخيام، وبين يديه الأمراء والأكابر والعلماء والفقراء، وهو في مرتبةِ مَلِكٍ لا يصلُ مثلي إليه، فبقيت كذلك ثلاثةَ أيامٍ، والناس على تلك الحال ولا وصول لي إليه، فبقيت أقول في نفسي ما أقول من كثرة هذه الخلائق ومقاصدها، وبتُّ على أنني أصبح أسافر لكوني لم أجد إلى الشيخ

سبيلاً.

فلمَّا كان الليل نمت، فأبصرت في المنام شيخي والشيخ أبا الفتح، وشيخًا آخرَ كان مشهورًا بمصر، حضروا وأُحْضِرَ لهم ثلاثةُ رءوسِ خيلٍ، فركبوا وتسابقوا في الهواء فبعد ساعةٍ وإذا بالشيخ المشهور قد انقطع ثم بعد ساعة، وإذا بشيخي قد انقطع وسار الشيخ أبو الفتح الواسطي إلى أن غاب عن العيون.

فأصبحت وإذا بخادم الشيخ يمشي بين الناس حتى وضع يدَه على يدي، وقالَ لي: قم كلِّم الشيخ أبا الفتح الواسطي، فقمت فأُدْخِلت على الشيخ فحين دخلتُ عليه قال لي: أهلاً بعبد الله الجبلي، فأطلقَ عليَّ هذا الاسمَ لأنِّي كنت آوي الجبل، وأخبرني الشيخُ بجميع ما اتفق لي في بلادي، وإلى حين وصولي حتى الذي رأيته البارحةَ في منامي وأخبرني به، وقال لي عن كلِّ ما كان في نفسي وعن حديث كثرة الناس فقال: كلٌّ منهم ينال مقصوده، ومنهم من له مقصود أكثر من مقصودك، وأخذ عليَّ العهد، فهو كان سبب تسميتي عبد الله الجَبَلِي.

ولا يُحصى مَن رأينا ممن خرجَ من ديارِهِ ومالِهِ ولم يعدْ إليها.

وممَّن خرج عن دياره وماله الشيخُ محمد العجميُّ ثم الموصليُّ، ذكر لي الشيخ محمد المذكور أنَّه كان له بالموصلِ معملُ قماشٍ وتحت يدِه صناعٌ، وكان يدخل الموصل مولَّهٌ من أصحابِ قضيبِ البان، فكان إذا تبعه أحدٌ يصدر منه صوت أو يتولَّ ويخليه ويروح ويتركه التابعُ، فمشيت دفعةً خلفَه، وبقيت أخشى أن يفعل بي كما يفعل مع غيري، فمشيت خلفه حتى خرج من الموصل ووصل إلى ضريح قضيب البان، فخرج إليه دادا عمر والتقاه فأكرمه ثم قال لي: رح، ثم أخذنِي النومُ فرأيت الشيخ قضيب البان في المنام وفي يده قارورةٌ، يُبان باطنُها من ظاهرها، فقال لي، يبقى قلبك هكذا، تبان فيه الدنيا والآخرة.

قال: فاستيقظت فأخذتني حالةٌ أقمت منها سبعة أيام لا أرفع رأسي، فقلت لأولادي أوصلوا للناس الذي لهم وخرجت، وأقام بجامع مصر خمسين سنة، ومات رحمه الله، ولم يعد إلى بلاده وأهله، وله حكاية مع دادا عمر نذكرها في موضعها إن شاء الله تعالى.

وأمَّا **المتقدمون** فقد دوَّنتُ دواوين، وكتبت في ذلك منها ما ذكره الشيخ أبو القاسم من هوازن القشيري في رسالته، والشيخ الإمام أبو طالب المكي في قُوته، والغزالي في إحيائه، وغيرُهم.

وأخبارُ السالكين والمتوجهين والأولياء والصالحين والمتجردين والمنقطعين والزاهدين والعارفين كثير، فلا نرضى بالهوينا ولا نتوقف عن المسير؛ ففضل الله تعالى عميمٌ مستمرٌ مزيدٌ لا ينقطع أبدًا.

خروج السادة الصوفية عن عادات نفوسهم وطبائعها

ومنهم مَنْ لا خرج عن دياره-يعني البلاد التي ولد فيها- وحصل له ما حصل للأولياء، وهم جمع كثير لا يُحصون، لكنه خرج من ديار عاداتهِ ومواطن لذاتهِ ومقرِّ شهواتِهِ، وخرق العوائدَ في نفسه وخرج عن الميلِ إلى ماله فلم يمل إليه بقلبه، وسواءٌ وجد المالَ بيده أو لم يَجِدْهُ بيده، ونفى العوائد عن نفسه في مأكله ومشربه وملبسه، وأحوالُ باطنه كأحوالِ ظاهرِهِ في ترك عوائده، كالشيخ أبي موسى التمار -رحمه الله تعالى-، كان لا يأكل الخبزَ ولا يشرب الماءَ إلى أنْ لقي ربَّه تعالى، وكانت له أحوالٌ ومواجيد وكشوف.

وأخبرني القاضي شرف الدين محمد بن مسلم قاضي عيذاب - وكان له من الصفاتِ وحسنِ المعتقد بهذه الطائفة، وكرم النفس وصحبة الصالحين- أخبرني أنَّه سأل الشيخ أبا موسى التمَّار ألاّ يكون قاضيًا فقال: قال لي الشيخ أبو موسى: سمعت قائلاً يقول: إن لم يرضَ بالحالة التي هو عليها وإلا جعلناه رقَّاصًا في بيت الوالي.

وأخبرني القاضي شرف الدين المذكور-رحمه الله تعالى- عن نفسه أنه أقام أربعين سنة يسمع الأذان من السماء قبل سماعه في الأرض، يسمعه كهيئة التأذين بجامع مصر، ومات حاكمًا ﷺ.

ومتى كان القلب خاليًا عن الشواغل والعوائد والشهوات النفسانيَّة، والميل والالتفات إلى غير الله تعالى، فلا يضرُّه ما كان في اليد صورةٌ ظاهرةٌ، وقد يكون الظاهر خاليًا من ذلك، والباطن مشغولاً به فلا ينفع خلوُّ الظاهر.

وممن ترك العادة وهو الآن موجود، الشيخ أحمد الناعمِي، لم يأكلْ خبزًا ولم

يشرب ماءً، وأخبرني في العشر الأول :من ربيع الأول :سنةَ ثمانٍ وسبعمائةٍ أنَّه ما أكل الحلاوة في طول عمره لكون النشا فيها، وكان قد حصل له شيء في نظره من الأبخرة، فذكر أنّ الأطباء قالوا له: اتركْ اللبن فقلت له: إن كان مالك عقد مع الله تعالى في ترك الخبز والماء فاستعملهما واترك اللبن، وإن كان لك عقد فلا تستعملهما، فزعم أنّ له عقد مع الله تعالى وله أحوال سنية ورياضة، وأعرفه من أوَّل نشأته، نفع الله تعالى به.

ومنهم من أقام الأيَّام والأشهر لا يأكل ولا يشرب البتة، كالشيخ أبي العباس الملثم-،رحمه الله تعالى- أقام سبعين يومًا، أخبرني الشيخ أبو العباس الملثم، -رحمه الله تعالى-، عن نفسِه أنَّه أقام بطودٍ من بلاد الصعيد سبعين يومًا لا يأكل فيها ولا يشرب، وكان إذا مَرِض يداوي نفسه بالجوع فلا يأكل ولا يشرب فيبرأ.

وكان يقول: يتبدل اللحمُ بغير اللحم والدم بغير الدمِ، ولعل ذلك من تبديل العوائد وتغيُّرِ المزاج، وكان يجوع مدة أيام ويأكل الأكلة، وربما كانت الأكلة أكثر من أكل الواحد منا.

ومنهم مَنْ كان يأكل غيرَ الخبز، كالشيخ أبو عمر بن أبي الفتح الدماميني، أخبرني عن نفسه أنه يأكل حبَّ العنصل التي في البرية، وأقام عشرَ سنين يصلي الصبحَ بوضوء العشاء.

وأخبرني الشيخ الناعِمي أيضًا أنه أقام في خلوات، كل خلوة أربعين يومًا يفطرُ على زبيبة، وكان يطوف كلَّ يومٍ ستين أسبوعًا بستين حزب قرآن إلى الظهر، **ومنهم** الشيخ عبد الله الدلاصي، أخبرني عن نفسه أنه أقام ثلاثين سنةً ومعه فقيران أقاما معه عشرين سنة منها، وكمَّل هو ثلاثين سنة، كان قوتُهم بعد كل ثلاثة أيامٍ بخمسة فلوسٍ قمحية، وهو ﷺ ممن ترك العوائد وجاهد نفسه في ترك العادة.

فمن أعرفه لا تنحصر عوائدهم حتى في خواطرهم إذا خطرت وتركوها، **ومنهم** من كان يأكل بالليل ولا يأكل بالنهار وينام بالنهار ولا ينام الليل، **ومنهم** من كان يأكل ولا يشرب الماء، وقد قيل أنَّ الماء من الشهوات الوهمية، وإذا أكل الإنسان اكتفتْ المعدةُ بفضول المأكولات وما فيها من الرطوبات، وجرَّبتُ ذلك في أوقات الصيف وأقمت ثلاثة أيام آكل المملوحات وما يستدعي العطش وغير ذلك ولم أشرب

ماء وقطعت عن نفسي خبره، فوجدته كما ذكر في الوهم.

ومنهم مَنْ يشرب ولا يأكل، وقد ذُكِرَ أنَّ أبا العباس المزني أقام بمكة- شرَّفها الله تعالى- ستَّ سنين لم يدخلْ جوفه سوى ماء زمزم، وربا عليه الشحمُ واللحم، ولم يحُلْ بينه وبين السماء والأرض حائلٌ.

والسالكون متفاوتون في خلو ديار العادات من كلِّ نوعٍ وجنس، وليس مقصودنا الآن الاستقصاء، وقوله تعالى: ﴿**يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾ [الحشر:٨].

ينافي طلبَ الفضل من المال والجاه والمعاوضة؛ لأنَّهم خرجوا عن الدِّيار والأموال ابتغاءَ الفضل من الله تعالى والرضوان، فالفضل والرضوان يبتغونه من الله تعالى بحسب منازلهم عنده، وبالعطاء السابق منه في نشأتِهم وخلقِهم. ﴿**أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾ [طه:٥٠].

ومنهم من يبتغي القرب والشهود والرضا والرضوان.

ومنهم من يبتغي المحبة للاجتباء والاختصاص والاصطفاء، و بوضوء عشاء الآخرة من يبتغي الموهبة الإرادية والرتبة العلية في محل الصدِّيقيَّة.

ومنهم من يبتغي القيامَ بالصفةِ الأَمْريةِ وبالخلافة القَيّوميَّةِ والانتصارة المحمدية.

ومنهم من يبتغي رفعَ المراتب الحسيَّة والمعنويَّة.

ومنهم من يبتغى الاختياراتِ من العِلميَّة والعَمليَّة، فيكونَ مع الله تعالى، على ما يُرادُ منه في كلِّ الأشياء بحقائق الرِّضا والقيامِ بصفة الوفاء.

وشرح ما في الآية على حقائق فضل الله تعالى ورضوانه، لا تَسعُهُ العبارةُ، ولا تفي به الإشارةُ، وإنما ذلك بحسب كلِّ سالكٍ، ووصفَهم بأنَّهم ينصرون الله ورسولَه أولئك هم الصادقون، والله تعالى هو الناصر لهم، وأطلق ذلك عليهم مجازًا لنصرتِهم للحقِّ عند غلبةِ الباطل،وأجراه على أيديهم وألسنتهم، ونصرته لرسول الله ﷺ لذلك باتِّباعِهم له، وطلبِهم الناسَ، ودعوتَهم لتبعيته قولاً وفعلاً، ومعاداةَ مَنْ عاداهُ، وموالاةَ مَنْ والاهُ، والذبُّ عَنْ دينه بالسيف والمال والنفس والأقوال والأفعال، فنصرةُ الله تعالى هي نصرةُ دينه ونصرةُ رسوله ﷺ.

إيثار السادة الصوفية كل مسلم على أنفسهم

ووصفَ الله الذين تبوَّءُوا الدار والإيمان فقال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ**﴾ [الحشر: ٩].

وقد رأينا مَنْ آثرَ على نفسهِ مِمَّن لا أُسَمِّيه ومن أُسَمِّيه، وأخبرني الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى-، أنَّه كان في عطشة الأخيضر وبلغت الشربة من الماء مائةَ دينارٍ، ومات البائعُ والمشتري وكان معه فقير اسمه حسن، وكنت أعرفه، قال الشيخ: فلقد رأيت امرأةً جاءتْ وفتحتْ سفطَ ذهبٍ لَها وسكبتْ الذَّهبَ، وقالتْ: يا مسلمين، مَنْ يسقِني يأخذْ هذا فقيل لها -أو قلتُ لها- وأين الماءُ؟ فمشتْ إلى أن رمت روحها في البئر فماتت، وكان البئرُ قد امتلأ أمواتًا، ولا فيه شيء من الماء، وكانت الجمال والناس في الطريق أمواتًا، فيمشي الرجل فيعثر بالميت فيقع فيموت في مكانه، وبقي الخلاف عندي، هل بقي من كلِّ مائةٍ واحد أو من كل ألف واحد؟

قال الشيخ: فكنت أمشي على جانب في الطريق ومعي حسن، فجاءني إنسانٌ على ناقةٍ أو نجيب وأخرج لي شربةً من ماء فسقيتُها، ولم أشربْ منها شيئًا، فبقي يقبلني ويبكي ويقول: يا موتك بالعطش، قال: وفُتِح لي بشربةٍ أخرى فسقيتُها لحسن ولم أشرب منها شيئًا، وبقيت إلى أن لطف الله بي.

فانظر رحمك الله تعالى على هذا الإيثار مع شدة الاضطرار.

وقد قلت:

كرامٌ سختْ بالموتِ نفوسُهم لكلِّ رفيقٍ في الطريقِ وصاحبِ
إذا ذَكَرُوا الإيثارَ قامُوا بحقِّه فحدِّثْ بِهم ما شئتَ من عجائبِ
فمَنْ ذايبذل النفسَ يُؤْثِر غيرَهم إذا عزَّ بذلُ النفسِ عند المصائبِ

قال الشيخ -رحمه الله تعالى-: ولقد رأيت فقيرًا في ذلك الوقت على قرنة جبلٍ وهو ينشِد:

لم أدرِ ما غربةُ الأوطانِ وهو مَعِي | وخاطري حيثُ كنَّا غيرُ منزعج
فالدارُ داري وحبِّي حاضرٌ ومتى | بَدَا فمنعرجُ الجرعاءِ منعرج[(١)]

والأبيات مشهورة للسيِّد ابن الفارض. ولقد جاءت العرب بالماء، فرغبوا في أخذ المال، وتَرَكُوا الناسَ وكانوا يعطونَهم المائةَ دينارٍ فما فوقها حتى يسقوهم، وكانت الأموال ملقاةً في البرّية ما لها مَنْ يأخذها، ولقد قلت: لِحسن مع كونه كان كثير السؤال يا حسن لِمَ لا تأخذ لك من هذا المال؟ فقال: وأنا حيٌّ حتى آخذ شيئًا؟ ونفرتْ نفسه، فقلت له: يا حسن الفقير ينفر من الدنيا في حال صحته وأمله كما تنفر أنت في حال تحققك بالموت.

ومِمَّن رأيناهم من المؤْثِرين على أنفسهم جماعةً لكنهم متفاوتون في الإيثار على أنفسهم، والمؤثرون بالأنفس قليل.

ومِمَّن رأيناهم الشيخ مجد الدين بن دقيق العيد القشيري، -رحمه الله تعالى-، كان يصومُ الدهر ويتلوَ القرآن، رأيتُه وعليه عرقشين خام بلا أكمام يبلُّه بالماء ويلبسه، وكلّما نشف بلَّه وكان في الصيف، والمأثور عنه أنه كان أكثرُ أوقاته يُؤثِرُ بعشائه، وله أوصاف جليلة نذكرها إن شاء الله في موضعها.

ومنهم الشيخ عبد الرحيم بن الشيخ مفرج الدماميني[(٢)] -رحمه الله تعالى- عاهدني وأُشْهِدُ الله تعالى عليه في التصرفِ فيما يملكه في الدنيا وفيما له من الحسنات في الآخرة.

ومنهم امرأة كانت تؤثر بعشائها مع الحاجة، وتؤثر في مرضها بما تأتي به لضرورة المرض، ولقد رأيتها مرة وقد قيل لها أنَّ فقيرًا له زوجة وما على رأسها شيءٌ، وهي تطلب شيئًا لرأسها فرأيتها بادرتْ وخلعتْ القناعَ الذي على رأسها وبقيت مكشوفة الرأس، فقال لها: أحد أولادها -وكان فقيهًا- هذا ما يجوز فبكتْ وتغيرت، وكانت حالة غالبة عليها فقلتُ له: دعْها فوضعتْ شيئًا على رأسها، رحمها الله تعالى.

ومنهم زين الدين عيسى بن المظفر الأرمنتي، وحكايته مشهورة أنَّه وجد شخصًا

---

(١) البيتان من البسيط، وهما لابن الفارض في «الكشكول» لبهاء الدين العاملي ص (١٣١٠).

(٢) لوالده الشيخ مفرج حكاية مشهورة أنه أحضر عنده فراخ مشوية، فقال لها: طيري. فطارت انظر: الطبقات الصغرى للمناوي (٤/٦٠٣).

مطلوبًا بشيء إن لم يدفعه ضُرِب، وكان هو مطلوبًا كذلك بشيء إ ن لم يقم به تلك الساعة ضُرب، والحكاية مشهورةٌ وقد تقدَّم ذكر صاحبها.

وأعرف شابًا طلب منه فقير دينارًا ليمتحنه بذلك، فحمل إليه جميع ما يمْلِكُه -وكانت جملة كثيرة- فلم يأخذ الفقير منها شيئًا.

وأعرف رجلاً جليلَ القدرِ قال لشخص فقير: أُشْهِدُ الله تعالى أني ملَّكتُك جميعَ ما أملكُه، وهو صاحب تاج الدين -رحمه الله تعالى-.

وكنَّا مدةً بثغر أسوان، وقد حضر الأمير فخر الدين بن المكبر وسلَّم علينا، فلمَّا قام أخبرني الخطيب شمس الدين خطيب أسوان عن فخر الدين المذكور أنه أقام هو وعيالُه ثلاثةَ أيامٍ لم يطعموا شيئًا، وكان الغلاء وما كان يدِّخر شيئًا، فلمَّا كان بعد ذلك أتاه رجل من خولته بويبةِ قمحٍ وقادوسين عنبٍ وخروفٍ، فلمَّا دخلوا البيت إذا بجماعة من الفقراء جاءوا إليه، وطلبوا شيئًا يأكلونه ولحمًا -ولم أحققْ المطلوبَ- فدفعَ لهم ويبةَ القمحِ والخروفَ فقالوا: نُريدُ منك شيئًا حلوًا، فأعطاهم القادوسين العنب.

وأخبرني عنه أنه كان معه بمصر، وكان الأمير على وسطه ذهبٌ للنفقة، فأصبح يطلبُ شيئًا يقترضه فقلت له: وما أصاب الذهب الذي كان معك؟ قال لي: إن شخصًا وضعَ يدَه على وَسطِي واعتقدَ أنِّي نائمٌ وأنا أنظره فخشيت أن أُخجلَه، فسكتُّ حتى أخذَ الكيس وهو يعرفه ممن هو معه.فانظر يا أخي على هذا الحال.

وأخبرني الشيخ عامر بن نسيم قال: كنتُ في خدمة الشيخ جمال الدين الأسيوطي ونحن بأخميم وكان الشتاء، وإذا بشخص جالسٍ مع الفقيه يتحدث معه، ثم قام فلما خرج قال لي الشيخ: يا عامر، فقلت: لبيك قال: خذ هذه الجبةَ -وخلع جبَّتَه، ولم يكن له شيء غيرها- قال: رُحْ إلى المكان الفلاني وأَعطِها لهذا الشخص الذي رأيتَه عندي، فأخذتُها ورحت أعطيتها له، وبقي الشيخُ في البرد، فلمَّا كان بعد ذلك وإذا أحد أصحاب الشيخ حضر والجبة معه فقال: يا سيِّدي، وجدت هذه الجبة وهي على قياسك فشريتها بثمانين درهمًا. قال: فأخذها الشيخ ولبسها، فلمَّا خرج الرجل خلعها الشيخ من عليه وطواها وقال لي: يا عامر، قلت: لبيك، قال: ارجعْ وادفعْها له، فما باعها إلا عن حاجةٍ. وبقي الشيخُ جمال الدين بالبرد.

ورأيت الشيخ سراج الدين ابن قاضي عيذاب -وكانت له أحوال جليلة نذكرها إن شاء الله تعالى في موضعها- وأخبرتني الحاجة أمُّ نجم الدين بن مطروح وكانت زارته، وكانت زوجة الشيخ سراج الدين، قالت: حصل لنا غلاء بمكة شرّفها الله تعالى، وأكل الناس الجلودَ، وكنا ثمانيةَ عشر نفرًا، فكنَّا نعمل ما مقداره نصف قدح نحسوه، فبينما نحن كذلك، إذ جاءنا أربعة عشر قطعةَ دقيقٍ وجاء خلفَها أهلُ مكة شرّفها الله، فاقتطعت منها أربعة قطعٍ وقلت له: أنت تريد قتلَنا بالجوع، وفرَّق العشر قطع على أهل مكة، فلمَّا كان الليل قام من مقامه مرعوبًا، وربَّما قالت: يبكي فقلت له: ما بالك؟ فقال رأيت الساعةَ أو رأيت في منامي السيدةَ فاطمةَ الزهراءَ بنتَ رسولِ الله ﷺ وهي تقولُ يا سراجُ، تأكل البَرَّ وأولادي جياع؟ فقامَ وفرَّق الأربعة قطع على الأشراف، وبقينا بلا شيءٍ ونحن ثمانية عشر نفسًا وما كنَّا نقدر على القيام من الجوع، وكنَّا إذا حصلَ لنا تقديرُ نصف قدح نعمَلُهُ حسوةً نَحسُوهُ .

وأخبرني الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- عن فقيرٍ، قال: قصدت السفر إلى الشام، فوجدت فقيرًا عليه هدمة، فسألته الرفقة في الطريق فقال لي: ما نوافق إلا أن يكون أحدُنا أميرًا والآخرُ مأمورًا؛ لأنَّه السُّنةُ. فقلت له: أنت الأمير عليَّ، وكنت قبل ذلك أنبسط عليه، فلما قال هذا الكلام وقع مني موقعًا، فلمَّا قلت له: أنت الأميرُ عليَّ قال: من شَرْطِ الأمير ألا يُخالَفُ قلت: نعم، قال: فالله تعالى شاهدُنا ثم سافرنا، فوجدنا في الطريق سيلاً وقد ملأ الوادي ووحلَ الطريقَ فقال لي: اخلع نعليك فأخذهما في يده فقلت له: ما هذا؟ فقال: ألستَ قد أشهدت الله تعالى أنِّي أمير عليك وألاّ تخالفني؟ قلت: نعم، قال: فاركبْ على ظهري، فركبت على ظهره وعبر بيَ الوادي، وأخذ الإبريق وغسل رجلي وألبسني نعلي وسافرنا، وإذا بالمطر قد نزل مثل أفواه القرب، وإذا هو قد أشار بإصبعيه إلى جبل هناك فانبسط علينا، وحال بيننا وبين المطر حتى فرغ المطر أشار إلى الجبل فرجع مكانه، فلما رأيته فعل ذلك خفت منه لأنَّني كنت أنبسط عليه، قال: وجاء الليل، فجئنا إلى قبةِ مسجد فدخلنا، وليس عليها باب فقال: اجلس في القبلة فجلست، وخلع هدمته غطَّانِي بِها وبقي عريانًا ما عليه ما يستر العورة، وسدَّ الباب بجسمه فوقف إلى الصبح، فلما كان الصبح أتاني بالإبريق فتوضأت

وصلَّينا وقد صار جسمه مثل الباذنجانة من البرد.

فانظر يا أخي إلى هذا الإيثار بالنفس في وقت الضرورة والبرد.

قال: ثم سافرنا حتى وردنا على امرأةٍ في الطريق فقلت لها: أيُّ شيء عندك نأكلُ؟ وكانت شيخة وكانت تُجْلس الفقراء فقالت: يا فقير، وَرَدَ عليَّ سبعون فقيرًا، وليس عندي إلا مدينُ دقيق وما أعرف إيش أصنع فقال لها ذلك الفقير: تُنيبيني اليوم في خدمة الفقراء، قالت له: نعم؟

قال: فأخذ الدقيق وعجن وقرَّص وجعلنا نحمل ونعجن ونقرِّص حتى أكل الفقراء وشبعوا، وبقي الدقيق وربما قال: والعجين والخبز. وسافرْنا إلى دمشق وأقمْنا، قال لي: أتسافر معي؟ فامتنعت وخفت على نفسي أن يصدر مني شيء مع مثل هذا الرجل لا يعجبه، ثم سافرت وحدي، فلمَّا وردتُ على المرأة قالت لي: أين صاحبُك؟ قلت لها: تركتُه أو كلمة هذا معناها، فقالت: والله يا فقير نحن في بركة ذلك اليوم حتى إلى هذه الساعة.

والمؤثِرون بالمال والثيابِ كثيرٌ، ورأيت من آثر بثوبه وبلغني عن الشيخ سراج الدين بن قاضي عيذاب، المقِدَّم ذكرُه، أنَّه كان في موضع الطهارة أعني المرحاض فخلع ثوبه ورمى به، يعني آثر به، وبقي عُريانًا حتى أتوه بشيء لبسه.

ومن رأيته في هذا المعنى كثير، وقد غاب عني أسماؤهم لطول المدة وعدم استحضارهم، ومن غير الطائفة جماعة أعرفهم، وجماعة سمعت عنهم كمن كان في زمن الخلفاء العباسيين.

كالوزراء البرامكة يحيى بن خالد وجعفر ولده والفضل وغيرهم، والحكايات كثيرةٌ يطول ذكرُها.

ومنها ما اتفق لَمَّا قتل مروان بن محمد الأموي، واستتر كاتبه ابن عبد الحميد عند صديقه ابن المقفع فوُشِيَ بهما إلى عند السفاح فهجمت رسلُهُ عليهما فقال لهم ابن المقفع: ما تطلبون؟ قالوا: نطلب ابن عبد الحميد قال لهم: ابن المقفع أنا ابن عبد الحميد فقال ابن عبد الحميد: لا والله، بل هو أنا فقال ابن المقفع: لا والله، بل هو أنا.. فلما طال قال ابن عبد الحميد: أخرجونا للناس يعرفونا فأخرجوهما فعُرِفَ ابنُ

عبد الحميد فقُتِلَ، وقد قلت:

إن المــروءةَ وصــفٌ لــيس يَسْــلكُه لاَ كــريمٌ عريــقُ الأصــلِ والحســبِ
منــزهُ العــرضِ عــن ذمٍّ وعــن دَنــسٍ مُكمَّلُ الوصفِ من فضلٍ ومن أدبِ

هذه رحمك الله تعالى، أوصافُ أهل زمانِك ومَنْ تقدَّمهم، وأوصافُ الفقراء في الإيثار والمروءات، وأوصافُ المتحشمين من غير الفقراء، وأرباب الرئاسات من العرب والحضر وغيرهم.

وقد علمتَ أوصافَ نبيِّك ﷺ وما أثنى الله تعالى عليه في كتابه، وأوصافَ أصحابه رضي الله تعالى عنهم فاسلكْ الاقتداء بما شئت فإنها كلُّها أوصافٌ تُرضي الله تعالى ورسولَه ﷺ، وقد أثنى الله تعالى على من اتصف بها ولا يرضى بأوصاف الحَمقى والبُخلاء والأخسَّاء، ومن رضي لنفسه بالقاذورات الدنيوية مع فنائها وعدم بقائها، وقبحِ الأُحدوثةِ في الدنيا والعذابِ في الآخرة، خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين.

فنسألُ الله تعالى التوفيقَ لكل عملٍ يرضاه ويقرّب منه، ويحبه ويحب فاعله، ونعوذ بالله تعالى من كل عمل لا يرضاه ويبعد منه،ويبغضه ويبغض فاعله، إنه أكرم الأكرمين.

وقد قلت:

أعــوذُ بــربِّي مــن صــفاتي الــتي بِهــا أُذَمُّ وفِي يــــومِ القيامـــــة تُخْجِــــلُ
وأَرجــو بفضــلِ الله مــدحًا بوصْــفه بأوصـــافه والفَضـــلُ يـــأْبَى التجمـــلُ

وذَكَرَ الذين جاءوا من بعدهم وقولهم: ﴿**رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [الحشر: ١٠].

الأمر بحسن الظن والنظر في صفات الأولياء

فانظر يا أخي، وفقك الله تعالى، إلى هذه الأوصاف التي ذكرها الله تعالى في الفقراء ومن تقدمهم، ومن جاء بعدهم فلا تَحِدْ عن طريقهم، واطلبْ واتصفْ، وسارعْ

وأنصفْ وسابقْ، ولا تتوانَ ولا تُهملْ أمر نفسك، ولا تنظر إلى من تشبَّه بالزِّى والكلام دون الاتصاف بالأعمال، ولا تقلْ كانوا أولئك، فقد ذكرت لك أهل زمانك ومن رأيناهم واجتمعنا بهم وعاشرناهم.

ولقد كانوا وهم الآن مِمَّن نعرفهم، ولا يرَون نفوسهم في رتبة الأدنى من الناس، بل لا يرون أنفسهم شيئًا.

ولا يغرَّنَّك ما تعلمه من نفسك من علة حظها ودسائسها في جميع أحوالها، فتعتقد أنَّهم إذا غضبوا كغضبك وإذا رضوا كرضاك، فتقيس أحوالهم على أحوالك وأحوال نفسك، فتقع في الإنكار عليهم ولا يعظموا في نفسك، فإنَّ هذا دأبُ المحجوبين والمبعودين عن الله تعالى، فإنَّهم وإن كانوا يغضبون ويتألمون ويرضون، فإنَّ غضبَهم ورضاهم لله تعالى، وتألمهم مِمَّا يؤلم البشرية لا يخرجهم عن ولايتهم،ولا يمنعهم استحقاقهم ولا يحجبهم عن ربِّهم ﷻ،فإنَّ ذلك جُبِلَ في الطباع، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿**وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾ [الحجر: ٩٧- ٩٩].

وكان ضيق صدر رسول الله ﷺ لمخالفتهم لأمر الله تعالى وجحودهم لكتاب الله تعالى وما أتى به عن الله تعالى وتكذيبه، وهو حجة الله تعالى، ولذلك لم يغضب لنفسه، وإنما كان يغضب لله تعالى ولا يقوم لغضبه شيء.

فأحسِنْ الظنَّ بأولياء الله تعالى فهم ورثةُ رسول الله ﷺ والآخذون عن الله تعالى وإلا فالسَّلامُ أولى بك من العطب.

وأعرف أصحابًا صحبناهم من أربعين سنة وما فوق ذلك، وما دون ذلك فمنهم من درج بالوفاة، لرحمة الله تعالى، وقضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدَّلُوا تبديلاً فيما عاهدوا الله تعالى، وفيما صَحِبُوا به الإخوان، ولم يكن بينهم غلٌ ولا حسدٌ ولا تميُّزٌ على بعضهم ولا مقاطعة، وسنذكرهم في مواضع أسمائهم وصفاتهم وكراماتهم وموداتهم وصبرهم واحتمالهم، وقضاء حوائج الناس عندهم، واتخاذهم الراحة لهم وحملهم الأذى عنهم مدةَ عمرِهم، وعدم مؤاخذتهم لهم.

هذا مِمَّا رأيتُه ومِمَّن سمعتُه كذلك.

وعلى الجملة للفقراء أوصافٌ وأخلاقٌ، وأعمالٌ وأقوالٌ، ومواجيدٌ وأحوالٌ، وإعلانٌ وإسرارٌ، وإبطانٌ وإظهارٌ، وكشوفٌ وإستارٌ. وهو جُماعٌ لجميعِ الفضائل في الأواخر والأوائل، اسمٌ متصفٌ بما في القرآن، متخلّقٌ بما فيه من الأسرار والبيان، فليعرض كل فقير نفسه على القرآن، ففي ذلك بيانُ صفة الشجاع من الجبان.

ولننظر إلى قوله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ [القلم: ٤].

ومثَّلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن خُلِق النبي ﷺ فقالت: «**كان خلقه القرآن**[١]».

إتباع السادة الصوفية للقرآن والسنة ودعوتهم إلى ذلك

ولأنَّ القرآن العظيم أعظمُ المعجزات، وأكبر الكرامات، وقد اختلفت حالات رسول الله ﷺ في الاتصاف بالكرامات، والفضائل المتواليات والعبادات والطاعات وامتثال الأوامر في جميع الحالات، كلُّ ذلك للبيان والتعليم والسلوك على الصراط المستقيم؛ فلذلك قال الله تعالى: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**﴾ [الأنعام:١٥٣].

وقال الله تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾ [الحشر:٧].

وقال الله تعالى: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾ [يوسف: ١٠٨].

وقال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ**﴾ [الفتح:١٠].

فانظر يا أخي رحمك الله تعالى إلى هذه السبيل وهذا الطريق، واسلكْ على هذا المنهاج وهذا التحقيق، وقمْ بما تستحقه من الإيمان، والتصديق بما ترغم به أنف الزنديق، وترضي به الصديق، فإنَّه مَن وجدَ في نفسه شكًا أو وهمًا أو ترددًا في أقواله ﷺ وأفعاله وقضاياه وأحكامه، فقد خلع ربْقَ الإيمان، وكشفَ قناعَ الكفرانَ، قال الله تعالى:

(١) رواه أحمد في مسنده (٩١/٦).

﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [النساء: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ * وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٥- ٤٧].

بقدرِ تبعيَّتِك لنبيِّك سيِّدنا محمد ﷺ،ودخولك تحت حكمه وتخلّقك بخُلُقِهِ،واتصافك بوصفه،يكون فقرُك فازددْ من ذلك أو انقُصْ، وأكمَلُ أحوالَ الفقير أنْ تكون على ما كان عليه رسول الله ﷺ إلى حين وفاته، فافهم ذلك فهذا هو الفقير حقيقة والله تعالى أعلم.

وأمَّا اصطلاح الطائفة الشريفة في الفقر والاتصاف به، فلهم بذلك كلامٌ كثير، وأقوال بحسب وجدانهم واتصافهم واستعدادهم، فمِنْ قائلٍ: الفقرُ الاتصافُ بكلِّ وصفٍ محمود، والانخلاعُ عن كل وصف مذموم.

ومِنْ قائل: الفقرُ وصفٌ يفوقُ الأوصافَ والحدودَ، ويتجلّى من وراء العقول والعهود، فلا يصفُهُ واصفٌ، ولا يعرفه عارف، ولا يخاف فيه آمن، ولا يأمن فيه خائف، وكلُّ الأقوال بحسب الوجدان والأحوال والقابلية والاستعداد لتلقِّي الواردات لما يرد به المراد.

والذي وصفوه وتكلَّموا فيه،وحققوه أنَّ الفقر خلوُّ الكفِّ من المالِ وخلوُّ القلبِ من الآمالِ، وهذا أحسن ما قالوه، إلا أنَّ خلوَّ القلبُ من الآمال لا يحتاج إلى خلوِّ الكفِّ من المالِ، فقد كان لبعض الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم وسلامه الأموال في أيديهم، ولم تكن في قلوبهم كأيُّوب النبيِّ السيد ﷺ والسيِّد سليمان بن داود عليه الصلاة والسلام وعلى أبيه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، والسيِّد النبيُّ الأميُّ عليه أفضل الصلاة والسلام، وكان الملك للسيِّد سليمان والخلافة للسيد داود عليهما السلام، فافهم معنى ذلك.

ولا تقفْ مع حظِّك؛ فهو الذي حَجَبَ مَنْ أُقِيمَ في رُتبةٍ مِنَ الرُّتب عن وصوله

لما كانوا عليه، والآمال بحسب المؤمل لها، وهي ما شغلك عن الله تعالى من أهلٍ أو مالٍ أو ولدٍ أو دنيا أو آخرةٍ أو رتبةٍ من الرتب الدنيوية أو الأخروية يومًا أو لحظةً أو ساعةً من الساعاتِ أو خطرةً من الخطرات، أو زمنَ فردٍ فذلك مشئوم عليك كما ورد: ما شغلك عن الله تعالى من مال وولد فهو عليك مشئوم، وفي قوله تعالى: ﴿**لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّـهِ إِلَهاً آخَرَ**﴾ [الإسراء: ٢٢] كفاية لمن كان له قلب أو ألقى السَّمع وهو شهيد، وحقيقة الأمل وجود الحياة، وطلب البقاء في هذه الدار، فبقدر طول الأمل وقصره، تفْضُلُ درجاتُ الفقر، فالفقير حقيقةً مَنْ لا أمل له.

وقد ورد في قصر أمل رسول الله ﷺ ومَحْوِ الأملَ من قلبِهِ في تسويغ اللقمة وشربة الشربة، وما ذكره لأصحابه فيه كفاية، فحياة الفقير دنياه وأمله عدم فقره، وعدم أمله وجود فقره، ولنقتصر على هذه النبذة اليسيرة من اسم الفقير وصفة الفقر، ولنذكر أسماءَ من وعدنا به مِمَّن عرفناه وصحبناه ومَن سمعنا عنه، وصفاتهم وكراماتهم وأحوالهم وتصرفاتهم، من السالكين والعارفين وأولي الأمر والأخلاف والأعين والأبدال، بحسب ما سمعناه ورأيناه بعون الله تعالى وقوته وتأييده وإرادته.

باب في ذكر أسمائهم وكراماتهم وصفاتهم مما رأيته منهم

١- الشيخ أبو العباس الملثم

الشيخ أبو العباس أحمد الملثم المشرقي، كان أبوه ملكًا بالمشرق وهو أولُ مَن صحبته من هذه الطائفة من قبل البلوغ وبعده، إلى حين وفاته، -رحمه الله تعالى-، وكان كبيرَ الشأن، له أحوال جليلة وأعمال مستديمة، وخوارق عظيمة ومكاشفات عجيبة وهمم عالية وكرامات متوالية، وإخبارات صادقة وآيات واضحة.

وعجائبه كثيرة وإنَّما نختصر منها على ما يشوق ويلذ في المسامع، ويحضُّ على سلوك الطريق المتبوع والتابع، كان يلبس الشَّعرَ على جسده وإن وجد شيئًا لبسه فوقه، أيَّ شيء كان عباءةً أو فرجيةً أو غيرَ ذلك، وكان يتلثَّم وكان ربعًا قامةً لينَ الجسم إلى القصر أميل من الطول، وربما غيَّر عمامته تارةً خضراء وتارةً غير ذلك وتارةً صوفًا وتارةً شاشًا، بحسب ما يجده من غير كلفةٍ، وكان يخاطبني على الخاطر فمهما خطر لي

حدثني عليه من غير سؤال، وجرى لي معه هذا وقوعًا عديدةً غيرَ محصورة لكثرتها، فمنها أنَّه إذا كان غائبًا، وخطر لي طلبُه أو اشتقتُ إليه يحضر في ساعته من غير أن تعرف الجهة التي كان فيها، هذا غير مرة.

وكان الناس مختلفين في عصره اختلافًا كثيرًا، فمنهم من يقول من قوم السيِّد يُونُس ﷺ، ومنهم مَنْ يقول رأى الإمامَ السيِّد الشافعيَّ ﷺ وصلَّى خلفه، ومنهم من يقول رأى القاهرة وهي أخصاصًا ومنهم من يقول غير ذلك.

وكان رجل من أهل الصلاح سألني أن أسأله عن ذلك فلمَّا كان بعد ذلك جاءني غلامُ العمِّ فقال لي: الشيخ أبو العباس في البيت يطلبُك، فقمت إليه وكنت قد غسلت ثوبي ولا ثوب لي غيرُه فاشتملتُ بشيءٍ عليَّ، وجئتُ إليه وسلَّمتُ عليه وجلست وهو متوجهٌ إلى القبلةِ، فسألته عمَّا جرى بمكة،شرَّفها الله تعالى،وكان ذلك بعد الحجِّ، وكنت أعتقد أنَّه يروح إلى مكة في الوقت اليسير، لأنَّه كان يغيب قبل الحجِّ بيومين أو ثلاثة أو أكثر أو لأقل من ذلك، ثم يحضر بعد العيد بيسير يومين أو ثلاثة أو أقل أو أكثر، بحسب ما يتفق فيخبرنا عمَّا جرى بمكة والحجاز في تلك السنة، ويصل الحجَّاج فيخبرون بالذي أخبر به، فيكون الأمر كما أخبر به، فأخبرني عمَّا اتفق تلك السنة ثم تفكرت فيما سألني به ذلك الرجل الصالح أن أسأل الشيخ عنه، أهو من قوم أصحاب السيد يونس ﷺ أم لا؟ وهل صلَّى خلف السيد الإمام الشافعي ﷺ؟ ورأى القاهرة أخصاصًا أو لا؟

فحين خطر لي هذا الخاطر التفتَ إليَّ وقال: يا فتى ما بينهم قاضٍ، ولا وال، ولا بينهم فقير، ولا على بينهم أبواب، ولا تُعْرَفُ المرأةُ بينهم إلا إذا قيل الصلاة على الجنازة وهي امرأة.

فقلت: يا سيّدي أمَّا عدمُ القاضي والوالي فلعدم التخاصم، وأمَّا كونُهم ما بينهم فقير فما معناه؟ فقال لي: يا مبارك، يجعلون قوتَهم أو زرعَهم جرنًا واحدًا، ويتساوون فيه ويعينون بعضهم بعضًا، على عبادة الله تعالى، وأنا رجلٌ شريفٌ حسنيٌّ.

ثم قال: وأمَّا السيِّد الإمامُ الشافعيُّ فمالَه كثيْرٌ من حين مات صلَّيتُ أنا خلفَهُ، وكان جامعُ مصرَ سوقَ الدوابِّ، وكانت القاهرة أخصاصًا فلمَّا قال ذلك، أردتُ أن

أحقق عليه الشهادة فقلت له: يا سيدي، أرأيت الإمام الشافعي المطلبي محمد بن إدريس صاحب المذهب؟ فلمَّا قلت له ذلك غمغم عليَّ وجعل يقول: يا فتى، في النوم ويضحك. وكان ذلك اليوم يوم الجمعة واشتغلنا في الحديث، وحديثه كان يلذّ السامع، حتى لا يكاد أحد يقدر على مفارقته، فبينما نحن نتحدث، وإذا بغلام قام وتوضأ وقصد الخروج فقال له الشيخ أبو العباس: إلى أين يا مبارك؟ فقال: يا سيِّدي أصلي الجمعةَ فقال له الشيخ: وحياتي صلَّيت، فخرج الغلام ووجد الناس راجعين من الجامع، وفاتتني صلاة الجمعة ذلك اليوم بهذه الحالة.

مناقشة للشيخ في الإخبار بالمغيبات

وكنت قد قلت له يومًا آخر: أنت تقول فلان يموت اليومَ الفلاني وهذه المركب تغرق، والأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ما يقولون، ولا يُظْهِرُون إلا ما أُمِرُوا به من إظهار المعجزات، وإقامة الحجة على العباد، وما أُمروا به من الدعوة إلى الله تعالى، هذا مع كمالِهم وقوةِ أنوارِهم، وقوةِ شهودِهم وما يُوحَى إليهم من ربِّهم تعالى، ونوُرُ الأولياءِ إنَّما هو رشحُ الرشحِ من نور النبوة بالميراثِ فلِمَ تقولُ أنت هذه الأقوال؟

فاستلقى على ظهره وجعل يضحك ويقول: وحياتي وحياتك يا فتى ما هو باختياري يا فتى ما هو باختياري.

ثم قال أنا وجدت في السياحة ستة أنفس، ومعهم لباسُ سابعهم فقالوا لِي إنَّ سابعَنا مات وألبسوني ثيابه.

فلعلَّ ذلك إشارة إلى أنَّه رأسُ السبعةِ، ولعلَّ قوله وحياتي صلَّيت من صفات البدلية، فإنَّهم يكونون في مكان، وشيخهم في مكان آخر وقديكون ذلك لصورة الكشف الصوري الذي يرتفع به الجدار ويبقى الاستطراقُ فيُصلِّي حيث كان ولا تحجبه الجدران.

ومن كراماته

واطلاعه على الخواطر كنَّا ذات يوم جلوسًا على باب مسجد بظاهر الأقصرين وكنت آوي إلى ذلك المسجد، ومعنا الشيخُ شمس الدين بن الصابوني،وهو صاحبٌ لي وكان ذلك صبيحة السابع عشر من شهر رمضان وكنّا نظنُ أنَّ تلك الليلة الماضية

كانت ليلة القدر، فسألناه عن ليلة القدر هل كانت البارحة أم لا؟ فقال: نعم رأيتها البارحة وسجد كلُّ شيء لله تعالى، وسجد النخلُ وربطت حجرًا في رأس نخلةٍ وأصبحت وجدت النخلةَ قائمةً والحجرَ في رأسها.. فبينما هو يحدثنا، وإذا بحمارٍ اجتاز بنا وشَحَصَ وصَوّتَ، فضَحِك الشيخُ وربما استلقى على ظهره، وقال: تعرفوا إيش هذا الحمار يقول؟ فقال له أحدنا: ضرط، فقال: هوَّ يقولُ:

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ [الحاقة: ٤٩].

فقال شمس الدين: يا سيّدي، أنا قلت في نفسي ما يسجد هذا السجود إلا الإنسان، فغضب الشيخ وانزعج عليه، وقام فمشيت معه، وبقيت أسأله الرضا عنه؛ فإنه صاحب لي من المكتب.

وكان الشيخ قدّس الله تعالى روحه، سريعَ الغضب سريعَ الرضا، وخشيت على صاحبي أن يكون ذلك غضبًا بالقلب فيكون فيه الهلاك، ولعلَّ الشيخ إنَّما كره منه الإنكارَ على ما لله تعالى فعله، لا يستحيل عليه أن يفعله والقدرة صالحة لما يريده الله تعالى فلذلك رضي عنه لما تاب.

كان الشيخ -رحمه الله تعالى- يكره السماعَ وربَّما صرّح بما يحدث فيه مما لا يجوز ولا يناسب حالَ أهل الطريقِ، فلعلَّ كراهيته إنَّما كانت لعدم ما يصلح في السماع من عدم الأهلية، وكان ينهاني عنه وكنت أجد به راحةً إذا كنت وحدي.

ومن كراماته وكشفه ما أخبرني به عفَّان بن ذئب الأقصري، وكان ثقةً وكان واقفًا مع الظاهر وهو رجل أميُّ غير فقيه، غير أنَّه لما عمل وهو صدوق ورأيته متألما من الشيخ أبي العباس فسألته فأخبرني أنَّه كان استأجر مركبًا كبيرًا هو وجماعة من أهل بلده، بجملة دنانير، وحملوا فيها فخارًا ليحملوه من الأقصرين إلى مصر، وكانت عادةُ الشيخ أن يقول هذه المركب تغرق أو تسلم، قال: فما كان أبو العباس في البلد فقال استرحنا منه، لا يقول تغرقوا ولا تسلموا.

قال: فسافرنا إلى أن وصلنا إلى مدينة قوص، فبينما أنا أمشي في السوق وإذا رئيس المركب قال لي: يا فلان أو ياناخودا، أشتهي أن تأخذوا فخَّاركم، وقد أوصلتكم إلى مدينة قوص وأنتم في حلٍّ من الأجرة إلى قوص فقلت له وما سبب ذلك؟ فقال

إنَّ الشيخ أبو العباس قال لي: إن المركب تغرق فغضبت وقلت لو وجدته أغرقته.

قال: فخرجت إلى دار الولاية واشتكيت الرئيس ورسمتُ عليه بالسفر، فلمَّا أصبحنا والرئيس يقلفط في المركب وإذا بالشيخ أبي العباس قد أقبل ووضع يده على أعلى خفقة الكيزان، وقال: يا رئيس، قلفطْ فوق هنا فقال: يا سيدي، إذا طلع الماء إلى هنا رحنا البهموت، قال: نعم، نقول لكم الحقَّ [سوف] تغرق ثم تغرق ثم تغرق قال: فسافرنا فلمَّا وصلنا أمَّ نخلة غرقت المركب فلم يطلع لنا شيء.

وممَّا جرى لي معه -رضي الله عنه- أنَّني كنت عزمت على الحجاز، وحصل عندي قلق عظيم فبينما أنا أمشي في الليل في زقاق مظلم، وإذا أنا أحسُّ بيد على صدري، فزال ما كنت أجده من القلق فنظرت فوجدته الشيخ أبا العباس -رحمه الله تعالى- فقال لي: يا مبارك، القافلة التي أردتَ الرَّواحَ تُؤخذُ والمركبُ الذي تسافر إلى الحجاز تغرق، فكان كذلك.

ومن كراماته أنني كنت أمشي معه بالليل وحملت إبريقه، وإذا شخصان أحدهما يُسمى يوسف بن المجنونة والآخر يسمى مُفْرِحُ بن عبد الخالق فلما نظر إليهما الشيخ حوَّل وجهه عنهما، وانزعج عليهما، فبكيا وقبَّلا قدميه فلمَّا توّجها عنا قلت له: يا سيدي ما بالهما؟ فقال: يا مبارك ما قالوا خيرًا، فلمَّا كان بعد ذلك وجدت يوسف أحد الشخصين وكان يحب الفقراء فقلت له: ما قصتك؟ فقال: تكلّمنا عليه بسبب تأخرك عن السفر.

ثم أخبرني يوسف المذكور أنه جرت له مع الشيخ أبي العباس وقائع من جملتها قال: اشتريت حمارا بعشرة دنانير أجلب عليه اللبن، فقلت: يا سيدي، ادعُ لي في أمر هذا الحمار فإنِّ أحبه، فقال: هو حمار، وتبكي عليه الحمير، فكررت عليه القول وهو يقول هو حمار وتبكي عليه الحمير، فلم يلبث الحمار إلا ثلاثة أيام ومات.

أحواله

وكانت له أحوال عجيبة مع تمسّكه بالشرع وتلاوة القرآن وقيامه الليل في ركعتين الأخيرة منهما لطيفة، ولا يكاد يخلو من العبادة إن كان ماشيًا وحدَه فهو يتلو القرآن وإن كان الناس معه أو حوله فهو يدعو لهم ولآبائهم وأجدادهم، ويسمي الآباء والأجداد بأسمائهم وإن كانوا من بلاد متفرقة أو بعيدة، كالعجم والعراق والسند وغيرها

أو قريبة، فيقول -رحمه الله تعالى-: جدك فلانًا أو والدك فلانًا كان لي محبًّا، هكذا يقول ويتعجب الناس من ذلك.

وإن كان في الليل فهو يصلِّي، ولا كان يأوي إلى البلدان في الليل، وكنت أخرج معه إلى ظاهر البلد، فيتركني ويتوجه لا أعرف إلى أين يتوجه.

وكان يدخل بيت أصحابه ومحبيه بلا إذن لمحبتهم له وسرورهم بذلك.

وكان يجتمع عليه النساء والرجال والشيوخ والأطفال ويسألونه الدعاء.

ومن عجائبه وكراماته أنّ الشيخ أبا الحجاج يوسف بن إدريس خادم الشيخ أبي الحسن بن الصباغ وأحد أصحابه -رضي الله تعالى عنهم -وليس هذا الشيخ أبو الحجاج المشهور بالأقصري؛ فإنّ الشيخ أبا الحجاج الأقصري هو يوسف بن عبد الرحيم(١)، وهذا يوسف بن إدريس، وهما أقصريان- قال الشيخ يوسف بن إدريس للشيخ أبي العباس كما أخبرني علم الدين نوح بن الشيخ يوسف بن إدريس أنَّ والده يوسف المذكور قال للشيخ أبي العباس: يا سيدي، أنت تدخل بيوت الناس وتجتمع عليك النساء وأعراض الفقراء كما تعلم، فقال له: الشيخ أبو العباس: يا فتى، اشتغلْ بنفسك، بقي من عمرك سبعةُ أيامٍ من الآن فلمَّا أمسى المساء وجاء الليل بات الشيخ يوسف متألما قال ولده: فقلت له: يا سيدي ما بالك؟ فقال: يا ولدي أنا أَهْرَقْتُ الماء، وإذا بحصاةٍ وقعتْ في ركبتي حصل لي منها ألمٌ، وأصبح الشيخ يوسف ضعيفًا

(١) المشهور بالأحوال والكرامات، والخوارق والعجائب، كانت طريقته في التصوف غريبة، يأتي فيها بكل عجيبة، حتى قال أحدهم: ما رأيت له في ذلك نظيرًا، ولا توهمت أن غيره من أهل الطريق يكون على ما يأتي به قديرًا، كان متجردًا دائمًا، قال زروق: ولي القطبانية.

أخذ عن الشيخ عبد الرزاق الإسكندري، تلميذ أبي مدين، وعن الشيخ حبيب العجمي، والشيخ عبد الرحيم.

وعنه أخذ البرهانان: القادري والكبير، والشيخ مفرج، والبدر الدمشقي.

والعليان: الأنوي وابن عليان، والشمس السفطي.

قال في الطالع: زعم أصحابه أنه عُرج به ليلة النصف للسماء، وتلقى من ربه الأسماء، وجعلوا له معراجًا، ودعوا الناس لسماعه أفواجًا، وصار في الصعيد كل سنة كالعيد.

وانظر: طبقات الشعراني (١/١٥٧)، الطالع السعيد (٧٢٢)، والكواكب (٤٧٧).

واستمرَّ ضعفُه وأحضروا له الأدوية والشراب فلمَّا كان اليومُ السادسُ اجتاز الشيخ أبو العباس بالقاضي شرف الدين بن مسلم قاضي عيذاب -رحمه الله تعالى-، ووالدي- وكانا من المحبين للشيخ يوسف، وللشيخ أبي العباس- فقالا للشيخ أبي العباس: يا سيدي أصبح الشيخ يوسف طيبًا فقال: يا مباركين، غدًا يموت.. فلمَّا أصبح الشيخ يومَ السابع وجد رقعة في مصلاه فيها مكتوب لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم أحسن الله تعالى عزاك في نفسك.

ومات الشيخ يوسف -رحمه الله تعالى- في ذلك اليوم. فجعل النساء من بناته وأهله يتكلمن في الشيخ أبي العباس بما لا يليق ويقلن: هو دعا على أبينا، ومن عادة نساء الريف يجعلن ستارة في الطريق عند بيت الميت: ويُحَجِّزْنَ من هنا ومن هنا لينفسح لهن الشارع، ويصرخن على ميتهن في الشارع من خارج البيت.

فلمَّا كان في وقت المغرب أرادوا الدخول إلى بيتهم فوجدوا في البيت جملاً كبيرًا عظيمًا، قد ملأ القاعة التي لهم فغلَّقوا البابَ عليهم فكسر غلق الباب وخرج وطلع في الدّرج إلى السطح -أعني سطوح البيت- فهجج النسوة، وهربن من البيت، ولا رجع أحد يقدر يذكره بسوء.

وأدخلني علم الدين نوح ولد الشيخ يوسف إلى البيت، وأراني المِغْلَقَ مكسورًا وقال لي: هذا الغلق الذي كسره الجمل.

ومن كرامات الشيخ أبي العباس ﷺ ما أخبرني به الفقيه سراج الدين عمر ابن الشيخ نجم الدين أحمد بن ناشيء قال: أخبرني الشيخ أبو العباس أنه دخل على أحد الملوك فوجده مريضًا فقال له: أنت تموت بعد سبعة أيام فقال له الملك: أنا أحبسك، فإن عشت قطعتك قطعًا كلَّ قطعةٍ وزن ربع وإن أنا متُّ فأنت تأخذ الملك بعدي.

قال: فمات الملك بعد سبعة أيامٍ وقعدتُ في الملك بعده سبعَ سنين قال: ثم قلت لزوجتي: أنا أريد أن أتزهّد وأتركُ الدنيا، فسألتني ألاّ أفعل، فخالفتها وخرجت وتركت المُلك وما أدري ما جرى بعدي.

ومن كراماته وكشفه وقوة إيمانه ويقينه ما حكاه لي أبو السرور بن أبي العيد الدمقري قبلَ إسلامِه، وكان ساقيًا لأمير العربان معين الدين بن شاذي، وكان أبو السرور كثيرَ الخلاعة والانبساطِ والحكاياتِ، وكان يجتمع مع الأكابر والأمراء كالأمير

عز الدين الأفرم وغيره وأكابر البلاد من مدينة قوص، وكان كثيرا يحضر عندي في أيام التجريد وأنا ظاهر البلد، وتنحصر منه الفقراء أصحابُنا لكونه نصرانيًّا.

فلمَّا كان يومٌ من الأيام، وأنا جالس وحدي وإذا بأبي السرور دخل عليَّ وقال لي: ما تقول في سبعين صنجة؟ قلت: وما سبعون صنجة؟ قال لي: اليوم سبعين سنة ما تركت شيئًا إلا عملتُه، وأنا أشهد ألاّ إله إلا الله وأشهد أنَّ محمَّدًا رسولُ الله، فأسلم وحسن إسلامُه.

وكان أخبرني قبل إسلامه فقال: هل تعلم ما جرى لي مع صاحبك الشيخ أبي العباس؟ قلت: لا، قال: كان عند الأمير معين الدين بن شاذي مغنية قد جاءت من عند صاحب الموصل، وكان الأمير معين الدين يحبها حبًا شديدًا بحيث أنَّها تأمر بمهما أمرت في البلاد فقال له الشيخ: أخرج هذه المغنية من عندك.

وكان الأمير يقبل من الشيخ ويحبّه فقال له الأمير: يا سيِّدي، ما أقدرُ على إخراجها كأنَّك تقول لي: أخرج روحك؛ فقال له: يا مبارك فتزوجّ بها، فقال له: يا سيدي، أنا أمير العرب كلِّها وأمير العرب ما أكون زوج مغنية، فقال له الشيخ: يا مبارك تفعل شيئًا تحلّ به وهو أنْ تُحضرَ عاقدًا وشاهدين وتقول لهما: لا تظهرا ذلك. وتتزوج بها خفيةً. فأجابه الأمير إلى ذلك.

فلمَّا سمعتْه لم يطبْ لها ذلك، وكنت أقف بين يديها لقضاء الحوائج التي يحتاجها الأمير، فنظرتْ إلى الجوارى والخُدَّام فخرجوا وبقيت واقفًا فقالت لي: يا أبا السرور، قلت: لبيك قالت: أنا رائحة أكذب على الشيخ أبي العباس وأقول للأمير أنَّه راودني عن نفسي، ووالله ما لم تقل أنك وجدته يراودني عن نفسي وإلا تصبح مشنوقًا فقلت لها: السمعُ والطاعةُ، قال فبينما هي تحدثني، والأمير قد دخل وكان من عادتها إذا جاء الأمير تلقته بالدفوف والشبابات، حتى يجلس فدخل الأمير وعليه آلات الحرب فتنحت إلى ناحيةٍ وأسبلتْ عليها مقنعةً فوقف الأمير على رأسها وكلَّمها فلم تتكلم فقال لي الأمير: ما قصَّتها فقلت: لا أعلم فجعل يكلمها إلى أن تكلمت وقالت: أنا صنت نفسي عن الملوك وجئت إليك وأنت كذا وكذا، وجعلت تحرّضه وتقول: بيتك مثل اصطبل البقر يدخل شيخُك يراودني عن نفسي وذكرتْ الشيخ أبا العباس والتفتت إليَّ

وقالت: ما هو كذا وكذا يا أبا السرور؟ فقلت: نعم فخرج الأمير من باب السرِّ وخرجتُ أنا هاربًا خائفًا أن يُقتل الشيخ بحضوري وينسب المسلمون إليَّ ذلك قال: فبينما أنا مسرع وإذا بالشيخ أبي العباس في وجهي رائحًا إلى دار الأمير، فلمَّا نظرني نظر إليَّ وقال: أنا راودتها عن نفسها؟ تقول نعم يا مبارك؟ قال: فلم أقدر أقف على ركبتي ووقعت الأرض، وقبَّلت أقدامه وقلت يا سيّدي، مثل ما عرفت هذا عرفت ما كان قبله فقال: نعم، مكره يا مبارك مكره، ثم مشى الشيخ رائحًا إلى دار الأمير فتبعته من حيث لا يعلم، إلى أن دخل الدار فقامت المغنية وقبَّلت الأرض بين يديه فقال لها: أين الأميرُ يا مباركة؟ فقالت: جاء وخرج. وقال: وأخذ الشيخ المدورة وضعها تحت رأسه واضطجع ووقفت تروِّح عليه بالمروحة وأنا واقف خلف الباب أو من حيث لا يرياني، قال: فنام ساعةً ورفع رأسه وقال: ما جاء الأمير؟ فقالت: لا فقام الشيخ وخرج فلمَّا خرج وإذا بالأمير قد خرج عليها مشهور السيف ووقف على رأسها وقال: والله إن لم تخبريني بقصتك مع الشيخ أبي العباس وإلا ضربت عنقك، فقالت: كذبت عليك، فقال لها: ويلُك أردتِ أن تفسدي عليَّ دنياى وآخرتي، قالت: ما فعلت هذا إلا لأجلك حتى تبقى لذتُك فإنك إذا ما كنت أنا في حاصلك تبقى النفس حريصة على تحصيل اللذة، وخائفة من فواتها فإذا تزوجتني وصرت في حاصلك ذهبت لذتك وحصَّلك الملل، فسكت.

هذا حديث أبي السرور وإنَّما ذكرنا ذلك عنه قبل إسلامه، وإن كانت رواية الذي لا تقبل لكن في روايته كرامةً للشيخ أبي العباس لعدم التهمة وشهادة العدو في الدين بكرامة أهل الدين.

شهدتْ لَها بالحسنِ ضرَّاتُها والفضلُ ما شهدتْ به الأعداءُ

فانظرْ، وفقك الله تعالى، إلى قوة هذا الكشف والإطلاع على أوَّل الحالِ وآخرِه وما يئولُ إليه، وقوة اليقين في الكشف وتحقيقِه حتى مشى إلى الموضع الذي فيه الموت واضطجع ونام.

وعجائبه وغرائبه كثيرة جدًا وإنَّما نحن نقتصر.

ثم إن عزَّ الدين أخو الأمير معين الدين بن شاذي جاء في غيبة أخيه، وضرب

رقبة المغنية المذكورة ورماها البحر، ولقد رأيت أنا الأمير معين الدين وهو ماسك أخاه عزَّ الدين، وهو خارج به إلى البحر يغرقه بسببها، والعربان خلفه إلى أن شفعوا فيه فتركه.

وعجائب الشيخ أبي العباس كثيرة وأمَّا كشفُه واطلاعُه وإخباراته فما تحصرها الكتب ونحن نذكر منها نبذة يسيرة، مع طول المدة وحدوث الشواغل عن الاستحضار، ولقد أخبرني الشيخ علم الدين بن نوح بن الشيخ يوسف بن إدريس عن الشيخ أبي العباس أنَّه قال: لي نظرتين، أنظر ما كذا وما كذا، ويشير إلى المشرق والمغرب.

ومن عجائبه أنَّ قاضي عيذاب شرف الدين محمد بن مسلم والشيخ بهاء الدين ابن سيد الكل القفطي، وجماعة عند الشيخ بهاء الدين في منزله بمدينة قوص وأنا متردِّدٌ هل كنتُ حاضرًا أم لا؟ لطول المدة، والحكاية بين الجماعة مشهورة فذكر قاضي عيذاب كراماتِ الشيخ أبي العباس فقال الشيخ بهاء الدين: دعنا من هذا الكلام أو كلام هذا معناه فقال له قاضي عيذاب: ما أشر عليك فإنَّك صاحبي، فقال الشيخ بهاء الدين: إنْ كان رجلاً صالحًا يجيءُ إلينا الساعةَ فلم نشعرْ إلا وقائلٌ يقولُ: نعم، قالوا: نعم فدخل الشيخ أبو العباس فقال: سلام عليكم فحصل للجماعة وجمة عن ردِّ السلام وهيبةٌ فقال: بحياتي شتموني كثيرًا جعلكم الله تعالى في حلٍّ وخرج.

فربما قال الشيخ بهاء الدين: هذه مصادر، وهذه الحكاية تحتاج إلى بيان حسبة على من لا يعلم أحوال أهل هذا الشأن، حتى لا يعتقد أنَّ الصالحين يختارون أن يُعرفوا أو يعرف الناس أنَّهم صالحون أو يريدوا المنزلةَ بذلك في صدور الناس، وليس كذلك، فإنَّ ذلك لو وقع حصل الحجاب، وامتنع الكشف، وكان الحظ يرفع حكم العمة ويُبدل النعمة بالنقمة ويقع الخسران، ويستولي الحرمان، نعوذ بالله تعالى من هذه الحال.

تفاوت القوم في الأحوال

وإنَّما القوم متفاوتون في الأحوال، فتارةً تَظهرُ تلك الكراماتُ من غير اعتمادٍ ولا اختيارٍ ولا سابقِ علمٍ لهم، وتارةً تكون عن كشفٍ واطلاع وعلم محقق، لكن عن أمرٍ أمروا به أو أُذن لهم فيه، والإذن تارةً يطلعون على المراد فيه والحكم فيه، وما يئول إليه إمّا في دفع مضرة أو إيجاد راحة أو إقامة حجة لله تعالى على كائن من كان، أو جذب

طالب إلى الله تعالى من ذلك الوجه، أو رفع بلاء يقع بذلك الجميع، لوقوعهم في الولي وإنكارهم عليه أو تبيينًا لمن يقصد سلوكَ الطريق إلى الله تعالى، أو تشويقًا لمن لا يعرف ذلك أو تربيةً لمريدٍ.

فإنّ الشيخَ للمريد كالطبيبِ للمريضِ، فلا بد من معرفة مرضه ومعرفة دوائه، فهو يطّلع على وسوسة نفسه، وهواجس خواطره ويأمره وينهاه بحسب ذلك الاطلاع، فيبقى المريد يلاحظ خطوات نفسه خشية من اطّلاع الشيخ عليه، فيكون ذلك سببًا لوصوله، وتارةً يؤمرون بذلك فيقفون عند ما أمروا به من غير زيادة ولا نقصان.

وقد تقدم أني سألت الشيخ أبا العباس مرةً عن قوله هذا المركب تغرق، وهذا الرجل يموت بعد كذا كذا يوم، فإنه وقع ذلك مرات وكان كما قال: فسألته عن هذه الأحوال فضحك واضطجع وجعل يقول وحياتي وحياتك ما هو باختياري.

ومن عجائبه ما أخبرني به أخي نجم الدين على، أنه كان متوجها إلى طود فوجد الشيخ أبا العباس ماشيًا في الطريق قال فعرضت عليه الركوب فامتنع قال: فتقدمت وسقت سوقًا مسرعًا حتى دخلت من باب البلد لأجد الشيخ أبا العباس قد دخل قدامي البلد فتعجبت من ذلك.

ومن اطلاعه وتصرفه: طلع ليلة بالأقصرين إلى عند ضياء الدين على بن الصابوني فقال له: يا ضياء هات لي دينارين قال يا سيدي: ما في دوايتي إلا دينار قال الشيخ: ما آخذ إلا أربعة فقال: الضياء ارجع بنا إلى الأول :خذ دينارين قال: ما آخذ إلا ستة قال الضياء: ما عندي سوى دينارين قال: ما آخذ إلا عشرة وإلا تغرم مائة، ثم نزل الشيخ وتركه ولم يعطه شيئًا فلما كان السَّحر، وإذا حرّاقة أقبلت في البحر فوصل فيها الأمير علاء الدين الخازندار [1]كان واليًا بقوص وطلب الضياء وأخاه الكمال فنزلا إليه فقال: يا قضاة، أنا جئتكم قاصدًا فإن الحملَ عاجزٌ، وطلب قرضًا فطلع الضياء وأحضر مائة دينار، وكذلك الكمال أخوه فلمّا كان بعد أيام دخل الضياء للشيخ أبي العباس فقال له: يا سيدي إيش هذا؟ قال له: قلت لك يا مبارك ما فعلت.

وهذا يدل على التصريف في رفع البلاء، وإيجاد العطاء المتلازم وعلى الكشف

(١) انظر: عجائب الآثار للجبرتي (٣/٣٢٧).

الصحيح من دائرة المحو والإثبات.

ومما أخبر به ضياء الدين بن الصابوني - وكان عدلاً موثوقًا به من أكابر بلده ومباشرها، وهم بيت مشهور بالأقصرين- قال: دخل عليَّ الشيخ أبو العباس في بيت والدي وكان البيت ما فيه أحدٌ إلا يُدخلوه لحاجتهم إليه، ويقفلوه قال: فخرجت وتركت الشيخ أبا العباس في البيت وقفلت عليه الباب حتى أعود إليه فأُنسيته ولم أفتكره إلا بعد ثلاثةِ أيامٍ فقمت وجئت عَجلاً وفتحت البابَ لأجد الشيخ واقفًا خلف الباب، والختمة تحت إبطه، وهكذا كان، تكون الختمة معه لا تفارقه، فلم يقل لي لم فعلت كذا؟

ومن عجائبه ما أخبرني به الشيخ عمر البلنياي وكان رجلاً صالحًا قال: سألت الأمير عز الدين الأفرم عن سبب محبته للشيخ أبي العباس واعتقاده فيه، فقال لي: كنت واليًا بمدينة قوص فجلست للحكومة إلى الظهر، وقمت وكان الصيف وحصل عندي الجوع فدخلت إلى بيتي وخلعت ثيابي وجعلت في وسطي فوطة من قوة الحر وبقيت عريانًا.

قال: فرأيت جاريةً لي عليها ثوب شِرِب، وهي بلا سراويل، وهي مكشوفة الرأس.

قال: فوضعت يدي علي عنقها وغلبتني شهوتي فقالت: يا سيِّدي، حتى تأكل وقدمت لي المائدة فجلست على الشبرية وأنا آكل بيدي الواحدة ويدي الأخرى على عنقها وعلينا أبواب عليهم الجوارى والخُدَّام والمماليك.

فلم نشعر إلا وشخص دخل علينا من باب القاعة عليه لباس شعر، فصعقت الجارية ووقعت تضطرب فرميت قبائي عليها، فدخل الشيخ أبو العباس ووضع يده عليها وجعل يقول: يا مباركة هوَّ أبو العباس، قال: وقد غلب عليَّ الغضب ولم أقدر أقول كلمة واحدة. قال: فجلس على الشبرية، وجعل يأكل إلى أن فرغ أو شبع وأخرج من كمه أو لباسه قُصصًا كثيرةً فقال: يا مبارك، اكتب على هذه كذا وعلى هذه كذا، فكتبت على الجميع ولا قدرت أن أقول له كلمةً.

قال: وخرج فلما خرج جرَّدت سيفي وهممت بقتل الجوارى والخُدّام والمماليك

الذين على الأبواب، فلما دنوتُ إلى الجوارى قاموا في وجهي قومةً واحدةً، وقالوا مالك؟ أنت ما كلَّمته؟ قال: فوجدت الذي قالوه حقًا، وإنَّني مع شهامتي وأنا شاب ووالي ما قدرت أنطق بكلمة واحدة، فكيف هؤلاء؟ وقالوا: والله دخل وخرج وما قدرنا على كلمةٍ في الدخول والخروج، فهذا سبب معتقدي فيه.

وهذه الحكاية فيها بيانٌ لأنواع التصرُّف والولاية الباطنة، التي يحكم بها على ولاة الأمر الظاهر، فيعجزوا عن مخالفته، والقوة الملكية والسطوة الإلهيّة، في دخوله وخروجه لا يجترئُ أحدٌ أنْ يخاطبه ولا يكلمه، فضلاً عن أن يرده، وأمَّا ما أكله فلا اعتراض على أهل الكشوف والاطلاع فيما يأكلوه ويأخذوه فإنَّهم لا يأكلون إلا ما يعلمون ويشهدون بخلافنا وما يأخذون إلا ما هو لهم لأنَّ لله تعالى حقوقًا في الأموال يأخذونها ويستخرجونها بإذن من الله تعالى إذا منعوها مستحقَّها، هذا إذا لم يكن هذا الأمير ممن هو بمنزلة الصديقِ الذي ورد في القرآن في أكلُ ماله ﴿**أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً**﴾ [النور: ٦١].

وإمَّا أن يكون المأكول في نفس الأمر لغير الأمر ويكون صاحبه مِمَّن يحب أن يأكل الشيخ ويشرب، ووجوه الاحتمالات كثيرة، وأمَّا أصحاب الكشف والاطلاع أخبر وأعلم بما يفعلونه ولا اعتراض عليهم.

ولقد أخبرنا الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- عن سلمان المجنون قال: كان له مريدٌ وكان فقيهًا فدخلا بستانًا، فصعد سلمان على شجرة فستق، وجعل يأكل والفقيه يقول: يا سيدي أصاحبها أذن لك؟ فيقول: هذا ما يرد على أن أذن لك أن تأكل، قال: فبينما نحن كذلك وإذا بصاحب البستان قد حضر فقال: يا فقير مَنْ أذن لك أن تأكل من هذه الشجرة؟ فقال: أَذِنَ لي مالكُها فقال: أنا مالكُها، فقال: أذن لي مَنْ هو أملك لها منك، أَذِن لي الله تعالى.

قال: فصفَّق صاحبُ البستان وخرَّ مغشيًا عليه فلمَّا أفاق قال: أشهدُ ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وأنَّ هذا وليٌّ لله تعالى، فقيل له في ذلك فقال: لَمَّا شريتُ هذا البستان، وقفتُ هذه الشجرة لله تعالى وأبحتها، ولم أطلع أحدًا على ذلك إلا الله تعالى.

فانظر إلى هذا الإطلاع وتحقيق هذا الشهود، وهذا العلم الذي لا يدخله الحدس ولا التخمين ولا الشك ولا الارتياب، ولا يُحتاجُ فيه إلى إذن مَنْ له اليد الظاهرة بالملك، إذا وُجِد الإذنُ من مالك الملك، والإذن من الله تعالى لا يقع إلا حقيقة بالمطابقة مع الحكم الظاهر، وإن لم يظهر ذلك في الحكم للناس لكنه مطابق في نفس الأمر، لأنَّ أحكامه وحكمته على وجوه الكمال من كل وجه، وإلا من أين للناس بما وقَّفه ذلك بينه وبين ربه ﷻ؟

وأمَّا كون الشيخ أبي العباس دخل على الأمير عز الدين من غير إذن، فهو يحتمل وجوهًا:

منها أن يكون أصحاب القصص مظلومين، وهم في شدةٍ لا تحتمل التأخير ولا يقدرون على الوصول إلى الأمير، لا سيما في ذلك الوقت، وتأخير المنكر مع القدرة على إزالته لا يجوز، ومن قَدِر على إغاثة مظلومٍ ولم يغثه، كان هو ظالما، فيجب حينئذ ردع الظالم عن الْمَظْلَمَةِ لمن قدر على ذلك، وما لا يُتوصل إلى الواجب إلا به فهو واجب، فلزم دخوله ولا يقدر أن يدخل على غير تلك الحالة، إذ هو لو استأذن ما بلَّغوا الإذن وما أذنوا له فهذا وجه.

والوجه الآخر: لو كان لك مال في بيت وقد غُلِّق دونه بابٌ لجاز لك فتحه، وأخذُ مالك من غير إذن صاحب البيت، وكذلك إذا خشيت على إنسان التلفَ وهو في بيت جاز لك فتح ذلك البيت وهذا وجه، .

والوجه الثالث: يحتمل أن يكون سرعة دخوله على تلك الحالة ليمنع الأمير من الإقدام على ما لا يجوز الإقدام عليه، من أكل وغيره من طريق الكشف والاطلاع.

أو يكون ذلك سببًا لجذبه إلى الله تعالى، ويكون مأذونٌ له في ذلك، فإنَّ الأمير وجد بذلك السبب خيرًا كثيرًا، وعمل بعد ذلك مدارسَ، وأنشأ مساجدَ وأوقف أوقافًا، والله تعالى أعلمُ أيّ الوجوه المجوِّزة له كانت وإنَّما قصدنا رفع الإنكار على أولياء الله تعالى.

ومن اطِّلاعه وكشفه ما أخبرني به الفقيه سراج الدين عمر بن ناشئ، عن والده الشيخ نجم الدين، عن نور الدين بن الجناح الحاجب بقوص، أنَّ الأمير علاء الدين

الخازندار قال لي: يا نور الدين، تروح إلى قبلي، وأيَّ مركب وجدته أرسلته إلى أسوان لمصالحِهم.

قال: فجئت فوجدت مركبًا مَرْسيةً، تُرِيدُ الانحدار فقلت: للرئيس أقيم العدة واقلع إلى أسوان، قال: ففعل، فبينما هم كذلك وإذا بالشيخ أبي العباس قام من الحلفاء، فقال له: الرئيس أنت قاعد إلى الآن؟ اطلعْ.

فقلت: للرئيس أخبرني عن هذه القضية، فقال لي الرئيس: جاء هذا الرجل، يعني الشيخ أبا العباس، في أول النهار وقال لي: يا رئيس احملني إلى أسوان، فقلت له: كيف أحملك إلى أسوان ونحن منحدرون؟ قال: فألح عليَّ ثم قعدَ في تلك الحلفاء إلى الساعة.

ومن اطّلاعه ما أخبرتني به الحاجة خديجة المعروفة بأم مجد، وكانت من الصالحات- رحمها الله تعالى-.

قالت: كان الفقيه عطاء الله جارًا لي وكان الشيخ أبو العباس يزورنا كلَّ وقتٍ وربما قالت: ونتحدث معه من وراء الستارة والله تعالى أعلم، وكان يكون عندنا نساء تزورنا فقال الفقيه عطاء الله: يا حاجّة، هذا الشيخ أبو العباس الملثَّم يأتي إليكم وعندكم نساء الناس، وربَّما يتكلم الناس، أوهذا شيء معناه.

فحصل عندي من ذلك شيءٌ، فتحريت وقت حضور الشيخ فقلت للجارية: ردِّي البابَ أو اقفلي الباب.

قالت: فاجتاز الشيخ، ولم يدخل لنا، وانقطع عنا مدةً، وتألَّمنا لانقطاعِهِ وما قدرنا على ذلك، فقلت للجارية: اطلبي الشيخ فطلبناه، فلمَّا جاء قلت: يا سيدي ما هذا الانقطاع؟ قال: يا مباركة، أما قلتي للجارية تقفل الباب حتى لا أجيء؟ فحصل لنا من ذلك ما حصل وأحببناه.

وأخبرتني امرأةٌ صالحةٌ ثقةٌ أنَّ بعلها قال لها: اعملي لنا طعامًا نطعمُ الشيخ أبا العباس قالت: وكنت حاملاً فتضجَّرت من ذلك، وتكلمت على الشيخ، فلمَّا كان الليل رأيت في المنام بئرًا وفيها نارٌ، وقد جرّوني ليرموني فيها بسبب كلامي في الشيخ أبي العباس.

وحكايات الشيخ أبي العباس كثيرةٌ لو استقصيتها لَمَا وسعتها الكتبُ، فإنا في مدةِ اجتماعِنا به ما كنّا نتوهم موته عن قرب، ولا تصدّينا لضبط كلامه، وهذا الذي ذكرته وأنا واحد، فكيف بكل من جرى معه حديث؟ وأخبار وحكايات مدة عمره.

وكان طبعه -رحمه الله تعالى- المروءةَ والفتوةَ والكرمَ والصدقةَ في السرِّ، أخبرني شخصٌ عن شخصٍ أنَّه حدَّثه أنَّ الشيخ أبا العباس أودع عنده حصيرتين مملوءتين قمحًا فجاء الغلاء، ولم يكن عندنا شيءٌ فجاءنا الشيخ، وقال: يا مبارك، اقترضْ القمحَ إلى الحصادِ فاقترضناه فكان قوتنا إلى أوان الحصاد ورددناه، فلمَّا جاء الشتاء جاء الغلاء ولم يكن عندنا شيء فجاءنا الشيخ، وقال: يا مبارك اقترضْ القمح إلى الحصاد فاقترضناه فكان هذا دأبه.

وأخبرني آخر بدوي أنَّ الغلاء جاء، ولم يكن عندنا شيءٌ فجاء الشيخ أبو العباس ومعه نعجة، فقال لي: ترعى هذه النعجة، فقلت: نعم، فكان يعطيني أربعَ ويبات قمحًا في الشهر، حتى فرغ الغلاء.

فانظر، رحمك الله، إلى هذا التلطف في الصدقة، النعجة كلُّها تساوي نصف ويبة قمح في ذلك الغلاء وإنما عمل ذلك صورة، وكذلك في قمح الحصيرتين، هذا مع أنَّني لم أعرف للشيخ، -رحمه الله تعالى-، درهمًا ولا دينارًا ولا قمحًا ولا مكانًا ويقول لي: أنَّ له كتبَ علم.

ومن كراماته ﷺ أنَّني كنت أنا وإيَّاه وشخصٌ من أصحابه من العوام في بيت صغير، وكان الليل وكان الشيخ يحبُّ السمكَ وكان معه سمكٌ، فأخذه الشيخ ورماه في البرمة ولا رأيته عمل فيه شيئًا، ولا أعلم هل صبَّ عليه ماءً أم لا فلا أعلم أنَّا أكلنا أطيبَ منه.

وكان الشيخ أبو العباس- رحمه الله- حَسِن العشرةِ طيّب المحاضرة والمفاكهة مبسوطًا غير مقبوضٍ، كثيرَ الوداد لأصحابه، كثيرَ النصيحة، كنَّا إذا كنَّا بمكانٍ وقمنا منه نقول هذه الدنيا.

وكان كثيرًا ما يُنشد:

لا فخـــرَ إلا فخـــرُ أهـــلِ التُّقـــى غــــــدًا إذا ضـــــمَّهم المحشــــــرُ[١]

ودخل علينا مرةً والشيخ عبد العزيز عندنا، فجعل يتمايل كالراقص ويقول:

حيَّـــــــــاكُم اللهُ وأَحيــــــــاكُم علــى كــلِّ حــالٍ لا عَــدمنَاكُمُوا

وأخبرني الشيخ أبو العباس -رحمه الله تعالى- أنَّ المشايخ دعوه، وذكرهم، وذكر من جملتهم:

الشيخَ عبدَ الرحيم المدفونَ بقنا -رحمه الله تعالى-[٢] قال: فجئت إليهم فقال أحدهم للشيخ: يا سيِّدي أما نسأله؟ قال: لا تسألوه، قال: لابدَّ ما نسأله فقال لي: يا شيخ أبا العباس، علامة المحبة النحولُ والذبولُ -وذكر أوصافًا كثيرةً من ذلك- وقال: وأنت طيّب الجسم أحمر الوجه فما هذه علامة المحبين، فقلت له: يا فتى أنت ذكرت صفاتَ المبعودين و ما ذكرتَ صفاتَ المقرّبين، فقال له الشيخ: أما قلت لكم لا تسألوه.

ولنقتصر الآن على ما يحقق رتبته، ويُشوِّق إلى طريقته فلا سبيل إلى حصر المواهب الإلهية والأسرار الربانية، وقد قلت:

صفاتٌ سَمَتْ فوقَ الصفاتِ فعدُّها لمِنْ قد أرادَ العدَّ يسمُو على العدِّ

فما هو إلا الوهبُ لا شيءَ غيرُه ولا سببَ يأتي بقربٍ ولا بعدِ

فكنْ عبدَ رقٍّ لا تكنْ غيرَ طائعٍ ذليلاً فإنَّ الذُّلَّ مِن شيمةِ العبدِ

---

(١) البيت من السريع، وهو لأبي العتاهية كما في الكامل للمبرد (٦٦٦).

(٢) الشريف الحسيب النسيب البستي الأصل القنائي، صاحب الكرامات والخوارق، قدم من المغرب فأقام بمكة سبع سنين، ثم رحل إلى الصعيد فقطن قنا حتى مات.

أخذ عن الشيخ أبي يعزى ﷺ وعنه أبو الحسن الصباغ ﷺ فظهر سره فيه حتى نطق بالمعارف ملء فيه، وكان لصاحب الترجمة القبول التام بين الخاص والعام، وهو أحد من جمع الله له بين الحقيقة والشريعة، وأتاه مفتاحًا من علم السر المصون، وكنز من معرفة الحكمة والكتاب والمكنون، وكان إذا سمع المؤذن يتشهد يقول: شهدنا بما شهدنا وويل لمن كذب على الله.

انظر: الطالع السعيد (٢٩٧)، طبقات الشعراني (١/١٥٦)، الكواكب (٤٢٦).

٢- الشيخ عبد العزيز الحسني المنوفي

ومنهم الشيخ عبد العزيز بن عبد الغني الحسني من أهل منوف -رحمه الله تعالى- وكان من أصحاب الشيخ أبي الفتح الواسطيِّ، -رحمه الله تعالى-، وكان كبيرَ الشأنِ طلقَ اللسانِ في المعارفِ والحقائقِ، وله أحوالٌ شريفةٌ ومكاشفاتٌ وتصريفٌ وعلومٌ وتحقيقٌ وطريقةٌ صحيحةٌ، واقفًا مع الشرعِ وله تصنيف في المعارف يسمى: «النظمُ الكاشف للفهم عن المعارف».

صحبته وخدمته، وحصل بيني وبينه إخاءٌ على الشرط المشروع، قدس الله تعالى روحه، وكان مما حدثني به أنَّه كان ابنُ السادسة عشر، ولم يكن له بهذه الطريقة إلمامٌ، قال: فخرجت لأجهز أختًا لي بعدَ وفاةِ والدي فسمعت بورود الشيخ أبي الفتح إلى محلّة أبي عبد الرحمن-أو محلة المرحوم لا أدري أيُّهما قال- فجئت إليه لأجد الشيخ يتكلم على الناس، والناس بين يديه وهم خلق كثير من العلماء والأمراء وغيرِ ذلك، والشيخ يقول: لا تأمنن النفوس؛ فإنِّي كنت بالروم، وكانت في جوارنا امرأةٌ إذا خرجتُ تقوم لي، وإذا دخلتُ تقوم لي، قال: فخرجنا من تلك الناحية أو تلك الحارة إلى مكان آخر، وكانت نفسي تطلب الاجتياز بتلك الناحية لأجل تلك المرأة، قال: فبينما أنا ذاتَ يومٍ قد جاءت، وقد قربت مني، وإذا أنا أرى سيِّدي أحمد قد خرج من الحائط وسيفه مشهور، ويقول لي: هكذا أخذتَ علينا العهدَ يا أبا الفتح؟ قال: فصعقت أو وقعت أو قال كلمة هذا معناها، وولَّت المرأة هاربةً.

قال الشيخ عبد العزيز: وكنت واقفًا فقلت: سيِّدي، قبل أن يكون سيفُ سيِّدِك أحمد مشهورًا سيفُ ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ**﴾ [النور: ٣٠] أما كان مشهورًا؟ فقال: من هذا المتكلم؟ فقالوا له: يا سيدي، شابٌّ شريفٌ، فأحضرني الشيخ إلى بين يديه وألبسني طاقيةً، فكنت أفتخرُ بإلباس الشيخ لي الطاقية وطلبَه لي.

وأمَّا ما رأيته من التصريف منه فكنت يومًا راكبًا أنا والشيخُ على دابةٍ واحدةٍ، ونحن متوجهان إلى الأقصرين، وكانت معنا أفراخُ حمامٍ مشويةٌ بغير خبزٍ، فنزلنا في الطريق بمكانٍ يُسمَّى مسجدُ الأميرِ، والمسجد يومئذٍ بلا سقفٍ إلا حصيراتٍ وشِعَبًا، وفيه حصيرٌ مقطّع مفروشٌ، وهناك شيخٌ يسقي الماء من بئرٍ هناك لطيفةٍ.

فأخذ الشيخ شيئًا من الماء في إناء، ودخلنا المسجد، فأكلنا تلك الفراخ، فكان حصل لي من الريب شيء فقال الشيخ: معك ليمونة؟ قلت: لا فوضعَ يده على تلك

الحصير وأخرج ليمونةً صفراء قَسمَها نصفين، واستعملَ نصفَها واستعملتُ أنا النصف الآخر. فقلت له: يا سيدي من أين لنا هنا ليمون؟ فقال: هذا الوجود كلُّه ملآنٌ ليمونًا، وأشار بإصبعِهِ إلى الوجود.

وهذه الحكاية لا شكَّ فيها ولا ريبَ ولا فرقَ في التصريف بين القليل والكثير.

بيان أن الخضيرية رتبة

ومنها أنَّ الشيخ عبد العزيز كان متوجهًا إلى الأقصرين ومعه جماعةٌ من أصحابه، كالشيخ ناصر الدين والسديد الكيزاني وشمس الدين بن الصابوني -وأنا متردد هل كنت معهم أو لا- فنزلتْ الدابة إلى الترعة والشيخ كان كبيرَ السن فخشينا أن ترميه، وإذا بشخصٍ قد خرج من الترعة وأمسك الشيخَ لئلا يقع حتى طلع وغاب، فلم نره، فسألنا الشيخ عنه فقال: هو الخضرُ.

وكان الشيخ عبد العزيز يقول: إنَّ الخضرية رتبةٌ، وإنَّ من خضر السيد موسى عليه السلام إلى الآن أربعةَ عشرَ خضرًا، وكان يقول عن خضر هذا الزمان: إنه الزُّبيدي.

حكايات عن الشيخ المنوفي

ومنها أنِّي كنت ذاتَ يومٍ وهو على بساطٍ وفيه ألوانٌ مختلفةٌ فقال لي: هذا البساطُ فيه ألوانٌ مختلفةٌ، قلت: نعم، قال: فأنت تنظره بنظرةٍ واحدةٍ أو بنظرات مختلفة؟ قلت: بنظرةٍ واحدةٍ قال: فإنَّ الوجود فيه سبعون ألفَ جنس، في كلِّ جنسٍ سبعون ألفَ نوع، ينظره الفقيرُ بنظرةٍ واحدة.. وأنشدَ لنفسه:

أَنالُ من المحبوبِ مِن فَرْدِ نَظْرةٍ ... جميعَ إرادَتِي وكلّ مقاصدِي

كما نالَ أنقيسُ الحكيمُ بلعقةٍ ... من المِرْوَدِ الأشياف ما ليس جَاحِدي

ولعلَّ الشيخ رضي الله عنه إنَّما ذكرَ السبعين ألفَ جنس لأنَّها جاريةٌ في كلام العرب في حدِّ الكثرة كما جاء به القرآن العظيم في قوله تعالى: ﴿**اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ**﴾ [التوبة:٨٠].

وقوله تعالى: ﴿**فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ**﴾ [الحاقة:٣٢]، وغير ذلك وإلا ففي الوجود ما خلق الله تعالى مما لا يعلمه إلا الله تعالى، ولا تقف على حد ولا حصر إلا لخالقه: ﴿**أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ**﴾ [الملك:١٤].

وذكر الشيخ في حكاية أنقيس الحكيم فقال: كان أنقيس الحكيم قد بال يومًا في موضعٍ والشمس على ذلك الموضع، فقام فعمي بصره، فعالج نفسه بما يعلم من العلاج فلم يبرأ، فسمع بحكيمٍ في بلادِ الهند فسافر إليه ودخل عليه، وقال: جئتُك من بلادٍ بعيدةٍ -وأنكر نفسَه- قال: فنظر إليه وقال: أنت بُلتَ في الأرض وعليها الشمس، وكان هناك حيةٌ ميتةٌ فصعدتْ الأبخرة في عينيك وأعمت بصرك، ثم قال لغلام: هات الأشياف الفلاني فأَكْحله فأبصرَ في ساعته قال: فسأله أنقيس عن تلك الأشياف فلم يخبره وقال: لعلَّك حكيمٌ، فأنكر ذلك.

وتوجه أنقيس إلى بلاده وقتل حيَّةً ورماها في أرض مشمسة، ثم بال عليها بعد أيام فعمي، ثم صبغ لونه حتى يخفى عليه وسافر إلى الحكيم ثانيًا، وأخذ معه الغلام ووصَّاه أنَّ الحكيم إذا أكحله بالْمِرْوَدِ أن يلقي المرود على لسانه.

قال: فلما دخل عليه، وسأله أن ينظر في أمره، فقال: لعلك الذي جاءنا في العام، أو في تلك السنة، فإنَّ الذي كان به هو الذي بك، فصعدَ البخارُ إلى عينيه فأعماه، ولعلك هو فأنكر ذلك، وربما حلف فقال: لعلك حكيم، فأنكر ذلك، فقال لغلامه: هات الأشيافَ الفلاني، فأحضره، فلما أراد أن يكحله ضرب غلام أنقيس المرود فألقاه على لسان أنقيس فلحسه فقال له: ألم أقل لك أنك حكيم؟ قال: بلى، قال: فما الذي عرفت من هذا الأشياف؟ قال: عرفت منه تسعةً وتسعين عقارًا -أو قال حاجة- وترددت في حاجة واحدة، قال: هي مرارةُ ابن آدم، فمن تكون أنت؟ قال: أنقيس.

قال: فنزل الحكيم على مرتبته وجلس بين يدي أنقيس، وقال: أنا مريدُ مريدِك، ثم توجه أنقيس الحكيم إلى بلاده، وعمل الأشياف، وأكحل نفسَهُ فأبصر.

فانظر يا أخي، وفقك الله تعالى، إلى هذا الطب، وهذا القصد في طلبه في معرفة شيءٍ من الأشياءِ المخلوقة، وقد رضي لنفسه بالعمى، مع بُعدِ المشقةِ العظيمةِ والسفرِ الطويل البعيدِ، وذهاب الأموال في طول السفر، وتغيير اللون حتى يعلم دواءه، ويحصل له العلم به، فكيف بك في معرفة خالق الموجودات التي فيها سعادتك الأبدية، وسعادة كلِّ شيء؟ وفي جهلِها شقاوتُك وشقاوة كل شيء.

ومِمَّا أخبرني به الشيخُ عبد العزيز عن نفسه ﷺ قال: كنتُ إذا وقع لي أمر أروح على الشيخ أبي زيد الميموني، فتوجهت مرةً إلى زيارته بالميمون، وكنت أقرأ في سورة من القرآن فنسيت آية، وإذا بطائرٍ أبيضَ يُسمى الواق، فطار من جانب خليج إلى جانبه الآخر وردد عليَّ الآية، فلمَّا جئت إلى الشيخ أبي يزيد الميموني، قال: ما رأيتَ في طريقِك يا ابن أمِّ الهم؟ قلت له: كنت أقرأ سورةً مِنَ القرآن فنسيتُ آيةً فرددها عليَّ أبو قردان، يعني الواق، فقال لي الشيخ: فما الذي خطر لك قلت: إمّا أن يكون جنيًا تشكّل أو ملكًا تمثّل، فقال لي: ما هو جنيٌّ ولا ملكٌ قلت: فما هو؟ قال: هي الآية تشكلت وردت وجودها عليك، فلمَّا كان الليل قلت في نفسي: الشيخ أبو زيد يقول الآية تشكلت وردت وجودها عليك، والقرآن كلام الله تعالى، وكلام الله قديم، فكيف يتشكل؟ فسمعت قائلا يقول: لا تسئ الأدب على الشيخ أبي يزيد، التي تشكَّلت تلاوتُك لا المتلوُّ.

فانظرْ يا أخي إلى هذا الجواب من القائل الذي فصل الخطاب بين القديم والحادث؛ إذ المتلو هو القرآن، والقرآن كلام الله تعالى القديم القائم بذاته العلية، وتلاوة العبد بحروفٍ وأصواتٍ ولَهاتٍ ومخارج حادثة لا تكون قديمة.

ومِمَّا أخبرني به الشيخ عبد العزيز عن نفسه، أنَّه كان يمشي وهو يسمع قِمْريًّا يكلِّمُ قِمْريةً أو قنبرًا يكلِّم قنبرة.

قال: فقلت في نفسي: الله تعالى أخبر عن السيد سليمان عليه السلام فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ**﴾ [النمل: ١٦]، وقد علمتُ منطق الطير قال: فحين خطر لي ذلك التفتت القمرية أو القنبرة إليَّ وقالت: لا تسئ الأدب على السيد سليمان عليه السلام وردَّتْ علي ذلك، ثم طارت وترجمتْ على عادة الطير ثم رجعت وقالت لي: عرفت إيش قلت؟ قلت: لا قالت: فسليمان عليه السلام كان يعرف ذلك، وأنت لو لم أكلمك بلسانك ما عرفت كلامي.

والمعنى في ذلك أن السيد سليمان عليه السلام كان يعرف لغات الطير ومنطقه من حيث الطير، والشيخ لو لم يسمعها تتكلم بلسان الآدميين ما عرف.

قال: فاستغفرت الله تعالى ومضيت.

ومِمَّا حكاه لي أيضًا أنَّه مر يومًا بالجيزة بغنمٍ فرفع جَدي منهم رأسه وقال: لا إله

إلا الله.

وأخبرني ﷺ أنه رأى كلبًا عقر كلبًا فالتفتَ الكلبُ المعضوضُ إلى الكلب الذي عضَّه وقال له: اتق الله تعالى.

ومِمَّا حكاه لي أيضًا، -رحمه الله تعالى-، أنَّه كان على كوم الدب يرقع ثوبَه، وإذا شابٌّ طويلٌ طلع على الكوم وقال: لا إله إلا الله يونس رسول الله، لي خمسمائة سنةً ما جئت هاهنا، ثم التفتُّ فلم أره.

ومِمَّا أخبر عن نفسه أنَّه رأى حول الكعبة أناسًا يطوفون بها منهم رءوسٌ بلا أبدان وأبدانٌ بلا رءوس، ومنهم امرأةٌ تطوف على نجيبٍ لها فقال لها: قفي حتى أنظرك للشهادة، ورأيت هؤلاء الذين يطوفون بالكعبة متفرقين في البلاد.

ومِمَّا حكاه أنَّه كان مع جماعة من الفقراء يعملون سمكًا، وتبعهم واحد من الفقراء مغربيٌّ صعلوكٌ شمَّ رائحة السمك فلم يطعموه، فعقدت مع الله تعالى ألاّ آكل من ذلك السمك شيئًا، ثم سافرت، وكانت الختمة والتنبيه لا يفارقاني، فوقع المطر، فحنيت ظهري على الختمة والتنبيه، وكان في الطريق شوكٌ كثيرٌ، فاشتهت نفسي ثريدةً كانت والدتي تعملُها لي طيبة بالدجاج -وغيره في ذلك الوقت- وذلك الرجل فما وصلت القرية التي أطلبها إلا بعد ليل فدخلت المسجد وصليت فيه ورقدت، وإذا بشخصٍ دخل علي وهو يمشي في دائرة نور مثل هالة القمر، فجاء إلى عندي وقال لي: اقعد فقعدت، فقدَّم إلي زبيدية كانت على يده وقال: كلْ فإذا تلك الثريدةُ التي كانت الوالدة تعملُها فأكلتُ طعامًا طيبًا ما أكلت ألذَّ منه، ثمَّ قال لي: أمسكْ، وقدم إلى طعامًا آخرًا فكلَّما أكلت لقمة، أجد من اللذة ما لا عليه مزيدٌ، فقال لي: هذا سمك، وبقيت رائحته على يدي.

ومِمَّا حكاه لي الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى-، عن فقير وجد فقيرًا في الطريقِ قال: فانبسطَ عليه قال: وكنَّا في البرية، فقال لي: تسمع إيش القطب يقول للعين؟ قلت: لا، قال: هوَّ يقول له: إنَّ الملك الكامل يريد أن يضرب حلقة على الوحش، وقد أطلقنا له من البقر كذا، ومن الغزلان كذا، ومن كبش البر كذا، وعدَّد أشياءً من الصيد، فقال له: هو طمَّاعٌ، فقال له: إن زاد على هذا أرميه من على فرسه.

قال: فبينما هو يحدثني وإذا بحسِّ الخيلِ قد أقبلتْ وضربوا حلقة على الوحش ودخل السلطان في وسط الحلقة فقال لي: عدَّ عليه قال فعددت عليه حتى بلغ العدد الذي قاله، فوالله ما أخطأ شيئًا مما أطلق له ولا زاد عليه شيئًا.

ثم ولَّى السلطان راجعًا، فاعترضَ له كبش جبل، فأخذ الدبوس وأراد أن يضربه، وإذا هو وقع من على فرسه، فقلت له: يا سيدي ما هذا؟ فقال والله لو قتله قتله به.

فهذه الحكايةُ وأمثالها من تصريفِ القطبِ بالأمرِ وأخذ العينَ عنه وقد ذكر في قصيدته العيسويةِ ذلك كلَّه، وسنذكرُها إن شاء الله تعالى بعد ذكر حكايات المشايخ المربِّين.

ومنها ما حكاه لي عن شيخٍ يسمى نجم الدين، قال: سمعت بشيخ ظهر في بلاد العجم فسافرت إليه فلمَّا دخلت عليه وجدته شابًا سنَّهُ تقدير ثلاثين سنة عليه ثوبٌ أزرقٌ وطاقية من ثوبه فقلت له: يا سيدي جئتك مريدًا فقال لي: وهل يوجد في هذا الوقت مريد؟ فقلت له: يا سيدي أنا مريد، فقال لي: دخلت على يد أحد خلوة؟ قلت: نعم، قال: على يد مَنْ؟ قلت: يد الشيخ شهاب الدين السّهرَوَرْدِي وعلى يد الشيخ برهان الدين الموصلي، فقال لي: فأنا أريد أكون لك مريدًا، فقلت: يا سيدي ما جئت إلا مريدًا فقال: ولا بد؟ فقلت: نعم، قال: فامحُ لوحَك، قال: فجلستُ وعملت على خلوِّ باطني من كل شيء كنت وجدته في سلوكي وجئت إليه خاليًا.

قال: الآن فإنَّ اللوح المكتوب ما يكتب فيه شيءٌ ثم أخذ بيدي وأدخلني خلوة، ولقَّنني ذكرًا، وشرط عليَّ ألا أنام بالليل وأن أكون على وضوء.

قال: فورد عليَّ ما لا اعتقدت أن أحدًا يناله من البشر فبينما أنا كذلك، والشيخ قد دخل وأخبرني بكل ما ورد عليَّ وقال لي: يا نجم الدين، الوارد الفلاني لا تقف معه والوارد الفلاني كذا والوارد الفلاني كذا، وجعل يفصّل لِي ما بين الواردات الإلهية، والوهمية، والشيطانية، حتى لم يبقَ فيَّ ذرةٌ ولا خطرة إلا واطلع عليها، فحصل لي منه خوف، وجعلَ يتعاهدني في كلِّ ثلاثة أيام ثم يدخل فيخبرني بكلِّ ما اتفق لي.

فاتفق أنَّني ذاتَ يومٍ غفلت فوقعت يدي على ذكري فحصل لي من ذلك أمر عظيم وخفت خوفًا شديدًا، وبقيت أسأل الله تعالى ألا يطلعه على ذلك، وبقيت في

شدة، فبينما أنا كذلك إذ الشيخ قد دخل عليَّ فأخبرني بكل شيء جرى إلا ذلك - أعني وضع يدي- وبشَّ في وجهي وقال لي: قرُب فتحُك، قال: ثم خرج عنِّي فجاء الفتح من الله تعالى، وحصل لي ما لا أستطيع ذكره وكادت روحي تُقبض، فقال للخادم: أخرجه، فما بقي يحمل شيئًا لئلا تخرج روحه.

قال: فأخرجني من الخلوة، وجاءت المشايخ من البلاد إلى الشيخ -وتلك عادتهم إذا خرج الفقير من الخلوة، يحضرون للتبرك لأنه ورد من الله تعالى- وعمل الشيخ الولائم العظيمة، وذبح الذبائح، وكان عرسًا عظيمًا، ثم دفع إليَّ الشيخ مفتاحَ بيتٍ لأسكن فيه، قال: فلمّا كان الليل حصل عندي شهوةُ النكاح حتى منعتني المنام فتألمت لذلك، وقلت: هذا مكر، وأنا في زمان الشبيبة واللعب ما خطر لي هذا، أبعد هذه الأحوال يكون ذلك؟! قال: فأصبحت أتيت الشيخ وسلمت عليه فالتفتَ إليَّ وقال لي: نجم الدين تحب شيئًا مليحًا -يعني كيف كنت البارحة- قال: قلت يا سيدي بحال نحس، جرى لي كذا وكذا وما أظن هذا إلا مكر بي، قال: لا يا نجم الدين، الحقُّ تعالى لما كمَّل باطنَك بالحقيقةِ أراد أن يكمّل ظاهرك بالشريعة.

قال: فبينما نحن كذلك وإذا بامرأة قد جاءت على بغلة فنزلت وجلست بين يدي الشيخ وتكلمت معه بالعجمية وأشارت إلى خادم لها فراح ساعةً وأتى ومعه امرأة وغلام على رأسه طبق، وغلام آخر على رأسه طبق، فقال الشيخ للمرأة: اكشفي وجهك، فكشفت وجهها فقالت: هذه مملوكة لي. فرأيت شيئًا من الحسن ما رأيت مثله، فقال لي: يا نجم الدين، هذه المرأة أختك في الخرقة، وهذه الجارية ملكها، وقد وكَّلتني في تمليكِك إيَّاها؛ فإنَّك ما تعرف بلسانها، وهذا طبق فيه دراهم ودنانير، وهذا طبق آخر فيه قماش، وهذا غلام لخدمتكما، حتى لا يتكلف الفقير، وقد ملكتك هذه الجارية فقلت: يا سيدي، هي حرة لوجه الله تعالى. قال: فلم أذهبت ماليتها؟ فقلت: يا سيدي، أتزوجها، وما اعتقدت أحدًا يُعطي مثلَها لأحد قال: فطلب الشيخ الحاكم والشهود وعقد لي عليها فقالت ستُّها: يا سيدي، أنا ربيتها مثل ابنتي، فأنا آخذها أصلح من شأنها. فأخذَتْها وأصلحتْ من شأنها وأحضروها إليَّ وتركوني وإيّاها.

قال: فبتُّ ولم أجد عندي ذرة مما كنت أجد أولاً، فلمَّا أصبحت حضرت عند

الشيخ فقال لي: كيف كنت البارحة مع عروسك؟ فقلت: يا سيدي، في أنحس الأحوال، ما وجدت ذرّة مما كنت أجده قال: فظهر الغضب عليه، وقال لي: يا نجم الدين، ما استحييت من الله تعالى، تقعد في الخلوة وتضع يدك على ذكرك، ثم تسأل الله تعالى ألاّ يطلعني على ذلك. والله لو خفيت على منك شعرة ما أدخلتك خلوة.

قال: فكشفت رأسي أو قال: فاستغفرت الله تعالى، ووقفت في الاستغفار فقال لي: اجلسْ فجلست فقلت: يا سيدي، أما قلت لي حين وقع ذلك مني حتى كنت أتوب منه ولا تصحبني ظلمة الذنب؟ فقال: يا نجم الدين، القلب مثل الدود إذا كرَّ انكمش، لو قلت لك قبل أن يفتح عليك ما فتح عليك.

فانظر رحمك الله إلى هذه المعرفة بالتربية وهذا الاطلاع على الخطرات وتسليك طريقته هذه بالجمعية عليها، لأن ذلك شرط ولذلك قال له: امحُ لوحَك لأنَّ الكتابة على الكتابة تطمس الكتابتين جميعًا، فإنَّ التفرقة في هذا وفي هذا مفسدة لكليهما فلذلك قال له: امحُ لوحَك.

وإخباره له بجميع ما يقع وتفصيله لكل وارد يردُ عليه لأن ذلك شأن الشيخ المربي، ولقد ذكرنا نبذة من أحوال الشيخوخة في بعض حكايات جرت لبعض الإخوان، ولنذكر منها نبذة.

الشيخ المربي

نقول: الشيخُ عبارةٌ عمَّنْ عُلِّمَ مِنَ الله تعالى علمًا لَدُنِّيًّا كاشفًا للحقائقِ والدقائقِ والرقائق، فارقًا بالسبق في العوالم والمعالم العلويّات و السفليات والجزئيات والكليات بين الحقِّ والحقيقة والوهم والخيال وما وجب وما جاز وما استحال.

وما بين إلقاء الملك والشيطان والهمة والملة والحب في الشروع والإلهام والخطرات والنَّزعات والتّرقي إلى أعلى عليين، والهبوط إلى أسفل سافلين.

وتلبُّسه في الصور وتطوُّره في الرتب وقيامه بوصف الكون، واتصافه بكلِّ لون.

ومعرفته بأمراض القلوب ودوائها، وسقام النفوس وشفائها، وتطهير النجاسات النفسانية وما يدخل من الظلمات على العوالم الروحانية من الظلمة في الأنوار، والأنوار في الظلمة.

وما يصحب القلوبَ والأسرارَ من الريون والحجاب، وكيف يكون الحجاب كشفًا والكشف حجابًا، والعذاب نعيمًا والنعيم عذابًا، وكيف يكون الزهد في الرغبة والرغبة في الزهد، والعطاء في المنع والمنع في العطاء.

ومراتب الرجال وحقائق الأحوال ومواطن الفحول وحقيقة إحاطة الرسول والتوصُّل بالمريد إلى كل مأمول، وسلوك طريق الأنبياء وكشف حقائق قلوب الأولياء من اللوح المحفوظ، وأخذ المريدين من الذرِّ قبل ورودهم وهبوطهم إلى أصلاب الآباء وبطون الأمهات، والعلم بما لكلِّ واحدٍ منهم من النَّصيب والنظرِ في حقائقهم من البعيد والقريب، والاطّلاع على الحقائق من الأسرار وما بطن من الحكم في الإظهار والتطوُّر في الأطوار والتمكن في كل تكوين، والتكوين في كل تمكين.

وشهود العوالم في وجوده، وغيبته في الله بالله عن شهوده، وشهوده بمشهوده وإعطائه كلَّ مريد على قدر وسعه، وحقُّه بحسب ما أعطيه أوَّل نشأته وخلقه، وهي أربعُ مراتب في الاحتمال بحسب الاختصار، وأولُها رتبةُ النَّفس والعلم بوسوسة نفس المريد حيث كان، وكيف كان، فلا يخطر في نفس المريد خاطر من وسوسة وغيرها إلا وسمعها الشيخ بأذن قلبه، ولا ينظر نظرة إلا وقد سبقه الشيخ إليها بعين بصيرته قبل رؤيته، فهو يأمره بما ينفعه ويوصله، ويمنعه مما يضره ويقطعه ويسلك به على طريق النبي ﷺ الذي يلائم طريقه طريقه، وعلى قلب الوليِّ الذي يناسب قلبُه قلبَه، هكذا في كلِّ حركة وسكون وهو محفوظ بنظره ومشهود بعينه، كنظر الناظر في المرآة المصورة إلى أن يترقَّى به من شوائب النفوس ويطهِّر نفسَه من الوسوسة وعند ذلك يُرْفعُ المريدُ الحدث عن كل حظ يتعلق بدنياه فلا يبقى له فيها حظ.

رفعُ أحداثِ كلِّ مريدٍ سلبُها ... عن حظوظِها الدنيويةِ
وجلاءُ قلبِها بغيرِ مراءٍ ... عدمُ الالتفاتِ على الأُخْرويةِ

وحينئذ يترقى بالمريد إلى عالم الملكوت من الملك، وينقطع عنه عوالم الحس ورجس النفس، وهو عالم القلب، وفيه من الغرائب والعجائب ما لا تسعه هذه العجالة، وطهارة القلب ألاّ يلتفتَ إلى شيء في الآخرة البتة لأنَّ مطلوبه هو الله تعالى،

وجلاء قلبه بغير مراء عدم الالتفات إلى الأخروية.

ثم يترقى بالمريد إلى عالم المروحن والانخلاع، وهنالك تخلعُ الجسوم كخلع الثياب وتكافحُ تلذيذ الخطاب، وهو محلُّ الأشواق، وانزعاج الأتواق، والترقي إلى الأسرار، وهو طور المحبة والسروح في ميدان المعرفة، وليس هذا موضع الكلام فيه.

ثم يدخل في عالم الأسرار، وهو عالم عجيب أعجب من العجب، وأطرب من الطرب وأوصل من الطلب، يخفى فيه عن الخفاء، تظهر له فيه حقائق الستار وكشف الاستمرار، ويغيب في سرِّه عن سرِّه وهناك حقائق التجليات ورفع الكليات والجزئيات ومحقُ الأين وفقدُ العين، والمحو عن المحو، والصحو في السكر، والسكر في الصحو، وشهود الحق بالحق وفناء الخلق بالحق،وهناك تعلم الراجع لمن رجع،وتفهم سر معنى قوله فبي يرى وبي يسمع، وثمَّ معنى لا سبيل لإفشائه في الأوراق ولا لإلقائه إلا لأهله عند التلاق، كما قيل:

قد كان ما كان مِمَّا لست أَذْكرُهُ فظُنَّ خيرًا ولا تسألْ عن الخبرِ

وفي ذلك ووراءه ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وإنَّما العطايا بالله تعالى بحسب التعرُّف به، والتخصيص بخلاصة أوليائه، فمنه ما لا ينطق به لسان ولا يعبر عنه ترجمان ولا يحمله جنان ولا سبيل لإفشائه لطالب ولا تعرفه لغائب ولا آيب.

ومستخْبِري عن سرِّ ليلى رددتُّه على ما منها بغير يقينِ
يقولُون حدِّثْنا فأنتَ أمينُها وما أَنا إنْ حدثتُهم بأمينِ

هذا بعد قطع الشيخ المقدَّم ذِكرُهُ جميعَ الطرقات والعوالم، وحَفَظَ ظاهرَهُ من الجوارح والجوانح بحفظ الحدود، والاقتفاء بحسن الإتباع والوقوف مع الحدود، فهو واقفٌ مع قوله تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾ [الحشر:٧].

فهو يسلك بالمريد على هذا المنهاج، ويعالجه بما تقدم من العلاج، ولكلِّ سالك إلى الله تعالى طريق بحسب قوته، واستعداده ليتعرَّف الله تعالى إليه، فمنهم الموسوي

والعيسوي والإبراهيمي، وغير ذلك، كالسليماني من طريق الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-.

فكلٌّ سالك طريقَ نبيٍّ من الأنبياء فهو على منهاج ذلك النبي، لكن من سلوكه من الطريق المحمدي، ومنهم من يكمّل طريقه في سلوكه فيكون محمديًا، وهي درجة الكمال ومقام الفحول من الرجال.

ومنهم من لا يصل إلى ذلك المقام، وإنَّما يُكشَف له طريقه بحسب قوته واستعداده، ومنهم من لا يكشف له ذلك إلا عند الممات فيسمِّي النبيَّ الذي سلك طريقه كموسى أو عيسى، أو غيرهما من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- فيزعم مَن لا علم له بهذه الطريق، أنه تنصَّر أو تهوَّد وليس إلا كشف الطريق الذي سلك عليه، والمطلب الذي عاد إليه.

وهذه نبذةٌ يسيرة من أوصاف الشيخوخة التي أشرنا إليها، وهي كقطرة من بحرٍ بالنسبة إلى الشيخ المربي المطالب لمريده بخطرات نفسه، وما يحدث فيها من الوسوسة.

المريـد السالك

وأمَّا المريد فلا يصحُّ أن يكون مريدًا إلا بصحة المناسبة والقابلية، وهي أربع صفات:

- لصدق في محبة شيخه.
- امتثال أمره.
- ترك الاعتراض عليه.
- سلب الاختيار معه.

فإذا صحَّ ذلك منه فقد صحت القابلية، ونفذ فيه العلاجُ، ونجعَ فيه الدواءُ وهو كالحراق بالنسبة إلى الرماد.

ومن زعم أنه ظهر في الوجود أكمل من رسول الله ﷺ ولا أفضل حالاً ولا مقالاً، أو وجدانًا أو عرفانًا، أو داعيًا إلى الله تعالى أو موصلاً إليه، أو كاشفًا للحقائق أو عالِمًا بالدقائق أو الرقائق، في علوم الخلائق من كمال الدارين فقد كذب بل كفر، وقد قيل له ﷺ : ﴿**إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ**﴾ [القصص: ٥٦].

وقال ﷺ لعمه أبي طالب: **«قُلْها لي يا عم أشهد لك بين يدي الله تعالى[١]»** أعني كلمة الشهادة، فأبى؛ لأنه لم يكن له قابلية الاستعداد، فإنَّ القابلية شرط في وجود القبول.

وقد نُقل عن ابن علوان[٢] مريدُ السيد الجنيد -رضي الله تعالى عنهما- أنَّه قال: كنت واقفًا في الصلاة فخامرتني شهوةٌ وربَّما قال: فانتقض وضوئي فاسودَّ لذلك وجهي وجلدي، فدخلت الحمام فدلكته فازداد سوادًا فدخلت بيتي وغلَّقتُ الباب فأتاني رسول السيد الجنيد فأشخصني إلى بغداد، فلما وقفت بين يديه قال لي: يا ابن علوان، تقف بين يدي الله تعالى في الصلاة وتخامرك الشهوة؟ والله لولا أني دعوت الله لك وتبت عنك للقيت الله تعالى بذلك السواد[٣].

وكان ابن علوان إذ ذاك بالبصرة والسيد الجنيد ببغداد.

فانظر يا أخي إلى هذه المطالبة لما اطّلع عليه وسمِع وسوسةَ نفسه كيف سيَّر طلبَه؟ وطالبه في الصورة الظاهرة المحسوسة، كما كانت الشهوة أيضًا باطنةً ثم أُظْهِرَ أثرُها عليه، وكما أنَّ العلم بِها كان باطنًا، فأظهره لظهور أثر الشهوة بالمقابل للكشف والقول باللفظ خشيةَ ألا ينقطع عن طريقه، ويُحجب عن سعادته.

ولذلك لا تصحُّ التربية من الشيخ بعد موته ويصحُّ الانتفاع بعد موته وانبعاث همته.

والتربيةُ تحتاج إلى التعليم، بالقول والفعل والأمر والنهي ظاهرًا وباطنًا معقولاً ومحسوسًا في كلِّ حركة وسكون وخطرة من الخطرات، ولفتة من اللفتات في جميع الأزمنة والساعات، وكل ذلك من الميت لا يقعُ وإن وقع بعضُه، والتربية في نفسها في حياته، انتقل إلى غيرها بموته، وانتقل غيرُه إليها بحياتِهِ وحكمُ هذه الدار في تطوّرها غيرُ حكم البرزخِ في تطوُّرِهِ وحكم الدار الآخرة في عوالمها غير أحكام هذه الدار في عوالمها

(١) رواه البخاري (١/٤٥٧)، ومسلم (١/٥٥).

(٢) روى عن الإمام الجنيد عدة أخبار، وانظر: كتابنا الإمام الجنيد سيد الطائفتين (ص١٤٢، ١٦٥، ١٧٠، ٢٢٦).

(٣) انظر: الإحياء (٤/٥٤)، والقوت (١/٣٧٨).

وإن كانت الأعمال هاهنا لها مجازاة هناك، لقوله تعالى: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ**﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

حقيقة الاقتداء بالنبي ﷺ

وإن كانت التربية لا تصح من الميت فكيف يصحُّ الاقتداء به؟ بل لا يصح الاقتداء حقيقَّة بغير رسول الله ﷺ إذ الاقتداء في نفسه لا يصح إلا بالعزم الجازم، والعقد الملازم بحقيقة الصدق والتصديق، بما هو عليه من الحقِّ والدخولِ تحت الحكم منه وترك الاعتراض عليه وسلبه الاختيار معه وامتثال أمره واجتناب نهيه، مع الرضا والتسليم قولاً وفعلاً، علانيةً وسرًا، فإن حصلت عنده شدةٌ أو تردُّد أو جُوّز على من يقتدي به مع تجويزه ذلك عليه، لأنه لا يعلم حقيقة ما يتبعه عليه أحق هو أم باطل خطأ هو أم صواب وهذا عين الشك الذي يُخشى منه سوء الخاتمة؛ إذ يموت المرء على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه، فلا يصحُّ حينئذ إلا برسول الله ﷺ إذ هو المعصوم من النقائص كلِّها ومن الخطأ والباطل والكبائر والصغائر فهو على صراطٍ مستقيمٍ وهدى قويم، قال الله تعالى ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾ [يوسف:١٠٨].

وقال تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾ [آل عمران: ٣١].

قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ**﴾ [الفتح: ١٠].

والمبايعةُ فينا موجودة، وسبيله وصراطه وشرعه وكتاب الله تعالى وكلامه وتبيانه وتحليله وتحريمه ومنهاجه، لم يترك شيئًا إلا وبيَّنه، قال الله تعالى ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ**﴾ [الأنعام:٣٨].

وفي ذلك كفاية وبقوله تعالى: ﴿**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ [محمد: ٢٤].

ولست محتاجًا إلى رؤية صورته الحسية ﷺ إذ الصورة في المرآة ظاهرة بالحس لمن كان بصره ثاقبًا ومرآته جليَّة من الصدأ والشوائب، فصفات رسول الله ﷺ أحسن من ظهور الصورة في المرآة الصقيلة، فإنَّ المكارم المسموع بها، ومحاسن الصفات من الجمال

والكمال وجميع الفضائل محبوبة بالسماع، وما يتصوره العقل فيها، وليست البيعة في نفسها قاصرة على الزمن الذي كان فيه رسول الله ﷺ بل هي مستمرة في كلِّ تابع له ومبايع على شرطه، وقد بايع رسول الله ﷺ عن السيد عثمان ﷺ بكفِّه لكفِّه وقالَ ﷺ: «**هذه عن عثمان**[١]» في غيبته لصحة هذه المعاني.

فالمعتقدات لا تحتاج إلى رؤية الأشخاص، لأنَّا نعتقد وجود الحقِّ، تبارك وتعالى، ونؤمن به ونقر له بالوحدانية والخلق والاختراع، وأنَّه خالقنا ومالكنا ولم نره، وكذلك نعتقد إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام، ونؤمن بما جاءوا به من عنده، وما شاهدنا صِوَرَهم ولا رأينا أشخاصَهم.

وهذا الاعتقاد هو حقيقة السعادة الدنيوية والأخروية، والشك فيه حقيقة الشقاوة الدنيوية والأخروية، فليس الاعتقاد يلزم من رؤية الْمُعتقَد فيه، والمعتقدات من أوصاف القلوب وسرائر الغيوب، كامنة في الضمائر سارية في السرائر، وكذلك كانت معرفة الله تعالى مبينة في الجماد والحيوان والنبات، قال الله تعالى: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**﴾ [الإسراء: ٤٤].

وإن لم يكن ذلك بإدراكاتٍ محسوسةٍ من سماع ورؤية، فقد سبق سماع القلب وعين البصر، إلى سماع الآذان المحسوسة والبصر المحسوس.

وقد قلت:

رأيتُكم بالقلبِ من قَبلِ أن أَرى ... فأحببتُكم من قبلِ سَمعِي وناظِرِي

فأُذنِي إن تَسمَع وعَيناى إن تَرى ... فلم يُدرِكَا إلا بقَلِبي وخاطِرِي

وإن قلت: قد صحَّ أن الاقتداء لا يصحُّ مع الشك والتردد وجواز الخطأ، وليس معصوم من ذلك كلِّه حقيقةً إلا رسولُ الله ﷺ فلا يصح الاقتداء إلا به ﷺ فكيف صورة اقتدائنا بعلمائنا ومشايخنا؟ وما سلك مَنْ سَلَكَ من الطرقِ والسُّبلِ على أيدي المشايخِ والأولياء، وما نقله العلماء؟

فأقول وبالله أستعين: إن ذلك ليس بقادحٍ في سلوكِنا على طريق مشايخنا من

(١) ذكره الحافظ في الإصابة (٤/٤٥٧)، وابن حزم في المحلي (١٠/١٣٦).

الأولياء وأهل الكشف و علمائنا فيما عَلِمُوه ونقلوه وفهموه وأتوا به، وما عَلِمُوه من أحوال القلوب، وسرائر النفوس وما أطلعهم الله تعالى عليه من ذلك، إنَّما هو أخذٌ عن رسول الله ﷺ واقتداء به، وسلوك طريقه، ودخول تحت حكمه، واتباع لشرعه وسنته، فمن ذلك ما هو ظاهر بالنقل الصحيح الذي تناوله السلف عن السلف والخلف عن الخلف متصلاً برسول الله ﷺ، وما هو باطن ظاهر في الأدب من أحوال رسول الله ﷺ، فإذًا لا يكون الاتباع حقيقةً لغير رسول الله ﷺ.

فإن وقع ما يخالف رسول الله ﷺ، وطريقه وسبيله فلا يصحُّ الاقتداء ويكون المقتدي عاصيًا مع علمه بالتحريم.

فإن اعتقد أن مخالفته رسول الله ﷺ جائزة، واتباعه لغيره صوابٌ فقد كفر نعوذ بالله تعالى من ذلك.

ومِمَّا حكاه الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- عن شيخٍ من مشايخ الغرب الْمُربِّين أنَّه حضر إليه الوزير وقال له: يا سيدي، أشتهي أن أكونَ من أصحابك قال له: ما تكون من أصحابي وأنت وزيرٌ قال: فنزلَ وانخلع عن الوزارة وجاء إليه.

وقال له: ما تكون من أصحابي ولك مال فنزل وخرج عن جميع ما يملكه وطلع إليه وعليه عرقشين وطاقية.

فقال له: أنت تحب زوجتك، فطلَّقَها ثلاثًا فقال له الشيخ: ما لك على يدي نصيب.

قال: فخرج مِن عنده وتوجَّه إلى مكة شرَّفها الله تعالى، ماشيًا فوجد الشيخ أبا عبد الرحمن المغربي، فأقبل عليه الشيخ واعتنقه، وقال له: ما هذا؟ فقال له: الشيخ فلان -وسمَّاه- أخرجني عن دنياي ولم يوصلني إلى آخرتي، فقال له الشيخ أبو عبد الرحمن: أتقبل مني؟ قال له: نعم، قال: ارجع إلى شيخك؛ فما لك نصيب إلا على يده.

قال: فرجع الوزير إلى شيخه، فعندما دخل عليه فُتح عليه في وقته، فقال الوزير: يا سيدي، أنت قلت ما لك على يدي نصيب وما وجدت نصيبي إلا على يديك؟ فقال له الشيخ يا ولدي، والله لقد قطعتُ كلَّ حجاب بينك وبين الله تعالى، حتى لم يبق حجاب يحجبك عن الله تعالى إلا محبتك لي، فقلت لك: ما لك على يدي

نصيب حتى ارتفع الحجاب بينك وبين الله تعالى، وتركتك مع الله تعالى ففتح عليك.

فانظر رحمك الله، إلى هذه النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين، لا جرم كانوا أمناء على أسرار الله تعالى وقلوبهم خزائن الحق، فلا يؤدُّون الأمانة إلا لأهلها كما أُمروا، ولا يعطوا من كان تحت حجرهم شيئًا مع السفه وعدم الرشد، وقول الشيخ -رحمه الله تعالى-: مالك على يدي نصيب صحيح -أي في تلك الحالة- حتى آيسه من غير الله تعالى، وكان قصد الشيخ جمعية قلبه على الله تعالى فلجج به في بحار التوحيد لَمَّا عَلِم قوة سيره وعزمه وصدق طلبه وعلو همته، خلا بينه وبين ربه تعالى.

فلمَّا ارتفع حجاب الغيرية عن العين، وانخلع وصف السفه، وظهرت صفات الرُّشد أعطاه ماله الذي تحت يده؛ إذ لا يحلُّ منع الرشيد ماله مع صحة رشده وحسن تصرفه، وأدَّى الأمانة إلى أهلها إذ كانوا أحق بها وأهلها.

وللشيخ عبد العزيز في هذا المعنى هذه الأبيات:

أقامَ على كنزِ الحقيقةِ إذ دثرى ... جدارَ الوَفا حفظًا ولم تتخذْ أجرًا

وعبَّر عن علمِ اليقينِ ولم ينهَ ... عن العينِ في الأولى ولا الحقِّ في الأُخرى

أمينٌ على الأسرارِ في كلِّ موطنٍ ... بصيْرٌ يرى بالله أن يجعل السرّا

ولكنَّه يُلقي إلى كلِّ مدعٍ ... يناظرُه في الفرقِ مسألةً تُقْرا

إذا صارَ ظلُّ المرءِ نعلاً لرجلِه ... فقد نُشِرَتْ بالعُذرِ آياتُه نَشْرَا

وإنْ فقدَ الشَّفْعَ المضرَّ فإنَّه ... بِرفعِ السّوى للاسْتِواء يجدُ الوتْرا

ويسْمعُ من كلِّ الجهاتِ مناديًا ... يناديه يا أهلَ الوفا ادخلوا مِصْرَا

فكمْ طالب قَدْ عاقَه عن طلابِه ... حمامُ هوى نفسٍ تُحمّلُه وِزرا

وكَم مِن محبٍّ نالَ وصلَ حبيبِه ... على أنَّه بِالحكمِ سار وما أَسْرَا

تُزَفُّ له فِيها العقائلُ منْحَة ... تُرْجِى أو يأوي ويُودِّعُها حَذِرا

فإن جاَه كفِفٌ وآنَسَ رُشدَهُ ... وشاهدَ سرَّ النَّسلِ أنكحَه عُذرا

ولولا طفافُ الكيل لم يجلَّ عارفَه ... على غير أهلٍ من مَعَارفِه بَكْرَا

ومَنْ لَم يكن في الفُلك بالحكمِ راكبًا فـــذاك غريـــقُ الـــيمِّ لم يصـــل الـــبرَّا

وهذه الأبيات قد يكون فيها تقديم وتأخير، وليس القصد إلا فهم معاني التربية.

ولما حصل للوزير ما حصل من الفتح، وتمكَّن في المعرفة جاء السلطان إلى الشيخ وسأله رجوعَ الوزير على الوزارة فأمره الشيخ بالرجوع إلى الوزارة؛ لأن الحكيم بالمعرفة والكشف مع موافقة الشرع، متعين ويجب عليه إذا لم يكن في ذلك الوقت في تلك البلاد من يقوم بهذه الوظيفة غيره، ودليل قول السيد يوسف عليه السلام:

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥] فافهم ذلك!.

وحكى الشيخ عبد العزيز، -رحمه الله تعالى-، عن الشيخ أبي الغيث أنّ شيخه الشيخ علي بن أفلح، أمره بخدمة نسائه وكان نساء الشيخ أربعًا، أو دون ذلك وعادة المشايخ،- رضي الله تعالى عنهم- لا يجعلون في أمر نسائهم وقضاء حوائجهم إلا من هو أهل لذلك، ويكون قد انتهى في سلوكه، لأنّ رضا الجميع غير ممكن، وإنْ أمكن فهو عسير، لا سيما الضرائر، مع نقصان عقول النساء من حيث الجملة، فلا يحمل ذلك إلا مَن كان له قلب وسعة باطن، وهي من علامات التربية، كما أنّ الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه عليهم رعوا الغنم، إشارةً إلى سياسة الخلق.

فكان الشيخ أبو الغيث كلّما فرغ من خدمة النسوة بعد مقاساته لما يقاسيه، يجد فقيرًا يعطيه رغيفًا وعليه قطعة حلاوة كلّ ليلة بعد العصر.

فاتفق أنّ الشيخ أبا الغيث حضر إلى عند الشيخ على شيخه بعد فراغه من خدمة النساء وأخذه الرغيف والحلاوة من الفقير، قال له الشيخ على: ما هذا يا أبا الغيث، فقال له: يا سيدي، كل ليلة أفرغ من الخدمة أجد فقيرًا يعطيني رغيفا وعليه حلاوة، فقال له الشيخ: لا ترجع تأخذ منه شيئًا، أتعرف من هو يا أبا الغيث؟ فقال: لا، قال: هو الخضر عليه السلام، إن كان شيخك رُحْ إليه، وإن كنت أنا شيخك، فلا تأخذ منه شيئًا.

فلمّا كان في الليلة الآتية بعد فراغي من خدمة النساء، وجدت الفقير فأعطاني الرغيف والحلاوة، فلم آخذ منه شيئًا فقال لي: تفلح بامتثال أمر شيخك يا أبا الغيث،

تفلح بامتثال أمر شيخك يا أبا الغيث، مرتين، ثم بعد ذلك اجتمعت بالخضر مرارًا.

فانظر يا أخي، رحمك الله تعالى، إلى هذه التربية وهذه المعرفة بأمراض القلوب ودوائها، وهذه النصيحة الخفية في مثل هذه المواطن المستورة عن العقول والخفية عن إدراك السالكين، وذلك أنّ الشيخ علي -رحمه الله تعالى- خشي على الشيخ أبي الغيث من تفرقة قلبه، فيعسر فتحه؛ لأنّه يبقى غير مجموع في جهة واحدة فيأخذ عنها، فأمره الشيخ بجمعية قلبه على جهة واحدة فيأخذ بها، وقال له: هو الخضر، فإن كان شيخك رُحْ إليه، وإن كنت انا شيخك فلا تأخذ منه شيئًا، وكذلك أظهر له السيد الخضر نصح شيخه له وقال له: تفلح بامتثال أمر شيخك يا أبا الغيث وكرر ذلك عليه؛ لأنّ القلب ليس له إلا وجهة واحدة متى توجه إليها حجب عن غيرها، فمتى التفت إلى هذه الجهة وهذه الجهة فاتت هذه وهذه. ولَمّا حصل للشيخ أبي الغيث الفتح وجد السيد الخضر بعد ذلك.

فهذه وأمثالها من الحكايات في التربية، فلينظر السالك كيف يسلك؟ والمسلّك كيف يسلّك؟ وليعرف كلُّ واحد حدَّه ﴿**قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ**﴾ [البقرة: ٦١].

مما يحكى عنه

ومِمَّا حكاه من الإشارات اللطيفة واللطائف العجيبة في هذا المعنى، أنّ إنسانًا جمع أهله وماله وقصد الحجاز على طريق الجادة، فنزل يمشي فتقدم على القافلة من غير دليل ورقد على جانب من الطريق فنام ينتظر عبور القافلة عليه، فأيقظته الشمس بحرارتها وقد جازت القافلة وهو نائم لا يدري.

فقام من نومه وصار يجري يمينًا وشمالاً لا يدري كيف الطريق، وضل عن الطريق فمشى ثلاثةَ أيامٍ لم يطعم ولم يشرب، فاشتد عليه العطش وعجز عن المشي فبرك وجعل يمشي حبوا، وقد رأى ظلاً تحت جبل فقال: لعلِّي أصلُ إلى ذلك الظل فأموت هناك، والنفس حريصة على الحياة.

فبينما هو على ذلك وقد يئس من نفسه وإذا هو يرى دخانًا في البرية، فجعل يحبو طمعًا في الحياة، فدنا منه، فرأى بيتًا في وسط البرية، فدنا منه، وإذا بشيخ قد خرج

من البيت وقال له: قف عندك، ودخل إلى البيت فأخلاه من الماء، خَشيةً عليه أن يجد الماء فيشربه على ذلك العطش، من قبل أن يلين مصارينه وأحشاءه، فيهلك، ثم قال له: ادخل، فدنا ودخل البيت فأخذ ذلك الشيخ قليلاً من الماء ومذقه باللبن، وجعل يطرّي لسانه بخرقة بذلك الماء واللبن إلى أن تطرَّى لسانه، فجعل يطري حلقه فنزل إلى الأمعاء شيء يسير بعد شيء يسير حتى لانت أمعاؤه، فسقاه من الماء واللبن والسكر، وسلق له فروجا فعاش ورجعت له روحه.

ثم قال الأعرابي لزوجته: توصِّي به واخدميه، وسافر وتركه عند زوجته في تلك البادية، فلم يحضر إلا الليلة التي يصعد فيها الناس إلى جبل عرفات.

فلمّا حضر الشيخ حضر معه خمسة وعشرون ولدًا له فرسانًا، وعمل لهم الغداء، فطلب الشيخ ذلك الشيخ فحضر، فقال له: كُلْ فتفكّر ذلك المسكين أنّ هذه الليلة هي ليلة عرفة، وأنّه فاته الحج، وأنّ ماله وأولاده فارقهم ولا يعلم ما اتفق لهم، فبكى، فقال له: ما يبكيك؟ لعلّ قد فرَّطوا في حقك في غيبتي.

قال: لا، قال: فأنت قليل العقل، إن أكلت وإلا ضربت عنقك فقال: يا سيدي، جرى لي كذا وكذا، وقص عليه القصة من أولها إلى آخرها، وكونه فارق الركب، وتقدم ونام ولم يكن معه دليل، حتى استيقظ من حرارة الشمس، وأن الليلة عرفة، وفاته الحج وفراق أهله وماله.

فقال له: ألم أقل لك إنّك قليل العقل وإنك مستحق القتل لأنك تقدمت على الركب من غير دليل ولا معرفة طريق، ثم لم يكفك ذلك حتى رقدت ونمت، فمثلك يستحق القتل.

قال: فبكى واشتد بكاؤه، فقال له الشيخ: كلْ وأبشّرك بشارةً، أوصلك الليلة إلى أهلك، وتقف على جبل عرفة، قال: فأكل، فلمّا فرغ صاح الشيخ: يا فلانة، فخرجت شابةٌ كأنّها الشمس الضاحية عليها من أنواع الجواهر والحلي، وعليها معارق الديباج، والحرير الأصفر والأحمر، قد شدت وسطها ببعض ذؤابات شعرها، فقال لها: خذي هذا الرجل وأوصليه إلى أهله في ثلاث ساعات من النهار، والتفت إلى الرجل وأعطاه خاتمًا أو فصًا، وقال: لا تعطهِ لها حتى توصلك إلى أهلك.

فقالت للرجل: ضع قدمك موضع أرفع قدمي ولا تلتفت يمينًا ولا شمالاً، واحفظ

خواطر نفسك.

ثم رفعت قدمها ووضع قدمه مكان قدمها فغابا، فعندما رأى نفسه في البرية وإياها، نازعته نفسه، وقال تتملّى بهذه في هذه البرية، وإذا وصلنا إلى الجبل نتوب، فعندما خطر له هذا الخاطر وقفتْ وقالتْ ألم أقل لك؟ استغفر الله تعالى، فاستغفر الله تعالى، وخاف.

ثم رجع الخاطر عاوده وقال: لعلّها أيضًا تشتهي ذلك، فحين خطر له ذلك وقفتْ وقالت له: ويلك، إنّ الحدَّ الذي حدَّه أبي ثلاثُ ساعاتٍ، وأنت تضيّعها بهذه الخواطر الفاسدة، فاستغفر الله تعالى.

فاستغفر الله تعالى، ثم مشيت فخطر له الخاطر الفاسد فيها، وإذا بغزال في البر فأشارت إليه فجاء إليها، فبصقت عليه فتقطّع أو تهرَّى وصار عظامًا، ثم قالت: والله العظيم، متى رجع هذا الخاطر يخطر لك لأفعلن بك مثلما فعلت مع هذا الغزال.

قال: فزال عنه ذلك الخاطر بالكلية، فبينما هو كذلك وإذا بخيامه وأهله وماله وولده، فقالت له: هذه خيامك وجمالك وأهلك ومالك، هات الوداعة التي أودعك أبي.

واعلم أنك قليل العقل كما قال لك أبي، مستحق القتل لأن أبي نجاك من الموت، وخلاك عند أهله وأكرمك فما راعيت حقَّ الله تعالى، ولا حقَّه في ابنته، الوجه الآخر أنك تعلم أنه كان بين يديه خمسة وعشرون ذكرًا فرسانًا، فترك الجميع وأمرني أن آخذك وأوصلك إلى أهلك، وهو رجل عربي، فلو كان يعلم أنّ لك عليَّ طريقًا، ما ترك أولاده الرجال وأرسلني معك، ثم بعد ذلك لم تقف مع ذلك حتى قلت في نفسك أتمتع بها، ونروح إلى الجبل ونتوب، واطّلعتُ على ما وسوست به نفسك ووقفت، وقلت لك: بعد الشرط الأول :فما وقفت مع ذلك، حتى قلت في نفسك إنَّها أيضًا تشتهي ذلك، ونسبتني إلى نسبة نفسك، وأخبرتك بما في نفسك، ولم يردعك ذلك حتى نظرت إلى الظبي وما أصابه، وما رجعت إلا رجوع العبد اللئيم، فاستغفر الله تعالى، وأخذت الخاتم أو الفص.

والكلام والألفاظ لا تنحصر في التقديم والتأخير، فنستغفر الله تعالى من ذلك

كله.

والقصد المعنى المفهوم من ذلك، فهذه الحكاية وأمثالها فيها تبيين معاني سلوك الطريق، والعجائب والغرائب والحكايات والأمثال جند من أجناد الله تعالى، وسراياه إلى قلوب أوليائه وأحبائه والعارفين والسالكين إليه، وهي تجذب القلوب إلى الله تعالى كجذب المغناطيس الحديد، وجنود الله تعالى وسراياه وأسراره مُثْبَتَةٌ من المعاني والألفاظ من القرآن والأحاديث والحكايات والأشعار والمواعظ وغير ذلك، ﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ**﴾ [المدثر: ٣٢].

طريق التربية

وطريق التربية بحسب كل شخص وقوته واستعداده ونصيبه من ربه سبحانه وتعالى وميراثه من نبيه ﷺ في سلوكه، وملائمته لقلب ولي في سلوكه، ولا يدخل تحت الحصر؛ إذ كل واحد قد يتعرَّف الله تعالى له تعرفًا خاصًا وإن كانت الشريعة عامةً والتعرُّفات الإلهيّة خاصة؛ لأن الله تعالى لا تنحصر تعرفاته ولا صفاته.

أهل الباطن وأهل الظاهر

وأولياء الله تعالى كثير جدًا، والصالحون كثير، وأهل هذا الشأن من أولي الأمر عدد مخصوص، وأشخاص مخصوصون اختصهم الله تعالى لما يريد وصرفهم فيما يريد، وآمنهم على ما يريد، وأطلعهم على ما يشاء من حكمته في ملكه وملكوته، وجعلهم لهذه المملكة الظاهرة كالرُّوح للجسد، فلا يتحرك الجسد إلا بروحه فلو خرجت الروح عنه تعطل وفسد وبقي جمادة لا حراك فيها، وجيفة يعافها من يراها ويرفضها من كان يألفها، فالملوك والحكام وأرباب السيوف والأقلام وغيرهم من سائر الأنام، يتصرفون في الظاهر كتصرف الجسد عن الروح، وأرباب الأمر من الغوث والقطب والأقطاب والأعين والأوتاد والأبدال لهم التصريف الباطن عن شهود الحكمة، وتخصيص الإرادة، وقيام الحكم، فأمر الله تعالى بالإرادة جارٍ لا مرد له، ولا حجر عليه، وإرادة الله تعالى بالأمر إذا لم يرد الوقوع لا يقع، فإنه أراد أن يأمر، ولا أراد أن يفعل، فهم من هذا

الموطن مشيرون وله مشاهدون وعند أوامره واقفون، وهم وإن جاز عليهم الخطأ ﴿ **لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [التحريم: ٦].

وفي وقائع الوجود لمن استقصاه ممن له الاطلاع على سائر الأقطاب لا يدخل تحت القياس، ولا يدركها العقل والحواس، فمنها أنَّ الخليفة والإمام في الظاهر في كلِّ زمان إذا بويع له ولم يكن شروط لذلك مدَّ صاحب الوقت يده للمبايعة حتى تنعقد البيعة بالصحة ويبقى ظاهر الحكم بقوة الشوكة، وهذا وأمثاله يعرفه أهل هذه الطريقة.

وأخبرني الشيخ عبد القوي العراقي -رحمه الله تعالى- وكان من أصحاب الأحوال والمواجيد، وسنذكره إن شاء الله تعالى في تسمية مَن عرفناه وإنما ذكرناه هنا لأنه بلّغني عن القطب رسالةً في سنة ثلاث وتسعين وستمائة ونحن بمكة شرفها الله تعالى، وأخبرني بزوال دولة زالت في تلك السنة، وكان القطب إذ ذاك بقرية تسمى منين من قرى دمشق، وكان اسمه: أبو الرجال، وفي تلك السنة توفي -رحمه الله تعالى-.

وقد ذكر الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- في قصيدته المسماة:

بـ« العيسوية» صفاتهم، وذكر أهل كل زمان من أولي الأمر، وذكر في كل إقليم منهم خمسة، وذكر أسماء البلاد التي هم فيها من كل إقليم، وفرق بين أولي الأمر وغيرهم، قال:

يا سائلَ الغيرِ عن سرِّي وإعلاني ... وعن حقيقةِ ما في طَيِّ جثْمَانِي
تَبْغِي إحاطةَ أمرٍ جَلَّ يعزبُ عن ... مَن لا له قدمٌ في تُربِ مَيْدانِي
مِن أينَ يعْرِفُنِي غيري وقدْ أخذتْ ... بائي علَى ألفي ميثاقَها الثانِي
وأوقفتْ واو وهِمِي خاخيًا لِي مُذ ... تَظاهرتْ منّي معْنَاي لغيلانِي
أُعْطِيتُ ميراثَ أسرارِ الوجودِ فَمنْ ... هذَا أُعبِّرُ عن صوتى البانِي
ما فِيَّ باقٍ بإبقاء الإلَه لَه ... وإنَّما أنَا في عَين البَقَاء فانِي
انظرْ لتبصرَ ما فِي الكونِ مِن حكمٍ ... بعَينِ قلبٍ سَليمٍ لا بإنسانِي
أما تَرى فُلكَ أسراري مُسيَّرَةً ... فِي مَوجِ يَمِّي إلِى جُودي وعرفانِي

مشحونةً من تفاصِيلٍ ومن جمَلٍ ... وألسنٍ وأعاجيبٍ وألوانِي
لو يسْتَوي قوةُ جلبٍ ما حملتُ ... من كلِّ صنفٍ ومربوعٍ وصنوانِي
وكنتُ أُبرزُ علمًا يُستدلُّ به ... حنيفًا دينًا على قسٍّ وعبرانِي
علمًا أتَى في كتابِ اللهِ شَاهدُه ... عن المسيح وعن موسى بن عمرانِ
لكنني ساكتٌ علمًا ومعرفة ... من هولِ ما يترائى لي ويغشانِي
حفظًا لِمَنْ لم يكن أهلاً فيضعفُ عَن ... ما يُجْتَلي مِن إشاراتٍ وتبيانِ

فإنْ نطقتُ ففي قولِي خفيتُ وإنْ ... صمتُ كان وَجدي عَينَ عنوانِ
فمِنْ ظُهورِي لإخفاءٍ مُحقِّقهُ ... وَمن بُطُونِي لإعلاني وأعيانِ
بسطٌ وقبضٌ له فرقٌ يدلُّ على ... أنْ قد تقبَّل جمعُ الجمعِ قربانِ
إن كنتَ تطلبُ حلَّ المشكلاتِ فَمَا ... فِي الخلقِ مِن شافعٍ يا صاحِ أو دانِ
إلاّوبينهما كرسيُّ معرفةٍ ... لا يستقُّر عَليه كلُّ إنسانِ
مَن لم تكنْ بقيودِ الشرعِ دعوتُه ... منوطة وبآدابٍ وإحسانِ
فذاك في غفلةٍ مِمَّا يُرادُ بِه ... ولم يَزلْ فِيَّ أناكيدٍ وخسرانِ
لا يستجيبُ له قلبُ المحقِّ ولو ... أَتَى بكلِّ دليلٍ أو ببرهانِ
ومن يقم جدارِ الأمرِ ممتثلاً ... يُعطَي إذا استخرجَ الكنزَ اليتيمانِ
فالنفسُ والعقلُ في وسعٍ وفي سِعةٍ ... والرُّوحُ والسرُّ في رَوحٍ وريحانِ
ومدعٍ في رجالِ الغيبِ معرفةً ... فقلتُ: كم بين ظمآنٍ وريانِ
يعني أولي الأمرِ منْهم أو عُمُومَهم ... فإنَّهم عندَ أهلِ الحقِّ صنفانِ
أَما تَراني من شَوقي لرُؤيتِهم ... ومن تَباريحِ ما أَلْقَى وأشجانِ
أجوبُ شرقًا وغَربًا في تتبُّعهم ... مفارقًا لأصحابِي وأوطانِ

لعــلَّ عينًــا تَــرانِي مِـــن عُيـــونِهم بعَــــينِ مـــا أتمنَّــــاه وترعــــانِ
في كــلِّ إقلــيمٍ مــنهم خمســةٌ وكــذا قـــالَ المخـــبرُ عـــن كشـــفٍ وفرقـــانِ
العـــينُ والوتـــدان الخادمـــان لَـــه والقطـــبُ والبـــدلُ المخفَّـــي ذو الشـــانِ
فقـال: أيـن هـم مـن مِصـر؟ قلـت لـه: خُـــذ مـــا أقـــول بتصـــديق وإيمـــانِ
اطلـــبهم بـــبلاد البَهنســـا وفي أرضِ الصـــعيدِ بـــإخميمٍ وأســـوانِ
وفي رشـيدٍ ودميـاطِ الـذي امتـزجَ بهمـا كمَـا جَـاءَ في التَّفْسـيرِ بحـرانِ
وقـالَ عـدلٌ مـن الإخـوانِ يخـبرُ عـن علـمٍ وعـينِ يقـينٍ غـيرَ ظنَّـانِ
بـــأنَّ في بلـــدِ اللاهـــون امـــرأةً طَيـارةً وهـي سُـعدى بنـتُ عجـلانِ
أمَّـا الشـامُ فبالأقصـى وبعضُـهم بعســـقَلانِ وفي الجـــولا وبيســـانِ
وفي العـريشِ وفي حيـثُ الجِمـالُ وفي عَجلونَ منهم وفي بُصرى وحسبانِ
وبـالعراقِ فـأرضُ النيـلِ مجمعُهـم وبوكْسـايا ومِـن شَـرقيِّ زريـرانِ
والسيبُ والوقـفُ فيـه الصـالحون ومَـا قَـويَ بِهـا بـدلٌ إلا بقَوسـانِ
وأرضُ فـارسَ مـأوى الأوليـاءِ ولـ كـنّ المشـارُ إلـيهمُ في خُراسـانِ
والـرَّيُ فيـه رجـالٌ يُعرفـون وفي لا سـايا ومِـيرُ وفي الـدَّهنا وعسـفانِ
وإنْ أناخـتْ بـك الأقـدارُ في يمـنٍ ففِـي زبيـدٍ وفي الكـدريِّ وملحـانِ
وبـالتهيمِ وتـاديرون ومـا رُؤيَ بِهـا القطـبُ إلا في كمـرانِ
والغـربُ في غايـةِ التكـرور قطـبُهم وفي جزائـرَ مرغنَّـا ووهـرانِ
وقدْ روى مَن لـه كَشـفُ التَّصـورِ عـن أكـابرَ القـومِ في الخضـرا وحيَّـانِ
بـأنهم قـد رأوا في أسـفي علـى زمـانِ صـالح أبـدالاً مـن الجـانِ
هـمُ المـرادُ وهـم سـؤْلي وهـم أَملِـي وفي الحقيقـةِ هـم أهلـي وإخـوانِ
ومـن يقـولُ بـأنَّ الـذوقَ سـيمتُه يـأتي بمثـلِ الـذي أبـدى بـه الجـانِ

مـا كــلُّ لــدنٍ رُدَيّــنِيٍّ الطعــانِ ولا ... كــلُّ الفــوارسِ مــن أقيــالِ غسَّــانِ
ومــن يكــونُ بــه هــذا الزكــامُ فمــا ... يستنشِــقُ الــريحَ مــن مســكٍ وقطــرانِ
وهكــذا كــلُّ قــرمٍ لا يقــودُ لــه ... لم يفقــه القــولَ مــن عَجــمٍ وعُربــانِ
ثم الصــلاةُ علــى المختــارِ مــن مضــرٍ ... وأكــرمِ الخلــقِ مــن معــدِ بــن عــدنانِ
محمــدٌ بــنُ عبــد الله أفضــلُ مَــنْ ... غَــزَا وجاهــدَ في رحــلٍ وركبــانِ
مــا ناحــتْ الأُرقُ في أَوكارِهــا سَــحَرًا ... وأهــدتْ الــريحُ نشــرَ الرَّنــدِ والبــانِ

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وعلى سائر الأنبياء والمرسلين والملائكة وسلم تسليمًا كثيرًا، ورضي الله تعالى عن أصحاب رسول الله أجمعين.

وللشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- قصيدةُ نظمٍ في السلوك والمعارف ومواجيده وأحواله، مما يدل على عظم شأنه، وإنَّما هذه القصيدة فيما ذكره من أولي الأمر، من الأقطاب والأعين والأوتاد السبعة في اليم، وذكر البدل المخفي ذي الشأن.

وفي حكاياته عن من اجتمع به من أهل هذه الطريقة العجائب والغرائب.

فمنها ما حكاه عن شيخ المشايخ أنَّه سأله عن شيخه فقال له: شيخي سكسوك فقلت وما سكسوك؟ فقال: أبو جعران، فقلت: وكيف ذلك؟

قال لي: كنت ليلةً أطالع وأنسخ والسراج على منارة ملساء، والحيوان تحت النور فجاء أبو جعران وجعل يدور بالمنارة، ويصعد فيقع، ثم يدور ويصعد فيقع هكذا مرارًا فتفكرت فيه، ولم يزل يطلع ويقع إلى أن طلع الفجر، وقد حصُل فوق عند السراج فتفكرت في نفسي: إن هذا حيوان لا يعقل وله مطلوب ما يردّه عنه الطرد أول مرةٍ ولا ثاني مرة، ولا كونه وقع مرةً بعد أخرى، إلى عدد كثير دون ألف مرة فكان ذلك سبب طلبي، وحصل لي ما حصل.

ومنها ما حكاه أيضا عن شيخ من المشايخ يُسمَّى محمد، قال: سألته عن شيخه، فقال: شيخي عشقَ أمي، فقلت: وكيف ذلك؟

قال: كان أبي مروازًا -يعني أميرًا كبيرًا- من مراوزة السلطان، وكانت والدتي امرأة جميلة، وكان شيخي يعلمني القرآن، وكان الشيخ يدخل عند والدتي، ونساء العرب ما

يكادون يستترون، فوقع في نفسه منها شيء، وعرفت ذلك وبقيت أقصد راحة الشيخ، وكان رجلاً صالحًا، وبقيتُ أشتهي وفاةَ والدي حتى أزوجها له، فحصل للشيخ مرض وأظنه من ذلك، فقلت لوالدتي: اطلبي من الأمير أن يجيء بالشيخ إلى الدار فتخدميه فيحصل لك الجنة.

فكلّمت الأمير فأحضر الشيخ من المسجد، وجعلت تسلق له الفروج بنفسها وبقيت أُسمِعه كلامَها وأقول لها: تخدميه كل ذلك ليجد راحته، فلما حصل للشيخ العافية ودخل الحمّام، قلت لوالدتي: روِّحي عليه وتركتها عنده وقلت في نفسي: يا ترى إيش يعمل الشيخ؟ وأنا في مكان أراه فاستيقظ الشيخ وخرج فتبعته، فقال لي: يا محمد عرفت جميع ما فعلت، وأنت يجيء منك شيخ من المشايخ لكن يا محمد مثالك مثال من نقّى قفة قمح من الطين والقصل والتراب، فلما فرغ أخذ كنَّ زبل رماه عليها، فقلت يا سيدي: وكيف ذلك؟ فقال: يا ولدي، تقول في نفسك يا ترى إيش يعمل الشيخ؟ والله يا ولدي، الفقراء ما يعملون شيئًا. ثم طلبته فلم أره بعد ذلك.

ومِمَّا حكاه أيضا عن فقير كان سبب سلوكه وطلبه ووصلته، قال: كان عندنا أوزة معلقة، فجعل القط يرقبها ببصره لا يفتر عنها من أول الليل إلى الصبح وهو مجموع ناظره إليها، فتفكرت في ذلك القط وملاحظته وسهره طول ليله فكان سبب سلوكي.

ومِمَّا حكاه لي عن الشيخ تاج الدين السريسي، -رحمه الله تعالى-، أنَّه كان يعمل للفقراء كل سنة عسلة تسمى عسلة تاج الدين، فكان يشتري قناطير صابون وتجتمع الفقراء من الأماكن والبلاد إليه، ويذبح الذبائح ويعمل الولائم.

فاتفق أنَّه عمل للفقراء سماعًا، فقام فقير وتواجَد وأطال، فقال الشيخ: اقعدوا وبقي الفقير على حاله، ثم بعد ذلك لما قعدوا ما بقي على حاله، والشك مني في ذلك، فحصل للشيخ تاج الدين بعد ذلك طيبة فأراد القيام، فقال ذلك الفقير: اقعد، فأُقعد الشيخ إلى أن مات ولم يوجَد ذلك الفقير بعد ذلك.

وأخبرني الشيخ عبد العزيز ﷺ أنه كان يأتي إلى هذا الشيخ تاج الدين، فيطعمه قمحية، وتكون عنده الأطعمة كثيرة فما يقدم لي إلا قمحية كل وقت، فقلت له: أنا ما أريد قمحية، فقال لي: والله ما أطعمتك القمحية إلا لأن الخضر عليه السلام قال لأم عبد

القادر يعني زوجته: كوني اطبخي القمحية للفقراء.

والشيخ تاج الدين هذا المذكور كبير الشأن عظيم القدر وله قصيدة في السلوك منها:

ولـو قلـتُ طـافي النـارَ والنـارُ جمـرةٌ   لهـا لهـبٌ تَرمـي الشـرارةَ كالقصـرِ
لَمَـا كـان لمحُ البرقِ أسرعَ أن يُرى   بأســرعِ مــنّي في امتثــالٍ للأمــرِ

ومع ذلك أثّر فيه حالُ ذلك الفقير، ولا يدلُّ ذلك على أنَّ الفقير كان أكمل منه، فإن لله تعالى التصريف في الكل كما يشاء ويختار، ولأن النملة والبعوضة والحية والعقرب أقل قدرًا عند الله تعالى من رتبة الإنسان من حيث هو إنسان مؤمن فكيف بمن له ولاية؟

وقد أثَّر ذلك في جمعٍ كثيرٍ، وأرباب الأحوال مجموعون على الله تعالى بكلياتهم غائبون عن أنفسهم، فإذا أُجري على ألسنتهم شيء وقع وأثَّر لأنَّه من الله تعالى بوجهة التخصيص فلا يُرد ولذلك يخشى من صحبة أرباب الأحوال.

ولهذه الحكاية نظائر، منها ما حكاه أبو طالب المكي في قوته -رحمه الله تعالى- أنّ الحجاج بن يوسف لما طلب الحسن البصري[١] -رحمه الله تعالى- دخل الحسن عند

(١) هو ابن يسار بفتح الياء، وكسرها، الأنصاري مولاهم مولى زيد بن ثابت. ويقال: مولى جابر بن عبد الله، ويقال: مولى أبي اليسر ويقال: مولى جميل بن قُطبة، وأمه اسمها خيرة مولاة أم سلمة أم المؤمنين زوج النبي ﷺ وربما غابت أمه في حاجة فتعطيه أم سلمة ﵂ ثديها تعلله به فيدر عليه فيشربه إلى أن تجيء أمه، فيرون أن تلك الحكم، والفصاحة من بركة ذلك.

وقال أبو عمرو بن العلاء: ما رأيت أفصح من الحسن البصري، والحجاج بن يوسف الثقفي قيل له: فأيهما كان أفصح؟ قال: الحسن.

سمع عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وخلائق من الصحابة، وخلائق من كبار التابعين، وروى عنه خلائق من التابعين وغيرهم.

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: سألت هشام بن حسان كم أدرك الحسن من أصحاب رسول الله ﷺ؟ قال: مائة وثلاثين، قلت: وابن سيرين؟ قال: ثلاثين.

=

حبيب العجمي، فقال له حبيب: اقعد ورائي، فقال: ويلك، وما يغني عني وراؤك؟ فقال: اقعد حتى تبصر فقعد، ودخل رسل الحجاج فقالوا: أين الحسن؟ فقال لهم حبيب: انظروا هل تبصرون شيئًا؟ فنظروا فلم يروا شيئًا وخرجوا فقال له الحسن: كيف فعلت؟ فقال: إنك كنت عند الله تعالى فما أبصروك، ولو كنت عندي لرأوك فقال له الحسن: رأيتك همست بشفتيك شيئًا فقال: قلت: اللهم اجعله عندك حتى لا يروه.

فانظر يا أخي إلى هذه الحكاية. قال أبو طالب والحسن فوق الحبيب بكثير، وهو أستاذ حبيب وشيخه، ولا يخفى محلُّ الحسن البصري -رحمه الله تعالى- وعظم شأنه.

للصالحين رُتب ومَنَازل

ولن تخفى رتبة السادة الصحابة -رضي الله تعالى- عنهم بالنسبة إلى التابعين لهم، ولن تخفى رتبة السادة التابعين بالنسبة إلى من تبعهم، وكذلك جريان الحال في المشايخ وأتباعهم والتابع والمتبوع، ولست أقول بتفضيل بين أنبياء الله تعالى صلى الله تعالى عليهم وسلم إلا من فضّله الله تعالى في كتابه العزيز على لسان نبيه، كما فضَّل

=

وعن محمد ابن سعد قال: كان الحسن جامعاً عالماً رفيعاً فقيهاً ثقة مأموناً عابداً ناسكاً كثير العلم فصيحاً جميلاً وسيماً.

وقدم مكة فأجلسوه على سرير واجتمع الناس إليه فيهم طاووس، وعطاء، ومجاهد، وعمرو بن شعيب فحدثهم، فقالوا أو قال بعضهم: لم نر مثل هذا قط.

وقال أبو بردة: لم أر من لم يصحب النبي ﷺ أَشْبه بأصحابه من الحسن.

وعن مطر الوراق قال: كان الحسن كأنما كان في الآخرة فهو يخبر عن ما رأى وعاين، وكان الحسن من أجمل أهل البصرة حتى سقط عن دابته فحدث بأنفه ما حدث.

مات سنة عشر ومائة. وانظر: طبقات ابن سعد (١٥٦/٧)، وطبقات خليفة (١٧٢٦)، والزهد لأحمد (٢٥٨)، والتاريخ الكبير (٢٨٩/٢) والمعارف (٤٤٠)، والمعرفة والتاريخ (٣٢/٢)، (٢٣٨/٣) وأخبار القضاة لوكيع (٣/٢)، والجرح والتعديل (٤٠/١/١)، والحلية (١٣١/٢)، وكتابنا الحسن البصري سيد التابعين (أتمه الله).

نبينا محمدًا ﷺ على غيره.

وكذلك لا أقول بتفضيل بين الأولياء إلا ما ورد به الشرع المطهر، وقد يكون من المريدين من تعلو رتبته رتبة شيخه كما حكى الشيخ أبو الربيع عن القرشي- رضي الله تعالى عنهما- أنَّه قال: صحبت ستمائة شيخ، اقتديت منهم بأربعة، وكان شيخي أبو الربيع منهم، ووزنت معه فرجحت عليه.

وهذه الحكاية إن صحت عن القرشي ﷺ فهي عمّا اطّلع عليه، وليس لنا ذلك، على أن ذلك يجري كثيرًا ويكون في المريدين من يتقدم على شيخه، ومن المتأخرين من يتقدم على المتقدمين، وذلك لله تعالى يفعل في ملكه ما يشاء، ويحكم في خلقه ما يريد.

وحفظ رتب الأولياء بعد الأنبياء الصحابة، والأدب مع الله تعالى في كل ما ينسب إليه واجب، ولكلٍّ وجهة إلى الله تعالىو سرٌ حاضر مع الله تعالى، وتعرف إذ الحق يتوجه إلى عبده بحسب ما يتوجه العبد إليه في صلاته وصيامه وعبادته وتقربه بكل قربة، ومحبته لشيخه هي محبته لربه تعالى، فمهما عظمت منزلة شيخه بباطنه كانت حالته عند الله تعالى كذلك، ومهما نقصت رتبة شيخه عنده نقص عند الله تعالى بقدر ذلك.

ولتفهم من ذلك أنك مهما أنزلت الحق من قلبك من التعظيم والإيثار له على نفسك والمحبة بكلية قلبك فتلك منزلتك، وإن كان خلاف ذلك فهي منزلتك عنده، والله تعالى من وراء ذلك كله وإنما أنت تشهد منزلتك، وفي قوله تعالى: ﴿**رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ**﴾ [المائدة:١١٩].

وقوله تعالى: ﴿**يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾ [المائدة:٥٤] كفاية من الاستقصاء بالأدلة العقلية والقياسية التي لا اثر لها في وجدان القلوب.

حكايات في التربية

وحكى الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- عن الشيخ برهان الدين الموصلي[١]

---

(١) له ذكر في الوافي بالوفيات (١/٢٨٥، ١٢٢٠).

أنه نزل الخانقاه بالقاهرة، وكان له شأن كبير وأحوال جليلة، وله تربية وأتباع، ومن أتباعه أبو بكر الكردي ولي الدين، قال: كان الشيخ برهان الدين يتكلم في مناقب شيخه أبي سعيد بن أبي الخير(١)، وكان في المجلس فقير كبير القدر يسمى جمال الدين عينساه، فقام الشيخ برهان الدين المذكور وضربه على رأسه بالمحجم ثلاثَ ضرباتٍ، فحصل للفقراء من ذلك ألم؛ لأن هذا الفقير له هجرة وخلوات وربما قيل أحدَ عشرَ خُلوة، وكان ابن شيخ الشيوخ حاضرًا فقال له: يا سيدي، ما هذا؟ وما سبب هذا؟ فإن الفقراء يقولون: لأي سبب ضُرب الشيخ جمال الدين عينساه؟ فقال الشيخ برهان الدين: لأنه مريدي، فقيل للشيخ جمال الدين عينساه أنت مريد الشيخ؟ فقال: نعم، ودخلتُ على يده ثلاث خلوات.

فحين اعترف أنه مريده قام وضربه ثانيًا، فبقي عند الفقراء من ذلك شيء، وليس لأحد أن يعترض على الشيخ في مريده، فقال الشيخ للفقراء: يا فقراء، كأنكم تقولون: ما سبب ضرب جمال الدين عينساه؟ أو تشتبهوا تعملوا ذلك، فقالوا: نعم فقال الشيخ: والله ما ضربته لأني شيخه وهو مريدي، ولا خطر لي ذلك، ثم قال: يا جمال الدين، الفقير أمين الله تعالى على نفسه، أنت لما كنت أنا أتكلم في مناقب الشيخ أبي سعيد بن أبي الخير، أما قلت أنت في نفسك إنك ارتقيت مقامًا ما وصل

---

(١) قال المناوي: الزاهد المتقي الولي ذو الكرامات الباهرة والآيات الظاهرة، كان يستحضر من بحار التصوف والزاخرة كل فائدة مهمة، ومن كواكبه السيارة كل نير يجلو حنادس الظلمة.

أخذ عن زاهر السرخسي وغيره، وعن ناصر الأنصاري وغيره، وكان صحيح الاعتقاد حسن الطريقة، أحواله تبهر العقول، اهتدى به فرق من الناس.

وكان مقدم شيوخ الصوفية، وأهل المعرفة في وقته، سنى الحال عجيب الشأن أوحد الزمان، لم ير في طريقته مثله مجاهدة وإقبالاً على الأعمال وتجردًا عن الأسباب، وإيثارًا للخلوة واشتهارًا بالإصابة في الفراسة وظهور الكرامات والعجائب.

قال السبكي: ومع صحة عقيدته وسن طريقته لم يسلم من كلام ابن حزم والذهبي، ولم يظهر لنا منه إلا صحة الاعتقاد، لكنه أشعري صوفي، فمن ثم نال منه الرجلان وباءا بإثمه. وانظر: الكواكب الدرية (٣٩٩).

إليه الشيخ أبو سعيد؟ قال: نعم، قال: الشيخ والله لقد رأيته أخرج رأسه من هذه الحائط، وقال: انظر مريدك، كيف يسيء علي الأدب؟ قال: فقام جمع كبير وجددوا العهد على يد الشيخ برهان الدين.

وقال: والشيخ أبو سعيد له سنين كثيرة ميت، وكان في الفقراء فقير من أصحاب الشيخ برهان الدين، فقال: يا سيدي أشتهي أن أكون في صحبتك، فقال له: مالك في ذلك مصلحة، فقال: يا سيدي، ما يكون لي في صحبتك مصلحة؟ قال: نعم، قال: يا سيدي، فكيف ذلك؟ فقال له الشيخ: تنظر مني ما تعتقد أنت أنه مخالف للشرع، أسقط أنا من عينك، وتسقط أنت من عين الله تعالى.

فانظر يا أخي إلى هذا التحقيق من الشيخ والنصيحة للطالب والمعرفة بتوجيهات القلوب، ولأن المريد جعل الشيخ وجهته إلى ربه تعالى، فاعتقاده في شيخه ومحبته فيه إنَّما هي محبة لله تعالى مع تنزيه البارئ تعالى عن صفات العباد، وإنما نحن نذكر صفات الجزاء كما ورد:

«يا عبدي استطعمتك فلم تطعمني، استسقيتك فلم تسقني،مرضت فلم تعدني(١)».

وكلٌّ ذلك متأوَّل لمن يطعمه لأجله ويسقيه لأجله ويزوره في مرضه لأجله، فكأن الله تعالى هو المجازي لذلك والمقابل عليه، وأضاف كل ما عمله لأجله إلى ذاته العلية، وخاطب عبده بما يعقله من العادة في أمثاله وأبناء جنسه حتى لا يجهل ذلك الوصف في نفسه وفي غيره، والمريد في شيخه كذلك بوجه أخص وطريق أكمل لوقوع العقد اللازم والعهد الملازم والاختصاص الإلهي والطلب لله تعالى مع الإخلاص من غير شائبة، فخشي على الطالب أن يقع في ذلك، بل عرف ذلك معه بالإطلاع والكشف، فإنه تقدم ما يدل على كشف الشيخ حال مريد قبل وروده إلى صلب أبيه وبطن أمه.

وأما ضربه لجمال الدين عينساه فلذلك نظائر في الشرع؛ فالطبيب له أن يقطع بعض الأعضاء لسلامة الجسد والروح، بأن يكون مثلاً في الأصبع أَكَلَةٌ فإن تركها أكلت الكفَّ وإن كانت في الكفِّ إن تركها أكلت الذراع، ومتى لم يقطعها أفسدت

---

(١) رواه مسلم (٤/١٩٩٠).

ذلك العضو جميعه، وكذلك إذا كانت في الذراع ولم يقطعه أفسدت جميع الجسد ومات.

الشيخ للمريد كالطبيب

والشيخ بالنسبة إلى المريد كالطبيب بالنسبة إلى المريض، وهو أعرف من الطبيب في حاله جميعه، والكِبْرَ من الأمراض القلبيةِ وهو أشدُّ الأمراض لأنه يحجب عن السعادة وعن الجنة، وهو منازعة الألوهية في أوصافها والدعوى بالكذب على الولاية شديدة، لقوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ**﴾[الأنعام:٩٣].

وأورد الإمام الغزالي أن من الذنوب ما عقابه سوء الخاتمة، وهو ادّعاء الولاية مع عدمها، فكون الشيخ ﷺ ضربه تلك الضربات ليستخرج من نفسه ما ادّعاه وما له، وكونه زعم أنه وصل إلى ما وصل إليه ذلك الوليُّ الكبير فيه نوع من الكبر والتعاظم الذي هو أصل الفساد وأصل العناد.. أعاذنا الله تعالى وإياكم منه. آمين.

وحكى الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- عن الشيخ عبد الله المارداني أنه دخل على أبي شعرة، وكان من أمراء الملك الكامل، من الأمراء الكبار وكان يحب الطائفة، وكان مريدًا للشيخ عبد الله، فلمّا دخل الشيخ عبد الله على الأمير وجده قد لبس خلعة أتت إليه من السلطان، وجعل على رأسه الكمّة التي كانوايتقلّدها في ذلك الزمان الأمراء الأكابر، وبين يديه مائة مملوك له، فمشي الشيخ وصفعه صفعةً أطارت تلك الكمة من على رأسه، فجرى المماليك يأخذونها، فقال الشيخ ما يأخذها إلا هو، فقام الأمير وأخذها ووضعها على رأسه، وكانت زوجته من فوق واقفةً تنظر إلى ذلك، وكانت بنت البانياسي وكان الأمير يحبها فعزَّ ذلك عليها، فغضب الشيخ وخرج وانقطع عنهم، فما أطاق الأميرُ غضب الشيخ فدخلوا على الشيخ حتى يرضى عن الأمير، فقال: ما أفعل؟ أو يشد على ظهره أكافًا ونركبه، وزوجته واقفةٌ تنظر وترضى لذلك فوافق الأمير وزوجته على ذلك، وركب الشيخ على ظهر الأمير في داره.

وهذه الحكاية من العجائب في هذا الباب، فانظر إلى هذه النصيحة من الشيخ، وهذا الدواء الذي داواه به لمقابلة المرض الرديء؛ لأن الكبر من أردى الأمراض للقلب؛

لأن الشيخ لا يجوزله أن يغشه إذ هو قد استنصحه وسلم نفسه إليه، وهو مسئول عنه، وراضٍ بجميع ما يفعله في نفسه وماله، وعقد مع الله تعالى عقدًا في ذلك، وعاهد الله تعالى عليه، ولو وجد الشيخ لهذه العلة دواء غير ذلك لداواه به، وقد يداوي غيره بغير هذا الدواء في هذه العلة بنفسها لاختلاف الأمزجة والطبائع.

كما جرى للفقيه الذي سأل أبا يزيد[١] لما لا يفتح الله له؟ فأمره بحلق لحيته ورأسه، وتحفية قدميه، ومشيه بين الناس الذين يعظمونه، ومن صفعه من الصبيان يعطيه شيئًا من الجوز الذي يحمله معه.

وقد تقدمت الحكاية في ذلك وفي أمر الشيخ أبي يزيد مريدَه بحلق لحيته أوجهٌ لمن يعترض على الشيخ في كونه أمرَ بما يخالف السنة، وقد اعترض معترض فذكر الفقيه شيئًا إنما كان قصده العزم على الفعل لا وقوع الفعل، فإن السيد إبراهيم الخليل عليه السلام أمر بذبح ولده، وكان المراد العزم على الذبح لا وقوع الذبح، والجواب عندي، فمِن ذلك أن الطبيب يجوز له النظر إلى فرج المرأة للتداوي، وقطع بعض الأعضاء لسلامة الجميع في أمراض الجسم، فأمراض القلب لأشدُّ من ذلك، لا سيما مرض الكِبْر الذي هو أشد الأمراض الذي يحجب سعادة الآخرة، وحلق اللحية أخف الأدوية؛ إذ هي تعود في زمن قريب.

فافهم ذلك وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ومِمَّا حُكِي عن بعض الحجَّامين أنَّه كان يحجم الملكَ وكان له مريد قد تبعه فجعل ينوب عنه فيما يحتاج إليه الملك من الفصد والحجامة وغيره، فعظمت نفس المريد، وزعم أنه ما بقي يحتاج إلى معلمه، وربما زعم أنه ترقى عنه وعلم ما لا يعلم.

فاتفق أن الملك احتاج إلى الفصد، فدخل هذا المريد، فأفصد الملك، فانكسرت الريشة في عرق يده، فلم يكن للمريد حيلة ولا معرفة بذلك وخشي الهلاك من السلطان، فجاء إلى عند معلمه وقد حصل له من ذلك ما حصل، فقال له المعلم:

---

(١) انظر في معرفة مناقب وأخبار الشيخ: أبو يزيد البسطامي، «روضة الحبور في مناقب الجنيد البغدادي وأبي يزيد طيفور» لابن الأطعاني، وهو من أوسع وأفضل الكتب في نوعه، طبع دارة الكرز ، تقديم فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور سيدي جودة المهدي حفظه الله.

ألست قد استقللت بنفسك ورأيك، وزعمت أنك غير محتاج إلي؟ فقال له: يا سيدي، ما هذا وقته؟ أدركني وإلا هلكت.

فمضى معه إلى عند الملك والملك على تلك الحالة، فصفع المعلم الملك صفعةً عظيمةً فاشتد الغضب وانتفخت العروق فخرجت الريشة بسرعة؛ لأن نفوس الملوك ما تحتمل مثل ذلك، فلمّا جرى ذلك جعل المعلم في عنقه سلسلةً، وقاد نفسه للملك ليقتله على جرأته، وقال: إنه لم يكن لهذه العلة دواء إلا ما فعلت، واخترت ذهاب حياتي بسلامة الملك، فأخلع عليه وتركه.

ثم إنَّ المريد رجع إلى ما كان عليه، واعتقد أنه ما بقي معرفة للمعلم زائدة على ذلك إلا وقد تعلمها، فاتفق أنه فصد المشاعلي فانكسرت الريشة في يده، فصفعه المريد صفعةً عظيمةً فلم يؤثّر فيه شيء ، فقال له المشاعلي: ما هذا وقت البسط، أبصر أيَّ شيء يخرج هذه الريشة من يدي؛ وذلك لأن نفس المشاعلي ما هي كنفس الملك، وإن كانت العلّة واحدة فالأمزجة مختلفة؛ لأن المشاعلي يفعل بنفسه طول النهار مثل ذلك ويستحليه ويجعله صناعته، والموت عند الملك دون ذلك، ثم إن المريد أتى إلى عند معلمه الحجام وسأله عن ذلك وقال: أدركني، فقال له: فما أنت استغنيت عني؟ فقال: ما هذا وقته، فجاء معه إلى بيت المشاعلي، فأمرهم بخلو البيت، وألاّ يكون فيه أحد، واتخذ ومريده ركنًا في منزل المشاعلي، ووسوس مريده وسوسةً يسمعها المشاعلي، قال له: ما بقي لنا في هذه حيلة، إلاّ أن نقتله ونخفيه عن الملك؛ لئلاّ يحصل لنا من ذلك ما يحصل، فسمعهما المشاعليُّ يقولان ذلك، فخاف على نفسه وجزع، وتيقن منهما ذلك، فانتفخت العروق من الخوف فخرجت الريشة للوقت.

فانظر يا أخي، وفقك الله تعالى، إلى هذه الإشارات في الرتبية.

وحكى لي الشيخ المحير مهنا البغدادي أنه كان في خدمة الشيخ على الرفاعي يقُمُّ الزبلَ، واتفق أنه حصل للمحير مهنا المذكور مرض الإسهال، وكان يحب العنب، والعنب مما يزيد في الإسهال، فقال الفقراء للشيخ فقال لهم: قولوا له لا تأكل العنب، فقالوا له فلم يمتنع من أكله، وازداد المرض، وجعلوا يقولون له فلم يسمع، فقالوا للشيخ أنه لم يسمع، قال: فطلبني الشيخ إلى عنده فحضرت، والتزم الشيخ أني لا آكل عنبًا ثم

قال لي: لا تأكل العنب، قال: فما قدرت بعد ذلك أذوق عنبة أصلاً، فبرأت من ذلك المرض.

فانظر يا أخي إلى هذا التعليم بكل نوع يناسب الحال والوقت والشخص، فهم يعلمون الناس تارَة بالأقوال وتارَة بالأفعال وتارَة بالإيلام وتارَة بالأحكام وتارَة بالإيماء الإفهام وتارَة بصريح الكلام وتارَة بالرؤيا والمنام وتارَة في البرء والسقام، وحيث اطّلع الشيخ على العلة وعرفها وعرف دواءها أتبعها بالدواء سواء كان من مر النفس أو حلوها ولا يخون الله تعالى فيما ائتمنه عليه، فإن رأى في المريد عجزًا عن أمثال ذلك الذي يقصده له أوقفه عن شرب ذلك الدواء واستعمل له ثانيًا ولاطفه وإذا لاطفه في كل أحواله فقد مكر به لأنه لم يصلح عنده فإياك ثم إياك من مكر الشيوخ بما يطيِّب النفوس ويجرِّع كاسات الألم والمرارات، فإنَّ العزّ في الذلِّ مستور والذلُّ في عزِّ الدنيا محجوب، وبالله التوفيق، ولقد أحسن من قال :

لا تسقِني ماءَ الحياةِ بذلّة   بل اسقِني بالعزِّ ماءَ الحنظلِ

وأخبرني الشيخ جمال الدين بن الشيخ أبي العباس المرسي عن مريد الشيخ وهو الشيخ نجم الدين الأصبهاني، وهو رجل كبير مشهور أنه كان يرى الشيخ في منامه ويربِّيه، ويراه في عالم الغيب كذلك ويربِّيه ويأمره وينهاه، وأنه سافر من بلاد العجم إلى ديار مصر وبقي يتبصَّرُ في المشايخ حتى يرى الشيخ الذي كان يأتيه في المنام، فلمَّا وصل ديار مصر دخل على الشيخ أبي العباس المرسي فأسرَّ له بجميع ما كان يجري له معه في المنام وفي عالم الغيب وهو الآن موجود، وهو جليل القدر وهو بمكة، شرفها الله تعالى.

ولا اعتراض في ذلك؛ إذ كان الوحي للسادة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أعظم، وقد كان يوحى إليهم في المنام كالسيد إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، ورؤية السيد يوسف الصديق عليه السلام، وقد كان يوحى إلى بعض السادة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في المنام.

ومنهم من يربُّوه بالتخصيص والاهتمام، كما حكي عن الشيخ أبي الحسن الوفائي، -رحمه الله تعالى-، قال: جئت إلى زيارة الشيخ أحمد الجباس فوجدت عنده

الشيخ أبا العباس الطنجي، فهبته، فلمَّا قام يتوضأ قدّمت له نعله فقال لي: يا علي، ستعلم حين يقدم لك نعلك وأنت لا ترضى.

قال: ثم أخذت الإداوة ومشيت معه لأصب عليه الماء -أو كلمة هذا معناها- فقال لي: يا علي، الله يعلم أنني رجل من طنجا، خرجت إلى الحج إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر النبي ﷺ فأُخِذْتُ أخذةً عرفْتُ فيها الله تعالى، فأقمت ثمانين يومًا لا آكل ولا أشرب، فوردت على سيدي أحمد الرفاعي في الوقت الذي يجتمع الناس إليه فيه، فوجدت عنده ستة عشر ألف فقيرٍ وقد مد لهم خبز الأرز وقصب العراق فقلت في نفسي: هذا الطعام ما يوافق الْمَعِيِّ التي لي؛ لأن لي ثمانين يومًا ما أكلت ولا شربت، وإذا الشيخ قد رفع رأسه، وقال: يا أم منصور، خذي بيد الطنجي وأطعميه العصيدة التي عملتيها له؛ فإن له ثمانين يومًا ما أكل ولا شرب.

قال: وإذا امرأة أخذت بيدي وأدخلتني إلى بيت أو حانوت أو كما قال، فأخرجت لي عصيدةً وعليها سمنٌ وعسلٌ، فأكلت إلى أن اكتفيت، ثم قمت وجلست عند الشيخ، فقلت في نفسي: إن كان هذا الشيخ يربي هؤلاء الجميع فهذا إمام عظيم متبع، وإن كان ما غير الكثرة فملوك بني الأصفر عندهم أكثر من ذلك، فرفع رأسه، وقال لي: يا احمد، يا أحمد، ما أنا شيخك، شيخك عبد الرحيم بقنا، رُحْ إليه، قال: وألبسني الشيخ طاقيةً، وكان عليَّ جلابية أخلعتها على الشيخ فجعل ينبسط بها بين أصحابه.

معرفة رسول الله ﷺ

قال: وسافرت إلى أن وصلت إلى قنا، فسألت أو دخلت على الشيخ عبد الرحيم لأجد شيخًا أعمى مكبًا على بُرشٍ، قال: ففُتح على بالكلام حتى لو كانت سبعَ محابر ما كتبوا ما أقول، فقلت في نفسي: الشيخ أحمد يقول لي: هذا شيخك، فما أراني إلا شيخَه، قال: فرفع الشيخ رأسه أو قال كلمني فلم أجد شيئًا أقوله، فقال: قد نَبُلَ الكلام من قوس القِيَمِ، فقلت: هو ذلك يا سيدي، فقال: عرفت رسول الله ﷺ؟ فقلت: لا، فقال رُحْ إلى بيت المقدس حتى تعرف رسول الله ﷺ وتعال.

قال: فرحت إلى بيت المقدس، فحين وضعت رجلي وإذا بالسماء والأرض

والعرش والكرسي مملوءة برسول الله ﷺ فقلت: أرجع إلى شيخي ولا حاجة لي ببيت المقدس، قال فرجعت إلى الشيخ، فقال لي: عرفت رسول الله؟ قلت: نعم، فقال: الآن كَمُلت طريقك، وقال: تروَّح يا ولدي، لم يكن الأقطاب أقطابا والأوتاد أوتادا والأولياء أولياء إلا بمعرفة رسول الله ﷺ .

وذكر الشيخ صفي الدين -رحمه الله تعالى- هذه الحكاية في كتابه، وذكرها الشيخ مسعود بن أبي المنصور في رسالته، وذكر مَن صحبه من المشايخ من أصحاب الشيخ أبي الفتح الواسطي، وذكر عنهم الغرائب والعجائب.

وذكر صحبته للشيخ عبد السلام القليبي(١) أحد أصحاب الشيخ أبي الفتح الواسطي، وأنه سكن في القاهرة في مكان غير معروف والخادم دخل له وقال: الشيخ عبد السلام على الباب، قال: فأذن له فدخل، فقال له الشيخ صفي الدين: كيف عرفت هذا المكان؟ فقال له: عندك نار؟ قال: فأحضرت حِمل حطب وجلفًا وأشعلناه في القاعة، ودخل الشيخ عبد السلام ووقف في النار إلى أن طفيت قال فاعتنقته فوجدته مثل الثلج.

السَّادة الأكابر

وذكر عن أصحاب الشيخ أبي الفتح كرامات، وحكى لي الشيخ عبد العزيز: إنَّا كنا نجلس بين يدي الشيخ أبي الفتح الواسطي وهو يتكلم وبين يديه من الأكابر جمع كثير -ربما ذكر لي سبعين رجلاً - يرد عليهم أحوال يتكلمون بكلام ويقول الشيخ: هذا الكلام له خمسة آلاف سنة ما تكلم به ثم ينشد:

غرسـتُ غُروسًا رُمْـتُ أَجـنِي ثمارَهـا   فـلاَ ذَنـبَ لي أنْ حُفظَـتْ ثمراتهـا

---

(١) هو الشيخ عبد السلام القليبي، صوفي شرفه شامخ، وعارف طوده راسخ، معدود من الأعيان، متميز على الأقران، أخذ عن العارف الرفاعي وغيره.

ومن كراماته أنه كان يعبر من بحر أبيار على حجر إذا فقد المعدية. وكان ينزل بثيابه تحت الماء، فيمشي في قعر البحر إلى البر الآخر فلا تبتل ثيابه.

ومن كلامه: من لم يقرأ كتب الشريعة والخلاف العالي من المذاهب، لا يُقتدي به في الطريق.

انظر: المنهل الصافي (٢٦٢/٧)، والكواكب (٥٢٥)، وكرامات الأولياء (٦٩/٢).

وجئـــتم سَـــعايا للمعـــاني طوالعًـــا ذروهـــا لتِسـعَى للمَعـــالي سـعاتُها

فكان يقول عن أولئك الأكابر: أنهم حنظلوا.

ومنهم: الشيخ عبد الله البلتاجي(١) والشيخ عبد السلام القليبي، والشيخ عبد الله الجبلي، والشيخ عبد الله بن حماد، والشيخ حسن الطندباي(٢)، والشيخ ضرغام(٣)، وساداتٌ لا أحصي عددَهم؛ لأنَّ دائرته واسعة، والذي صحبوه لا يُحْصون في كل مكان.

فسبحان مَن مَنَّ عليهم بهذا العطاء لأجله، كان أخذه عن ذلك الإمام الجامع سيدي أحمد بن الرفاعي(٤) الذي تقصر الألسن عن وصف ما أعطاه الله تعالى وما كان

---

(١) هو تلميذ سيدنا الرفاعي، أصله عجمي، ثم انتقل إلى بلدة بلتاج، فاستوطنها.
كان إمامًا في العلوم النقلية والكشفية، صاحب تصرف كبير، ونفس طاهرة، وهمة علية، وكان من ابتداء أمره عن الدنيا بمعزل، وإذا ضربت له سرادقها، لا يعرج عليها ولا ينزل.
وله كرامات منها أن الشيخ يوسف العجمي زاره، فضاعت حمارته، فقال له: حمارتي وإلا والله ما أزورك بعد اليوم، فطلع من القبر، وأتاه بها من البرية، وقال: إذا زرتنا قيّد حمارتك.
ومن كلامه: لا يبلغ الرجل رتبة الكلام حتى يعلم جميع شرائع الأنبياء، ثم يستخرجها من القرآن.
وقال: كل فقير له فراش للنوم، فهو والبهائم سواء.
وقال: من أكل من طعام الناس، اسودّ قلبه، ولا يفي عمله بجلائه، فالصادق الجازم من أكل من عمل يده. وانظر: طبقات الأولياء (٤٨٦)، طبقات السبكي (٨/٢١٣)، طبقات الشعراني (١/٢٠٢)، الكواكب (٥١٦).
(٢) هكذا في الأصل: وفي غير هذا الموضع: طنبدي.
(٣) له ذكر في الكواكب الدرية (٢/٢٥٣).
(٤) هو الشيخ الزاهد الكبير، أحد الأولياء المشاهير أبو العباس الرفاعي المغربي، شريف يمني، روض شرفه، وهما على العالم غيث سلفه، كان سيدًا جليلاً، صوفيًا عظيمًا نبيلاً، قدم أبوه إلى العراق، وسكن بأم عبيدة، بأرض البطائح وولد بها صاحب الترجمة سنة خمسمائة، ونشأ بها وتفقه على مذهب الشافعي ﷺ وكتب كتابه التنبيه ثم تصوف فجاهد نفسه حتى قهرها، وأعرض عما في أيدي الخليفة وأقبل على اشتغاله بالحقيقة.
وقد قال: التصوف الأخذ بالحقائق واليأس عما في أيدي الخلائق.
=

عليه من الأخلاق والصفات.

فمن ذلك ما ذكره أحمد بن عبد الرحمن بن يعقوب بن كرار في كتابه عن الثقاة، ومنهم ما رواه الشيخ صالح عمر الفارقي- -رحمه الله تعالى-- قال: كنت أنا ويعقوب بن كرار، قال: كنَّا ذات يوم جالسين بين يدي سيدي أحمد، فجرى حديث الأمم، فقلت: أي سيدي، ذكر بعض المفسرين أن الأممَ كلَّها ثمانون ألفَ أمةٍ فقال: أي ولدي صدقت، ذلك مبلغهم من العلم، أي ولدي، إنما هي ثمانمائة ألف أمة تأكل وتشرب وتروث وتنكح، لا يكون الرجل رجلاً حتى يعرفهم ويعرف كلامَهم وصفاتهم وقيامهم وأسماءهم وأرزاقهم.

وقال: أي يعقوب وأزيدك، ولا تستقر نطفة في فرج أنثى إلا ينظر ذلك الرجل إليها، قال له الشيخ يعقوب: أي شيخنا، هذا رب آخر، قال له سيدي أحمد قدس الله تعالى روحه: تأدَّب واستغفر الله تعالى العظيم فيما قلت، قال: أي سيدي، ألا كيف هذا الأمر العظيم؟ فقال: أي يعقوب، إنّ الله تعالى إذا أحب عبدًا صرفه في جميع ملكِه وأطلعه على علوم الغيب، فقال يعقوب: نريد لهذا دليلاً، فقال له سيدي أحمد: اعلم أي يعقوب أن الدليل قوله ﷺ عن ربه تعالى:

«أنا جليس من ذكرني ولا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به[1]**»** فإذا كان الله تعالى مع العبد كما يريد، صار صفةً من صفات الحق تعالى، ثم قال: أي يعقوب سبق لهم قوله تعالى: ﴿**يُحِبُّهُم وَيُحِبُّونَهُ**﴾ [المائدة:٥٤].

=

ومهر واشتهر وانتهت إليه الرياسة في علوم القوم وكشف شكل منازلاتهم، تخرج به خلق كثير وأحسنوا فيه الاعتقاد.

قال ابن خلكان وغيره: وهم الطائفة الرفاعية، ويقال لهم: الأحمدية والبطائحية، ولهم أحوال عجيبة في أكل الحيّات حيّة، والنزول إلى تنانير وهي تضرم نارًا، والدخول إلى الأفرنة ونيام أحدهم في جانب الفرن والخباز يخبز في الجانب الآخر، ويوقد لهم النار والعظيمة، ويقام السماع فيرقصون عليها بألحان فتنطفئ، ويركبون الأسود.

(١) سبق تخريجه.

فانظر رحمك الله تعالى إلى هذا العلم وهذا الكشف وهذه الإحاطة التي يستحيل أن يصل إليها أحد إلا بالله تعالى فيرى به ويسمع، كما أورد الدليل في ذلك، وأمثاله تحار العقول، هذا مع كونه قد ظهر بصفة الذل الذي ما رأى أحد قط أذل منه.

ومما رواه يعقوب بن كرار، وكان من كبار أصحابه، وكان صَحِبَ سيدي الشيخ منصور -قدس الله تعالى روحه ونوّر ضريحه-(١) وكان يراعي أوقات الصلاة والأذان سنينًا كثيرة، ما فاتته يومًا واحدًا تكبيرة الإحرام مع الجماعة أو في جماعة قال: كان أحد الأيام وقت الظهر وأنا قائم في المئذنة إذ نادى سيدي أحمد: أي يعقوب، فقلت: لبيك، فقال لي: انزل من أجل الله تعالى.

قال: فنزلت، وهو جالس في محرابه، وفوق يده ذرة أقلّ من البعوضة، لا يُعرف لها عضو، وهي خفية.

فقال لي: أي يعقوب، انظر إلى هذه البعوضة وضعف جلدها وخلقها وهوانها، فتأملتها، فقلت: أي سيدي ما أراد الله تعالى من هذه حتى خلقها؟ وإيش الحكمة في خلقها؟ فقال: أي يعقوب، تأدَّب، إن الله تعالى أراد بخلقها قوة الصنعة، وهي حكمة

---

(١) هو الشيخ منصور البطائحي، صوفي نير الوجه حسن الأخلاق، ذو سيرة سارت فعطرت بأريجها أرجاء الآفاق.

قال الشيخ الرفاعي: كان من أكابر الأولياء، وأرباب الأحوال. أخذ عن خلق، وانتفع به كثيرون.

ومن كلامه: من عرف الدنيا زهد فيها، ومن عرف الله آثر رضاه على هواه، ومن لم يعرف نفسه فهو في أعظم غرور. وقال صاحب الانتصار: كان مقامه الشَّريف مدثورًا فرأته امرأة في المنام يأمرها باستخراج قبره الشَّريف وتكرَّرَت الرؤيا، فحدَّثت المرأة أباها فحفر المكان، فظهر فيه قبر عليه صندوق وفيه مكتوب اسمه فوضع فوقه قبَّة، وبنى له مشهدًا ومسجدًا، وأرادوا أن يحفروا له بئرًا فرأته في المنام، فأخبرها بمحل بئره القديمة، فحفروا فظهرت لهم البئر، وبقي محلَّه الشَّريف مزارًا يقصده الكبار والصِّغار، يتبرّكون به ويرون بركاته، وقد جرّب إلا من زاره وتوسَّل إلى الله به في قضاء حاجته تُقضى سريعًا ﷺ ونفعنا ببركاته آمين، هذا والله أعلم. وانظر في ترجمته: طبقات الشعراني (١/١٣٤)، والمعزى للتادلي (٣٩٣)، وبهجة الأسرار (ص٢٦٥)، وقلائد الجواهر (ص٣٦٣)، والانتصار للأولياء الأخيار (ص٥٦٥)، والكواكب (٥٧٤)، خمستهم .

بالغة.

أي يعقوب، إن قال لك قائل إن الله تعالى خلق مخلوقًا أضعف جلدًا من هذه وأذلُّ منها . سوى حُميدة . فلا تصدق، يعني نفسه رضي الله عنه.

وفي قوله صار صفة من صفات الحق لعله أراد بخُلُق العبد كما أورد أبو طالب «**تخلّقوا بأخلاق الله تعالى**[1]» أي الاتصاف، أي بخلق العبد واتصف لأن الحق تعالى هو الكريم الحق حقيقةً، والعبد مندوب إلى الكرم، وكذلك الحلم والعفة والصفح والعطاء وترك المؤاخذة.

أمَّا كونه يسمع بالله تعالى ويبصر بالله تعالى لعلّه أراد بذلك استيلاء صفات الحق على صفات العبد حتى يمحى آثارَها؛ فإنَّ الحادث لا بقاء له مع القديم، فإذا استوى الحق على عبده ذهب ما من العبد وبقي ما من الله تعالى، فيبقى كالفخارة في ابتداء اليسارة لا حراك له من حيث نفسه، وإنما حراكه بما يحركه ولا اختيار ولا إرادة ولا علم ولا عمل:

﴿**فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً**﴾ [الأعراف:١٤٣].

فالعبد في هذه الحالة سطحًا لموارد الإرادات ولقاءً لمواقع الأقدار، فما رأى بنفسه ولا أبصر بنفسه ولا علم بنفسه ولا عمل بنفسه، وإنما هو بربه تبارك وتعالى.

وإن كان كل عبد في نفس الأمر كذلك كمثل هذا العبد؛ لأن هذا في محل التخصيص، ليس له من حيث نفسه إرادةً وعملاً وعلمًا وسمعًا وبصرًا، وإن كان يعلم أن ذلك من الله تعالى، لكنه علم كعلمه بوجود بغداد وما عداها من البلاد، وأخبار الناس وغيرها التي لا تقوم في نفسه مقام الوجدان ولا الذوق، كالعلم بمرارة الصبر من غير ذوقٍ فليس الذائق للصبر، كالمتكلم به، من حيث علمه بالسماعِ ولا الذائق لحلاوة

(١) ذكره المناوي في التعاريف (٥٦٤/١)، وسيدي علي وفا في مفتاح السور (ص١٤٩)، وفي المسامع قائلاً: وجود إمام هداك هو ربك وإلهك وسيدك ومولاك، فالقائل: «تخلَّقوا بأخلاق ربكم»، يريد تخلَّقوا بأخلاق وجودي، ولما كان من أخلاقه أن تغلب رحمته غضبه، وأن يفرح بتوبة من تاب إليه، ويشكر على القيام بما علمه وبيَّنه، ومكَّن منه، وعلى التودُّد إليه ببعض ما مَنَّ به، ونحو هذا وصف الله بذلك لعباده؛ ليتخلقوا فيتحققوا بوداده.

العسل كالعالم به من حيث السماعِ أو الرؤيةِ، ولا العالم بالنار أو المسمِّي لها كالذي تحرقه النار، وهو في أَلَمِها.

فلو كان ذلك كذلك لكان كل من قال النار أو سمّاها احترق فمه، أو مَن قال: السكرُ استغنى عن شربه وكذلك الماء والطعام، وكان الجائع يقول ما يختار من الطعام فيشبع ويستغني به، بل يجدون في أنفسهم أنَّ لهم أفعالاً وأعمالاً وأقوالاً وأحوالاً، وينسبون ذلك لأنفسهم ويطلبون الجزاء على ذلك من ربهم!

ومن المخلوقين إذا أجري على أيديهم نفعَهم، وكذلك إذا فعلوا شيئًا وإذا صدر من غيرهم في حقهم كلام مؤلم أو أذى نسبوا ذلك الفعل لمن صدر منه، وعاقبوه عليه، وفعلوا به أكثر مِن فعله.

وإن علموا أنَّ الله تعالى هو الذي قدَّره وأراده وأجراه على يده فلا يقوم ذلك في نفوسهم مقام الذوق والوجدان، ولا يرجعون إلى ذلك، وإن كانوا يجعلونه حجةً لأنفسهم، إذا بدا منهم نقيصة أو معصية نسبوها إلى الله تعالى بالإرادة والتقدير، وخرجوا عن الوصف الذي طلبوه من غيرهم بالمؤاخذة فينسبون لله تعالى ما يبدو من أنفسهم من النقائص، ويجعلون ذلك حجة لهم، وينسبون إلى غيرهم ما يجريه الله تعالى على أيديهم ويؤاخذونهم، وهذا غاية الظلم، ولذلك قامت صفة العدل ﴿**وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا**﴾ [الشورى:٤٠].

لو كانوا كالمخصوصين الذين يرون بالله تعالى، ويسمعون بالله تعالى، ويغيبون عن صفات نفوسهم بشهود الفعال فيهم لم يجرِ على جوارحهم ما يخالف الحق، ولكانوا كما وردَ: «**به يسمعون، وبه يبصرون، وبه يعلمون**[1]» فسبحان من خصَّص أولياءه بمحبته واختارهم لحضرته، ومعرفته وآتاهم من فضله ما لا تصل إليه العلوم والفهوم ﴿**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لاَتُحْصُوهَا**﴾ [إبراهيم:٣٤].

ولقد أخبرني فقير عن فقير سأل سيدي أحمد -قدس الله تعالى روحه- وكان مريدًا له، فقال: يا سيدي أنت القطب، فقال له: نزّه شيخك عن القطبية، فقال له: يا

---

(١) تقدم تخريجه بنحوه.

سيدي أنت الغوث، فقال له: نزّه شيخك عن الغوثية.

وهذا دليل على أنه تعدى المقامات والأطوار وفات الليل والنهار، ولا القطبية ولا الغوثية مقام معلوم، ومن كان مع الله تعالى وبالله تعالى، فلا يُعلم له مقام، وإن كان له في كل مقام مقام، هذا مع ذلِّه وما وصفَ به نفسه وما ظهر به وما كان يُؤْذَي فلا يجازِي إلا بالإحسان ويظهر الذل والمسكنة.

ومما حكاه أو رواه الشيخ سعيد وكان من أصحاب سيدي أحمد -رضي الله تعالى عنهما- وكان صاحب قدم ومجاهدة عظيمة، قال: أخبرني سيدي أحمد -قدس الله تعالى روحه- في ليلة من الليالي بعد العشاء الآخرة، وسار قدامي ومشيت خلفه، حتى وصلنا إلى بستان بدوره، فلما وصلنا إلى ذلك الموضع- وكان مكان عال به شيء يتصل به- فقال لي: أي ولدي، قف هنا حتى أرجع إليك، قال: فوقفت، ثم مضى سيدي أحمد يسبغ الوضوء، وبقي زمانًا كبيرًا، وعجزت عن انتظاره، فتقدمت لأكشف خبره فلم أجده، وإنَّما وجدت ثيابه ملقاة على وجه الأرض بلا جسد، ووجدت هناك ماء قليل ملقى على وجه الأرض..

قال: فانتُزع باطني وطار لُبي وارتعدت فرائصي، ورجعت إلى موضعي وأنا مرعوب من ذلك، فبقيت ساعةً زمانيةً متفكرًا في حاله، وإذا به قد أقبل، فلما وصل عندي سبقتني العَبرةُ وبكيتُ، وقلت له: أي سيدي، فُزِعتُ عليك لأجل عاقتك، فرحت أبصرك فلم أجدك، ووجدت ثيابك ملقاةً على الأرض ولا جسد فيها ولا حولها أحد، ووجدت عندها قليلَ ماءٍ يضيءُ.

فقال لي لما سمع كلامي: أي ولدي، صدقت، فقلت له: أي سيدي، أقسمتُ عليك بالعزيز سبحانه وتعالى، و سيدي محمد المصطفى ﷺ وبالشيخ قدس الله تعالى روحه، إلا ما أخبرتني أين كنت؟ وأي شيء ذلك الماء الذي أبصرته؟

فقال لي: أي ولدي، وما الذي أحوجك إلى هذا؟ أي ولدي سعيد، اكتم عني حتى أخبرك، فقلت: نعم، فقال: أنا ذلك الماء الذي رأيته، أي ولدي، نظر إليَّ العزيز سبحانه نظرةً بعين القهر فذبت وصرت كما رأيتني كذوبان الرصاص، ثم بعد ذلك نظر إليّ بعين الرحمة واللطف فصيّرني بكرمه بشرًا سويًا، أي سعيد، وحق العزيز سبحانه

وتعالى لولا نظر إليّ بعين الرحمة لما رجعت إليكم أبدًا.

وقد صنّف الشيخ أحمد بن عبد الرحمن بن يعقوب كتابًا في صفات سيدي الشيخ أحمد- قدس الله تعالى روحه- فيه العجائب والغرائب، وصفاته كثيرة، وإنَّما اقتصرنا وقصرنا عن الكلام فيه؛ لأنَّ المقصود مَنْ هو الآن موجود، أو مَنْ هو في زماننا مِمَّن رأيناه ومات، أو مَنْ هو حي، أو مَنْ بلغنا عمَّنْ كان قبله لئلاّ تتعدى المسافة، وإن كان الراوي لنا عن الشيخ أبي الفتح الشيخ عبد العزيز، والشيخ أبو الفتح، مريد سيدي أحمد رضي الله عنه فليس الوقت ببعيد.

ومما رواه أحد الفقراء أنه كان في مجلس سيدي أبي محمد بن عبد البصري -قدس الله تعالى روحه ونوّر ضريحه-(١) وسمع الشيخ يقول: إنّ لله تعالى خمسمائة ألف اسم، قال: فأسرَّها الفقير في نفسه إلى أن وصل إلى سيدي أحمد، فحدثه بما سمع من الشيخ أبي محمد، فقال: أي ولدي، صدق الشيخ أبو محمد بن عبد البصري، ذلك مبلغه من العلم، أي ولدي، إنّ للحقِّ سبحانه وتعالى، بعدد جميع ما خلق من الأمم كلها، هل تعلم كم هي؟

ونبات الأرض وأشجارها وورقها وثمارها وأزهارها، له بعدد كل شيء منها، حتى القميص إذا تمزّق صار لكل خيط لسان يسبّح الله تعالى، حتى الطيور تسبّح الله تعالى على اختلاف اللغات والأصوات على عدد أجناسها وأصواتها، فهل تعلم أي ولدي كم هي؟

ثم إنّ الطير الواحد من الأجناس يسبّح الله تعالى بلسانٍ واحدٍ، فإذا مات وفارق ريشُه جسدَه صار من كل ريشة لسان يسبّح الله تعالى، فهل تعلم كم هي؟

حتى الملائكة لكل منهم لسان أو عشرون أو مائة لسان أو ألف لسان يسبح الله تعالى بها باختلاف اللغات فهل تعلم كم هي؟

(١) كان من أعيان العراق والعلماء العارفين والأجلاء المقربين صاحب الكرامات الظاهرة والأحوال الباهرة، تخرج بصحبته جماعة من أهل الأحوال وقالوا بإرادته، وكان العلماء والمشايخ يعظمونه ويبجلونه ويحترمونه ويرجعون إلى قوله، صحب الشيخ عبد القادر.. وانظر: قلائد الجواهر للتاذفي (ص٣٣٨)، وخلاصة المفاخر لليافعي (ص٩٧)، .

فقال له الفقير: أي سيدي نريد لذلك دليلاً فقال: أي ولدي، الدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً**﴾ [الإسراء: ٤٤].

وحكى الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- عن فقير كان صَحِبَ الشيخ حسن الطندباي، والشيخ من أصحاب سيدي أبي الفتح الواسطي، قال: كان الشتاء وكنت صحبةَ الشيخ، فدخلنا في مكان أو مخزن وقفل علينا وكان الشيخ عليه ثوب واحدٌ والبرد شديد، والشيخ جالس مستندًا إلى حائط أو ركن وكان عليّ ثوبان جديدان، عملتهما لي أمي، وكان أحدهما أجدُّ من الآخر، فقلت في نفسي أدفع للشيخ الثوب الواحد، فلم أسمح إلا بالذي هو دون الجديد.

فخلعته إلى أن وصل إلى رأسي فلم تسمح نفسي به، فرجعت أدخلته في عنقي ولبسته ورقدت.

فلما كان الصبح قمت فلم أجده -يعني الثوب- والباب مقفول والشيخ جالس على حالته قال: فقمت واستغفرت الله تعالى، فقال الشيخ: ما بالك؟ فقلت: يا سيدي، أنا أستغفر الله تعالى، فمسك أذني وفركها وقال: لا ترجع تنوي نيةً وترجع عنها فقلت: يا سيدي أين الثوب؟ فقال: أعدمه الله تعالى.

ومما حكاه الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- قال: أخبرني عمرو المجنون وكان من أصحاب الشيخ أبي الفتح،قال: كنت واقفًا أسكب الماء على الشيخ عبد الله البلتاجي وهو يتوضأ، وإذا بشخص طائر في الهواء، فقلت له: ما أقل أدبكْ! تطير على رأس البلتاجي؟ قال الشيخ: ما بالك يا عمرو؟ فقلت: شخص قليل العقل طائر في الهواء، فرفع رأسه ونظر إليه.

فلمَّا كان بعد أيام، قال لي الشيخ: يا عمرو قلت: لبيك قال: رُحْ إلى المحلة فإنّ الطنبعا واليها، وذلك الشخص الذي رأيته طائرًا في الهواء قد صار رقّاصًا بين يديه، قال عمرو: فرحت إلى المحلّة لأجده واقفًا مشدودَ الوسط والعصا بيده فقلت له: إيش هذا وإيش ذلك؟ فقال لي: سَمَعُكُم يا فقراء، قلت له: لا والله، بل أسأت أدبَك على أولياء الله تعالى.

من مناقب الشيخ عبد العزيز المنوفي

وذكرُ مناقب الشيخ لا يكاد ينحصر وإنما أذكر منها ما يحضرني مما سمعته أو رأيته، وقد ذكر الشيخ صفي الدين بن أبي المنصور -رحمه الله تعالى- عنهم في اجتماعه بهم العجائب والغرائب، وذكر الشيخ عبد العزيز في طول صحبته لسيدي الشيخ أبي الفتح وبعد وفاته عنهم الغرائب والعجائب، وذكر عن غيرهم فإنّه أسنَّ وعمَّر، -رحمه الله تعالى-.

الشيخ محمد المكشوف

ومِمَّا ذكره عن الشيخ محمد المكشوف ذكر أنّه كان مبسوطًا كثير الخلاعة ومع ذلك كان له باطنٌ عجيبٌ وأحوال خارقة، أخبر عنه الشيخ عبد العزيز أنَّ فقيرًا أخذ عكاز الشيخ محمد المكشوف فبحث به من نخلة وسخًا، فقال له: الشيخ محمد أنت تسيء عليّ الأدب، ما أظنك إلا تعمى.

قال الشيخ عبد العزيز: فعمي ذلك الفقير، ولقد رأيته مرةً مع العميان الذين يطلبون لله تعالى فليس، فقلت للشيخ محمد: إيش هذا؟ -أو كلمة هذا معناها من حيث فعله مع ذلك الفقير- فقال: إيش لي في هذا؟ فليت ذلك الفقير عمي وبقي عليه فقره، بل انسلخ من ذلك وبقي من جملة المكذبين.

فنسأل الله تعالى العافية وحسن السابقة والخاتمة والأدب مع أوليائه وكل من ينسب إليه بمحمد وآله وصحبه ﷺ.

وحكى لي الشيخ عبد العزيز عن الشيخ محمد المكشوف أيضًا قال: كانت لي حاجة ونحن على ساحل البحر نتوضأ لصلاة الجمعة، وكانت في ذلك البرّ

-وربما قال: كنا بالمحلة؛ فإنّه كان يذكره في المحلة- فقلت للشيخ محمد عنها، على أنه إذا صلى الجمعة أو بعد ذلك قال: فأنا أكلمه، والتفت لأجده من ذلك الجانب وصار البحر بيني وبينه!

فبينما أنا أصلي الجمعة وإذا أنا أنظره إلى جانبي وأخرج إلي الحاجة من كمّه! هذا

مع كونه كان له بسطٌ عجيبٌ، لا يعتقد مَن يراه أو يشهد ذلك منه أنه من هذا القبيل أصلاً.

ومِمَّا حكاه لي الشيخ عبد العزيز قال ورد كاشف إلى المحلة، وحصل للناس من ذلك شدة عظيمة، فقال الشيخ محمد: تعطوني شيئًا -وربما ذكر عشرةَ دنانير أو شيئًا غاب عني- وأنا أخلّي لكم هذا الكاشف يروح، فقالوا: نعم.

فدخل الشيخ محمد المكشوف إلى مجلس الكاشف وعنده الوالي -وربما قال: الحاكم والناظر وغير ذلك- والمجلس حفل، فمشى الشيخ محمد المكشوف إلى أن وصل إلى الكاشف وصفعه صفعةً عظيمةً وربما أطار عمامته، فقالوا: امسكوه، افعلوا به، ووقعت ضجة فقال الكاشف: والله ما يكلم هذا أحد، هذه القضية معمولة.. ورمى خيامه وسافر من ساعته.

فانظر إلى هذه الأحوال الغريبة هذا، مع كونه كان يبدو منه من البسط الذي لا يزال الكلام فيه، وإنَّما مقاصدنا في التشويق إلى سلوك هذا الطريق والأدب مع أهلها وحسن الظن بهم والخوف مِمَّا يظهر عنهم في الظاهر من بسط أو غيره، وتعتقد أنت أنَّه مثل حالك في بسطك، فقد يكون ذلك تسترًا عن حاله أو تجريبًا لظاهره.

فمن بسطه ما ذكره الشيخ عبد العزيز أنّ والده تزوج امرأةً غير أمه، وكان يراعي حق والده فيما يجوز له فعله، وكانت والدته تغار كعادة النساء، فيبقى الشيخ محمد المكشوف يعمل على راحة والده في محبته لزوجته، فيما يعطيها ويريد تمشية الحال، فاطّلعت والدته على ذلك فعزَّ عليها، فجعل الشيخ محمد يسليها بأنواع من البسط، حتى قال شيئًا لوالدته -ونحن نكنّي عنه- بأن قال لها: تعالي نقيس العضو بالعضو، وأيهما كان أكبر تُعطى صاحبته على قدره، فاستحيت أمه وما رجعت تتكلم في ذلك.

ومما حكاه الشيخ عبد العزيز عن الشيخ محمد المكشوف أيضًا من البسط أنّه كان زرع زرعًا، وكان لقاضي البلد بغلةٌ يُطلقها تنزل ترعى زرع الشيخ محمد فيطردها، وتعود كلّ وقت، وعجز عن منعها، فاجتمع بالقاضي وقال له عن أمر البغلة وقال له: احفظها، وإلا فإني إذا رأيت زوجتك تروح إلى الحمام، أحملها وأمسكها وأدخلها بيتي ويقول الناس ما يقولوا.

فقال له القاضي: لا تفعل، وأقسم عليه، وما رجعت البغلة تصل إلى زرعه بعد

ذلك.

فانظر يا أخي -رحمك الله تعالى- إلى هذه الحالة الظاهرة وتلك الحالات الباطنة، فلزوم الأدب مع هؤلاء القوم في جميع حركاتهم وسكناتهم وبسطهم وقبضهم ويقظتهم ومنامهم وموتهم وحياتهم وسماعهم ورقصهم وبعدهم وقربهم وسفرهم وحضورهم وغيبتهم وشهودهم من أعظم الواجبات؛ إذ ذلك هو الأدب مع الله تعالى، لأن أدبك مع النبي والولي هو حقيقة أدبك مع الله تعالى، مع شهود من يُفعل الأدب منه.

وأدبُك مع الله تعالى من غير رؤية نبيه أو وليه أو من ينسب إليه أدب عَبْر، يرفعُ الوسائطَ والحجب القلبية بالكلية، وذلك لا يستمر على الدوام إلا للأفراد والخواص، بقوة الحضور والمراقبة في الشهود.

ومتى يكون العبد على ذلك في كلّ أحواله؟ فلو غفل في ذلك المقام عن ملاحظة الأدب سقط، بل لو انفرد بذلك الحال ولم يشهد الأدب بما شرعه الله تعالى في أنبيائه ورسله ومن اختصّه من خلقه لكان ذلك نقصًا بالنسبة إلى كمال الشهود للأدب في الحالين، فالآن الكمال في شهود الأدب ظاهر وباطن، وأن يكون ذلك وصفًا لازمًا وذوقًا وجدانيًا فيه حتى يكون قوله وفعله واحدًا، وقد سبق القول لتحقّقه بالأصل، وقد سبق الفعلُ القولَ لكونه ترجمانًا عنه ودليلاً عليه، وقد يكونان قولاً وفعلاً في وقت وفي حال واحدٍ.. فافهم ذلك.

أوصاف المتصوفة

فمن اتصاف هذه الطائفة في أقوالهم وأفعالهم وسماعهم وكلامهم وأخلاقهم ما حكاه الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- قال: كنّا في سماعٍ، فغنّي البيتَ المشهور:

وكان هذا قابلاً في محبَّتكِم   سعيًا على الرأسِ لا سعيًا على القدمِ

قال: فصاح فقير وانقلب، وجعل رأسه عوضًا عن قدميه، وجعل يدق بها الأرض، ويرقص ورجلاه في الهواء عوضًا عن رأسه..

وقد قلت:

أسْـعَى بجفْــنِي وعَيــنِي في محبَّــتِكم واجعــلُ الــرأسَ مــنِّي موضــعَ القــدمِ
ولسْتُ أُنصـفُ فيمـا قـد أتيـتُ بـه لأنَّـــني بكـــم الموجـــودُ مـــن عـــدمِ
إنِّي أشـــحُّ علـــى عيـــني بـــرؤيتِكم والشحُّ عندي بكُم من أعظمِ الكرمِ

فانظر يا أخي رحمك الله تعالى، إلى هذه الحالة وهذا الاتّصاف.

ومن ذلك ما حدثني به الصاحب فخر الدين بن الخليلي، والأمير نجم الدين بن الواسطي، عن الشيخ عمر بن عبد الحميد قال: كنّا في –بلبيس- في سماع، وكان الشيخ عمر جالسًا إلى جانبي، فقرأ قارئ قول الله تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾ [آل عمران:١٨٥].

وقام السُّمَّاعُ والشيخ جالس، فحركناه فوجدناه قد مات.

وحكى لي هذه أيضًا الشيخ عبد العزيز، وزاد عليه أنه قام وتوضأ وجلس فمات، وأنهم حفروا له في أماكن كثيرة فينطبق القبر ولا يثبت، حتى حفروا له في مكان بستان كان للصاحب بهاء الدين فثبت القبر، فسيروا إلى الصاحب يستشيرونه في ذلك، فأخرج الصاحب خط الشيخ أنه يدفن عنده.

وكان سبب ذلك ما حكاه لي الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- لأنَّ الشيخ عمر كان يمشي في حوائج المسلمين كثيرًا، وأنَّه حضر إلى الصاحب في حاجةٍ فقال له الصاحب: ما أقدر أقضيها لك حتى أشاور السلطان، فقال: إن عاهدتني على أنك تدفن عندي قضيتها ولا أشاور، فعاهده وأعطاه خطه بذلك.

وكان الصاحب له قصد جميل ومحبة للفقراء ودفن في تربته جماعة من الصالحين، وإنَّما ذكرنا هذه الحكاية للاتصاف بسماع القول فحين سمع قوله تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ** ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وقع الاتّصاف له بذلك.

ومن مات في السماع كما حكى لي فقير بمدينة قوص يسمّى أحمد السراج الإسكندرانيّ وقد قلت:

بقــاءُ نفْســي في يــومِ النَّــوى عجــبٌ لأنَّ مـــوتِي مـــن بعـــضِ الـــذي يجِـــبُ
ومــا بقيــتُ ونفســي لَســتُ أملِكُهــا ولـــيس لِي في حيـــاتِي بعـــدَهم إربُ

ومـدَّعي الحـبِّ قبـلَ المـوتِ مـتهمٌ دعـواه إن لم يمـتْ في حبِّـه كـذبُ

وأعرف جماعة ممن تقدم من الفقراء ماتوا في السماع والمواعظ يطول ذكرهم، وإنما قصدنا أهل زماننا.

والاتصاف بالأقوال والأفعال من عوالم البرازخ والدار الأخروية، وكلُّ ما هو خرق عادة هنا هو هناك عادة، والذي يقوي الدليل للولاية، ومَن تخرق العادة على يده، لأنَّ خرق العادة من أحوال أهل الجنة، لأنها عادتهم في مآكلهم ومشاربهم ومناكحم وشهواتهم، حتى أنّ الشخص منهم يخطر له الخطرة في الشهوات، فحين تخطر له يجدها عنده من غير كلفة.

وكذلك سمعهم وبصرهم؛ إذ يشهد كل واحد منهم جميع المستحسنات على اختلاف أنواعها وأجناسها بحسب ما أعطاه الله تعالى من الرتبة في تلك الدار، والتذاذه بشهوده لتلك المستحسنات بتلك النظرة، ويعقبها النظرة الثانية: الاستحقاقة بزيادة على النظرة الأولى:، والأولى: باقية في الاستحسان واللذة والنظرة الأولى: باقية، وترد النظرة الثالثة: بزيادة على الثانية:، ولذة النظرة الثانية: والاستحسان باقٍ، هكذا إلى ما لا نهاية له.

وكذلك الشمُّ كلَّما نشق رائحةً وردت عليه رائحةٌ أطيب منها، فالأولى: باقية والثانية: واردة، والثانية: باقية والثالثة: واردة، وهكذا إلى ما لا نهاية له.

وكذلك لذّة السّماع في طيب النغمات والألحان وحسن الأصوات، كلّما تنعم بسماع تلك النغمات والأصوات ورد عليه ما هو أطيب منها والأولى: باقية إلى ما لا نهاية له.

وكذلك لذة النكاح، كلّما تنعم بلذة من المنكوحات المستحسنات على أطيب اللذات، ورد عليه ما هو أطيب من الأولى: والأولى: باقية إلى ما لا نهاية له.

وكذلك في جميع الحواس الباطنة والظاهرة، مثل الجوارح والجوانح الحسيّات والمعنويّات الكليات والجزئيات إلى ما لا نهاية له.

وهكذا حال أهل الجنان نعَّمنا الله تعالى وإيَّاكم في دار كرامته ومحل رضوانه وأمانه في مقعد صدقه وجنات عدنه وعوالمه الباقية كيف شاء إنه أكرم الأكرمين.

وبالعكس منه أحوال أهل النيران، أعاذنا الله تعالى وإيَّاكم من عذابه في كل الأحوال ومع كل الأحوال وعلى كل الأحوال، فإنَّه متى تألَّم من عذابٍ ورد عليه ما هو أشدُّ منه، والأول :باقٍ على ما تقدم من ذلك المثال الأول.

فأحوال أهل الدارين أحوالُ اتّصاف، فحيث تسمع أو ترى أو تشم تجد ذلك، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿**سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ**﴾ [الأنعام:١٣٩].

محبة الصّحابة

ومما رأيته في الرؤيا أنَّني كنت أعرف شخصًا -وكان رجلاً عالما وعاملاً ومتواضعًا- ومات، فرأيته بعد موته في المنام، فقلت له: ما فعل الله تعالى بك؟ فسكت، فألححت عليه في السؤال وقلت له: لا بد وأن تخبرني فقال: لقيت منه وحائش. فحين قال ذلك اسودَّ من فَرْقِهِ إلى قَدمِهِ، واتّصف بصفة قوله، وقام زبانيٌّ وقف مقابلَه، فحصل عندي من ذلك شيء!.

وقلت: أليس دين الإسلام حقٌّ ونحن على الحق؟.

فقال: نعم فقلت له: فما صيَّرك أو أصابك حتى جرى لك ذلك؟ فسكت، فقلت للزبانيِّ: ازجرْهُ حتى يخبرني بحقيقة حاله، -وكان زبانيًا قصيرًا، فإنَّ فيهم قصارًا وطوالاً بحسب صفات الأعمال- فنظر إليه الزبانيُّ نظرةً فتعذَّبَ بنظرة الزبانيِّ إليه، وعاد لسان حاله أفصح من لسان مقاله، ففهمت منه ما فهمت.

فقلت له: لعلك إنما أتيت بخلاف السنة في المعتقدات، وورد عليَّ عوالمُ المعتقدات، ولم أفهم منه غير التقديم في خلاف السّنة في الصحابة، وكان من بلد ينسب إليها الرفض، ولا فهمت غير التقديم.

فحين وجدت ذلك منه انتُزعت الرحمة عليه من قلبي، وصار عوضها اللذة بعذابه، كما يلتذ قاتل الحية والعقرب بقتلها، فقلت لذلك الزبانيّ: خذه ورُح به إلى مالك وقل له: يعذبه؛ فإن بيني وبينه صحبة. فأخذه ومضى به إلى جهنم، وأنا أنظر إليه.

وإنَّما ذكرنا هذه الحكاية عن عوالم البرزخ لمعرفة الاتّصاف وأنّه من عوالم تلك العالم التي لا يقع فيه الارتياب لقوله تعالى: ﴿**لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ**

غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

وفيها فائدة وهي اتّباع السُّنةَ في محبةِ أصحابِ رسول الله ﷺ وتقديم من قدَّمه رسول الله ﷺ وألاّ يرى في أحد منهم نقصًا، أعاذنا الله تعالى وإيّاكم من عذابه.

وأخذ يحكي لي الشيخ محب الدين أحمد الطبري -رحمه الله تعالى- شيخ الحرمين الشريفين ومفتي البلد الحرام قال: كنا عند أبي نمى صاحب مكة، وعنده ابن أبي حسنة شيخ اليزيديين، فقال لي الشريف: يا شيخ محب الدين قلت: لبيك قال: بأي طريق قدمتم أبا بكر على عليّ مع غزارة علمه وقرابته من رسول الله ﷺ؟ قلت له: يا مولاي السيد، ما لنا في هذا شيء عن جدك رسول الله ﷺ قال: «**اقفلوا وأغلقوا عنّي كلَّ خوخة في المسجد إلا خوخة أبي بكر**[١]».

وقال ﷺ: «**مُروا أبا بكر فليصلِّ بالناس**[٢]».

وقرأت هذا الحديث أنا وهذا الشيخ -يعني ابن أبي حسنة- على شيخ واحد، وقبض رسول الله ﷺ وهو عنه راضٍ فقال الصحابة: مَن رضيه رسول الله ﷺ لديننا رضيناه لدنيانا.

قال: إيهٍ، فعمر؟ قلت: وما لنا في الآخر شيء؛ فإنَّ أبا بكر عند وفاته اختاره للمسلمين.

قال: إيهٍ، فعثمان؟ قلت: وما لنا في الآخر شيء؛ فإنَّ عمر ﷺ جعلها شورى في الستة من أصحاب رسول الله ﷺ الذين مات عنهم راضٍ ﷺ فقدَّم عثمان.

قال: إيهٍ، فمعاوية؟ فقال ابن أبي حسنة: كأبي بكر يا شيخ محب الدين، تقول مجتهد أي والله مجتهد وما ترضى أن أقول مجتهد، قال الشريف: إيهٍ، ومجتهد، فإذا وقع القتال تقاتل مع مَن؟ قلت: مع عليّ فقال: جزاك الله خيرًا.

فانظر لهذا الكلام من هذا الرجل العالم الذي لا يخرج عن التبعية من غير ميل ولا حيف ولا اختيار من نفسه فنحن نحبُّ الله تعالى ونحبُّ رسول الله ﷺ ونحبُّ الصحابة بحبِّ رسول الله ﷺ ولا نفرق بين أحد منهم ونسأل الله تعالى أن يجعلنا من المحبِّين لهم والتابعين لسبيلهم والمهتدين بهداهم والتابعين لسنن نبيه ﷺ ونعوذ بالله تعالى من الزيغ

---

(١) رواه البخاري (١/١٧٨)، ومسلم (٤/١٨٥٤).
(٢) رواه البخاري (١/٢٤٠)، ومسلم (١/٣١٣).

والابتداع إنّه أكرم الأكرمين.

وأخبرني الشيخ محب الدين الطبري -رحمه الله تعالى- عن شمس الدين صواب المكي قال: كان شيخُ الخدام بمدينة رسول الله ﷺ رجلاً صالحًا قال: كان لي عند الأمير صاحب المدينة من يطلعني على أمسّ حاجتي إليه أوما أحتاج إليه، فلمّا كان ذات يوم وهو قد أتى، فأخبرني أن أناسًا جاءوا وأعطوا الأمير دنانير على أن يمكّنهم من إخراج أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما، من حجرة رسول الله ﷺ قال: فتألمت لذلك تألُّمًا شديدًا قال: فبينما أنا كذلك، وإذا الأمير أرسل طلبني، فمضيت إليه فقال لي: يا صواب فقلت: لبيك قال لي: تجيء إليك الليلة أقوام بعد العشاء الآخرة إلى الحرم، فمكّنهم مما يريدونه فقلت: السمع والطاعة، وخرجت من عنده، وجئت إلى الحرم، وقعدت أبكي طول نهاري لا تجف لي دمعة من خلف الحجرة الشريفة إلى الليل.

فلمَّا كان الليل وغلِّقت الأبواب إلا وقد جاء القوم فطرقوا الباب ففتحت لهم، فدخلوا وأنا أعدُّهم واحدًا واحدًا، أربعين نفسًا، ومعهم المساحي والمكاتل وآلة الحفر والشموع، قال: فوالله ما وصلوا الروضة الشريفة إلا والأرض خسفت بهم وابتلعتهم عن آخرهم، فلمَّا أصبحنا وطلع النهار طلبني الأمير وقال: ما فعل ضيوفك؟ وما فعل القوم؟ فقلت له: إن الأرض خسفت بهم عن آخرهم وقم فانظر، هل ترى لهم أثرًا؟ فقال: هذا موضع الحديث، وإن ظهر كان برأسك، فأمسكت عن ذلك.. ولعله إنما ذكر ذلك بعد موت الأمير.

ومما نقله الشيخ محبُّ الدين عن الشيخ عمر بن الراغب وعن إبراهيم السئولي عن الشيخ عمر بن الراغب قال: كنت بالمدينة -أو قال: كان فقير بالمدينة- فجاءني فقراء الشيعة أيامَ الموسم، وقد خرجوا إلى قُبة العباس، فقال لي الفقراء: نشْتَهي أن تطلب لنا شيئًا لأجل أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما، وألزموني بذلك، قال: فخرجت -أو قال: خرج الفقير، وتارَة يقول: خرج الفقير وتارَة فخرجت- فجئت القبة وهم مجتمعون وقلت: قد ورد فقراء، وهم يطلبون شيئًا لأجل أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما.

فقام منهم شيخ فقال: اجلس، فجلست حتى فرغوا فقال لي: قم فقمت ومشيت معه إلى أن أتى إلى علوّ، فأطلعني ذلك العلوّ وأغلق الباب.

وإذا عبدان أسودان فمسكاني وضرباني ضربًا شديدًا وقطعا لساني، فقال لي: ادعُ أبا بكر وعمر يخلصانك، وحملوني وطرحوني على الطريق، وقد توهموا موتي.

قال: وجاء السَّحر، فوجدت فيّ رمقًا، فقمت ودخلت على رسول الله ﷺ وشكوت له حالي، قال: فأخذتني سِنَةٌ، فرأيت رسول الله ﷺ -فربَّما قال: أُتِيَ بطشت- فغسل وجهي، ووضع رسول الله ﷺ لساني في فمي، فاستيقظت ووجدت لساني قد عاد إليَّ ولم يبقَ فيّ ألم.

فكان يروي تارَةً عن نفسه فيقول: قال الفقير وتارةً غير ذلك، فلما كان في السنة الآتية جاء الفقراء الذين جاءوا تلك السنة، وأثقلوا على الفقير حتى قام وخرج معهم إلى قُبّة العباس، فقال: هؤلاء الفقراء يسألون شيئًا لأجل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فقام شاب فقال: اجلس، فجلس الفقير إلى أن قضوا وظيفتهم، ثم قام وتبعه الفقير حتى وصل العلوَّ بعينه. قال: فأخذتني منه هيبةٌ وخفت ثم طلعت، فلمَّا قعدت أمر بحويجة طعام فأحضرها وقال: كُل، فبقيت آكل وهو يلتفت إليَّ وقال: أتاني في العام الماضي شخص كهيئتك وأظنك هو فقلت له: أنا هو، فقال لي: أخبرني كيف كان؟ - أو قال كلام يقتضي ذلك- فعرَّفته وقلت له: فما فعل أبوك؟ فقال: الله يعلم أنه طلع مع أمنا وقعد على فراشها، وإذا هو قد صرخ صرخةً عظيمةً وتحول خنزيرًا من ساعته، فأشعنا أنه مات وذبحنا كبشًا وكفَّناه ودفنَّاه وتبنا إلى الله تعالى من مذهبهم، ونحن على مذهبكم، وهذه والدتي، أشتهي أن تسمع كلامها.

فقلت: أعفني من ذلك، فقال: لابد أن تسمع الحكاية منها من وراء الستارة.

قال: فأحضرها فأخبرت كما أخبر، وأخرج أباه من خزانة وفي رقبته سلسلة وهو في صورة خنزير وهو يبكي.

فانظر يا أخي إلى هذه الحكاية ما أثرها والتي قبلها.

حكايات أخرى

وذكر أيضًا حكايات أخرى سكتُّ عنها لبعد عهدها، وإنما ذلك ما أخبر به الشيخ محبُّ الدين عمَّن رآه وأخبر عنه.

ومن العجائب كيف خصَّ الله تعالى من مسخه بصفة الخنازير والقردة؟

وبلغني أنَّ الله تعالى مسخ أقوامًا حجارة، وكذلك أموالهم وثمراتهم، وأخبرني مَن رأى بعض ذلك وربما ذلك معنى طمس الأموال.

وقد حكى لي الشيخ عمر البغدادي -رحمه الله تعالى- عن الشيخ سراج الدين ابن قاضي عيذاب قال: دخلت عليه وعنده فقير وربما كان عندهما شيء يأكلانه فقال لي: تعالَ كل مع هذا الفقير وهذا الرجل الصالح، فأكلت معه، فلمّا قام قال لي: هذا الذي قُطِعَ لسانُه وردَّه عليه رسول الله ﷺ.

وغاب عني هل حكى الحكاية بطولها كما حكاها الشيخ محب الدين أو لا؟

وحكى الشيخ محب الدين -رحمه الله تعالى- عن مؤذنٍ بمكةَ قال: كان لي على رجل من أهل السواد دَين، فجئت إليه أتقاضاه، فذكر عنده أبو بكر وعمر، رضي الله تعالى عنهما، فشتَمهما شتمًا قبيحًا، فرجعت مغتمًا.

فلمَّا كان الليل نمت فرأيت رسول الله ﷺ فقال: كنت عند فلان وجرى منه كيت وكيت قلت: نعم قال: اذهب فادعُه قال: فذهبت فدعَوته فقال: أضجعه فضجعته، ثم ناولني رسول الله ﷺ شفرةً وقال: اذبحه فذبحته. فاستيقظت والدم يجري على كفي.

فلمّا أصبحت قلت لأغدون لأبصر ما صُنع به، فلما صرتُ بالقرب من داره وإذا بالصراخ عليه فقلت ما هذا؟ قالوا فلان أتاه الذَّبَحَةُ البارحة فذبحوه، فلم ندرِ مَن ذبحه.

فأتيت ولده فقلت: أنا والله ذبحت أباكم بإذن رسول الله ﷺ -وربما قال: ذكرت لهم القصة- فأخذوا عليَّ العهود والمواثيق ألاّ أسمّي أباهم لأحدٍ، فلم أستطع أن أسمّيَه.

وحكى حكايات غيرها مسندة بما هو أكثر من ذلك يطول شرحها، وإنما نحن نقتصر على أهل زماننا.

وحكى لي الشريف شرف الدين محمد الكلثمي عن عمّه فخر الشرف أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في المنام والسيد أبا بكر والسيد عمر، وبين يديه شخص يسمى ابن منير فقال رسول الله ﷺ: ما جزاء من يقع في هذين الشيخين؟ فقال السيد علي بن أبي طالب رضي الله عنه: يُجَزُّ عنقه قال: فجزَّ عنقه ثم قال لي: خذه، فمسكت أذنه وأخذت رأسه.

فاستيقظت فوجدت الرأس معي، فجعلتها تحت طشت، وجئت لولده فقلت له:

تعرف أباك؟ فقال: نعم، فأطلعته، فنظر الرأس فقال لي: أبي جاء خفيةً وأنت قتلته فقلت له: أنا رأيت كذا وكذا -وكان أبوه ببغداد- فقال: تروح معي إلى بغداد ونكشف ما القضية؟

فسافرت معه من مصر إلى بغداد، فسأل عن والده فقيل له: والدك قتله غلامه، وقد ضُرب ضربًا شديدًا ولم يقر، فقال لهم: أي وقت قتل؟ فقيل له: في الليلة الفلانية. فكان في الليلة التي رأى الشريف فيها الرؤيا، وكانوا إذ ذاك بمصر المحروسة.

أكمل أحوال المحبة والإخاء

وحكى لي الشيخ عبد العزيز بما رواه أنَّ أعرابيًا أتى السيد عليَّ بن أبي طالب ﷺ فقال له: أظَلَمَك أحدٌ يا أمير المؤمنين؟ فقال: لا، فلما ولَّى الإعرابيُّ قال: ردّوه فردّوه فقال: تعني أبا بكر وعمر؟ فقال: نعم قال: أعرَّفتهما؟ فقال: لا فقال: أنا لو عرَّفتَهما ضربتُ عنقك ثم قال: اعلم أنّ الله تعالى قال في كتابه العزيز: ﴿**وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ**﴾ [هود:١١٣].

وقد ركن رسول الله ﷺ إلى السيد أبي بكر ﷺ وتزوَّج بابنته، ولو كان ظالِمًا لما ركن إليه رسول الله ﷺ وركن رسول الله ﷺ إلى السيد عمر ﷺ وتزوّج بابنته، ولو كان ظالِمًا لما ركن إليه رسول الله ﷺ وركن رسول الله ﷺ إلى السيد عثمان بن عفان وزوّجه بابنته، ولو كان ظالِمًا لما ركن إليه رسول الله ﷺ وركن رسول الله ﷺ إليَّ وزوّجني بابنته، ولو كنتُ ظالِمًا لما ركن إليّ رسول الله ﷺ.

فقد كانوا -رضوان الله تعالى عليهم- على أكملِ الأحوالِ في التودد والمحبة والإخاء فيما بينهم، والتعاون على البر والتقوى، واجتماعهم على نبيهم ﷺ يدًا واحدةً وكلمةً واحدةً.

فما بال المبتدعة والكذبة وعصبة الشيطان وأهل الأهواء المضلّة والفضوليّة، والدخول بين أصحاب النبي ﷺ في تقديم ولا تأخير ولا تسوية ولا تفضيل؟ ومن أين لهم ذلك؟ حتى أوبقوا أنفسهم في المهالك.

أعاذنا الله تعالى وإياكم من المخالفة للسنة المحمدية.

ولقد كانوا -رضي الله تعالى عنهم- إخوانًا وأخدانًا في ذات الله تعالى، وقد آخى

رسول الله ﷺ بينهم وترك عليًا لنفسه(١).

وقصة سعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف مشهورة، وكونه عرض عليه نصف ماله وإحدى زوجاته أن يطلقها له فيتزوجها(٢).

وقد ذكر الله تعالى الإخاء في كتابه العزيز فقال: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ [الحجرات:١٠] هذا مع شقاق الأنساب.

وقال تعالى: ﴿**فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ**﴾ [المؤمنون: ١٠١] فرفع حكم أنساب الآباء والأمهات وبقي نسب الإيمان، وورد: «**اليوم أضع نسبكم وأرفع نسبي**(٣)» ولذلك يفلح من يثقل ميزانَه إيمانُه ويخسر من خفت ميزانه وفرق أيضًا سبحانه بين الآباء والأبناء لعدم الإيمان فقال الله تعالى في حق ولد نوح ﷺ: ﴿**قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ**﴾ [هود:٤٦].

وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُداًّ**﴾ [مريم:٩٦]. والجعل من الله تعالى لا يرتفع.

وقد قلت:

قومٌ على ألفةِ الإيمانِ قد جُبِلُوا ... فكلُّهم لهم أهلٌ وأحبابُ
لا يرْغَبُون بمال عن محبتِهم ... كلا ولا مُلكٍ بينهم وأسبابُ
قد بايعُوا خيرَ خلقِ اللهِ كلِّهم ... وتابعُوه فهم في الحقِّ أصحابُ
وهم نجومُ هدى للسائرين بها ... وهم إلى اللهِ للقصَّادِ أبوابُ

---

(١) وروى ما يدل على ذلك الحاكم في المستدرك (٣/١٥)، «عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: لما ورد رسول الله ﷺ المدينة آخى بين أصحابه فجاء علي رضي الله عنه تدمع عيناه، فقال: يا رسول الله آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بيني وبين أحد فقال رسول الله ﷺ يا علي: أنت أخي في الدنيا والآخرة».

(٢) رواه البخاري (٢/٧٢٢).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٢/٥٠٣).

ولقد سمعت من هذه اللطيفة الشريفة في المؤاخاة في الله تعالى ورأيت من بعض ذلك عجائب، فكيف بأصحاب رسول الله ﷺ؟

وفي قوله تعالى: ﴿**إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ**﴾ [الحجر: ٤٧] كفاية.

وإن كان ذلك في الدار الآخرة فمنشأه من هذه الدار؛ فهي دار الأعمال، والآخرة دار الجزاء، ولأن الإخاء كان في علم الله تعالى وفي خلق الأرواح قبل الأجسام، وكونها كان فيها متقابلٌ ومتدابرٌ والتعارف الذي ورد في **«الأرواح أجناد الله مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف[١]»**.

وهذه الحكاية موجودة بالاستقراء ذوقًا.

أحوال المحَبَّةِ

فإن المحبة تنشأ عن ثلاثة أحوال:

- فمنها ما هو **كسبيٌّ بسببٍ**، كالإحسان والمؤانسة والملاطفة للشخص، والذبُّ عنه والقيام بوظائفه وحاجاته واتّباع مقاصده، وفعل ما يرضيه، فتنشأ من ذلك محبةٌ له، فإذا زال ذلك زالت تلك المحبة بزوال سببها، ومن أحبَّك لشيء قلاك عند انقضائه.

- **ومحبة إلقائية** قال الله تعالى: ﴿**وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي**﴾ [طه: ٣٩]. وهذه لا يعقل سببُها؛ لأنَّها إلقاء من الله تعالى كما أخبر تعالى عن السيد موسى عليه السلام ﴿**وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي**﴾[طه: ٣٩].

وأنت تجد ذلك ذوقًا، فإنَّك ترى شخصًا ولم يتقدم لك منه إحسان ولا رأيته قبل ذلك فتجد نفسك تحبُّه وتميل إليه، حتى أنك تتآلف به وتفشي إليه سرَّك الذي تصونه عن أمك وأبيك، وحتى يبقى منك بمنزلةِ الروح من الجسدِ فهذه محبةٌ إلقائية، وبالعكس منه، ترى شخصًا ما أساء إليك قطُّ ولا أبصرته غير تلك الساعة فتنفر عنه وتبغضه حتى لا تقدر أن تستقر بالمكان الذي هو فيه، وهذا مستقر موجود كثير.

فالمحبة الإلقائية من الله تعالى لا يتقدَّمها سبب؛ لأنَّها ليست محتاجة إلى

---

(١) رواه البخاري (١٢١٣/٣)، ومسلم (٢٠٣١/٤)، وأحمد في مسنده (٥٣٩/٢)

الأسباب، والإقبال الذي تجده عند رؤية من لا أحسن إليك ولم تره إلا تلك الساعة والمحبة القائمة بك له والائتلاف به، فمن النِّسب المعنوية والأنْسَاب الوجدانية كما قال الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى-:

بَيــني وبينَــك في الحقيقــةِ نســبةٌ فيهـــا هنـــا أرواحُنـــا تتـــآلفُ

والســرُّ في هـــذا التـــآلفِ أنَّهـــا كانـــت بســـينِ سُمُوِّهـــا تتعـــرَّف

وقد قال الشيخ السيد عمر بن الفارض ﷺ(١):

(١) هو العارف بالله تعالى سلطان العاشقين سيدي عمر بن أبي علي بن مرشد بن علي، الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، ولد سنة ستٍّ وخمسين أو ستين وخمسمائة، نشأ تحت كنف أبيه، في عفافٍ وصيانةٍ وعبادةٍ وديانةٍ، بل زهدٍ وقناعةٍ وورعٍ، فلمّا شبَّ وترعرع اشتغل بفقه الشافعية، وأخذ الحديث عن الحافظ ابن عساكر وعن الحافظ المنذري وغيره، ثم حُبِبَ إليه الخلاء، وسلوك طريق القوم، فتزهّد وتجرَّد، وصار يأوي إلى الجبل الثاني :من المقطم، والمساجد المهجورة مرة، ثم يعود إلى والده، فيقيم عنده مرة، فيشتاق للتجرد فيعود إلى الجبل، وهكذا حتى ألف الوحش وألفه الوحش، فكان لا يفرُّ منه، ومع ذلك لم يُفتح عليه بشيءٍ، حتى أخبره شيخه الشيخ أبو الحسن على البقال أنه إنما يفتح عليه في مكة شرَّفها الله، فخرج فورًا في غير أشهر الحج، ولم تزل الكعبة أمامه حتى دخلها، وانقطع بوادٍ بينه وبين مكة عشر ليالٍ، ففُتح عليه فصار يذهب من ذلك الوادي إلى مكة، فيصلِّي بها الخمس ويعود إلى محله من يومه، وأنشأ غالب نظمه حالتئذٍ، وأقام على ذلك نحو خمسة عشر عامًا، ثم رجع إلى مصر، فأقام بقاعة الخطابة بالجامع الأزهر، وعكف عليه الأئمة، وقُصِدَ من العام والخاصِّ، حتى أن الملك الكامل كان ينزل لزيارته، وسأله أن يعمل له ضريحًا عند قبره، بالقبة التى بناها على ضريح الإمام الشافعي، فأبى، وكان ﷺ جميلا نبيلا حسن الهيئة والملبس، فصيح العبارة، حسن الصحبة والعشرة، وذكر أنه رأى المصطفى ﷺ في نومه، فقال: (إلى من تُنسب؟). فقال: يا رسول الله إلى بني سعد، قبيلة حليمة. فقال له ﷺ: (بل نسبك متصلٌ بي). وكان له أحوالٌ كريمةٌ وكراماتٌ عظيمةٌ، ومن أجلِّها ديوانه الذي اعترف بحسنه الموافق والمخالف، سيَّما القصيدة التائية المسماة بـ(نظم السلوك).

وقد افترى على الشيخ ﷺ وهناك من يدعى بالبقاعي، الذى ظهر أنه يعمل بعمل أهل الجنة، ولكن غلبت عليه شقوته، وسبق عليه الكتاب، فصار من أهل العذاب، المنسوب إليه التفسير المشهور، المسمَّى بنظم الدرر، والحق أنه ليس له، كما هو معلوم عند أهل العلم، فألف رسالةً، وإن شئت قلت ضلالةً في تكفير الشيخ، فقيَّد الله لهذا البقاعي الشيخ العالم الكامل أبو عبد الله محمد بن جمعه الحصكفي ﷺ (توفي سنة ٨٩٥هـ) من جعله سيفًا لدينه، يذبُّ عنه سفاهة ذوى الأحلام، فألَّف

=

نسـبي أقـربُ في شـرعِ الهـوى بيننـا مِـنْ أبـويّ مـن نسـبِ[١]

وقلت:

نسـبي فِـيكُمُ عَريـقٌ مَـا لَـهُ قَبـلَ آبـائي وأجـدادِي نسـبُ

عـدمٌ كنـتُ فوجـداني بِكـم لـيسَ مِـن أمٍّ أنـا مِنـه وأبِ

عرفـتْ رُوحـي الأرواحَ بكـم فهـي في الحـبِّ لـذي المعنى نسـبُ

فـافْتِراقِي واجتمـاعِي في الهـوى غـيرَ مـا بُعـدٍ ولا قـربٍ عجـبُ

نسـبةُ العبـدِ لعبـدِ عبـدِكم قبـلَ مَـا كانَـا وقـدْ كانَـا سـببُ

فإنّ تعارف الأرواح هاهنا من تعارف الأرواح هناك، والتباين والتنافر من التباين والتنافرهناك.

- **محبة** ثالثة: وهي **ضرورية**، وسرُّها غامضٌ؛ إذ جذب المغناطيس للحديد لا يعقل معنًا، الميل إلى الصفات الجميلة وصورة الحسن لا تدرك حقيقته، فالجمال محبوب بالضرورة في أيِّ صورةٍ لاحَ وزهرٍ فاح، وطائرٍ ناحَ، أو صبٍّ باح، أو عاشقٍ صاح، أو محبوب طاح، أو مُوَلَّهٍ راحَ، أو سائحٍ ساح.

يظهر ذلك في حروف الكتابة وترسّل القرآن، وآيات القرآن، ونغمات الألحان،

=

هذا الشيخ الجليل الصالح كتابًا في الرد على ذاك الشقي أسمَّاه ((**ترياق الأفاعي في الرد على الخارجي البقاعي**))، وهو كتابٌ حافلٌ في الرد على ذاك الغافل، وإن شاء الله سينشر هذا الكتاب قريبًا، وكذلك أيضا الشيخ السيوطي فألف مقامةً أسماها ((**قمع المعارض في نصرة ابن الفارض**))، وقد دافع عن الشيخ وغيره من أكابر أئمة الأولياء الكثير من العلماء، وقد وقفنا على الكثير من تلك الكتب، والتى لا يزال أكثرها مخطوطٌ، والتي لو نشرت لما كان لهذا الجهل والتجرأ على أولياء الله وجودٌ، ولعلمنا حقيقة أن تلك العلوم والمعارف التي أظهرها القوم هي غاية هذا الدين الخاتم، وأنها مقصود الشرع الشريف، ولَعَلِمَ من أنكرها أو من لم يعرفها أنه ما عرف عن الدين وعن رسول الله ﷺ إلا اسمه، لا غير.

وانظر: وفيات الأعيان (٣/٤٥٤)، والشذرات (٥/١٤٩)، والكواكب الدرية (٥٤٤).

(١) البيت في ديوان سيدي ابن الفارض – قدس سره - (٩٤).

ومعاني الأشعار، وطلوع الأقمار، وتمايل الأشجار، وجريان الأنهار، ونسيم الأسحار، والدفوف واليراع في الأبصار والأسماع، والأجناس والأنواع، في المعقول والمحسوس، والمأكول والملبوس، والحركات والسكنات، والمحيا والممات.

يقوم ذلك بوجدان القلوب ،وتنشأ عنه أوصاف المحب والمحبوب، ويقوم وراء سائر الأسرار والغيوب.

فإن ظهر حسنُ صورةٍ في مثال أو رسم في صقال مرآة الخيال، شهر سيف الغرام وصال، وقطع المحبُّ الحبائل والعقال، وارتكب لذلك الشدائد والأهوال، وتردى من شواهق الجبال.

وكلُّ ذلك حجاب وستار على صورة الحسن والجمال، ومن وراء صفات معاني الجمال وحقائق الكمال والجلال، فكيف لو بدا له من صورة الحسن بارق؟ أو ألمَّ به من ذلك طارق؟ أو بدا من صفة الجمال مثالٌ؟ لأسرع إلى وجوده الاضمحلالُ وانعدمت تلك الرسوم والأطلال، فسبحان الملك المتعال، الذي يضرب للناس الأمثال ولا تُضرب له الأمثال.

لأنَّ الأمثال إنَّما تُضرب لمن له مثال، ومن لا له مثالٌ فهو يضربُ الأمثالَ ولا تضرب له الأمثال.

والإخوان الذين هم على سرر متقابلين، وإن لم يصح التقابل بصورة الأجسام في هذه الدار، والمفهوم من التقابل في الدار الآخرة، فالتقابل صحيح في معناه هاهنا؛ فإن الشوائب والحجب المانعة من التقابل في مرآة نفوس الإخوان متى زالت وقع التقابل في حقائق النفوس، وله مثال، وهو أنَّك إذا صقلت المرآة المحسوسة، وقابلت بها وجهك تجد عينك اليمين بعينها اليمين، وعينك الشمال بعينها الشمال، وكل عضو منك مقابلٌ للعضو المماثل له المرئي في المرآة.

هذا شيء لا تقدر على إنكاره فيك ورؤيتك له، فإذا قابلت الجسم للجسم بغير مرآة اختلفت الأعضاء، فتكون العين اليمين مقابلة للعين الشمال، والعين الشمال مقابلة للعين اليمين، وكل عضو يخالف العضو المقابل له.

وفي الدار الآخرة يصحُّ التقابل في المعنى والصورة المحسوسة،كرؤيتك صورتك في

المرآة، وهذه هي حقيقةُ التقابلات.

الغطاء يُكْشف في الدار الآخرة كشفًا كليًا ويكون الحكمُ الغالبُ لصورة المعاني والأرواح،فكما أنَّك ظاهر هنا بجسمك وباطن بروحك فهناك ظاهر بروحك وباطن بجسمك، وكما أنَّ الرُّوح والجسم هنا يشتركان في الأعمال والأقوال، فهناك كذلك يشتركان في النعيم أو الجحيم، وإنَّما كشف الغطاء في دار الحياة والبقاء يُعطي ظهور المعنِي، فتكون القوة في الظهور لِما كان خفيًا حتى يصير حسًّا جليًّا، ويظهر الباطن ويبطن الظاهر، ويستويان في الحال، ويجتمع الماضي والاستقبال، وتعتدل البواطن والظواهر، وتجتمع الأوائل والأواخر، وترتفع الأغيار، وتظهر حياة الأطوار، ويضمحُّل الليل والنهار.

حَالُ الإخوَان

ولَمَّا كان للأولياء نصيبُ تحققٍ من تلك الدار ظهرت عليهم آثارها في هذه الدار، قال الله تعالى: ﴿**لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ**﴾ [يونس: ٦٤].

فمن ذلك ما يظهر على أيديهم وألسنتهم من الكرامات، وما يبدو لأبصارهم وأسماعهم من المخاطبات، وكلُّ ذلك وإن كان هنا خرقًا للعوائد فهو من تلك الدار عادة لهم في جميع أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم، فمن ذلك حال الإخوان.

حكى لي الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى-، أنّه كان حاضرًا مع الفقراء، وكان بينهم فقيران متآخيان في الله تعالى، أحدهما راحَ يغسلُ ثياب الفقراء وبقي الآخر حاضرًا.

فلمّا حضر الغداء جعل الفقراء يأكلون ويلقمون الفقير، فقال لهم: أمسكوا عني، فما بقي أخي يحتمل لقمةً واحدةً.

قال: فبينما نحن كذلك إذ دخل أخوه ومعه ثياب الفقراء، فالتفتَ إلى أخيه وقال له: لو أكلت لقمةً واحدةً قتلتني.. فانظر إلى هذا الحال.

وذُكر عنهما مرةً أخرى أنَّ أحدهما كان غائبًا والآخر حاضرًا، فشكا الحاضر ألَمًا في جنبه فقال: أبصروا أخى، فراحوا فوجدوه نائمًا وطوبة تحت جنبه.

والحكايات في هذا الباب كثيرة.

وأعجب من هذا أن الشيخ عبد العزيز ذكر أن فقيرًا جاء إلى جماعة فقراء مجتمعين في بيت وهم عشرة أنفس، فنزل عندهم، فبقوا أيامًا لم يفتح لهم بشيء، ثم أتاهم شيء فقسَموه نصفين، أعطوا للفقير النصف وأخذ العشرةُ النصفَ، قال الفقير: فقمت ووقفت في الاستغفار. فقالوا: ما بك؟ ومالك؟ فقلت: لأني دخلت عليكم ولست أهلاً للدخول عليكم. فقالوا: ولم ذلك؟ قال: لأنكم جعلتم لي نصفَ ما جاء لكم ولكم النصف، فلو كنت عندكم أهلاً أو فقيرًا من جملتكم أعطيتموني نصيبًا واحدًا بحسب القسمة، فقالوا: يا فقير، ليس كما زعمت، إنما نحن العشرة واحدٌ وأنت واحدٌ فقلت: وكيف ذلك؟ فقالوا: ادعُ لنا فاصدًا، فأحضروا الفاصد، فربط أذرع الجميع، ومدوا أيديهم وفصدوا واحدًا منهم فخرج الدم من أذرع الجميع.

فانظر رحمك الله تعالى إلى صدق هذه الأحوال مع الله تعالى، كيف ظهر أثرُها في الصورة الظاهرة؟

وأمَّا ما يتعاطونه فيما بينهم من المواساة فيما في أيديهم ومن يؤثر منهم على نفسه فكثير.

أخبرني الشيخ عبد العزيز أنَّ شيخًا من المشايخ كان له مريدان، أحدهما فقير والآخر غني، وكان أحدهما إذا طبخ في بيته شيئًا لا يأكل الآخر حتى يأتيه من بيت أخيه مما طبخوه، فاتفق أنَّ صغار الفقير جاعوا ليلةً، ولم يكن عندهم شيء، فعلّقوا القدر وجعلوا فيها الماء ليشغلوا الصغار حتى يناموا، فرأى الغنيُّ الدخان في بيت الفقير، فقعدوا ينتظرون الطعام حتى يأتيهم، فلم يأتهم شيء، فباتوا بلا عشاء، فلمَّا أصبح أخوه الغني أتى عند الشيخ وطالب أخاه الفقير وقال له: بتنا البارحةَ بلا عشاء ونحن ننتظر الطعام يأتي من بيتك فلم يأتنا شيء فقال له الشيخ: لم فعلت ذلك؟ فسكت الفقير، فألزمه الشيخ أن يقول السبب، فذكر السبب، فحلف أخوه الغنيُّ بالطلاق أن يقاسمه في جميع ما يملكه من كلِّ نوعٍ حتى قسَمَ النعلين.. هكذا كانت أحوالهم.

وقد رأيت جماعة، وذكرتُ بعضهم كالشيخ عبد الرحيم بن الشيخ مُفَرّج وغيره مِمَّن صحبته.

ولقد رأيت الشيخ جمال الدين ابن الشيخ مفرج[1]، وكنا بطريق الحجاز الشريف في طريق الشام، وكان الشيخ جمال الدين -رحمه الله تعالى- في سنِّ الثمانين أو دونها، وكان له رفيق عامي، فرأيت الشيخ يمشي ويركب رفيقه العامي، وكنت أتألَّم لذلك، وكان يخدمه ويملأ الماء ويقوم بوظائف السفر، فقلت له في ذلك فقال: هو ضعيف، وكان يحتمل مع ذلك الإساءة، ويلاطفه ولا يُؤْلمه.

الشيخ ولي الدين الكردي

الشيخ ولي الدين بن الكردي، كان عظيم الشأن جليل الأحوال، جاء إلى مدينة قوص ونزل بمسجد بيرموق، واجتمع عليه جماعة أكابر من العلماء وغيرهم، منهم الشيخ شمس الدين العجمي الأصفهاني، وكان يومئذٍ قاضيًا بقوص.

ومنهم الإمام تقي الدين بن دقيق العيد قاضي القضاة بمصر والقاهرة، رحمهم الله تعالى.

ومنهم جلال الدين الدشنائي وكان من العلماء الصالحين.

ومنهم ناصر الدين بن عبد القوي الأُسواني صاحب الشيخ تاج الدين بن شعبان.

وفتح الدين بن الفقيه نصر وحصل لفتح الدين منه نصيبٌ كبيٌر أو فُتِح له على يديه، والشيخ كمال الدين بن عبد الظاهر وبدءُ طريقه كان على يده، والشيخ مفرج، وجماعة كثيرة انتفعوا به.

وكان ذِكرُهُ لا إله إلا الله يمدُّها، ثم الله الله يجهرُ بذلك، وهكذا كانوا يفعل الذين صحبوه، وسمعت القاضي شمس الدين يذكر بهذا الذكر والشيخ كمال الدين ابن عبد الظاهر.

وكان له كرامات وأحوال تشهدُ بما ذُكِرَ، منها أنَّه جاء إلى الباب وهو مقفول فدخل من شقوق الباب الذي ما يدخل منه إلا النملة اللطيفة، ثم جاء وقت الخروج ففتحوا له فخرج.

---

(١) يقصد الشيخ مفرج الدماميني.

وصَحِبَه أيضًا الشيخ مجد الدين بن الفقيه نصر، وحكى لي الشيخ ناصر الدين، -رحمه الله تعالى- عن فتح الدين بن الفقيه نصر أحوالاً جليلَة نالها على يد الشيخ ولي رضي الله عنه.

وقد كان فتح الدين معه شيء من الدنيا ولم يمنعه ذلك عن ما وصل إليه، وإنَّما يُخشى من الدنيا إذا كانت في القلب، أمَّا إذا كانت في اليد ولم تكن في القلب فلم يضر ذلك.

ومما أخبرني به ناصر الدين -رحمه الله تعالى- أنَّ فتح الدين قيل له: ما تريد؟ أو مما تخاف؟ فقال: ذنوبي فقيل: قد غفرناها لك وإنها مُحِيت.

وذكر لي عنه أمورًا عظيمًة لم تحضرني في هذا الوقت لبعد الزمان، وكان للشيخ وليّ أحوالٌ جليلةٌ؛ ولذلك صحبته العلماء.

الشيخ باد الكردي

ظهر من الأكراد جماعة منهم الشيخ باد الكردي كان جليل القدر مع أنَّه أميٌّ ولأنَّ سلامة الصدور وسخاوة النفوس، وعدم الحظوظ علامة صحيحة لمسارعة العطاء والفتح.

ذكر الشيخ عبد العزيز أنَّ باد الكردي نزل عند أمير من الأمراء الأكراد، فلمَّا أصبح وركب خرجت زوجةُ ذلك الأمير ومسكت مِقْوَدَ الدابة وقالت للشيخ: يا سيدي، أنا زوجة هذا الأمير الذي كنتَ عنده، وله زوجة غيري ولها منه أولادٌ وهي تعايرني وتقول لي كالْمُكرية: إذا مات لا تنالي إلا صداقك، وأنا أولاده مني أرثه وجميعَ ماله فقال لها: وما تريدين؟ قالت: أريد ولدًا فقال لها: هاتي حقَّه قال: فخلعت أو نزعت من يدها سِوارًا فقال لها: ما تحبلي بهذا إلا بنتًا فقالت: يا سيدي، وأنت تبيعُ الغلمان؟! قال: نعم فنزعت السِوارَ الثاني :فأعطاها الشيخ للخادم أو قال: أعطِهما للخادم، وكشف بادٌ رأسَه ووضع كوفيّته على إكاف دابته ورفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم يا ربّ، عبدك باد كردي ما يعرف شيئًا، يا ربّ اعطِ هذه المرأة ولدًا ذكرًا يكون في يده إصبعًا زائدةً، قال: فمرَّت المرأة وحملت، ولَمَّا تكامل الحمل ولدت ولدًا ذكرًا في يده ستةُ أصابعَ كما ذكر باد، فكان الناس يأتون من البلاد ليتبركوا بذلك الإصبع

لأجل دعوة باد.

الشيخ علي الكردي (١)

ومن الأكراد الشيخ علي الكردي صاحب الشيخ أبي الغيث، أخبرني الشيخ عبد العزيز عنه أنه دخل إلى عواجة، قرية من قرى اليمن، فنزل عند الفقراء من أصحاب شيخه، فأحضروا له لبنًا وخبزَ ذرة، فقال الشيخ علي لخادمه: أطعمه للكلاب، فقال الفقراء: يا شيخ علي، تُطعم طعامَنا للكلاب؟ ما هذا بالفقير؟ فقال لهم: أنا ما ذممت طعامكم، وأنتم أتيتموني به لأتصرَّف فيه فأطعمته خلقًا من خلق الله تعالى محتاجين إليه.

وكان هذا الشيخ على مدى الأيام يأكل الطيبات ويشم الروائح الطيبة ويلبس الناعم، وكان له حال جليل، والحقائق لا يُنظر فيها إلى التقشف ولا إلى التناعم، ولكن ينظر إلى المحل عند الله تعالى والاختصاص، فلم يزدد بذلك القول إلاّ أنَّهم كلّموه وآلموه فقال لهم: أنا هذا، ما هو طعامي، أنا رجل مدلل على ربي، فقالوا له: ما هكذا كانت الفقراء؟ وكلموه على عادة من لا يعرف هذا المقام، فغضب وقال: يا عواجة احترقي، فطلعت النار وأحرقت البلد، وما نجا الناس إلا بالخروج منها.

وقيل أنَّه خرج فجأةً فقيرٌ بدويٌّ من أصحاب شيخِه، فعزم عليه وأتى له بشيءٍ يوافقه وجلس يغني له فقال: هذه عادتي مع الله تعالى، ثم قال له:

أنا وصلت إلى قلبي يدٌ وما يصل إلى قلبي إلا يد الشيخ أبي الغيث، لعل الفقراء راحوا إليه، أقوم ألحق رِمَّتي، فقام وجاء إلى الشيخ فوجد الفقراء عند الشيخ فقال له الشيخ: هكذا تصريفك؟ وتحرق بلاد الفقراء؟ فاستغفر الله تعالى، ووقف في الاستغفار، فقام الفقراء وقالوا: يا سيدي، نحن نريد أن يكون باطنه طيبًا علينا.

---

(١) قال الشيخ المناوي: هو إمام رقته وزمانه، فريد عصره لا يوصل إلى مكانه، ذا رتبة جل قدرها، ومنزلة سار بالرفعة ذكرها، كان ظاهر الوله يتحكم في أهل دمشق وله عندهم صولة.

وله كرامات كثيرة ووقائع بينهم شهيرة.

وانظر: مرآة الزمان (٨/٦٣٨)، وروض الرياحين (٤٨٠)، والكواكب (٤٣٣).

ثم إنّ الشيخ علي جاء إلى زبيد وبنى بها زاوية على عادتهم يعملوها أخصاصًا أو غردًا، فجاء والى البلد، فوجد الشيخ غائبًا، فقلع الزاوية ونصبها في مكان آخر، فجاء الشيخ علي فلم يجد الزاوية، فحصل عنده غضب، وتوجه إلى دار الولاية فلم يجد الوالي، فقعد ينتظره. فحضر الوالي وهو راكبٌ فقال: كأنَّ الشيخ عليَّ مغضبٌ؟ قال: نعم، قال: إنّ الزاوية ضيّقت الطريق، والسلطان راكب يضيق الطريق عليه، أو كلام هذا معناه، فقال الشيخ علي: أنتم فيكم جرأة، وتعتقدون أنَّ البلاد لكم، فقال له الوالي: البلاد للسلطان، فقال له الشيخ علي: البلاد للفقراء فقال: اشهدوا عليه أنَّه قال: البلاد للفقراء وما هي للسلطان وأنا أكتب للسلطان بذلك، فقال الشيخ علي: وما أخلّيك تكتب، فمسكوا له الرِّكاب لينزل، فقال الشيخ علي: يا فرسَ ربِّي خذيه ورُوحي فأخذته الفرس وراحتْ، وبقي الناس متفكّرين ولم يعلموا أين توجهت به.

وكتبوا إلى السلطان بذلك، فأرسل إلى واحد من آخر البلد فولاّه، ولم يتكلّم وكان الشيخ أبو الغيث في ذلك الوقت يعيش، فقال الشيخ أبو الغيث بعد ثلاثة للفقراء: يا فقراء، كأني بكم تقولون أين راحت الفرس؟ قالوا: نعم فقال: وعزةِ ربِّي ﷻ حين قال هذا الفقير: يا فرسَ ربِّي خذيه ورُوحي ما وقفت به إلا خلف جبل قاف بين قوم لا يعلمون أنَّ الله تعالى خلق آدم ولا إبليس. ثم قال الشيخ أبو الغيث للشيخ علي: يا شيخ علي، أنت لك عند الله تعالى جاه قال: فإن كنت مريدَ نفسِك فقد عرَّفتَكَ أنَّ جاهك عند الله عظيم وإن كنت مريدي فاقعدْ عندي حتى تموت، فأنت قليل الشفقة على خلق الله تعالى، فقال له: أنا مريدك، وقعد عنده حتى مات، ودفن تحت رجليه، رضي الله تعالى عنهما أجمعين.

الشيخ أبو العباس المرسي(١)

(١) هو الإمام العارف بالله تعالى الكبير، والسيد الكامل البحر المنير العزيز، قطب الرجاء شمس الضحى، مُوزن الطريقة، نور أهل الحقيقة، صاحب الدوائر الكبرى والخلافة العظمى القطب الغوث الفرد الجامع سيدي: أبو العباس المرسي روَّح الله روحه، وأوقر في حظائر القدس فتوحه، كان هو الخليفة من بعد موت الشيخ أبي الحسن. وانظر: «تعطير الأنفاس في مناقب سيدي أبي الحسن والمرسي أبي العباس» لأبي الصلاح الوفائي ().

=

ومنهم الشيخ أبو العباس المرسي صاحب الشيخ أبي الحسن الشاذلي كبير الشأن عجيب الأحوال والمعرفة، جاء إلى مدينة قوص وأقام بالمدرسة الغربية التي على ساحل مدينة قوص، وكانت رباطًا قبل ذلك، واجتمع عليه جمع كثير وحصل للفقراء به نفع كبير، وسلك على يده جماعة من الفقراء المغاربة وغيرهم، -رحمه الله تعالى-.

واجتمعتُ به في بيت الشيخ ناصر الدين بمدينة قوص دفعةً واحدةً وجدت بها خيرًا كثيرًا، وذلك أنَّ الشيخ جلال الدين -رحمه الله تعالى- قال لي: ادخلْ معي عند الشيخ أبي العباس، قلت له: ما كل وقت يُدخل على الفقراء فيه فألزمني أو حلف على في الدخول معه، فدخلت لأجد الشيخ جالسًا القرفصاء وعليه الحال وعيناه حمراوتان وأسنانه تطقطق ولحيته تلعب على صدره، فلم أسلِّم ولم أتكلّم، لأنَّه لا يليق بذلك الوقت في أحوال القوم، وتباعدت وجلست عنه بعيدًا، فمشى الشيخ جلال الدين -رحمه الله تعالى- إلى القرب منه، وجلس بعدما سلَّم فقال الشيخ -رحمه الله تعالى-: بالله الذي لا إله إلا هو ما يكرهوا من الفقراء إلا خصلتين:

الأولى: يكفّرون الحلاج.

والثانية: يحكمون بموت السيد الخضر عليه السلام إيش تقول أنت؟ يقول للشيخ جلال الدين.

فقال له الشيخ جلال الدين: يا سيدي، الناس مختلفون في موت الخضر عليه السلام فمنهم من يقول بموته ويستدل عليه بقوله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٣٤،٣٥].

ومنهم من يقول بحياته، ويستدل بأنه عزَّى في رسول الله ﷺ فقال الشيخ: رأيت ابن أبي شامة[١] - إمّا قال في المنام أو في اليقظة - فصافحني وقال لي: هكذا

=

وقد أفرد البرهان الأبناسي لترجمته كتابًا حافلا سماه «تلخيص الكوكب المنير في مناقب الشيخ أبي العباس البصير».

(١) لعله الشيخ: أبو بكر بن أبي شامة الجعبري المقرئ المؤذن، كان مستحضرا للخلاف في القراءات أدرك الكمال الضرير وشاهده وقرأ بمصر في حياته القراءات على الشيخ عبد الهادي خطيب المقياس وغيره. وقرأ عليه بالروايات بهاء الدين محمد بن علي والجمال يوسف بن المبيض والفخر إسماعيل بن الشيخ ابراهيم الصوفي وله شعر حسن وفيه دين وتواضع.

=

صافحت الخضر عليه السلام وقال لي: هكذا صافحت النبي ﷺ.

وقال: من دعاء السيد الخضر عليه السلام: اللهم ارحم أمة سيدنا محمد، اللهم اغفر لأمة سيدنا محمد، اللهم أصلح أمة سيدنا محمد، اللهم اجْبُر أمة سيدنا محمد ﷺ. ومَنْ قالهن كان مِنَ الأبدال.

قال: فاستيقظت وأتيت إلى الشيخ أبي الحسن - أو قال أتيت الشيخ- فوجدته يقرأ بين يديه هذا الدعاء المذكور.

فلمّا كان بعد ذلك كنت بالسوق، فرأيت ثلاثةً، فخطر لي أن أحدهم الخضر عليه السلام فأتيت الشيخ فرفع رأسه وقال: أحمد قلت: لبيك قال: رأيت الثلاثة؟ قلت: نعم فقال: الذي خطر لك هو.

قال: ثم بعد ذلك كنت أرفع ذرَّ فأسي وإذا بالخضر عليه السلام قد دخل على وعرّفني بنفسه واكتسبت منه معرفة أرواح المؤمنين بالغيب، ووالله لو جاء مائة فقيه ما رجعت إليهم، فقال الشيخ جلال الدين: يا سيدي، أنت قلت لي: إنَّك رأيت روحي في أرواح المؤمنين فقال الشيخ: نعم والله الذي لا إله إلا هو، رأيت روحك في أرواح المؤمنين، فالتفت الشيخ جلال الدين إلي ليشهدني على الشيخ بذلك، -وكان الشيخ في كلامه يلتفت إليّ ويلاحظني بعينه ولقد وجدت لذلك أثرًا- ثم قال الشيخ: إيش تقول في الحلاج؟ فقال: يا سيدي، كنت أحبّه وأعظّمه حتى سمعت أنه قال: على دين الصليب يكون موتي، فحصل لي شيء - أو كلمة لا أتحققها الآن- فقال الشيخ: وإيش في هذا؟ ومالدين إلا الوقت والحين، قال تعالى: ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ [الفاتحة: ٤].

وهو إشارة إلى أنه يموت مصلوبًا، وكذلك كان.

وأنشد الشيخ قصيدَة على لسان بعض العارفين حفظت بعضًا فمنها:

تَعــــالُوا نـــــدخلُ الْحانـــــا   ونَقْـــــضِ فيـــــه أَوطــــــارِي

=

وكان يحضر الوظائف وله حلقة مصدرة بجامع دمشق توفي سنة ثلاث عشرة وسبعمائة وهو في عشر الثمانين. وانظر: معرفة القراء الكبار (٢ /٧٢٧).

قلت: وهو غير الشيخ أبي شامة المعروف.

ونَكســـــرُ مِنـــــبرَ الجـــــامعِ ونَعْمـــــــلُ منــــــه مِزمَـــــارِي

ونَنتِـــــفُ لحيــــةَ القَاضِــــي ونَعمَـــــلُ منـــــه أَوتَـــــارِي

وجعل يعبر عن ذلك بحروف لطيفة من كون الجامع تجمُّع القلب، ولعله غير ذلك، والمنبر منبر الشيطان، والقاضي إبليس، وغير ذلك من العبارات ﷺ وحفظت مجلسه من أوّله إلى آخره، لأنّ الوقت قد كان وقت حال ووجدان، فهو يعبر عن نفسه بنفسه فلا ينسى.

وأخبرني والدي -رحمه الله تعالى- قال: كنا نودّعُ الشيخ أبا الحسن الشاذُليّ، رحمه الله تعالى، حين توجَّه إلى الحجاز فقال لنا عن الشيخ أبي العباس أنَّه من الأبدال.

وحكى لي فقير فقال: دخلت يومًا عند الشيخ أبي العباس المرسي حين كان بقوص، وقد أحضر الفقيه نجم الدين بن ناشئ دراهمَ للفقراء لأنَّه كان يصرف ذلك من تحت يده، فلمّا وزن الدراهم جعل الشيخ ينظر الميزان ويقول: يَنقص ثُمنًا -أوكما قال- فوجدتُ في نفسي من كون الشيخ يخطر له مثل هذا ويقول: ثُمن، وحصل ما حصل في نفسي، وغاب عني ما قاله.

قال: فلمَّا خطر لي هذا الخاطر رفع الشيخ أبو العباس رأسه إلي وقال: أيظن الظَّانُّ أن الفقير تشح نفسه بالثُمن؟ أو يذكر الثُمن ولا يعلم أنّ الفقيَر ترك الدنيا والآخرة لله تعالى - أو كلام هذا معناه- ولا ينظر في خلاص ذمة الذي يبقى عنده الثُمن، ولا أنَّه يُسأَلُ عنه يومَ القيامة.

قال: فاستغفرت الله تعالى مما خطر لي.

وحكى لي الفقيه عميد الدين الدماميني أنّه كان حصل له تخبيط في المعتقد، فلمَّا وردَ الشيخ أبو العباس إلى دمامين في بيت الشيخ عبد الرحيم حضرت عنده وفي باطني محبةٌ له، قال – يعني الشيخ- إني رأيتُ الشيطانَ ذبحَك وأنا أحييتك.. فلم أجد بعد ذلك شيئًا من ذلك.

وكنت قد عرّفت الشيخ ما حصل لي فقال لي: أفي الله شك؟ ثم أصبح وأخبرني أنه رآني ورأى نفسه في بحر في قياسة قال: ورأيت الشيطان ذبحَك وأنا أحييتك، ولقد دفع لي والدي يومًا درهمًا لأشتري به حاجةً فشريتها فنقصت خروبة، فقال لي: لم

تركت له ذلك؟ فقلت له: هذا أمر خسيس، لم ترضَ نفسي بالكلام فيه، فقال: يا ولدي، لم أقل لك لأجل ذلك إلاّ لأنه يبقى في ذمّته، ويجب عليك أن تبيّن له أو تردّه عن ظلمه.

ورأيت من والدي مرة أخرى أنه جاء إليه جماعة وهم من أعيان بلدهم، فحاسبهم على شيء كان عندهم له أو لمن نظره عليهم، فرأيته حققَ عليهم الحسابَ وراجعهم فيه، وربما صاح عليهم في نصفٍ وثُمنٍ ورقًا كانوا تركوه من الحساب.

فلمَّا فرغ من الحساب وآن وقت الغداء أرسل اشترى لهم بعشرين درهمًا نقرة أكلوه، فلمَّا خرجوا قلت له: يا سيدي، ما هذا؟ تنزعج عليهم على نصفٍ وثمنٍ ورقًا تركوه، وتطعمهم بعشرين درهمًا نقرة؟ فقال: يا ولدي، أمّا طعامي لهم فهو خلقي، وأما طلبي لهم بصحة الحساب فهو حقّي وفيه غبن للعقول، ولا يجوز لي أن أغشهم وأتركهم على ظلمهم، بل أبيّن لهم وأردّهم إلى الحق.

فلا تعتقد يا ولدي أن الفقير إذا تحدث في شيء من ذلك أنَّ ذلك تعظيمًا للدنيا عنده.. حاشاهم والله من ذلك.

وقد حكى لي الشيخ عبد العزيز أنّه كان مرّةً بمكان وقد نُثِرَ على الناس دنانيرُ فوقع في حجر فقير جملة كثيرة من تلك الدنانير، فرأيته وقد نفضها من ثوبه ورماها بنفرةٍ قال: فلمَّا فرغَ جئت إليه فقلت له: لم فعلت هذا؟ فقال: لذّتي في رميها أحبُّ إليَّ من الدّنيا وما فيها.

وقد يحتاج أحدُهم إلى الفلس وهو يقدر على ملك الأرض، وحكاية الحلاج لما دخل عليه ابن خفيف وقال: كيف تجدك؟ قال: بنعم الله تعالى ظاهرة وباطنة فقال: أسألك عن ثلاثٍ قال: فقل فقلت: الصبر ما هو؟ فنظر إلى الأغلال والقيود فتفككت، ونظر إلى الحائط فانفلق، وإذا نحن على الدجلة فقال: الصبر هذا.

فقلت له: فما الفقر؟ فنظر إلى حجارة هناك فصارت ذهبًا وفضةً وقال لي: الفقر هذا، وإنّي لأحتال على الفلس للزيت.

فقلت له: فما الفتوةُ؟ فقال: إلى الغد. فقُتل في ذلك النهار.. فلمَّا كان الليل رأيت في المنام وكأنّ القيامة قد قامت ومنادٍ ينادي: أين الحسين بن منصور الحلاج؟

فأوقف بين يديّ الله تبارك وتعالى فقيل له: مَن أحبَّك أدخلتُه الجنة، ومن أبغضك أدخلته النار، فقال: يا رب، بل اغفر للجميع، ثم التفت إليّ وقال لي: هكذا الفتوة.

وحكى لي الشيخ عبد العزيز رحمه الله تعالى أنَّ فقيرًا حكى له أنّ الغلاء كان بمكة-شرفها الله تعالى- وكان الشيخ عبد الله المارداني بها، فلمّا فرق شيئًا من الصدقة قال لي الشيخ عبد الله: خذْ لنا منه فعجبت لذلك، على أنّ الشيخ عبد الله كان له تصريف عظيم في الباطن والظاهر كيف شاء، وكان ابن شعرة والبانياسي والدولة الكاملية يتصرف فيها فقلت له. فقال: لا تعجب لذلك؛ فإنَّ الشيخ عبد الله لما لم يقدر على مواساتهم ساواهم.

فانظر يا أخي رحمك الله تعالى إلى هذه الحكاية، فلا تعتقد أنّ طلبهم عن عجز، ولا تحريرهم عن شحٍّ رضي الله تعالى عنهم.

وحكي عن أحد الصالحين قال:كنت أطوف بمكة، شرفها الله تعالى، وإذا بإنسان عليه خُلقان وهو يطوف ويقول: جائع كما ترى، عار كما ترى، فما ترى فيما ترى، يا من يَرى ولا يُرى.

قال: وكان عندي دراهم ورثتها فقلت: والله لا أجد لدراهمي موضعًا مثل هذا، فمشيت وأخذتها وجئتُ بها إليه، ووضعتها بين يديه، وقلت له: يا سيدي، هذه الدراهم حلال ميراث، فسألته بالله العظيم أن يأخذها. قال: فأخذ منها خمسة دراهم وقال: هذه أربعة دراهم أشتري بها مئزرين أحدهما في وسطي والآخر على كتفي وهذا درهم أقتات به العشاء ولا حاجة لي في سائرها.

قال: فأخذتها ومضيت، فبينما أنا ليلةً من الليالي في الطواف فوجدته، فأخذ بيدي وطاف سبعة أشواط كل ذلك في جواهر ويواقيت -وربما قال لآلئ- وقال لي: كل ذلك قد أُعطيناه وتركناه تصرفًا، ولأنَّه أخفُّ علينا في الآخرة.

والمشهور عن الشيخ أبي العباس بقوص مما سمعته حين مسك الركنُ والي قوص أحدَ فقرائه بالأصطول، فجاء الشيخ ودخل على الوالي وكانت به الحُمَّى، فقال له: ما عرفتم الصالحين؟ أو ما تعرفونهم؟ أطلق الفقراء وتروح الحمى، فأطلق الفقيرَ وارتفعت الحمى.

وكان الشيخ -نفعنا الله تعالى به ورضي عنه- حادًا، وكانت حدّته تحجبُ الناس عنه، وكانت أحواله حادةً.

وأخبرني الشيخ ناصر الدين وكان قد صحبه زمانًا وكان يزوره في بيته قال: جئنا إلى دمامين، ونزل الشيخ المركب وربما أبطأت عن السفر، فقام الشيخ وأخذ الخُرج على كتفه وحلف بالطلاق ما يجلس حتى يسافر، ولما وردنا ظاهر أسوان أخذنا دوابًا وكان في النهار ومعه زوجته، فقال لي يا ناصر الدين، اركب وركّب الصغيرة أمامك.

قال الشيخ ناصر الدين: ثم ركب الشيخ وزوجته فقلت له: يا سيدي، كيف ندخل أُسوان في النهار على هذه الصورة؟ -أو كلام هذا معناه- فقال لي: يا ناصر الدين، إذا دخلنا هكذا هل يؤذينا أحد؟ أو يدّعي علينا عند القاضي؟ فقلت له: لا، إلا قبيحٌ. قال: وليس علينا منه قبح.

فانظر يا أخي رحمك الله تعالى إلى هذه الأحوال التي ليس فيها شائبة من شوائب العادة، ولا تنظر إلى أحوال الناس، هذا مع كونه كان عالمِا عارفًا بالظاهر والباطن رحمه الله تعالى.

وكراماته وأحواله وما يحكونه أصحابه ومن كان معه مشهورة، وبلغني عنه أنه قال: ما فُتح عليّ إلا وأنا تخمان، وما كان يتوقف في حالته على عادة.

وأخبرني شمس الدين بن الفقيه القاهري رحمه الله تعالى، وكان من المحبّين له المنتمين إليه قال: حصل عندنا عاقة أو أمر من جهة الشجاعي، وكان شمس الدين تاجرًا -وربما عوّق مراكبَهم- قال :فجئت إلى الشيخ أبي العباس، فقلت له: يا سيدي، أشتهي أن تكتب لي ورقةً إلى الشجاعي فقال لي: ما أكتب إليه شيئًا، فتألمت، فقال الشيخ: ها، وجلس وتوجه إلى القبلة، وأشار أنه يقضي الحاجة من الله تعالى.

قال: فنحن في الصبح، والشجاعي قد جاء إلى خدمة الشيخ وأطلق جميعَ المراكب، وربما قال: من غير أن يقول له الشيخ.

وأحوال الشيخ أبي العباس لا تكاد تحصى، نفع الله تعالى به.

الشيخ صفي الدين بن أبي المنصور (١)

ومنهم الشيخ صفي الدين بن أبي المنصور رحمه الله تعالى، كان كبير الشأن، صحب الشيخ أبا العباس الجزار(٢) واجتمعَ بجماعةٍ كثيرةٍ من الأكابر والأولياء، وأحواله جليلة وهمته عالية ومعارفه سنيّة، وله تصانيف في المعرفة.

وانخلع عن رئاساتٍ كثيرةٍ وعن وزارة أبيه.

والذين صحبهم لا يكادون ينحصرون، وقد ذكرهم في رسالته، منهم الشيخ عتيق صاحب قضيب البان والشيخ أبي العباس المرسي وأصحاب الشيخ أبي الفتح مثل عبد السلام القليبي وغيره من أصحاب الشيخ أبي الحسن بن الصباغ، وكان في زمن الشيخ أبي الحسن بن الصباغ وتأخّر إلى زماننا ،وأدرك الشيخ مفرج والشيخ أبا الحجاج والشيخ أبا يحيى.

ولما وصل إلى مدينة قوص قاصدًا الحجاز الشريف -وأنا قليل الاجتماع بالناس في ذلك الوقت، وأنا وحدي ولي عذر عن الخروج- فلم أشعر إلا وقائل يقول:

نعم، قلت: نعم، وقد حضر الشيخ صفي الدين، وقد جئت حتى لا أكلفك.

وكنت بعد ذلك أتردد إلى الشيخ إلى حين سفره، وجاء ولده إبراهيم بعد ذلك، وكان رجلاً مباركًا رحمه الله تعالى، وكان قدوة في أبناء جنسه، وانتفعت بالشيخ في حال حياته وبعد وفاته وكان للفقراء به عزة بعزٍّ هذه الطريق، ويصول على أبناء الدنيا وله أتباع وأصحاب بمصر المحروسة، ومنهم من يحدث عن رسول الله ﷺ، وكان حجابه هيبته وسطوته، فإذا خالطته وجدته ألطف من النسيم. ولم يقع الاجتماع به إلا المدة التي كان بها في مدينة قوص، وسافر إلى الحجاز ولم يقم بعد عوده من الحجاز كثيرًا

---

(١) عبد المؤمن بن عبد الحق، ابن شمائل القطيعي البغدادي، الحنبلي، صفي الدين بن أبي المنصور: عالم بغداد في عصره. مولده ٦٥٨ هـ، ووفاته ٧٣٩ هـ. كان يضرب به المثل في معرفة الفرائض .
له " معجم " في رجال الحديث، و " مراصد الاطلاع في الأمكنة والبقاع، اختصر به معجم البلدان لياقوت، و" تحقيق الأمل في علمي الأصول والجدل " و" اللامع المغيث في علم المواريث " و" شرح المحرر " لمجد الدين ابن تيمية في الفقه، والرسالة في التصوف.

(٢) له ذكر في تعطير الأنفاس (ص١٣٨) .

حتى توفي إلى رحمة الله تعالى.

الشيخ أبو عبد الله بن النُّعمان[(١)]

ومنهم الشيخ أبو عبد الله بن النُّعمان، كان كبير الشأن عالما بالحديث ظاهرًا بأوصافِ الروضةِ وأحوالِ الطريقِ، له جذبٌ للقلوب حسن الهيئة.

رأيته بمدينة قوص، وكنت مشغولاً عن الاجتماع به لكثرةِ الجمع عليه، وكنت نافرًا من الناس.

وكان جليلاً رحمه الله تعالى، وله قصائد وأتباع وأصحاب، وبيته كبير.

صَحِبَ الشيخ أبا الحسن بن قفل، و حكى لي القاضي زين الدين البوشي أن شخصًا كان يصحب الشيخ أبا عبد الله بن النعمان، وكان لذلك الرجل ولد جميل الصورة، وكان شخص يميل إليه، فجاء ذلك الرجل يسلِّم على الشيخ أبي عبد الله، فنثر يده منه بسبب صبابة ولده، فراح والد الشاب يضرب ولده ضربًا عظيمًا، وسجنه عنده أيامًا، ثم خرج الشاب فوجد الشخص الذي يميل إليه فقال: أين كنت؟ قال: جرى كذا وكذا -وذكر حديث الشيخ أبي عبد الله وما جرى عليه من الضرب وأراه الضرب- فجعل ذلك الشخص يتكلم في عرض الشيخ أبي عبد الله بكلام قبيح، وكان له عند الصاحب صورة.

فلمَّا كان ذات يوم، والشيخ أبو عبد الله خارج من باب الجامع هو وذلك الشخص وجد الشيخ فقال له كل قبيح ونسبه إلى الفاحشة وقال: أنتم تفعلون سرًا ونحن نجهر وقال له: يا شيخ نحس فقال: صدقت إن لم أعفُ عنك، وكان بين يدي الشيخ أصحابه، فقام رجل من أصحاب الشيخ ليضربه فقال الشيخ: إن وقعت عليه ضربةٌ خرجت من البلد.

فبلغ الصاحب بهاء الدين الحكاية فأمر بضرب ذلك الرجل الذي أساء على الشيخ، فسمع الشيخ، فأرسل أحد أولاده إلى الصاحب بهاء الدين وقال: إن وقعت عليه ضربةٌ خرجت من البلد، ثم إن ذلك الرجل مرض بعد واحدٍ وعشرين يومًا فراح

(١) له ذكر في الوافي في الوفيات للصفدي (٦٦٠/١).

إليه الشيخ فزاره ثم توفي اليوم الثاني :والعشرين.
رحمه الله تعالى.

الشيخ أبو القاسم المرائغي[١]

ومنهم الشيخ أبو القاسم المرائغي -ويعرف بالمراغي- كان عظيم القدر مستديم المعاملة، أحواله شريفة ومنازلاته جليلة، والحكايات عنه خارقة والاعتقادات فيه محققة.

صحب الشيخ أبا الحسن بن الصباغ، وأقام بعده في القرافة الكبيرة إلى أن توفي إلى رحمة الله تعالى، ولم أجتمع به في مدة حياته حتى توفي فرأيته في المنام وهو يستخرج الحُمَّى من الصاحب بهاء الدين، وكان الصاحب حسن الاعتقاد فيه.

آخاني الشيخ أبو القاسم في المنام وقال لي: هذه أخوة لم تدركها الدنيا فتدنسها، وله أولاد مباركون أخيار، منهم الشيخ علي نفع الله تعالى ببركاته، كبير الشأن كثير الأعمال محفوظ الأوقات، قائم بالشرع في التبعية لوالده؛ إذ كان الشيخ أبو الحسن وأصحابه رضي الله تعالى عنهم محفوظي الأوقات، متمسكين بالشريعة المحمدية المطهرة، وولده أبو العباس أحمد، كان عمَّالا مجتهدًا محبًا لأولياء الله تعالى، وله بالجعبري صحبة بعد والده، رحمه الله تعالى. والشيخ عمر أيضًا.

وأخبرني الشيخ عمر عن والده الشيخ أبي القاسم المراغي رحمه الله تعالى عن الشيخ أبي الحسن أن الشيخ أبا الحسن كان جالسًا عند مجرى الماء، وإذا هو يكتب بعود، وإذا هو قد عظم حتى صار كالشيء العظيم أو كالبيت العظيم، ثم تصاغر وتضائل حتى صار كالفرخ، ثم عاد إلى حالته.

وكان الشيخ أبو الحسن جليل القدر عظيم الشأن سكن إسنا وأقام برِبَاطِه بعد ما كان بمدينة قوص وربَّى جماعةَ أكابر -وكان وقته وقتَ فتح- وكان فريدًا في زمانه يشار إليه بالقطبية، والذي لم ير من أقواله وأفعاله يُدَلُّ على عظم شأنه.

قيل أنّه كان يخرج على أصحابه ويقول: هل تعلمون مَنْ إذا أراد الله تعالى أن يحدث في العالم شيئًا أعلمه به قبل إحداثه؟ فيقولون: لا فيقول: ابكوا على قلوب

---

(١) انظر: الوافي في الوفيات (١/١٢٢٠)، والكواكب (٢/٢٤٢).

محجوبة عن الله تعالى، وقيل أنّ الناس كانوا يمشون حوله، يرقبون أن يعطس منهم عاطس فيقول: الحمد لله فيقول له الشيخ: يرحمك الله فيستبشرون بذلك.

وكانت حالته حالة الأغنياء، يمد السِّماط الذي لا يمدُّ مثلَه إلا الملوك، ويعجز عنه الأمراء، ولا يعلم أحد من أين ذلك؟ وكان له أصحاب أكابر أدخلهم الخلوة مثل الشيخ علم الدين المنفلوطي(١)، والشيخ أبو بكر بن شافع -المكنى أبا يحيى- وأبو الحجاج المغاوري، والشريف أبو المعالي، ورفاعة، والحجازي، ويوسف بن إدريس، والشيخ مجد الدين بن دقيق العيد، وشرف الدين إسماعيل بن الصابوني.

ومن أصحاب الشيخ أبي يحيى جمعٌ كثيرٌ، وأخبرني الشيخ عبد العزيز أنَّه اجتمع بالشيخ أبي الحسن بن الصبَّاغ وأنشده شيئًا من نظمه. قلت له: فكم كان سنّك ذلك الوقت؟ قال: ثلاثين سنةَ، وتأخر الشيخ عبد العزيز إلى هذا الزمان.

وحدثونا أن جماعة أكابر بقوص كالنجيب بن هبة وكمال الدين وغيرهما، كانوا عند الأمير المكرم في الليل، وجرى حديث الشيخ أبي الحسن ومن أين ينفق؟ وهل هو يُخَصُّ بالسِّماط؟ وهل الذي يعمله لوجوه الناس من الأمراء والأكابر؟ وهل هذا معناه أم لا؟ فقال: قوموا نركب نروح إليه على غفلةٍ، فركبوا في الليل، وكان الشيخ عند فراغه من الحزب بعد عشاء الآخرة ،قال لمتولي الطبخ: اعمل من الشي كذا، ومن الحلوى كذا. وراح الشيخ إلى منزله، وأصبح صلَّى الصبح والأمير المكرم والأكابر وَصَلُوا وصَلُّوا الصبحَ خلفه، فعندما سلَّموا مَدُّوا السِّماط وفيه من الأطعمة الخاصة ما لا يقدرون عليه مع الكثرة، وكانوا متمولين كالملوك والأمير المكرم، فتعجبوا لذلك عجبًا كثيرًا. ثم قال أحدهم -ولعله النجيب بن هبة- يا سيدي، أيُّ شيء خلّيتم لأبناء الدنيا؟ فقال

(١) هو إسماعيل بن إبراهيم بن جعفر الشيخ علم الدين المنفلوطي ثم القنائي كان من الفقهاء الصالحين المعروفين بالمكاشفات والكرامات من أصحاب الشيخ أبي الحسن ابن الصباغ مالكي المذهب كان يغيب أوقاتاً كثيرة وربما استمرت غيبته اليومين والثلاثة وتنحل عمامته وتنسحب خلفه.

وصنف كتاباً وذكر فيه من كلام شيخه أبي الحسن ومن كلام شيخ شيخه عبد الرحيم ومن أحوالهم نبذة وغير ذلك وفيه أحاديث واستدلالات دلت على فهمٍ وعلم وفيه مسائل فقهية ومقالات صوفية . وتوفي بقنا في سنة اثنتين وخمسين وستمائة. وانظر: الوافي (١١٩٩/١).

الشيخ: التعب والنصب.

فهذه وأمثالها من أحوال الأكابر، لا يُنْكَر عليهم لأنَّ بواطنهم خالية عن ذلك وإذا خلا القلب من الآمال فلا يضر أن تكون اليد فيها المال، فقد كان السيد يوسف الصديق عليه السلام متصرفًا في خزائن الأرض، وقد كان السيد سليمان عليه السلام أُوتي ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، وكان السيد أيوب عليه السلام له المال.

وكان من الصحابة من له المال، كالسيد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، والسيد عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، والسيد العباس رضي الله عنه عم النبي صلى الله عليه وسلم ، والسيد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وحكي عن الشيخ سعيد بن أبي الخير أن [حدوة] خيلِه كانت ذهبًا، ولعله إنَّما فعل ذلك احتقارًا للدنيا، فإن مقاصد القوم مستورة تحت سرائرهم عند الله تعالى.

وكان الشيخ أبو الحسن بن الصباغ تصريفه عجيبٌ، وحكى لي الشيخ عبد العزيز أن فقيرًا أتى إلى قنا عليه ثوب أزرق وطاقية، وكان يخبر الناس بما يأكلون في بيوتهم وما يدخرون وما يتحدث به الرجل مع زوجته في فراشه، ويقول لمن يجتاز أتيتني بالدينار الفلاني من الكيس الفلاني الذي في صندوقك، ويذكر له عدد الذهب أو وزنه، فيخرق عقول العوام وتحشَّر عليه الناس، فقيل للشيخ أبي الحسن عنه- وربما سكت- ثم قيل له عنه فقال: ادعُوه، فدعَوه، فحضر، فأجلسه قريبا منه، وسكت الشيخ ساعة ثم رفع رأسه إليه وقال: إيش تقول في السلطان؟ أتحت يده أمراء أم لا؟ قال: نعم قال: فالأمراء تحت أيديهم أجناد أم لا؟ قال: نعم قال الشيخ: فإذا قال السلطان لجندي من أجناد أمير: اضربْ رقبة أستاذِك، يقدر يخالف السلطان؟ قال :لا، قال الشيخ: والله الذي لا إله إلا هو، متى رجعت تتصرف في بلاد المسلمين بهذا الجني لآمرنَّه أن يضرب رقبتَك.

قال: فقام الفقير وجلس بين يدي الشيخ أبي الحسن وتاب إلى الله تعالى وأخذ عليه العهد.

فانظر يا أخي إلى هذا الكشف وهذا التصريف في الجن والإنس والدنيا والآخرة، فإن الكرامات وخرق العادات من عالم الآخرة.

وأخبرني الشيخ عبد العزيز عن فقير من أصحابه قال: سألت ذلك الفقير الذي

تاب بين يدي الشيخ أبي الحسن بعد وفاة الشيخ أبي الحسن أن يخبرنا بشيء أو يفرحنا بشيء، فقال: والله الذي لا إله إلا هو من وقت تبت بين يدي الشيخ أبي الحسن ما رجعت أجتمع بذلك الجني، وأخبرني عنه بعض الجن أنه مات.

وكان الشيخ أبو الحسن من أهل قوص، وحدثونا عنه أنَّه كان صبَّاغًا، وكان يعمل كل يوم بأربعين درهمًا ورقًا، وكان يقتات منها بفلس خيار ويتصدق بالبقية، إلى أن كان من أمره ما كان.

وله بقوص خانقاة، وهي أول رباط بني بمدينة قوص، بناه زهير أحد أصحابه.

وحدثوه عن الشيخ أبي الحسن أنه قال: ما لأحدٍ عليَّ منة إلا لله تعالى ورسوله ﷺ خرجت أتطهر للجمعة فأُخذْت أخذةً فحصل لي ما حصل، أو قال كلمة هذا معناها.

الشيخ عبد الرحيم الحسيني(١)

وحكى أيضًا أنه صَحِبَ الشيخ عبد الرحيم الحسيني صاحب الشيخ أبي النجا المدفون بفوة، وتزوج بابنة الشيخ عبد الرحيم، وكان الشيخ عبد الرحيم اسمه أسد، وإنَّما غلبت عليه الرحمة فسمى نفسه عبد الرحيم.

وحكي عن الشيخ عبد الرحيم أنه قال: أنا أتعجب، كيف لا يُفتح على البنات في خدورها؟

وذكر عن أحد العارفين أنه قال: لو كنت حاضرًا عند وفاة الشيخ عبد الرحيم ما خليتهم يدفنوه إلا كانوا يصبرونه ويتركوه، أي من نظر إليه نطق بالحكمة.

وكان الشيخ عبد الرحيم جليل القدر يُعجز عن وصفه، ولم نترك الكلام في مناقبه إلا لِمَا التزمناه من أنَّا لا نذكر إلا من رأيناه أو سمعنا عنه مِمَّن رآه، مع أن الشيخ

(١) له ذكر في الوافي للصفدي (١/٣٠٩٥).

أبا العباس الملثم رآه وأخبر عنه، والشيخ أبو الحسن قد أخبرنا مَن رآه.

ولسنا نستقصي أحواله وأقواله فإنها مشهورة وله كلام، لأن جميع ما نذكره دُون جميعِ قدرِه، فإذا أمسكنا عن مناقب الرجل الكبير فهو من العجز، وخَرُسَ عن الشيخ أبي الحسن أكابرٌ، كالشيخ علم الدين المنفلوطي، أخبرني الشيخ مكين الدين -وكان رجلاً صالحًا عدلاً- قال: كنت جالسًا والشيخ علم الدين وصدر الدين المنفلوطي، فقال الشيخ علم الدين للقاضي صدر الدين عن أمر فلم يفعله، فقال له الشيخ علم الدين: تخالف القطب؟ فقال له: يا سيدي، وأنت القطب؟ فقال الشيخ علم الدين: والله الذي لا إله إلا هو أنا القطبُ الذي هو غوثُ الوجود بأسره.

وكانت له أحوال جليلة ومنازلات شريفة، ومماحدثونا به أنه كان يمشي وتنحل عمامته وتنسحب خلفه، وكان ينشد:

لَيس الصحيحَ إذا مشى كالمقعدِ لا تَجْر ذِكري في الهَوى مَع ذِكركم

وأحضر لي خادمه، الشيخ مخلوف بن حريرة، أوراقًا بخط الشيخ وجدت عند رأسه بعد وفاته، وفيها ما لا تسعه العبارة من المخاطبات والمنازلات، حتى إنني حصل عندي شيء من كون البشر تميل إلى مثل هذا الأمر العظيم فلم تمضِ مدةٌ حتى وقع لي ببركته ما تحققت به صحةُ ما وجده وسمعه ورآه رضي الله عنه.

الشيخ أبو يحيى ابن شافع[1]

ومن أصحابه الشيخ أبو يحيى بن أبي بكر بن شافع.

كان عظيم الشأن، وكان بين أصحابه كالملك بين أجناده.

وكان بدء أمره كما حدثني الشيخ ناصر الدين محمد بن عبد القوي الأسواني المعروف بابن شعبان، لكونه كان مريده عن خادم الشيخ أبي الحسن بن الدقاق، قال: خرجت مع الشيخ من بلده إلى البهنسا أو دهروط -أو كما قال- قال: فمشينا ليلاً،

(١) أبو يحيى بن شافع القنائي، صوفي صنعته المعارف، وطافت به العوارف.
كان بحانوت يتسبب فيه، فرآه الشيخ أبو الحسن الصباغ فقال: هذا يصلح للسلطنة، ويتزوج بنت الخليفة، فقام للوقت، وترك حانوته وتبعه، فأقام بخدمته مدة، وتسلك بالشيخ، وتزوج ببنت الخليفة، وظهرت له كرامات وخوارق باهرات. انظر: الطالع السعيد (٧٤٣)، وطبقات الأولياء (٤٨٣).

وإذا نحن بجبانةِ قنا، فلمَّا طلع الفجر إذا بالشيخ قد جاء وتقدم وصلّى بنا، ولم يتكلم ولم نتكلم، ثم رجع إلى قنا فقلت للشيخ: سألتك يا سيدي بالله تعالى من هذا الرجل؟ قال لي: هذا الشيخ أبو الحسن الصباغ فقلت له: يا سيدي، من هو الشيخ فيكما؟ وأقسمت عليه فقال: الذي صلى إمامًا، قم بنا إلى زيارته قال: فقمنا ومشى الشيخ في السوق، وإذا شاب أمرد جميل الصورة، فوقف الشيخ مقابل دكانه ينظر إليه، فحصل في نفسي من وقوف الشيخ ونظره إلى ذلك الشاب شيء، فالتفت الشيخ إلي -وربما قال مسك أذني- وقال لي: هذا الشاب يجيء منه سلطان ويتزوج بنت الخليفة، فكان ذلك الشاب هو الشيخ أبو يحيى بن شافع، انخلع عن معاشه وقام من مكانه وصحب الشيخ أبا الحسن وتزوج بابنته، وكان منه ما كان.

ولقد حدثونا أن الشيخ أبا الحسن كان يأخذ الشيخ أبا يحيى في ليالي الشتاء ويخوض به الماء في بركة هناك تسمى الملاح من قوة الوارد وحرارته.

وأنه كان له طبقة في طريق الجبانة أراني إيَّاها قال: كان يُسمع منها كدوي الرعد من الوارد الذي يرد عليه.

ولما أدخله الشيخ أبو الحسن الخلوة أتاه بلوزة بعد عشرين أو أربعة وعشرين يومًا فامتنع من أكلها وقال: والله مَا أكلت ولا شربت إلا حتى أصل إلى ما وصل إليه الرجال، هم رجال ونحن رجال، فلمَّا رأى الشيخ أبو الحسن قوته وعزمه تركه ولجج به في بحار التحقيق وتولى الله تعالى أمرَه وكان منه ما كان.

وحدثونا أنه لما تُوفي الشيخ أبو الحسن ﷺ اجتمع جماعة كالشيخ ضياء الدين ابن القرطبي وغيره من أكابر، بالشيخ زين الدين ولدِ الشيخ أبي الحسن، وقالوا له: تجلس لنا مكان الشيخ، فبكى الشيخ زين الدين وقال: أكذب على الله تعالى؟ ثم جاء إلى الشيخ أبي يحيى وتابَعه ودخل على يده الخلوة.

وحدثونا أن الشيخ أبا يحيى لما خرج الشيخ زين الدين من الخلوة قال له: قد أوصلتك إلى ما أوصلني إليه أبوك.

وكان للشيخ أبي يحيى أصحاب ملاح أكابر، فُتح لهم على يده، وكان مظهرَ الغنى يمُدُّ السِّماط كالملوك كجاري عادة شيخه.

أخبرني الشيخ أبو الطاهر إسماعيل بن عبد المحسن المرائغي أحد أصحاب الشيخ أبي يحيى أنه كان يزن لكل فقير بعد العشاء رطل حلاوة، وأنَّهم كانوا يأكلون حشو القطائف المقلي ويتركون قشوره، وكانت أحوالهم على هذه الصورة رضي الله عنهم.

ومنهم الشيخ أبو الطاهر إسماعيل المذكور، صَحِبته سنينًا كثيرة إلى أن توفي إلى رحمة الله تعالى، كان عامر البطن غير مكترث بالظاهر، يلبس ثوبًا عليه ومئزرًا على كتفه كيف كان، وزربول في رجله كهيئة الفلاحين، وكان يخبرنا بالعجائب والغرائب وله مخاطبات.

ولقد كنت يومًا جالسًا أنا وإيّاه عند قبر ميت لنا، فخطر في نفسي أنني وقعت في محظور، وقام الشيخ، فقدّمت له نعله، فالتفت إلى وقال: سمعت قائلاً يقول: ﴿**فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ** ﴾ [ص:٢٥] .

فانظر يا أخي إلى هذا الكشف والإخبار، وأخبرني مرة أنه دخل من موضع يفصدني الفاصد قال: وصلت إلى قلبك لأجده قلبًا صغيرًا نورانيًا، فقيل لي: ما تريد؟ فقلت: أريد أعرف ما فيه فقيل لي: لا سبيل إلى ذلك، ولكن انظر ما على جنبيه قال: فنظرت فوجدت مكتوبًا عليه:

﴿**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ المُسْلِمِينَ** ﴾، [الأنعام:١٦٢،١٦٣].

وأخبرني الشيخ أبو الطاهر أنَّه كان بينه وبين الشيخ أبي يحيى تاج الدين بن شعبان صحبة في الطريق إلى الله تعالى، وكان شيخهما الشيخ أبو يحيى، وكان إذا ورد على أحدهما شيء ورد على الآخر، قال: فاتفق ليلةً أنَّ الشيخ بعد قراءة الحزب راح إلى بيته، وكان ينهانا عن الاجتماع، فورد عليَّ علمُ المآرب التي في عصا السيد موسى عليه السلام لقوله تعالى: ﴿**وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى**﴾ [طه:١٧،١٨].

فأُلقي عليَّ علمُ المآرب فضقت عنه، وحصل للشيخ تاج الدين ذلك وضاق عنه، وجعل كلٌّ منّا يطلب صاحبه حتى يُلقي ما عنده إليه، فاجتمعنا في زاويتي - كما قال أو زاويته- قال: فلم نشعر إلا والشيخ أبو يحيى ثالثنا، فبقي كل واحد منا

يشتهي أن تنشق الأرض ويدخل فيها خوفًا من الشيخ.

وكان الشيخ أبو الطاهر يخبر باجتماعه بملك الموت عليه السلام ورؤيته، ويخبر عن نفسه عجائب، ونحن نقتصر على التعريف بمكانته.

وحدثني الشيخ ناصر الدين بن عبد القوي عن الشيخ أبي الطاهر أنَّه قال: والله الذي لا إله إلا هو، لقد وضعت قدمي على الصخرة التي تحت الحوت، وكلَّمتني النملة التي كلَّمت السيد سليمان عليه السلام ورُفعتُ على الذي رُفعَ عليه السيد سليمان عليه السلام.

وكان الشيخ أبو الطاهر يقول: إذا امتلأ القلب بالنور، دكَّ كلَّ حجاب بين العبد وبين الله تعالى.

ومن أصحاب الشيخ أبي الحسن الشيخ **رفاعة**(١)، حكى الشيخ أبو الطاهر أن الشيخ أبا الحسن رضي الله عنه تحدث مع والي قوص أن يعزل والي قنا، فامتنع من عزله، وكان رفاعة حاضرًا، فقال رفاعة: يا سيدي، أقول؟ فقال له الشيخ أبو الحسن: لا، ثم خرج الشيخ، وربما كان الشيخ توجه إلى الوالي بذلك السبب، قال: فلمّا اجتمع الفقراء بعد خروج الشيخ قالوا لرفاعة: ما كنت تريد تقول قال: إنَّ الوالي لَمَّا ردَّ على الشيخ عُزِل في ساعته فأرَّخوا ذلك الوقت، وجاء المتولي مكانه والمرسوم في ذلك التاريخ.

وهذا يدل على تصريف القطبية؛ لأن القطب هو الذي يولي ويعزل حقيقة، وصورة من يولي ويعزل ظاهرًا فهو عنه وإن لم يفعل ذلك.

وأخبرني الشيخ أبو الطاهر عن رفاعة أنَّه أتاهم ذات يوم طعام أمير أو والي فقال الشيخ أبو الحسن- أو أبو يحيى الله تعالى أعلم، والذي هو عندي الغالب الشيخ أبو الحسن- قال: من أراد أن يأكل يأكل، ومن أراد ألاّ يأكل لا يأكل، فامتنعَ الفقراءُ

(١) هو الشيخ رفاعة بن أحمد بن رفاعة القنائي الجذامي.
من أصحاب الشيخ أبي الحسن الصباغ.كان مشهورًا بالصلاح، ولزوم طرق النجاح، ذكر مع أرباب المقامات، نقلت عنه غرائب وكرامات... مات في القرن السابع، ودفن بالأعمال القوصية.
هكذا في الكواكب (٥٠٧)، ونقل هذه الحكاية المذكرة عن المصنف.

الجميع إلا رفاعةُ، فإنَّه بقي يأكل ويقول: والله ما آكل إلا بورًا، وهذا يدل على الكشف الصحيح والمعرفة بما له من الرزق، وتخليص الحلال من الحرام والشبهة.

كما حكي عن الشيخ عبد العزيز القرشي رضي الله تعالى عنه، قال: ورد على القرشيِّ فقير، فعجن الشيخ فطيرة، وقرّصها وخبزها، وجعل يفتُّ في قصعةٍ، فكانت تطير لقمة عن يمينه ولقمة عن شماله ولقمة تقع في القصعة، قال: فقال لي: خذ هذا الذي على الشمال أطعمه الكلاب، وأعطاني الذي على اليمين وقال: أطعمه للفقراء- وربما أصلح الذي في القصعة- وقال: كل، وأكل وأكلت فقلت: يا سيدي، سألتك بالله، ما هذا الذي كان على الشمال والذي على اليمين والذي أكلناه؟ فقال: أما الذي على الشمال فهو الحرام، وأما الذي على اليمين فهو الشبهة، وأما الذي في القصعة فهو الحلال خلَّصه الله تعالى لي من الشبهة والحرام.

فانظر يا أخي رحمك الله تعالى إلى هذا الاختصاص الإلهي، وهذه القدرة الإلهية التي ميزت له الحلال من الشبهة والحرام بعد اختلاط الدقيق وعجنه واحدًا وخبزه، فهذه وأمثالها من التخصيص الإلهي، فمثل هؤلاء لا يعترض عليهم فيما يفعلونه من أكل ولا شرب ولا عمل من الأعمال.

الشيخ أبو الحسن المغاوري

ومنهم الشيخ أبو الحسن أبو الحجاج المغاوري.

وله الغرائب والعجائب ﷺ أنَّه كان يأخذ إبريقه وعكازه ويخرج إلى البرية على غير طريق بلا ماء ولا زاد يقيم الشهرين أو الأشهر ويعودون.

هذا شأنه وقد حكي عنه -ولعل الحاكي الشيخ أبو الطاهر، فإنَّه كان يحكي عنه- قال: خرجت مرةً فوجدت اثنين ونحن سائحون في البريَّةِ فطار علينا طير فخطف أحد الشخصين، فلمَّا كان ثاني يوم حام علينا وخطف الفقير الآخر، فلمَّا كان ثالث يوم حام فتقصّعت عليه، فحين خطفني أمسكت برجليه، فطار بي في الهواء، إلى أن صعد بي إلى جبل عال فحطّني وقد تعب؛ فإني كنت أطوّح وأنا ماسك برجليه، ثم طار فقعد عني بعيدًا، فقمت وأخذت حجرًا ورميته فطار، فمشيت فوجدت أصحابي أمواتًا قد أكل أعينَهم ونزَّلهم، ومشيت فأجد من الأموات من سائر الأصناف ما لا ينحصر

على ذلك الجبل، لم يأكل منهم إلا أعينَهم.

فبقيت ثلاثة أيامٍ وأنا أطوفُ على طريق أنزلُ منها فلم أجد طريقًا أصل،اً فرأيت قرنة خارجة في الجبل، فأخذت عمائم الأموات وربطت بعضها في بعض وربطتها في قرنة الجبل ورميت بها، على أنني أنزل بها كالسلبة، فخيل لي من بُعد الجبل أنّها وصلت إلى الأرض، فمسكت بالعمائم وتدليت فيها إلى ثلثي المكان فبقيت معلقًا في الهواء لا أقدر على الصعود ولا على الهبوط، وبقيت كذلك حتى تعبت يداى وتحلّت عني، فسيّبت نفسي وتوكلت على الله تعالى، فوقعت على شجرة فقامت بي وقعدت ورَمت بي على الأرض، وقد دخل الشوك والغصون في جلدي ولحمي، فبينما أنا كذلك وإذا بأسدٍ قد أتاني وجعل يلحسُ بلسانه مواضع الشوك والأغصان حتى استخرج من جلدي ولحمي الشوك، ثم جلس أمامي وحرك ذنبه وأشار إليَّ أن أتبعه فتبعته وهو يمشي أمامي، حتى نزل، فرأيت قريةً من قرى الشام.

قال: كنت في السياحة فأقمت مدةً -ربما قال شهرين- قال: فعطشت حتى سقطت جوارحي، وإذا أنا بشخص راكبٍ على ناقة أو جمل فنزل ورماني إلى الأرض وأخرج سكينًا وقال: والله لأذبحنَّك وأُريحُ نفسي منك قال: وأنا أضحك، وإذا بشخص من ورائه يقول: لا تفعل، ثم أخرج شَربةً وسقاني.

وحكى لي والدي -رحمه الله تعالى- عن الشيخ أبي الحجاج المغاوري المذكور أنَّه كان مرةً بمغاور، فالتقى هو وفارس من الفرنج -أو خرج عليه فارس من الفرنج- فتلاقيا وتقابضا على الخيل حتى وقعا على الأرض، وأنَّ المغاوري صرعه وجلس على صدره وعرض عليه الإسلام فأَبَى.

قال: فأخرجت مُديةً ووضعتُها على عنقه وقلت: بسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله فلمَّا قلت هذا الكلام قال: امسك يدك، أنا أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أنَّ محمدًا رسول الله، فقلت له: فما الذي منعك حين عرضت عليك الإسلام أولاً؟ فقال: اعلم الأصل أنَّني من أكابر الملك، أعني من الأمراء الكبار، وكانت لي ابنة عم فتزوجتها وكنت أحبها، فدخلت يومًا لأجد إلى جانبها شخصًا فقلت: من أنت؟ فقال لي: من

أنت؟ فقلت: زوجتي فقال لي: زوجتي، وأنا سبقتك إليها من وقت ولدتها أمُّها، ووضعت يدي فأخذتها حين وضعتْها أمُّها. قال: فنظرت إليه فوجدته على غير الهيئة التي نحن عليها، وكذلك عيناه ورجلاه، فعرفت أنَّه جِنِّي ولا لي حيلة فيه، فقال لي: لا تخف منّي، فإنَّني ما أقدر أترك هذه وأنا أنظر إلى هذه، فاختر لنفسك: إمَّا أن تكون عندها في الليل وأكون أنا في النهار، أو تكون أنت بالنهار وأكون أنا بالليل ولا يصيبك مني شيء، فقلت له: أمَّا بالنهار فأنا أكون بين يدى الملك فتكون أنت بالنهار، وأكون أنا بالليل، قال فكنت أجيء بعضَ الأوقات في النهار، وأجده، فربما أخبرني بأمور وقعت في البلاد فأُخبر الملك بها فتقع كما أخبرن،ي فحصل لي عنده بذلك صورة.

قال: فلمَّا كان أحد الأيام قال لي: نحن نريد نسترق السمع في السماء، تشتهي تتفرج؟ فقلت: نعم قال: البس عليك ثيابًا كثيرة فإن الجو بارد، وعصّب عينيك فإنّ ثلاثة جمال يعبرون عليك اركبْ الأول، قال: ففعلت ذلك قال: فجاءتني الجمال، وتقدّم إليّ جمل فركبته وطار بي في الهواء، حتى قطعنا مسافةً ولم يبقَ حسٌّ، حتى سمعت رَجْلَ الملائكةِ بالتسبيح والتقديس، فنحيت طرف العصابة فرأيت الكواكب مثل الجبال، ورأيت الملائكة تمشي في طرق السماوات، وهم يسبحون الله تعالى بأنواع التسبيحات والأذكار، فلم أستطع أن أسكت، فقلت: لا إله إلا الله.

فما إن قلتها، إذا مَلَك نظر إلى العفريت وبيده شهاب، فقال: بسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله، ورماه بذلك الشهاب فصادف جانبه، فراغ العفريت من تحتي، وطحت في الهواء.

فلم أشعر بنفسي إلا بحرارةِ الشمس، وأنا على تل رملٍ وعليّ ثياب كثيرة لا أستطيع المشي بهم، ولم أجدني أصابني شيء، فقمت لأجد إنسان، فسألت عن بلدي فقال لي: وأين بلدك؟ بينك وبينها كذا وكذا -وربما قال سنة – قال: فبعت من ثيابي وسافرت إلى أن وصلت بلدي وقد شبت.

فطلعت إلى بلدي، وجئت إلى منزلي ليلاً، فقرعت الباب، فكلمني الجواري فقالوا: من أنت؟ فقلت: أنا فلان قالوا: ذاك قد مات، وأجدهم قد عملوا مأتم السنة،

ثم إنهم رأوني فقالوا: كان سيدنا شاب وأنت شيخ، فقلت: خلوا ستكم تكلمني فجاءت عند الباب، فعرّفتها من ليلةِ دخلت بها إلى حين غيبتي عنها فعرفتني، ودخلت بيتي فأقمت مع أهلي أربعة أشهر، ولم أرَ ذلك الجنيّ، فبينما نحن يومًا جلوسٌ وإذا هو قد شقّ الحائط وخرج وإذا نصفه محروق، وعينه عليها خرقة، وهو يئن، فعندما رأيته قلت: بسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله، فحين قلتها احترق جميعه وطلع دخانٌ.

فلمّا سمعتَك تقول هذه الكلمات علمتُ أنّكم على الحقِّ؛ فإنني سمعتها في السماء، فأسلمت.

الشيخ المغاوري وملك الروم

ومِمَّا ذُكِر عن المغاوري أنَّه قال: قيل لي إنَّ ملك الروم أخوك، أو في مقامك، أو عديلك في الجنة- أو كلام هذا معناه- قال: فسافرت إلى أن وصلت إلى البلد التي هو فيها، وكانت له كنيسة يدخلها في كل سنة مرّةً، فجئت إلى تلك الكنيسة على زيِّ الرُّهْبان، وأقمت في الكنيسة إلى أوان حضوره، فرأيت الذي بها في همة -وكان فيها جمع كثير من الرهبان والقساوسة وغيرهم- فلمَّا رأيتهم قلت لهم: ما بالكم؟ قالوا: الملك يريد أن يجيء إلى الكنيسة قال: فتسترت أو حجبني الله تعالى عنهم وغلقت الكنيسة، ولم يبق فيها أحد، وجاء الملك ففتحوا له الكنيسةَ فدخلها وحدَه وغلَّق الباب عليه، فلمّا دخل خلع ما عليه من الثياب وإذا تحت ثيابه لباس شعر ثم توضأ وصلّى إلى قبلة المسلمين ودعا الله تعالى، وقال: يا ربِّ وعدتني بأخي يوسف، قال: فخرجت إليه فسلّم عليَّ وسلمت عليه، وقال لي: يا أخي، لي عشرون سنةً وأنا أنتظرك، ووعدني الله تعالى برؤيتك فقلت له: فما هذه الحالة التي أنت عليها؟ فقال: هكذا أُمرت وهذه الحالة أسلم من الرياء، وأكثر جهادًا في أعداء الله تعالى، واقعد مكانك حتى تبصُر.

قال: فخرج عليهم الملك بعد لبس ثيابه، واجتمع عليه القساوسة والرُّهبان والنَّصارى فقال لهم: متى كانت عادتكم تدنّسوا بيت الرب بروائح المسلمين أو بإدخال المسلمين بيت الرب؟ فقالوا: لم نفعل ذلك، قال لهم إنِّي أشم رائحة المسلمين في بيت الرب، فحلفوا على ذلك فلم يقنع حتى حلفوا له بالأيمان التي توجب القتل في شرعهم، فلمَّا استوثق ذلك قال لعلمائهم: إيش تقولون فيمن حلف بهذه الأيمان وحنث؟ قالوا:

السيف فقال: يا أبا الحجاج يا يوسف، اخرج قال: فخرجت فقال لي: إيش أنت؟ فقلت: مسلم، أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله، فقال: السيف، فضرب رقاب الجميع -وكانوا جمعًا كثيرًا- ثم قال: أمَّا هذا فله حق لخدمة بيت الربّ.

فأخلع عليّ وحملني معه إلى داره، فكنت أخرج متخفيًا، فمن وجدته وظفرت بقتله قتلته، وبقيت على هذا مدةً كثيرةً ففطنوا إليّ، فبينما أنا ذاتَ يومٍ راكبٌ وإذا قد أحاط بي خمسمائة فارس وبقيت في وسطهم، وكانت هناك صخرة أو حجر كنت أحسن الظن به، قال: فجعلني الله في أعينهم حجرًا حتى كانوا يضعون أعقاب الرماح على رأسي ويقولون: كان مكان هذا الحجر.

الشيخ تاج الدين بن شعبان(١)

ومن أصحاب الشيخ أبي يحيى الشيخ تاج الدين بن شعبان بن إبراهيم بن محمد، كان كبير الشأن، وهو شيخ الشيخ ناصر الدين بن عبد القوي، وكانت له أحوال شريفة ومواجيد وأخبار عزيزة.

أخبرني الشيخ أبو الطاهر إسماعيل أنَّ الشيخ ضياء الدين بن القرطبي دخل إليه ذاتَ يومٍ، فقال الشيخ تاج الدين للشيخ ضياء الدين بن القرطبي: اغتسل وأعد صلاتك، فإنك كنت واقفًا في الصلاة وفلانة تمثلت بين عينيك -وسمَّى جاريةً كان ضياء الدين يحبُّها- فنزلت الشهوة إلى قلبِك وقام ذَكَرُك وأمنيت وبطلت صلاتك، فحصل للشيخ ضياء الدين منه حزن شديد لما كشف بذلك.

وحكي أنَّ ضياء الدين دخل على الشيخ تاج الدين وقال له: يا سيدي قد طلبوا رُبَّانَ الجِلبة التي لي وراحوا به إلى قوص وتتلف الجلبة وقماش فيها ويحصل الضرر، فقال له الشيخ تاج الدين: الساعة يأتي السيد جبريل عليه السلام وأوصيه عليك -أو قال: أوصي عليك السيد جبريل- فخرج، وجاء وهو مشوش فقال له: قد جاءني السيد جبريل عليه السلام وأوصيته عليك -أو قال: أوصيت عليك السيد جبريل عليه السلام- قال: فبينما نحن كذلك وإذا بالرُّبان قد أقبل، فقيل له ما بالك؟ فقال: ما أعلم إلا أن الوالي حين نظر إلى قال: أخرجوه عني فأخرجوني وشيَّعوني، حتى جئت ولم يتعرض إليَّ أحد وكانوا

(١) له ذكر في الكواكب (٢/٢٠٣).

قصدوا أَخْذه لمراكبهم أو لغير ذلك.

وأُخبرت أن ناصر الدين بن عبد القوي- رحمه الله تعالى- عن الشيخ تاج الدين ابن شعبان ﷺ قال: قلت: يا سيدي أنت تحتد كثيرًا، قال: وكان في الشيخ حدة فقال لي: يا ناصر الدين، هذه الحدة.. أو قال: اعذرني، فهذه ما اكتسبتها إلا من كثرة صحبتي للسيد جبريل عليه السلام.

وقول الشيخ «قال لي جبريل عليه السلام، وقلت لجبريل» غير مستحيل ولا ممتنع، وإنما يعسر ذلك على من لا عرفه، ولا ألف قلبه عالم الملكوت؛ إذ قلوب الأولياء لها أنس بعالم الملكوت، ومخاطبات الملائكة، وملائمتهم أكثر من ملائمة غيرهم من الناس؛ لأنَّ أرواحهم وأرواح الملائكة مجتمعة في عالم الملكوت وأسرارهم سارية فيما وراء ذلك، وفي قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلائِكَةُ**﴾ [فصلت: ٣٠].

وفي قوله تعالى: ﴿**لَهُمُ البُشْرَى فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ**﴾ [يونس: ٦٤].

ففي هاتين الآيتين وغيرهما من الآي إشارة وكفاية مع عدم استحالة ذلك، ووجود جوازه، ولا يكون ذلك معارضًا في ختم النبوة.

وقول النبي ﷺ لا نبي بعدي، فليس هذا بنبوة ولا إرسال ولا وحي، وقد ورد «**إن الملائكة لتخفض أجنحتها لطالب العلم**[1]» فكيف بمن يطلب الله تعالى؟ وقد يكون ذلك في أخذةٍ أو غيبةٍ أو سِنَةٍ، فلا يحتاج إلى تأويل ذلك بالكلية؛ إذ ذاك جائز.

وأخبرني الشيخ تاج الدين كما أخبرني الشيخ ناصر الدين قال: كان الشيخ تاج الدين حين كنا نبني الرباط الذي هو الآن مدفون فيه بظاهر مدينة قوص، كان يبني طول النهار، فإذا جاع أخذ من قرظ هناك شيئًا فلفّه فأكله وشرب من ماء جدول الساقية.

الشيخ بهاء الدين الإخميمي[2]

ومن أصحاب الشيخ أبي يحيى الشيخ بهاء الدين الإخميمي- رحمه الله تعالى-

(١) رواه الترمذي (٥/٥٤٥)، وأحمد في مسنده (٢٤٠/٤).

(٢) نسبة لقرية إخميم، شرق النهر بمحافظة سوهاج، مصر.

كان جليل القدر، كبير الهمة، كثير الكرم، وله أحوال جليلة.

كنت يومًا عند بيت الشيخ ناصر الدين والشيخ بهاء الدين قد ورد، فأخذت فروته على كتفي، فأخبرني أن خادم الشيخ أبي يزيد كان يحمل فروته على كتفه -وكان رجلاً صالحًا- فجرى الحديث في مسائلة منكر ونكير في القبر، فقال ذلك الفقير -وكان مغربيا-: والله إنْ سألاني لأقولن لهما، فقالوا له: ومَن يعلم ذلك فقال: اقعدوا على قبري حتى تسمعوا.

فلمَّا مات المغربي، جلسوا على قبره فسمعوا المسائلة وسمعوه يقول: أتسألونني؟ وقد حملت فروة أبي يزيد على عنقي؟ وربما قال: مضوا وتركوه.

وقلت له: ياسيدي، توحشنا، وكان قد أنس فقال: ما أوحشك إلى ست سنين، وإنَّ ملك الموت أخبرني أنَّ عمري أربعةٌ وثمانون سنًة، ولي اليوم ثمانية وسبعون سنةً، وربما قال: إنَّ بيني وبينه صحبة رضي الله عنه.

والكلام في حديث الشيخ بهاء الدين مع ملك الموت كالكلام في حديث السيد جبريل عليه السلام مع الشيخ تاج الدين، وكذلك أبو الطاهر، كان يخبر عن ملك الموت عليه السلام، وربما ذكر أنه جاء ليأخذ أحدَ أولادِه فمسكه عنه، ولعلَّ أجلّه ما كان جاء وهو الصحيح، وإنما ظهور ذلك كان كرامًة لأبي الطاهر.

وكذلك حكي عن الشيخ القرشي رضي الله عنه أنه دخل على بعض أصحابه وهو في الموت أو قيل له أنَّه مات فقال: فلان، قم فقام، فقيل له في ذلك فقال: ثم إلا ملك الموت، قلنا له رُح طرقاتك راح طرقاته.

وحكي عن الشيخ مفرج -رحمه الله تعالى- أنَّه قد ركب حمارًا وتوجه إلى مدينة قوص، وربما نزل يصلِّي أو يقضي حاجتَه، فوقع الحمار ومات، فقالوا له: يا سيدي، مات الحمار؟ فقال: لا، ما مات، وأخذ برسنه وقال له ما تقولُه الناسُ للحَميرِ عندما يسوقونها، فقام الحمارُ، وركبه الشيخ إلى أن وصل إلى مدينة قوص، فوقع الحمار ميتًا بإذن الله تعالى.

وكل ذلك جائز في إظهار إكرام الله تعالى لأوليائه، وهو من وراء ستائر العقول، ومن دائرة المحو والإثبات، ﴿ **فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ**﴾

[الأعراف: ٣٤].

وللملائكة حديث مشهور في تكليم الأولياء، كثير لا ينحصر، نقله الصالحون عن الصالحين من الأولياء، وعن أنفسهم مما لا يقع التهمة في قوله وفعله.

وإذا كنا نقبل شهادة العدول الذين عدلهم الحاكم، وتثبت بهم الأحكام الشرعية، فكيف بمن هم عدول عند الله تعالى؟ وأظهر الله تعالى كراماتهم وأماناتهم؟ وشهدت القلوب والبصائر لهم بذلك مع شهادة الحس؟

فهذا لا شك فيه ولا ريب إلا لِمَنْ كان في قلبه مرض وله في عداوة أولياء الله تعالى غرض، فنعوذ بالله تعالى منه ثم نعوذ بالله تعالى منه.

الشيخ سراج الدين بن قاضي عيذاب

ومن أصحاب الشيخ أبي يحيى الشيخ سراج الدين بن قاضي عيذاب، وقد كان صحب الشيخ علم الدين أولاً ثم صحب الشيخ أبا يحيى ثانيًا.

وكانت له أحوال جليلة، ولقد رأيته ليلةً في السَّماع وهم يصبون عليه الماء بالأزيار، وربما كانت الشتاء، وهو يطلب الماء من شدة ما يجد.

وكان قد جمع بين العلم والتصوف، أقام بمكة شرفها الله تعالى سنينًا كثيرة وفارق أهله ومات باليمن.

وكان مستديم الذكر، ويطوّل به بين الأحزاب، وكان يرقد ولا يكاد ينام، وكنّا حوله وغلمانه يكبّسونه، فإذا نعس أحد ذكّره. وكان مَن صَحِبه من الفقراء مباركًا، وكان له غلمان يتسببون ويتوجهون إلى الحرم الشريف، وكانوا على خير؛ يقرءون القرآن ويحضرون الأحزاب. وكان له غلام اسمه موفق، وكان خطيبًا، وأعتق الجميع.

وأخبرني سعيد أن الشيخ سراج الدين ليلةَ وفاته جعل يمشي في السطح ويقول: مَن أحبَّ لقاء الله أحبّ الله تعالى لقاءه، فلمَّا أصبح قال لي: قف على الباب، وقال لزوجته: ائتيني بقدح الشراب، فوقفت أنا على الباب، وراحت زوجته لتحضر الشراب، وأنا أسمعها تصيح، فدخلت لأجد الشيخ تحول للقبلة وتسجى ببردته، وانتقل إلى الله تعالى.. وكان قصده إخراجي وإخراج زوجته في ساعة عبوره إلى الله تعالى.

وقد تقدمت حكايته في خلعه ثوبه للصدقة في المرحاض.

الشيخ أبو عبد الله الأسواني(١)

ومن أصحاب الشيخ أبي يحيى أبو عبد الله الأسواني، كان مستديم الحال، مستغرقًا في الرحمة لا يشهد العذاب.

وكان قد أقام بإخميم وله زاوية هناك، ولَمَّا ذهبت إلى إخميم وهو بها، حضر الحاكم والشهود ومتولي البلد -وكان الشيخ في زاويته- فقالوا لي: هذا الشيخ أبو عبد الله يقول: ما ثم نار ولا يدخل أحد نارًا؛ فإنَّ النار أُطفئها بقدمي هذه، وما هذا معناه. فقلت لهم: أفيكم مَن أحبَّ حتى غلب الحبُّ على قلبه وغيَّبه

عن غير محبوبه؟ فإنْ لم تجدوا ذلك، أليس فيكم من يغلب عليه الغضب؟ وشغل الخاطر حتى يقصد مكانًا فيتعداه، ولا يعقل عنه؟ فقالوا: نعم فقلت: هذا الشيخ رجلٌ غلبت الرَّحمة على قلبه فغيَّبته عن العذاب، والعذاب موجود، ولكنه لا يشهده. قالوا: ورسول الله ﷺ قد أخبر بذلك؟ قلت لهم: رسول الله ﷺ كامل في نفسه، مكمِّل لغيره، داعٍ إلى الله تعالى، ورسول الله لجميع خلقه، فهو بشير ونذير، يخبر عن الجنة وما فيها من النعيم، وعن النار وما فيها من العذاب الأليم، ويدعو الناس إلى الله تعالى على الصراط المستقيم. وهذا رجل غلب عليه حال فغيّبه عن كلِّ شيء غير ما شهده من رحمة ربه تعالى، ولو ظهر من رحمة الله تعالى عُشر حُبِّه لغيّب ألف ألف مثل أبي عبد الله، فنحن نؤمن بحاله ولا نعترض عليه، لأنَّه ما جحد العذاب، ولا خالف الرسول ﷺ، وكان يحب رسول الله ﷺ، ويخبر أنه يراه في كل ساعةٍ حتى لا تكاد تمر ساعةٌ إلا ويخبر عنه.

(١) هومحمد بن يحيى بن أبي بكر بن محمد بن علي بن إدريس صفي الدين أبو عبد الله الأسواني نزيل إخميم كان مشهوراً بالصلاح يعتقد الناس بركته وينقلون عنه مكاشفات وكرامات كتب عنه الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد وأبو بكر بن عبد الباقي الخطيب وأبو عبد الله بن النعمان والشيخ قطب الدين بن القسطلاني والكمال ابن البرهان.
وكان من أصحاب الشيخ أبي يحيى ابن شافع .. وانظر: الوافي للصفدي (١/٦٦٦).

الشيخ محمد بن المخلص الإخميمي

ومِن أصحاب الشيخ أبي يحيى الشيخ محمد بن المخلص الإخميمي، وهو من المرابع، وكان رجلاً مباركًا، وهو الذي جرى له مع الصاحب زين الدين ما جرى، وقد تقدم ذكره.

ومن أصحاب الشيخ أبي يحيى أيوب العراقي والشيخ أبو العباس القنائي والشيخ داود الحذيم وجمع كثير لا يكادون ينحصرون من الكثرة، وكان داود ﷺ يختم القرآن كلَّ ليلةٍ، وكان ولده الشيخ نور الدين مباركًا.

الشيخ مجد الدين بن دقيق العيد(١)

ومن أصحاب الشيخ أبي الحسن الشيخ مجد الدين علي بن وهب القشيري، المدرس بالمدرسة النجيبية بمدينة قوص، ويُعرف بابن دقيق العيد، ينشر العلم ببلاد الصعيد، وكان مستديم الأعمال، صائم النهار، كثير تلاوة القرآن، مؤثرًا على نفسه،

---

(١) هو على بن وهب بن مطيع بن أبي الطاعة مجد الدين القشيري.

المنفلوطي، ثم القوصي، المعروف بابن دقيق العيد، والد الشيخ تقي الدين الآتي. والعالم العامل، الإمام الكامل، كان ممن جمع بين العلم والعبادة، والورع والزهادة، مع بذل الإحسان، وائتلاف الخاص والعام.

ولد بمنفلوط في رمضان سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، وبها نشأ، وحفظ القرآن، وسمع الحديث والأصول عن الحافظ بن المفضل المقدسي، وبه تفقه في مذهب مالك.

وعن البهاء ابن بنت الحميري، وبه تفقه في مذهب الشافعي.

وحدّث عن أبي أروح الأنصاري، وأخذ عنه الأكابر كالتقي والسراج والتاج والبهاء القطي والجلال الدشناوي والمحب الطبري والضياء الحسيني والنجيب ابن مفلح والقاضي شمس الدين ابن قدس والسراج الأرمنتي والنجم بن ناشيء والحافظ بن سليم والدمياطي والبدر بن جماعة وأحمد بن عبيد. وطلبه لقُوص ابنُ هبة لما بنى مدرسته بإشارة ابن الصباغ، فاستوطنها، فعمّت بركته، وانتشرت حفدته، وأقام شعار مذهب السنة من الأقطار، لالتماس دعائه حتى من الأمصار، وناب في الحكم بمنفلوط وأسيوط وغيرها.

وكان كثير التقشف، والتقلل من الدنيا، كثير التلاوة، حتى أنه ليقرأ في اليوم ختمتين، مع ما هو عليه من صيام.

مرّ يوم عيد بطيلسان شديد البياض، فقيل كأنه دقيق العيد، فجرى عليه.

توفي في ثالث عشر محرم سنة سبع وستين وستمائة. دفن بظاهر قوص، وقبره مشهور يقصد بالزيارة. وانظر: الكواكب الدرية للمناوي (٥٤٠).

كثير الرحمة لعباد الله تعالى، يسعى للمسلم ولغير المسلم ويمشي في الشفاعة، ولا يمتنع عن أحد في ذلك، ولا يجعل لنفسه عذرًا في المشي إلى دور الولاةِ وغيرِهم مِمَّن له حاجة لمسلم أو لمن يستقضيه، وكان لا يفتر من تلاوة القرآن.

وأخبرني والده الشيخ تاج الدين أنه كان معه في يوم توفي الشيخ مفرج -قدس الله تعالى روحه- وأنَّ الشيخ مجد الدين تلا في ذلك اليوم إلى العصر ثلاثَ ختماتٍ.

وقد تقدم حديثه في الكلبة التي وجدت ميتة وأولادها صغار فقعد عندها، وقد أحضر قفةَ دقيق من بيته، وحملهم إلى بيته معه، وأطلق لهم اللبن بكرةً وعشيةً حتى كبروا، وكذلك كلب أعمى أدخله عند سريره وجعل يكفله.

وامتنع ولده الشيخ تقي الدين من دخوله بيت والده مدَّةً كبيرة، وحكايته في مرضه -وكان الشيخ علم الدين المنفلوطي عنده، كما حكى الزاهد عمر بن النضير وغيره- وكان الشيخ قد أشرف على أن يحضِّروا له في قنا، فقال للشيخ علم الدين رُدّوهم؛ فإنِّي سمعت قائلاً يقول لي: يا راقد، فديناك بزين الكمال - وكانت زين الكمال جارية عندهم صحيحة من غير مرض- فربَّما ماتت ثالث يومٍ وعوفي الشيخ مجد الدين رضي الله عنه.

وانتفع على يده جمع كثير -ووالدي من جملتهم- وظهر من أصحابه مثل ولده الشيخ الإمام تقي الدين، قد ولي القضاء بالديار المصرية، وكان له قدم في العلم والدين والحديث، وكانت القلوب تسكن إلى فتواه، وأخبرني أنَّه وجد من هذه الطريقِ شيئًا - يعني طريق الفقراء.

وأَخبرني ولده الخطيب محيي الدين -وكان رجلاً صالحًا- عن والده الشيخ تقي أن سريره ارتفع به.

وذهبت يومًا على الشيخ تقي الدين في المدرسة بالقاهرة أعزّيه في أخيه الشيخ سراج الدين رحمه الله تعالى، وكان يوم عيد الأضحى، لأجده يأكلُ كسرة ويشوي جبنة على النار يأدم بها، فقال: أنا أدعو على الكمال بن البرهان فقلت له: قدَّمت له خدمة فقال لي: ما أنا مثلكم يا فقراء، من آذاني دعوت عليه، والله لقد دعتْ عليه أعظمي، ثم سافرت، فجاءنا خبرٌ بموت الكمال بن البرهان على قدر المسافة.. وكان مجاب الدعوة رضي الله عنه.

الشيخ بهاء الدين القفطي[١]

ومن أصحاب الشيخ مجد الدين الشيخ بهاء الدين القفطي كان رجلاً صالحًا عالِمًا، اشتغل بالعلوم وكان مُفتِيًا، وهو في ذلك الوقت قيّمًا بالمدرسة، وجاء منه رجلٌ كبير ولقد رأيته مرّةً على يده شقفة فيها نار، أخذها من الفرن وهو رائح به إلى منزله رحمه الله تعالى.

وأقام مدَّة حاكمًا ومدرسًا بمدينة إسنا.

وأصحاب الشيخ مجد الدين كثير لا ينحصرون: فقهاء ومفتون وعدول، وكان كثير النفع لأصحابه ولعباد الله تعالى.

وأخبرني القاضي جمال الدين بن السقا أنَّ شخصًا أتى الشيخ مجد الدين وسأله أن يقترض له شيئًا يزرع به، ويعيده عند الحصاد، فقال الشيخ لشرف الدين الدشنائي: يا شرف الدين، أعطه تلك الوداعة -وكان الشيخ يتصرف في الوداعة على مذهب الإمام مالك رضي الله عنه فأعطاه، فلمَّا كان أوان الحصاد لم يحضر ذلك الشخص شيئًا، وجاء أصحاب الوداعة يطلبونها، فركب الشيخ إلى إسنا عند أولاد السديد، ومعه شيء من مصاغ عياله فرهنه، وأحضر لأصحاب الوداعة الذي لهم، ثم جاء ذلك الشخص بعد ذلك يطلب شيئًا آخر، وقال: إنه لم يطلع له في هذه السنة شيء، وطلب شيئًا إلى السنة القابلة، فقال الشيخ شرف الدين: يا سيدي، ما كفى ما جرى، وكيف ركبت أنت ورهنت مصاغ أهلك؟ حتى وفّيت أرباب الوداعة ولم يحضر هذا شيئًا ما أعطيه شيئًا، فقال الشيخ مجد الدين: سبحان الله العظيم، لو كانت الحاجة لك كنت تقول كذا؟ وربّما أعطاه فأخذه وراح.

وحكاياته كثيرة جدًا.

وكان كثير الشفقةِ على خلق الله تعالى حتى كان يقول: اللهمّ ارحم عبادك وإلاّ انزع هذه الرحمة من قلبي، ويبكي رحمه الله تعالى.

ولما توفِّي وقصدوا دفنَه في قنا فلم يمكنوهم أهل البلد من إخراجه، وغلّقوا عليه المدرسةَ، وكان في البلد ضجة عظيمة، ودُفن ظاهر قوص، رحمه الله تعالى.

---

(١) له ذكر في الكواكب، عند ترجمة مجد الدين ابن دقيق العيد (٥٤٠)، (٦٤٢).

الشيخ الجنيد بن مقلد رضي الله عنه

وأصحاب الشيخ أبي الحسن كثير ومنهم أناس في الغرب، وإنّما نحن نقتصر على ذكر من رأيناهم وسمعنا من رآهم فقط، ومنهم الجنيد بن مقلد السمهودي، كان قد صحب الشيخ أبا العباس الضرير، ثم صحب السيد أبا الفتح الواسطي، وكانت له أحوال جليلة وله أصحاب كثير وزاوية بسمهود، ونزل في بيتنا بالأقصرين عند والدي رحمه الله تعالى.

أخبرني مريده وصهره الشيخ مخلوف، أنّ الشيخ لما أدخله الخلوة، ولعله الشيخ أبو العباس الضرير أخبره عمَّا يحدث له في الخلوة من قراءة القط والخروف، ويحذره منهم، ويعرّفه كيف يعمل إذا خرجوا عليه، وأوصاه أن يذكر ولا يخاف، قال: فدخلت الخلوة وأنا أقرأ يس وإذا بقط قد جاء وقعد قدامي وقرأ معي يس من أولها إلى آخرها، وبقيت في شدّةٍ منه، فلمّا كان ثاني يوم أنا أقرأ وأذكر وإذا بخروف قد دخل عليَّ ووضع فمه على فمي وقرأ يس من أولها إلى آخرها، فلماكان ثالث يوم فتحت باب الخلوة على أنني إن جاء شيء خرجت، فإذا بثعبان عظيم قد نزل من على باب الخلوة وجعل يتكعكل حتى ملأ الخلوة عليّ وأنا أذكر الله تعالى حتى ذهب.

فانظر إلى هذه الأحوال العجيبة الغريبة.

وحكى الشيخ مخلوف المذكور صهر الشيخ الجنيد قال: دخلنا على أحمد بن سليمان رحمه الله تعالى حين وصل من العراق فرأيت في عينه حمرةً أو ماءً في عينه الواحدة، فقلت له: يا سيدي، ما هذا؟ فقال: إني كنت مُولَّهًا، فاجتزت بالعدوسية، وقد رمَوا في قِدر لهم أردب دشيش ورأس بقر، والنيران تقد وهم يطبخون، فجئت إلى القدر فجعلت أمدُّ يدي وآكل منها، فقالوا: أنت تَتوَلَّه علينا، وحملوني ورمَوني في القدر، وجعلوا يدوسوني بتلك الدكاسيب التي يضربون بها الهريسة حتى نزلوا بي إلى قاع القدر، فدخلت قمحة في عيني أو قال: فلحقني هذا من ذلك اليوم.

وأخبرني الشيخ جمال الدين بن الشيخ عبد الله الجبلي - وكان كبير القدر عالِما- قال: حضر الشيخ أحمد بن سليمان، وكان في زمن شجرة الدرّ، عملوا لهم نار تحت القلعة وامتحنوهم، فدخل الشيخ والفقراء ولم يتأثر أحد منهم بذلك، وربّما قال لي -أو

قاله غيره- : إن النار في ذلك اليوم بَطُل فعلها، فكانوا يجعلونها في أيديهم فلا تعمل شيئًا.

الشيخ أبو عبد الله المرسي رضي الله عنه

ومنهم مِمَّن رأيناه الشيخ أبو عبد الله المرسي، كنت غائبًا عن الأقصر وكانت الإقامة بها، فلما حضرت قال لي أخي كمال الدين: يا أخي، ورد علينا فقير وقال: (إنه رأى النبي ﷺ فقال له: يا رسول الله ﷺ، الذي قيل عنك صحيح؟ فقال: وما الذي قيل عني؟ قال: **«من أكل مع مغفور له غفر له»**[1]، فقال: **نعم**، فقلت: ومن المغفور له حتى آكل معه؟ فقال ﷺ : المجد الإخميمي). قال: فرحت إليه فعرَّفته فبكى وأكلت معه.

قلت: فلم لا ألتمُّ معه بهذه النية؟ وقمت وبقي فقير، فمشيت من الأقصر إلى مدينة قوص ماشيًا، وجئت إلى الشيخ فوجدته في مسجد بيرموق، وعنده جماعة ما اشتهيت الاجتماع به وهم عنده وأنا عاري إلا من شيء ملتحف به وطاقية على رأسي، فقعدت بعيدًا والشيخ رضي الله عنه مد سماطًا لأولئك الجماعة، وأخذ زبدية -وأظنها حلاوة- فإنه كان يعمل الحلاوة كما اتفق بالعسل القصب أو بغيره، فأخذ الشيخ الزبدية وجاء إلى أن قعد أمامي ووضع الزبدية بين يدي وقال لي: أما أنا فآكل معك.

فأكلت أنا والفقير وبقي بيني وبينه صحبة إلى أن مات رحمه الله تعالى، وانتفعت به كثيرًا.

وكان طريقه الخوف، وأخبرني الشيخ أبو عبد الله أنه كان في حلقة القرشي -وما علمت أي قرشي هو- فقال لي: يا موسى، إذا وقف الريح يحط القلوع.

ودخلت يومًا على الشيخ أبي عبد الله المرسي فوجدته قد ظهر عليه حَبٌّ كثير فقلت له: ما هذا؟ فقال لي: من الخوف من الموت، فقلت له: الصالحون يخافون من الموت؟ فقال لي: يا فقيه، الرجل الصالح عندنا يسمى رجل جيّد، والله يا فقيه، أقدم على شيء لا أعرفه، والله إن أمور الدنيا أكثرها ما أعرفها.

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفا (١٣٩١/٢).

ودخل عليه سراج الدين بن الصابوني وشمس الدين، فقال لهم: اقعدوا ليطعمهم فقالوا: نروح ونجيء فقال: ما تجدوني فكان كذلك، فإنه توفي إلى رحمة الله تعالى.

وقال: ما رأيت قَط ميتًا إلا سألته، حتى وجدت أمي، فقلت لها: أنا ولدك، ما تفضحيني فقالت: ما علينا أضر من التسويف.

الشيخ عمر البلقياني رضي الله عنه

ومنهم عمر البلقياني كان عندنا بالأقصرين أكثر عمره، وكان لا يكاد سنّة يفوته الحج فيها من البحر على طريق عيذاب، فربما حج ستًا وثلاثين أو أربعين حجة، فقلت له في ذلك فقال لي: إنا كنا حججنا مرّةً، فلمّا وصلنا إلى الريف، وجئنا إلى ساحل إدفو، وركبنا في المعدية غرق المركب في التعدية، فرأيت قبابًا نزلت من السماء- ذكر من صفتها ما ذكر- وصارت كلُّ قبة مقابلة رأس كل واحد من الذين غرقوا، وكان كل من غرق نزلت القبة عليه في الماء وغابت معه في الماء، وبقيت أنا أعوم والقبة على رأسي مقابلة رأسي، فلمّا طلعت ولم أغرق صعدت القبة إلى السماء ودخلت في السماء وغلقت السماء عليها، فأنا أطالب غرقة ما حصلت لي.

وإن كان الشيخ عمر قال ذلك فما طلب في الحقيقة إلا القبة التي رآها رحمه الله تعالى، وكان مبسوطًا خفيف الروح والكلفة، وكان معه كرسان وإبره وعكازه.

وأخبرني أنّه سافر الحجاز الشريف- ربما قال أوّل سفرته- في ستة عشر يومًا من بلده بلغيا. قال: كنت واقفًا على الساحل وحراقة عابرة فقلت لهم: تحملوا فقيرا لله تعالى؟ فقالوا: نعم. فحملوني، ووصلنا إلى قوص في سادس يوم، ولم يبقَ أحد ممن كان يقصد الحج بقوص، فطلعت إلى السوق، فأخذت معي قليلَ كعكٍ ولبن، فدققت الكعك وعجنته باللبن، وأخذت معي ماء وركبت البر وحدي وأنا لا أعرف طريقًا، فبقيت أسافر النهار، وإذا جاء الليل صعدت إلى بعض الجبال أويت إليها. قال: فوصلت إلى عيذاب في العاشر فوجدت جلبة لبعض الخدام واقفة، وهي تريد أن تسافر، ولم يبق للوقفة إلا يوم أو يومان فقلت للخادم: يا أخي، أتعرف الخادم الفلاني؟ أو كما قال، فقال لي: وما تريد؟ فقال: تحملني إلى الحجاز فقال: اطلع فطلعت، فسافرت في ساعتها، فبقينا تلك الليلة فأصبحنا جدة، فسافرت وما دخلت عيذاب ولا

جدة، فوصلت إلى الجبل ولحقت الحج في ستة عشر يومًا من بلدي- رحمه الله تعالى-.

الشيخ الشريف محمد السيسي رضي الله عنه

ومنهم الشيخ محمد السيسي، رحمه الله تعالى، شريف من أصحاب سيدي شهاب الدين السُهرَوْردي كان رجلاً صالحًا لا يعجبه إلا الجلدُ والصدق، واقفًا مع الشرع، عمّالاً مجتهدًا، وكان في سوق الفقراء بالقاهرة ومعه مائتا درهم قراضًا، إن حصّل له فيها شيئًا أكل ما يخصه هو وعائلته، وإلا باتوا بلا عشاء، وكان صاحب الشيخ عبد العزيز والجمال ابن عيشة.

وكان رحمه الله تعالى إذا جاء إلى مصر من القاهرة يجيء إلى عندي بجامع مصر، وكنا نروح الحمّام وعليه دلق، فيقلبه يجعل ظهارته على جسمه وبطانته ظاهرًا، ثم إذا كان دخول الحمام يقلبه ثانيًا على تلك الصورة، وربما قلبه ثلاث مرات، ولا يلحق يغسله ولا عنده ما يغيره رضي الله عنه.

وصحبته مدة كثيرة، وكانوا مصطحبين هو والشيخ عبد العزيز والجمّال بن عيشة، وكنت بمصر تلك المدة ولم اجتمع بالجمّال ابن عيشة.

حكاية عن الجمال ابن عيشة رضي الله عنه

وحكى لي الشيخ عبد العزيز، رحمه الله تعالى، أنّ الفارس أقطاي جاءته خلعة أو شُقة من الروم، -وهي جامات جامات- وطلبوا منه يفصّلها قبًا ولا يقطع منها جامة، فلم يجدوا في مصر والقاهرة من يعرف يفصّلها ولا يقطع منها جامة، فقالوا للأمير: لم نجد أحدًا يعرف يعمل ذلك، فقال: فتشوا فقالوا: لم يبق إلا فقير يسمى الجمّال ابن عيشة، فطلبوه فحضر وفصّل القبا ولم يقطع منه جامة- أي ما قصّها- فقال: نطلبه غدًا قال: سهرت تلك الليلة عليه أخيط، فنعست فسقطت الفتيلة فأحرقت جامة من القبا، فصاحت الزوجة والأولاد، وصرخوا وخافوا عليّ من الشنق، فإن هذا ما رضي أحد أن يفصله ويقص منه جامة، فكيف وقد احترقت؟ ولا توجد في القاهرة ولا غيرها مثل تلك الشقة قال: فلما رأيتهم على تلك الحالة صفقت ورقصت وقلت: فكرت في رفا يرفيها لي أحسن مما كانت، وسكنت خواطرهم، وطويت القبا، وحطيته تحت رأسي وتوكلت على الله تعالى ورقدت.

فلمّا كان الصبح وأنا أسمع حس الخيل والشوشة، فقلت: إيش الخبر؟ فقالوا: أماثل الفارس أقطاي قال: فأخذت القبا ملفوفًا، وجئت إلى الخزانة فقلت لهم: هذا كان عندي، فأخذوه ورموه في الخزانة ورِحت طريقي.

من لطائف الفرج وعناية الحق بأوليائه

وهذه الحكاية لها نظائر، وهي من لطائف الفرج بعد الشدة، ومنها أنّني كنت ليلة في بيت صغير وحدي، فجاءني أخي مجد الدين عبد الحميد -وكان رجلاً صالحًا فقيهًا مجتهدًا، لا يُقدّم على آخرته شيئًا، متقيًا لله تعالى- فقال لي: إنّ عندي تشويشًا قلت له: من أي شيء؟ قال: إن زوجتي حامل، وقد قرُب أوان وضعها، وقد بقي لها شهران وهي يتيمة، ورُبِّيت في نعمة، فإن تركتها ولم أعمل لها عادتها أو دونها انكسر قلبها، وإن أخذت على ذمتي شيئًا أخاف أن أموت وذمّتي مشغولة ولا عندي شيء.

فقلت له: يا أخي، تقدر تُخلي باطنك من هذه القضية وتردها إلى الله تعالى يفعل بها ما يشاء؟ قال: ما قدرت، فقلت له: اجتهد في ذلك، واطرد الخواطر عن قلبك كما تطرد العقرب عن جسمك فزيّق ساعةً طويلةً وقال: كأنني قد قاربت، ثم بقينا كذلك زمانًا حتى زيق طويلاً ورفع رأسه فقال لي: ما كأني إلا حصل لي ذلك.

فبينما هو يحدثني والباب يطرق، وإذا بامرأة هي عندنا في البيت فقالت: قد ولدت الصغيرة في هذه الساعة ولدًا ذكرًا فقلت له: كيف أبصرت تدبير الله تعالى؟ وما جاء إلا برفقته، ولا عليك فيه عتب، فقال: بقي شيء آخر يطلبون السابع، فقلت: يدبّر الله تعالى أيضًا، قد عرَفتَ من يدبر القضية، فلمّا أصبحنا مات الطفل.

ونظير ذلك: ما حكاه لي والدي رحمه الله تعالى، أنّ شخصًا من مياسير بغداد، -وكان بزّازًا تاجرًا- اشترى جارية، فأحبها وشغف بها وشغلته عن معاشه وتجارته حتى عاد يبيع من أملاكه وينفق حتى نفدت الأموال والأملاك والغلمان، وانتهى الحال إلى أن عاد يبيع الأبواب التي في دار سكنه، ولم يبقَ إلا الباب الذي على الطريق، ويهدم من سقفها ويبيع، وانتهى الحال إلى أن بقي هو والجارية ثلاثة أيام لم يطعموا، وكانت حاملاً فضربها الطلقُ وهم في الظُّلمة والجوع فقالت له: يا سيدي، لك الأصحاب، وفضلك عليهم كثير، فلعلك تخرج إلى أحد من أصحابك يأتينا بسراج وشيء نقتات

به، فإنني إن وضعت هذا الطفل في الظلمة أموت وهو يموت- أو كما قالت- قال: فخرج، ولم يجد له وجهًا يقف على باب أحد، وهجَّ على رأسه إلى أنْ وصل إلى بلاد العجم، وأقام بها عشرين سنة، وحصل له بها مال، فخرج طالبًا إلى بغداد، فأخذه القُطَّاع في الطريق، فبينما هو يمشي عطشانًا، وإذا بأمير من أولياء الخليفة رآه وعليه آثار النعمة، فسقاه، وأمر بحمله، وقال له: إذا وصلت إلى بغداد استقصِ علي؛ فإنّي من أولياء الخليفة، وأراد نفعه.

قال: وصار إلى بغداد، فبينما الأمير سائر وهو يرى ذلك الشيخ على بغلة وعليه ثياب المحتشمين وخلفه المماليك والغلمان فسأله عن حاله، وما هذا الحال، فأخبره بصورة الحال الأول، وأنه لما ورد قال: رحت إلى داري لأنظر كيف صار الحال فيها، فوجدت عليها ستورًا وخدّامًا ومماليك، فسألت عن الدار ومن فيها، فقيل ابن داية الخليفة فاستخبرت عن أبيه، فقالوا: ابن فلان البزّاز التاجر فسمُّوا اسمي، فلمَّا تحققت ذلك مرّةً بعد مرةٍ، فتوسّمت بمن يدل، وسألت شخصًا أن يدخلني فأدخلني، فوجدتُ شابًا جميلاً على مرتبته، وهو يتحدث في خاص الخليفة فقال: يا شيخ، إيش حاجتك؟ فقلت له: حاجتي ما تقال إلا لك وحدك، فنظر إلى من عنده، فخرجوا فقال: قل حاجتك فقلت له: أنت ولدي، فتغيَّر وجهه وقام ورفع الستارة ودخل، وإذا بجاريتي خرجت وبكت وتعلقت بي، واشتد بكاؤها وولدها، وقالت: يا سيدي، احك لي وإلا أحكي لك، فقلت لها: احكي لي.

فقالت: إنك لما خرجت وتركتني في الظُّلمة، وأنا في تلك الضرورة ولا عندي شيء وضعت هذا الطفل وهو مضطرب ولا قدرت أحمله، قالت: فرفعت طرفي إلى السماء، ولجأت إلى الله تعالى، فما أشعر إلا والمشاعيل والفوانيس والخدام قد هجموا علي، وكان في ذلك الوقت قد وُلد المأمون فلم يرضع ثدي أحد، فطلبوا له المراضع في بغداد كلها، وطلبوا أولاد الدروب حتى أحضروا المراضع فلم يرضع ثدي أحد، وكانوا قد سمعوا حسًّا، فدخلوا وحملوني إلى الدار التي للخلافة وهذا الطفل معي، فحين وضعوا المأمون في حجري وضعت ثديي في فمه رضعها، وكان في دار الخلافة من الفرح

والسرور، وخُلع عليّ ما ملأ مكاني وأحضروا إليّ الجواري والخدّام والفرش، وجعلوا لي مكانًا وحُمِل إليّ كل ما أحتاج إليه، فربيت ابنك مع المأمون في الرِّضاع والشراب والمكتب وركوب الخيل والرمي، إلى أن ولي الخلافة ولاه الخاص الذي له.

قال: ثم إنَّ ولده قال له: يا أبت، استغفر الله تعالى لي، وأدخل والده الحمام وألبسه وركبه، وقال: يا أبت، ما يمكنني أن أخفي هذه الحكاية عن أمير المؤمنين، فأخذني وأدخلني على أمير المؤمنين وحدّثه الحديث من أوّله إلى آخره، فعجب من ذلك وجعلني في مكان ابني وأشغل ولدي في غيره.

فسبحان من لا يضيع أحدًا من فضله وكرمه وإحسانه، فله الحمد والشكر على فضله وكرمه وامتنانه.

وحُكِيَ: عن أحد الملوك أنّه حاصر مَلِكًا، فأرسل الملك إليه يقول له: اصبر عليّ ثلاثة أيام أُخلي لك القلعة ولا تسفك دماء المسلمين فيما بيننا، فصبر ثلاثة أيام، فلمّا انقضت، أرسل إليه يقول له: قد انقضت الأيام فأرسل إليه يقول: اصبر عليّ الليلةَ، فقالوا لمملوكه: أستاذك ينتظر العشا ويات، إيش يريد يكون في هذه الليلة؟ فراح الرسول وأخبره الخبر.

قال: وكان لهذا الملك الذي حاصر القلعة مملوكان صغيران سلحدارية يرقدان عنده في الخيمة، وكان من عادته إذا قال لأحد «ما يبالي» يقتله، فاتفق أنه قال لأحد المملوكين: ما يبالي لأمر فعله أو لغير ذلك، فجاء المملوك إلى حشداشه وعانقه وبكى فقال له: مالك؟ فقال له: الساعة أفارقك؛ فإنّ الملك قال لي: ما يبالي وهو يقتلني فقال له حشداشه: ما تفارقني ولا أفارقك، بل يروح هو، فاتفقا على قتله فخلياه حتى نام وقتلاه وطلبا طريقًا إلى الملك المحاصر، فأدخلوهما عليه فقالا له: قم وانزل قد قتلنا الملك، فقام ونزل واستولى على الخيام والعسكر.

فانظر يا أخي رحمك الله تعالى إلى هذه اللطائف في الفرج، والحكايات في هذا الباب كثير، لكن قصدنا الأقرب فالأقرب، فإذا وقعت قصةٌ ولها نظائر فلربمًّا أضفت إليها ما كان مثلها.

وحَكى الشيخ عبد العزيز: أنّ أحد المشايخ تكلم كلمة أنكروها عليه، فكتب القاضي محضرًا وأثبته، وجعله في صندوقٍ على أن يشاوروا السلطان في قتل الشيخ.

فاشتدّ هذا الأمر على أصحابه ومريديه، فدخلوا عليه وقالوا له: أنت قاعد ساكت وقد كتبوا عليك محضرًا وهم يريدون يقتلونك؟ قال: ما قلنا شيئًا علينا فيه شيء ولا كذا ولا يؤاخذونا- أو كلام هذا معناه - فجعلوا على رءوسهم التراب وصاحوا واشتد بكاؤهم، فقال لهم الشيخ: أنتم تخافون من أي شيء؟ فقالوا: من المحضر فقال: هذا المحضر؟ وأطلع المحضر من تحت سجادته، فخرجوا من عنده وهم يقولون إيش يبالي الشيخ؟ أخذ المحضر من الغيب.

فسمع القاضي، ففتح الصندوق فلم يجد المحضر، فقام ولبس ثيابه وجاء إلى الشيخ وقال له: يا سيدي، أنت أخذت هذا المحضر من الغيب؟ فقال: نعم قال: فأرني إياه، فأعطاه له فقال له القاضي: يا سيدي، هذا الكلام الذي في المحضر، أنت قلته؟ قال: الذي قلتموه أنا ما قلته. فقال: يا سيدي، أشتهي أن أكونَ من أصحابك فقال له: والله يا قاضي، ما أخذت المحضر خوفًا على نفسي من القتل، ولأن أموت مظلومًا خيرٌ لي، وإنما خفت عليك أو أشفقت عليك لئلا تعترض على فقير صاحب حال فيُسلب الإيمان من قلبك كما سلبت أنا هذا المحضر من صندوقك.

الشيخ أبو الحسن بن العطار رضي الله عنه

وحكى الشيخ عبد العزيز عن الشيخ أبي الحسن بن العطار، وكان يسمى الحَرْمَلُ لكثرة فنونه في العلوم- والحرمل طائر في الغرب متلوّن بألوان كثيرة-

وكان كبير الشأن، مبسوط المعرفة، أحواله جليلة، وكلامه ونظمه يدلان على علوّ شأنه.

قال: كان الشيخ أبو الحسن جالسًا على دكان الخياط، وإذا بمخالط اجتاز بالشيخ، فقال له الشيخ: إيش بك يا مخالط؟ فسكت فقال: قل لي ولا تستح مني، فإني كنت مخالطًا مثلك، وكشف الشيخ عن ذراعيه ليريه آثار ذلك -والمخالط عبارة عن المحارف- فقال له المخالط: والله يا سيدي عندي معيشيق في البيت ولا عندي شيء، فقال الشيخ للخياط: عندك شيء تعطيه؟ فقال: يا سيدي، في البيت. فقال

له: إيش عندك؟ فقال: خمسة دراهم، فأعطاه الشيخ للمخالط وقال له: خذ بدرهم لحم ودرهم فاكهة ودرهم حلاوة، ثم التفت الشيخ إلى الخياط، وقال: يا خياط، ألك حاجة عند الله تعالى أقضيها لك؟

فقال له: يا سيدي، أكون معك في الجنة.

فقال له: ولك ذلك حاصل، أبصر إيش لك حاجة عند الله تعالى الساعة أقضيها لك؟ فسكت، فقال له: لا تستح فقال: يا سيدي، والله ما لي حاجة إلا امرأة رأيتها، فأعطيتها مائة دينار على أن تتزوجني، فقالت: هذه المائة دينار ما أكلمك بها كلمة، ومالي حاجة غيرها قال: فزيّق الشيخ ورفع رأسه وإذا بالمرأة جازت عليه وزلقت -أي وقعت- وأخذها القولنج.

فأحضرها قدام الشيخ فقالت له: يا سيدي، ضع يدك علي- أو كما قالت- قال: تتزوجي بالخياط، فربما قالت: ماهذا وقته؟ فوضع يده عليها فزال القولنج بإذن الله تعالى، وقال لخادمه: ودّيها إلى البيت، فوقفت فقال لها: مالك؟ فقالت: يا سيدي، ما أنت قلت إنك تزوجني بالخياط؟ فقال: حتى نستقصي منه إن كان يرضى، فأرسل خلفه وقال له: تتزوج بهذه المرأة؟ فقال: لا فقالت: والله يا سيدي لقد أعطاني مائة دينار على أن أكلمه كلمة فما فعلت قال: صدقت، ولكني الساعة ما عندي شيء، فقالت: يا سيدي، هو أعطاني مائة دينار ما فعلت، وهذه خمسمائة دينار من عندي ويتزوجني، فقال الشيخ: اطلبوا الحاكم والشهود، فحضروا وزوّجها الشيخ للخياط، وقال له: يا خياط، هذه خمسمائة دينار كل درهم بمائة دينار والمرأة بلاش.

فانظر يا أخى، رحمك الله، إلى هذا التصريف ما أعجبه.

الشيخ فايد القروصي ﷺ

وممن رأيتهم فايد القروصي ثم الزرنيخي بدوى من الفلاحين، طويل أسمر مشتمل بشملة، بيده عصا وجراب، متجرد مغطى العين الواحدة مطموسة، يخط بالنوى ويخبر الإنسان عن أحواله الماضية والمستقبلة، ويخبر بالعجائب والغرائب لا يكاد يخطئ فيما يقوله إلا نادرًا، فإنّ الناس كانوا يكثرون عليه.

وأمّا إذا جاع أو صام فلا يكاد يخفى عليه شيء مما يخطر في النفس.

أقام عندنا سنين كثيرة، وكان يصوم رمضان في مسجد البدمود في بعض السنين، ولا يكاد يفارقنا، وكان يموّه بالخط، وإذا أُعطيَ شيئًا أخذه، وكان يقول لي: إنّ رزقه كل يوم درهمان ورقًا، فإذا زاد شيء من هذا اليوم نقص من غيره في الأيام الآتية.

وكان بدء إرادته علي ما أخبرني به أنه يحصد في زرع، فحصل له عطش شديد، وكان في شهر رمضان قال: فرأيت البحر - بحر النيل - فلم أجد أحدًا إلا جواميس، فنزلت بحر النيل فشربت وطلعت، فلمّا كان الليل رأيت في النوم كأن القيامة قد قامت، والطلب علي لصٍّ فحصل عندي خوف، فجئت إلى صغار المكاتب، فقعدت عندهم فجاء الزَّبانية فأخذوني، وقالوا: أنت اللصُّ فقلت: والله ما سرقت شيئًا، فقالوا: سرقت الصومَ في شهر رمضان، فأوقفوني بين يدى الله تعالى فأنكرت ذلك فقالوا: عليك البيِّنة، الماء الذي شربت منه، والجواميس التي كانت حاضرة قال: وجاءت الجواميس والماء، وبقيت في الماء علي الحالة التي كنت عليها وقت شربت، وشهد الماء والجاموس فقلت: يا رب، أتوب فاستيقظت وعدّيت إلى بر الغرب، وبقيت سائحًا في البر أصلي وأذكر الله تعالى، واحتفرت لي في الجبل حفيرًا كالثعلب.

وكنت إذا غلب عليّ الجوع أو جعت أوكما قال بعد ثلاث آكل من حشيش الأرض، وإذا عطشت نزلت إلى البحر فأشرب بكفّي، فبقيت علي ذلك مدة، فجئت يومًا لأشرب، وإذا بسمكة وذنبها أحمر ضربت بذنبها وقالت لي: والله لولا أمر ما لأخبرتك بما جرى في البحار، قال: فخفت، وقلت في نفسي: السمكة لا تتكلم، إلا أنني زال عقلي، دعيني أكضُّ في العبادة حتى أموت قبل زوال عقلي.

ومعنى أكضُّ: أجد، وإنما هذه صورة عبادته.

قال: فبقيت كذلك وإذا عصا - أو قال عصاي أو جرابي - كلّمتني وقالت: إنَّ بساحل البحر مركبًا رزقك منها رغيف بين أربعين رغيفًا، وعلامته كذا وكذا، فنزلت إلى البحر، فوجدت المركب، فقلت لصاحب المركب: أعطني الرغيف الذي صفته كذا وكذا، فقال: رُحْ يا شيخ كلب، وقام إليّ بالعصا وأنا واقف، ثم أخرج مركبه ليسافر، فانكسرت رحل المركب، فكلموه الرُّكاب فلم يفعل، وربما قال لهم: ما تقدروا تسافروا حتى تعطوني الرغيف، قال: فخرجوا ليسافروا، فانشق القلع من أوله إلى آخره، فأخذ

الرئيس الأربعين رغيفًا وأتى لي بها، فعرفت الرغيف بالعلامة التي وُصفت لي، قال فايد: وبقيت كذلك مجتهدًا في العبادة.

وإذا ملكان نزلا من السماء وبهما في ميزان كل واحد منهما كفة، فأضجعاني ووقف أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للذي عند رجلي: شمَّ رجليه فشمَّهما قال: طيبتان، ما مشتا في معصية الله تعالى، فقال: شمَّ ساقيه فشمَّهما وقال: طيّبتان، قال: شم فخذيه، قال: فشمّهما فقال: طيّبتان قال: فشُمَّ فرجه فشمّه وقال: طيّب، قال: فشمَّ بطنه فشمَّه وقال: طيّب قال: شمّ فمه قال: طيّب كذلك، قال: شمّ أنفه فشمّه وقال: طيّب قال: شمّ عينيه فشمّهما وقال: إنّه ينظر إلى ما لا يجوز له مما لا يحلّ له قال: نرفع القمع الذي في يده وقال: والله لولا دخولك تحت ذيل النبي ﷺ لأضربنّك ضربةً تخرق الأرض السابعة، قال: ثم شقَّا بطني فأخرجا قلبي وغسّلاه وردّاه إلى بطني، قال: وخلّصا جمجمة رأسي وكتبا عليها رزقي، وأجلى علي جبيني، وقال: اكتب كذا وكذا سنة وعشرة مركعة وردها علي حالها وتركاني وصعدا إلى السماء ودخلا فيها.

وبقيت متعوجًا، وخشيت أن يأكلني الذئب، فإذا بطائر ضرب بجناحه على بطني فصار كما كان، قال: وبقيت على حالي، ورأيت شيخًا بين يديه قناني ما علمت ما فيها، فلمّا نَعِسَ أخذت قنية فشربتها، ففتح عينيه وقال لي: شربت القنية؟ قلت: نعم فقال: حصل لك حبّتان من العلم، وكان له كشف كبير.

قال فايد: فبينما أنا ذات يوم أسيح أو أمشي، وإذا أنا بامرأة جميلة وعليها أثواب- كأنّه قال حُمر أو صُفر أو كما قال أو قال غير ذلك- فعانقتني وقالت: أنا زوجتك ورقَدت معي، فخرجت من تحتي حية، فقمت فقال لي الجبل: إليك عنى يا عاصِ، وقال لي الشجر: إليك عنى يا عاصِ، وهربتُ وبقيتُ أجري، وأيَّ شيء قرُبْت منه يقول إليك عنى يا عاصِ حتى دخلت الزرع فصار الزرع ينفسح عنى يمينًا وشمالاً ويقول إليك عنى يا عاصِ، وبقيت أجري وأتوب وأبكي- وربما قال شهرين أو أربعة- حتى ردّ الله تعالى عليَّ حالي، وتاب علي.

وكانت له أحوال، وكان قد صحب أيضًا شخصًا من الجان المتعبدين، وكان

يأتيني مِن عنده بمسائل يسأل عنها في أمور دينية في الوضوء والصلاة مما يحتاج إليه في العبادة، كما يسأل الفقير المبتدئ.

وكان فايد أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، وكان قد جُذب جذبة فحصل له ما حصل، ولقد كنَّا ليلةً في ساقية ابن شقير بائتين، وقد جاءني فايد بالليل، فقال لي إنّه قام لقضاء الحاجة، فلمّا أراد أن يستبرئ قال: أخذت روثة من روث البقر، وإذا مَلَكٌ بيده دبوس أو كهيئة الدبوس، فأومأ إليّ أنْ أرميها فرميتها، وأخذت عظمة فأومأ إلى أنْ أرميها فرميتها قال: فأخذت طينَّة من الإبليز فقال: بمثل هذا.

فانظر يا أخي، رحمك الله تعالى، إلى هذه العناية وهذا التعليم الإلهيّ من غير معلم ولا مسلِّك من البشر ولا مسلِّك علي طريق السالكين؛ لأنَّه مجذوب ومختار لذلك قال الله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ**﴾ [البقرة:٢٨٢].

وكان فايد يخبر الناس بآجالهم وأرزاقهم وما يتّفق لهم، ويظهر أنّ ذلك من خط النوى، وكانت النوى مربوطة معه في شَمْلَتِهِ حيث كان.

إبراهيم بن إسكندر

ولقدكنت أعرف شخصًا يُسمّى إبراهيم بن إسكندر، وكنَّا بالأُقصر، فمرَّ بزاوية ظاهر الأقصر وفيها الشيخ شمس الدين بن الصابوني، وكنتُ أكره الكلام في أيام شهر رمضان، فقلت له: يا إبراهيم، لا تتكلّم واجلس في زاويتك، فدخل زاويته وجلس فيها، وكان أميًّا وفى باطنه سلامة، فقلت له: إمّا أن تذكر الله تعالى أو تقرأ القرآن، فبينما أنا ذات يوم وإبراهيم قد خرج وعليه آثار الوارد، وقال لي: يا سيدي، ما أعرف إيش أصابني؟ وما أعرف تغيّرًا عن الغيبة التي غابها والحالة التي وردت عليه قال: (رأيت رسول الله ﷺ وقرأت عليه سورة كذا وكذا، وأرانا المكان مكتوبًا في لوح معه قال: ومعه السيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه فنظر إليّ السيد عمر، فخفت منه ودخلت زاوية).

وبينما نحن ذات يوم، وهو خرج وقلنا له: لا تتكلمْ قال: يا سيدي، ما أعرف إيش أصابني؟ قال: رأيت نورًا وقال لي: ياعبدي، كلَّ حسنة من حسناتك أمحو بها خمسين سيئَة.

ثم بقي علي هذه الصورة أيامًا يسيرة حتى غبطنا فخطر له الزواج، فقلت له: لا تفعل، فقال: لا بد -وكنت خشيت عليه من تفرُّق خاطره، واشتغاله بما يجب عليه من

أمر الزوجية والكلفة، وابتداء الحال لا يحمل ذلك، ويقع الحجاب وتنعكس الأحوال- فلمّا رأيته ألحّ في ذلك زوّجناه فما هو إلاّ أنْ حصل له اجتماع بالزوجة، فورمت محاشمُه -أعني الأُنثيين- والإحليل ورمًا شديدًا فنزل إلى البحر ليزيل منه ما تزلع كالمطّاهرين.

فبينما هو يفعل ما يفعل المطّاهر، وإذا بحدأة قد نزلت وأنشبت مخالبها في محاشمه فمزّقت منها ما مزّقت وقطّعت ما قطعت، فلا تسأل عن حاله وما لقي، ولقد رأيته بعد مدة وبيده صغير -وهو ولده- وهو يعمل في الطواحين، يغربل القمح بالأجرة، ولم يبقَ عنده من تلك الأحوال شيءٌ، وحُجبت عنه؛ لأن القلب ماله إلا وجهة واحدة، فمتى توجّه إليها حجب عن غيرها.

الشيخ صالح الحبشي رضي الله عنه

ومِمَّن رأيته الشيخ صالح الحبشي، وكان بنى مكانًا بظاهر دمامين، وكان يشهر عنه أنَّه بات وأصبح يقرأ القرآن، وكان أميًّا قبل ذلك.

الشيخ نجم الدين الكُبَّري رضي الله عنه(١)

وحكى الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- عن الشيخ نجم الدين الكُبَّري: أنّه كان أميًّا وكان عظيم الشأن، وكان مجاب الدعوة، وكان له كرامات وآيات وعجائب.

وكان الشيخ الأوحد - أوحد الدين الكرماني - ذلك الوقت يتكلم علي المنبر والخليفة جالس، وكان الخليفة مريد الأوحد، وكان يشتغل عليه، وكان كل من يروح إلى عند النجم الكبري ما يرجع إلى الأوحد، فحصل عند الشيخ أوحد الدين من ذلك

---

(١) هو الشيخ أحمد بن عمر بن محمد. الإمام أحد الأعلام، الزاهد الكبير الشأن، قطب أهل الإسلام، برهان الطريقة، ناشر ألوية الحقيقة نجم الدين الكبرى، كالعظمى أبو الجناب - بفتح الجيم وشد النون- الصوفي شيخ خوارزم.

كان إمامًا فقيهًا، محدثًا مفسرًا، صوفيًا زاهدًا عابدًا مسلكًا، شاع نبأ علمه، واهتدى العلماء وأهل التصوف بضياء نجمه، طاف البلاد، وسمع بها الحديث من السلفي وغيره، ثم استوطن خوارزم، وصار شيخ تلك الناحية، عظيم الجاه، وافر الحرمة، ولا يخاف في الله لومة لائم.

وقال ابن نقطة: هو شافعي المذهب، إمام في السنة، أخذ الحديث عن جمع انتهى.

انظر: طبقات السبكي (٨/٢٥)، ومرآة الجنان (٤/٤٠)، والشذرات (٥/٧٩)، والكواكب (٤٨١).

شيء، حتى عاد يتكلم علي المنبر بكلام يوهم بذلك مثل أن يقول: الجهل ينقاد إلى الجهل.

فاتُّفق أنّ الشيخ أوحد الدين تكلم يومًا علي المنبر، وقال للنقيب: مَن له سؤال فليسأل، فجاء إنسان بمسألة، فقال الشيخ أوحد الدين: يا صاحب السؤال - أو قال أنا أعرف- في هذه المسألة مائةَ وجه، بل مائتي وجهٍ، بل ثلاثمائةَ وجهٍ، فقام فقير من أصحاب الشيخ نجم الدين الكُبْرَّي وقالً: يا سيدي أوحد الدين، قلتَ إنَّك تعرف في هذه المسألة ثلاثمائةَ وجهٍ، صدقتَ؛ فإنَّ الله تعالى فتقَ لسانَك بالعلوم، لكن تقدر تُقيم الدليل علي مسألةٍ واحدةٍ بوجهٍ واحدٍ؟ فقال له: وما مسألتك؟ فقال له: تقدر تقيم الدليل علي أنَّك مسلمًا؟

فلم يحمل الشيخ منه هذا الكلام، فقال له: ما الشأن فيك -أو كلام هذا معناه- ولكن شيخك الكذا وكذا، وذكر كلامًا، وسمّي الشيخ نجم الدين الكُبْرَّي.

فعندما ذكر الشيخ النجم رجمه الناس، وطلعت مماليك الخليفة حتى أخذوه وأدخلوه بيت الخطابة وشهروا السيوف حتى منعوا العوام منه، وراح العوام إلى بيت الشيخ أوحد الدين في المكان الذي هو فيه، وقال له: يا سيدي، والله لقد عزَّ عليَّ الذي جرى، فقال له الشيخ: وعزَّ عليك؟ ليس والله لو فعلت به كذا وكذا -وقال كلامًا لا أتحقّقه من الأذى للشيخ النجم الكبري- فقال له الخليفة: يا سيدي، هذا الرجل لا يخلو إمّا أنْ يكون وليًّا لله تعالى أو لا، فإنْ كان وليًّا لله تعالى فكيف يحلّ لك أن تتلف عليّ آخرتي؟ وإنْ كان غيرَ وليّ فكيف يحلّ لك أن تُجرّئ العوام على خلعي من الخلافة وشق عصا المسلمين؟- أو كلام هذا معناه- وأنا فما أقدر أن أقتل كل مَن في بغداد، فقال له الشيخ الأوحد: وأنا أسافر، فقال له الخليفة: هذا إليك أو كما قال.

ثم إنَّ الخليفة زوّده زوادة عظيمة، وسافر إلى بلاده وأقام بها سنة، فكان كأحدِ الناس، لم يجد الخليفَة مريدَه، ولا أحدًا يعظّمه فتفكّر في نفسه وسبب خروجه من بغداد، فوجد ذلك من حظ نفسه، فقال لنفسه: هذا مِنْكِ، كونُك حُرِمْتِي مِن هذا الرجل الصالح العظيم القدر، من كون الناس يروحون إليه.

فقام واستغفر الله تعالى وسافر مستخفيًا من بلده إلى أنْ وصل إلى بغداد، فسمع به الخليفة فخرج للقائه، وجاء الشيخ الأوحد للشيخ النجم الكبري ووقف في الاستغفار ثلاثةَ أيامٍ، والشيخُ يخرج في حاجته ويراه ولا يقول له شيئًا، فلمَّا كان بعد ثلاثةِ أيامٍ، أمر الخادمُ بإدخاله عليه، فلمّا دخل قام إليه واعتنقه وجلسا، فقال له الشيخ أوحد الدين: يا سيدي، أنا قد جئت معترفًا، وقد عرفت من نفسي ما عرفت، فكيف تركتني ثلاثة أيام؟ أما رعيت حقَّ العلم؟ فقال له الشيخ النجم: ما تركتك ثلاثة أيام إلا لجهلِك بمعبودي، فقال له الأوحد: تقول إنَّني جهلت معبودَك وقد صنفت في معرفة الله تعالى تسعًة وتسعين كتابًا؟! فقال له الشيخ نجم الدين الكُبرَّي: لو عرفتَ ما صنفت فيه! فقال: فقام الشيخ الأوحد وأعجبه ذلك، وربما اعتنق الشيخ الكُبرّي، وربما لبس عنه.

وعطاء الله تعالى ومواهبه لا تتوقف على شرط في الأمية ولا في غير ذلك، بل هي الإرادة الإلهية يختصُّ برحمته من يشاء.

ومن شعر الشيخ نجم الدين الكُبَّري:

قــد سَمِعْنــا أنينَــه مِــن قريــبٍ ... فاقصِـدوا الحسَّ حيثُ كـان الأنِـيْنُ
مـــا تـــراه العيـــونُ إلاّ ظنونًـــا ... هـــو أخْفَـــى مِـــنْ أنْ تَـــراهُ العيـــونُ
لم نَعْــنِ أنَّــه خليــدٌ ولكـــن ... طلبتُـــهُ فلـــمْ تَجِـــده المنـــونُ
فَهْـوَ حـيٌّ لم تَحْـوِهِ طـرفُ حـيٍّ ... وهـــو مَيْـــتٌ في جِسْـمِه مَـدْفُونُ

ومِمَّا حُكِي عن الشيخ نجم الدين الكُبرَّي ﷺ أنَّه كان له مريدٌ يسمى مجد الدين وكان- أي مريده- جاء إلى الشيخ النجم ليحيله على مجد الدين يربيه ويدخله الخلوة، وكان للسلطان بنت، فسمعت بصفات الشيخ نجم الدين وأحواله فحصل لها اعتقاد عظيم، فلبست الصوف وتوجهت إلى الله تعالى.

وهذا يدل على أنَّ الشيخ النجم كان ذلك الوقت ببلاد العجم، وكان زوج بنت السلطان محمد يحبها، وكان يكره أنْ تكون على هذه الحالة، فشكا ذلك إلى السلطان محمد، وصار كلَّما سأله السلطان عن حاله، يقول: خرب بيتي وخرب إقطاعي، فيقول

السلطان لزوجته أن تكلم بنتها، ويقول: هذا الرجل نحن نستحي منه وهو نائب العسكر، فتقول له: يا خوند، إيش أقول لبنيتي؟ أقول لها: لا تصلي؟

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى* عَبْداً إِذَا صَلَّى﴾ [العلق:٩، ١٠].

فتقول: هذا الشيخ في زاويته، وهذه المرأة في بيتها، إيش كان الشيخ؟

وكان لزوجها مقاصد غير مقاصدها مما جرت عادتهم، فاتفق أنّ زوجها صار يشكو حاله للسلطان، ويجعل اللوم على الشيخ مجد الدين، ويقصد قتله، فأُطلعت زوجته على ذلك، فسيَّرت قالت للشيخ مجد الدين: يا سيدي، لا تخرج بالليل، فقال الشيخ: رأيت رأسي قطعت من خمسة أيام.

واتفق أنَّ زوجها جلس مع السلطان على حاله، فقال له: تمنَّ فقال: يا خوند، طلبتُ منك فقيرًا ما أطلقته لي، فقال له: أفتصل للفقير؟- أو كلمة تقتضي ذلك- فخرج، فوجد الشيخ مجد الدين راكبًا في الليل، فضرب عنقه، ودَفن رأسه في الثلج أو دفنه في الثلج.

وجاءت بغلة الشيخ مجد الدين إلى الزاوية، فدخلت الزاوية، وما عليها أحد، فقال الشيخ النجم: قُتِل الشيخ مجد الدين، فلما أصبح السلطان وجد البلد قد صَخَمها الناس بسبب قتل الشيخ مجد الدين، فقال السلطان: إيش قضية البلد أخذها عدو أو طرقها عدو؟ فقالوا: لا فقال: ما بالهم صخموا البيوت؟ قالوا لأجل قَتْل الشيخ مجد الدين، فقال ومن قتله؟ قالوا: أنت أمرتَ بقتله، فقال: مَنْ قال؟ قالوا: صهرك قال: فأخذ السلطان صهره في الجنزير، وجاء إلى الشيخ النجم فلم يَفتح له، فعاود المجيء ثلاثةَ أيامٍ فلم يَفتح له فقال: يا سيدي، إنَّ الله تعالى لم يغلقْ باب التوبةِ، وأنا ما جنيت.

ففَتح له، فأدخل صهرَه على تلك الصورة، وقال له: يا سيدي، والله ما أمرت بقتل الشيخ مجد الدين وهذا الغريم، وقد قال الله تعالى النفس بالنفس، فقال الشيخ: إنَّ نفس عدو الله تعالى لا تكون بنفسِ وليِّ الله تعالى، وأنا فمَا أقتلُ هذا، فقال: يا سيدي، فاطلبني أنا من الله تعالى، فوالله ما أمرت ولا قتلت ولا لي في ذلك مدخل- أو كلام هذا معناه- فقال الشيخ: رُحْ وأتني بعد ثلاثةِ أيام.

فجاء السلطان بعد الثلاثة أيام فقال للشيخ: إيش كان من أمري؟ فقال له

الشيخ: والله لقد دخلت على الله تعالى من أسمائه الحسنى بتسعة وتسعين اسمًا، فكل باب دخلت منه يحول مجد الدين بيني وبين الله تعالى ولا يدعْني أصلُ إليه، فقال له: يا سيدي، فكيف الحيلة؟ فقال: والله ما بقي حيلة؛ فإنَّ الله تعالى قد غضب لوليّه، وإنَّه يأتي عدو من هذه الجهة -وأشار بيده إلى الشرق- يكون فيه ذهابُ ملكِك، ويروح رأسي في الوسط، وتُؤخذُ البلاد، ويروح رأس ولدك جلال الدين.

قال: فلم يلبثوا أيامًا حتى غارت التتر على البلاد، وكان أوَّل خروجهم، وسبب تسلّطهم فيها لَمَّا قرُب مَلِكُ التتار من المدينة التي بها الشيخ النجم، سيّر إلى الشيخ وقال له: كم أصحابك؟ حتى تسير قرمانًا فقال: أصحابي كثير وقصد الشيخ أن يسلّم الناس فجاءت الرسلُ وراحت وعادت، وفيما بين المجيء والرواح ساح الفكر وقُتل الشيخ النجم ولم يُعرف.

فانظر رحمك الله إلى هذه الحكاية.

روايات في كرامات الأولياء

وحكى لي الشيخ عبد العزيز- رحمه الله تعالى- قال: كان فقيرٌ دخلَ على فقراء في مكان فبقوا ثلاثة أيام لم يطعموا، فقال: تخلّوني نَسأل لكم شيئًا، فقالوا: إنَّ بالبلد رجلاً يكره الفقراء فقال: درْوِزُوه -أو خلّي مَن يُريني مكانه لأُدَرْوِزَه- فراح معه فقيرٌ أراه له فوجد رجلاً جليلاً، والوالي عنده والأكابر، وهو يبتاع فرسًا بخمسمائةِ دينارٍ، وأخلع على الذي شراها منه، وهم يكتبون عهدتها فقال له: سلام عليكم فقالوا: وعليكم السلام فقال: الفقراء يدروزوك في هذا الفرس، يذبحوها ويأكلونها فقال: إن ماتت يأكلوها فقال له: الفقير أهم كلاب؟ قال: نعم، قال: وما تخاف من الفقراء ينطحوك بقرونهم؟ فقال: الفقراء لهم قرون؟ قال: نعم، وإن شئت أريتك فقال له: أَرِنِي فقال: فيك أو في الفرس؟ فقال: في الفرس، فأشار بأصبعه إليها فارتفعت في الهواء وسقطت ميّتة، وقال: إن شئتم خسفت به وبداره الأرض، فوقع على رجلين، فقاده بأُذِنِه إلى الفقراء، وتجرَّد ورجع إلى الله تعالى.

فإيَّاك ثم إيَّاك والاعتراض على أولياء الله تعالى.

وقد حُكي أيضًا: عن عبد الرحمن شَمْلة أنّه عزم عليه أحد الأمراء ببغداد، وجمع أصحابه والأكابر يتبركون بالشيخ عبد الرحمن شملة، فلمَّا قدم السّماط جاء فقيران من المسافرين فقال أحدهما لصاحبه: هذا عبد الرحمن شملة، ذُكِر أنَّه ما غضب قط، إيش

تقول فيمن يغضبه؟ فتراهنا على ذلك، فدخل ذلك الفقير إلى السّماط، وجعل يأخذ منه على صورة النَهِم بين الأكابر، وعليه زيُّ الفقراء، فعندما رآه الشيخ عبد الرحمن شملة كذلك غضب ثم رفع رأسه إليه، وقال له: يا فقير، إمّا كونك تظهر الاحتياج والتّنهم بين أبناء الدنيا وتظهر الفقر بهذه الصورة حتى أغضب فأنا أغضب لمثل هذا - ألاّ يظهر الفقراء بصورة النّقص- وإنّما كان الشأن أنْ تغضبني في نفسي- أو كلام هذا معناه- فجلس الفقير في الوسط، وامتنع الناس من الأكل، وزيّق الشيخ عبد الرحمن شملة، ثم رفعَ رأسَه وقال: ارفعوا صاحبكم؛ فإنَّه أراد أن يُدخلَ علينا الغضب فرجع إليه

وقال: إنّه يحلُّ الشيطان محلَّ الرحمن- أو كلام هذا معناه- فحملوه وحرّكوه فوجدوه قد مات؛ فحلف ذلك الأمير ألاّ يجمع بين الفقراء وغيرِهم في مجلس واحد أبدًا.

أمر الله ورسوله ﷺ في الشريعة المطهرة بموالاة أولياء الله وأن الاعتراض عليهم هو تشبه باليهود والنصارى

فإيَّاك يا أخي والتعرض على شيء من ذلك؛ فقد ورد عن الله تعالى:

«**من آذى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة**[١]»، والأذية تقع بحسب العادة في إساءة الأدب بقولٍ أو فعلٍ أو قلة الإكرام والتعظيم، لا سيما إن رأيت الملوك والأمراء بصورة التعظيم والفقراء بغير ذلك في مجلس واحد، ولم تقم بحقوقهم، فإنّه حقُّ الله تعالى.

وفى نَصّ التنزيل: ﴿**أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ [يونس:٦٢-٦٤].

وقوله تعالى: ﴿**وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ**﴾ [المائدة:٥٦].

وقد ذكر الله تعالى أولياءه في غير ما موضع من القرآن العظيم، وذكر أولياء أوليائه فقال تعالى: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ**

---

(١) رواه البخاري (٢٣٨٤/٥) بلفظ :«من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب»، ورواه البيهقي في سننه (٢١٩/١٠)، والشهاب القضاعي في مسنده (٣٢٦/٢) نحوه.

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾[التوبة: ٧١].

وذكر تعالى أولياء الشيطان فقال تعالى: ﴿**الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ**﴾ [التوبة:٦٧].

ولم يكن هذا نسيانًا، فإنّ الله تعالى لا ينسى، تنزَّه الله وتعالى عن ذلك، ﴿ **لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى** ﴾ [طه:٥٢].

وإنّما ذلك لمقابلة الأوصاف، قال الله تعالى:

﴿**سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ**﴾ [الأنعام:١٣٩].

ولم يراقبوا الله تعالى فيما أمرهم به ونهاهم عنه، وأهملوا هذا الأمر ورجعوا إلى شهواتهم وكفرانهم وما هم عليه جازاهم الله تعالى بعدم المبالاة بهم فيما يعذبون به من العذاب والخزي والنكال والهوان في الدنيا والآخرة، والذي حصل لهم في الدنيا من القتل والأذى والعذاب، كالغرق لقوم السيد نوح عليه السلام وعذاب قوم السيد هود عليه السلام وقوم السيد صالح وقوم السيد لوط عليهما السلام ولعذاب الآخرة أشقُّ ولعذاب الآخرة أخزى، فجعلهم مع ذلك العذاب كالْمُهمل ينسى لهم وكل ذلك بعلمه وإرادته وقدرته، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء سبحانه وتعالى.

وقد ورد عن الله تعالى: «**اشتد غضبي على من ظلم مَن ليس له ناصرٌ غيري**[١]».

وورد أيضا: «**اتقوا دعوة المظلوم فإنَّه ليس بينها وبين الله تعالى حجابٌ**[٢]».

وقال تعالى: ﴿**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ**﴾ [النمل:٦٢].

فهذا المظلوم مجاب، أيُّ مظلوم كان، والمضطرُ مجابٌ، أيُّ مضطر كان، فما ظنُّك بوليِّ الله تعالى إذا كان مظلومًا ومضطرًا؟ أو ما ظنُّك به إذا كان يتكلم بالله تعالى ويرى بالله تعالى ويسمع بالله تعالى ويقول ويفعل بالله تعالى؟ وما ظنُّك إذا كان محبوبًا لله؟

---

(١) رواه الشهاب القضاعي في مسنده (٢/٣٢٤).

(٢) رواه البخاري (٢/٥٤٤)، ومسلم (١/٥٠).

وورد: «**ولا يزال العبد يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أُحبُه فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به**(١)»، وذكر الحديث إلى آخره في جوارحه، فافهم ما في ذلك، فإنَّ الله سبحانه وتعالى هو الفعَّالُ، وإن جرى الفعل على يد عبد من عبيده، كأخذ ملك الموت الأرواحَ والله تعالى الْمُتَوفِّي لها، قال الله تعالى: ﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا**﴾ [الزمر:٤٢].

وقال تعالى: ﴿**قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ المَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ**﴾ [السجدة:١١].

فالله تعالى هو الْمُتَوفِّي وملك الموت يقبض بإذن الله تعالى وإرادته وقدرته وقوته وملك الموت آلةٌ في ذلك، كما تقول ضرب السلطان رقبةَ فلان وما ضربها إلا أعوانُه لكن بإذن السلطان، وضرب السلطان فلانًا بالمقارع وما ضربه إلا الْمُقدِم لكن بإذن الوالي.

والوالي والسلطان بإرادة الله تعالى وبقدرته؛ إذ وجودهم وحركاتهم وسكناتهم من الله تعالى، فكيف يعسرُ عليك فهمُ ما يقوله الوليُّ؟ وما يجريه الله تعالى على لسانه من سعادةِ قومٍ وشقاوةِ آخرين، ومن هلاك شخص، وحياةِ آخر، ومن موت من يريد الله تعالى موتَه على يدِه أو لسانِه؛ إذْ يكون به يقول ويفعل ويسمع ويرى، أو مايَشهدُه بالكشف والإطلاع فيخبر عنه، فإنْ كنتَ ممن يفهم عن أولياء الله تعالى فافهم ما يلقي إليك، والتعرّض في هذا المقام عليك ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ المُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٢٦، ٢٧].

فانظر، رحمك الله تعالى، كيف أمَره بهذا القول لأنَّ في الأسباب الموصّلة إلى الملك وزوال الملك عادَة مع وجود الأسباب، والأمر بالتحريض على القتال في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ المُؤْمِنِينَ عَلَى القِتَالِ**﴾ [الأنفال:٦٥].

وكيف جعل قوة المؤمن بعشرة أولاً؟ وذلك لسرٍّ غامضٍ؛ إذ قوة اليقين غالبةٌ لمائة

---

(١) سبق تخريجه.

ألف، وتحته سِرِّيَّةٌ لا يمكن كشفها إلا لأهلها، ثم خفَّف من العشرة إلى اثنين، وأوجبه وتواعده بالعقوبة عن التولّي عن ذلك، هذا مع قوله تعالى:

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال:١٧].

فإن كنت ممن تحققت له السعادة بالولاية فقد أسعدك الله تعالى بمحبته، وأسعد بك كل من تبعك وأحبك؛ إذ محبة الله تعالى محبة نبيه ﷺ، ومحبة نبيه محبة وليه، ألا ترى إلى قوله تعالى: **﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾** [آل عمران:٣١]، والأولياء هم الأتباع لرسول الله ﷺ، وهم أحبَّاء الله تعالى، وهم ورثةُ أنبيائه، صلوات الله تعالى عليهم وسلامه.

وإنْ لم تكن منهم فكن من المحبِّين لهم فقد ورد:

«همُ القوم لا يَشقى جليسُهم[(١)]».

وقد ورد: **«أنا جليس من ذكرني[(٢)]»**، فهم جلساء الله تعالى وأنت جليسهم وهم الذاكرون الله تعالى، والله تعالى يذكرهم وأنت تذكره معهم، وقد قال تعالى: **﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾** [البقرة:١٥٢].

وإيَّاك أن تكون مِمَّن يعترض أو يؤذيهم أو يشوِّش عليهم بقول أو فعل أو تردَّ على كلامهم بعقلك أو فهمك؛ فإنَّ العقول والفهوم لا تصلُ إلى مقاصدِهم وأسرارِهم عند ربِّهم وما هم فيه، وسواء في ذلك بسطهم أو قبضهم.

وإيَّاك أنْ تقول كما قالت اليهود والنَّصارى؛ فإنَّهم ادَّعَوا محبة الله تعالى لهم، والحقيقة تمنعهم من ذلك، وذلك أنَّك تفعل ما يخالف، والخلاف حقيقة البعد والحجاب، والحجاب حقيقة الموت والعذاب، فكيف يكون المحبوب مُعَذَّبًا مع مَنْ يحبُّه؟ قال الله تعالى: **﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾** [المائدة:١٨]، لأنَّ المحبَّ لا يعذب المحبوبَ.

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في المذكر والتذكير (ص٥٦)، وابن حبان (٣/١٣٩)، وأبو نعيم (٨/١١٧).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (١/١٠٨)، والبيهقي في الشعب (١/٤٥١).

وإيَّاك أنْ تقول: أين الوليُّ حتى أعامله بهذه المعاملة التي أشرت إليها، فإنِّ أرى أقوامًا متّصفين بخلاف ما قلتَ في الأقوال والأفعال؟

فاعلم -وفقني الله وإيَّاك- أنَّ الناس ثلاثُ طبقاتٍ: عامةٍ، وخاصةٍ، وخاصةِ الخاصةِ.

والوليُّ في الطبقة الأولى:، حتى لا يكاد يُعرف إلا بنور البصيرة إذا لم يغلب عليه حال فيظهره، وهو في الطبقة الأولى:، وفى الطبقة الثانية: مستَتِرٌ، وفي الطبقة الثالثة: مُتحقِّق.

فالطبقة **الأولى**: -وهى العامة- وهم أهل الاكتساب والصناعات والمعايش والتجارات والسوق، وغير ذلك مِمَّن يشتغل بالحِرَف وغيره.

و**الثانية**: هم أهل العلمِ والورع والدين من المتفقهةِ والقرَّاء وغير ذلك.

و**الثالثة**: هم أهل التجريد والزهد وترك الدنيا والرئاسات.

فأوصافهم لا تنحصرمن الخشية والتواضع وإعطاء الحق من نفسه، وترك حقه لغيره، واتحاد الراحة للخلق، وحمل الأذى عنهم، وترك الأذى بالجملة، والعلم بالإطلا ع والكشف، وإخفاء صفاتهم إلا ما يُظهرُه الله تعالى على جوارحهم من غير اعتماد منهم، مع الوقوف مع حدود الله تعالى وأمره ونهيه لا يتعدونه، فهذه الطبقة الولاية محقَّقةٌ في جملتهم، وهى متوَّهمة في كل واحد منهم إلا مَن ظهرت عليه آثارُها، فتعلّم ذلك، وإلا فهي خفية كما قدّمناه.

والثانية: متوَّهمةٌ فيهم، وحيث توَّهمتَ أنَّ هذا وليُّ الله تعالى وجب إكرامه بكل وجه، كما أنَّك إذا رأيت من يلبس لبس الجند وتوهمت أنه قريب من السلطان تكرمه، وحيث علمت أنك إذا شوَّشت على من علمت أو توهمت أنه يقرب من السلطان فقد أوبقت نفسك، وخشيتَ الهلاك، فاحذر من التشويش على مَن انتسب إلى الله تعالى بوجهٍ ما، وإيَّاك أنْ تشربَ السُمَّ للتجربة هل يقتلك أو لا؟ فهذا والله أسرع إلى الهلاك من السُمِّ في الدنيا والآخرة.

وقد علمتَ مِن نفسك أنَّه إذا شوَّش أحد على غلامك أو مَن انتسب إليك، فإنَّ كنتَ متصفًا بأخذ الحق بغير زيادة ولا نقصان وإن كان الأمر لك والتصريف فيما يفعله ولا وزر عليك في دنياك ولا في آخرتك؛ فعلتَ به ما تريده وتختاره بحسب قوَّتك واستطاعتك، فافهم هذه الإشارات فهي بلسان حالها أفصح من لسان مقالها، ولا

تقِسْ الطائفة على ما تعلم من نفسك، وانظر إلى إكرام مجنون بني عامر كلبًا رآه في حى ليلى كما قيل:

رأى المجنــونُ في الصــحراء كلبًــا ... فجــرَّ عليــه مِــن نُعمــاه ذيــلا

فلامُـــــوه عليــــــه ثمَّ قـــــالوا ... مَنحـتَ الكلـبَ مِـن نُعمَـاك نَـيلا

فقـــالَ: دَعــــوهُ فـــإنَّ عَيــــني ... رأتْـــــهُ ليلَـــــة في حَـــــى لـــــيلا

وقد حكى لي خطيب مصر ابن القسّطلاّني: أنَّ الشيخ عبد العزيز، حكى عن الشيخ عبد الرحيم المدفون بقنا، أنَّه رأى كلبًا فقام له إجلالاً، فقيل له في ذلك فقال: رأيت في عنقه خيطًا أزرقًا لكونه من زىّ الفقراء، وإنْ كان ذلك ضربًا للأمثال.

وإيَّاك أنْ تستغني بعلمك وصلاحك وعبادتك وعملك وإيثارك وكرمك إن كنتَ كذلك، أو بجاهك وملكك إن كنتَ كذلك، أوتدانيك وقربك وصحابتك وإخوتك إن كنت كذلك.

بيان أفضلية الفقير الصّابر على الغني الشاكر

وليس بخافٍ ما اتفق بين الإمام الجنيد ﷺ وابن عطاء، وقد كان الجنيد سيدُ هذه الطائفة وابن عطاء[1] من الأكابر في الطريق.

وقد جرى بينهما الخلافُ في الفقير الصابر والغني الشاكر، فذهب السيد الجنيد إلى أنَّ الفقير الصابر أفضلُ، وعلَّله وبيَّن العلة وهو الذي أراه.

وذهب ابنُ عطاء إلى أنَّ الغني الشاكر أفضلُ، واستدلَّ بأنَّ الغني صفته من صفات الله تعالى، وهذا مشتقٌ فقال له الجنيد: إنَّ غِنى الله تعالى بذاتِه، وهذا الغِنى يمتد

---

(١) هو سيدي ابن عطاء الزاهد العابد المتأله أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الأدمي البغدادي، من ظراف مشايخ الصوفية وعلمائهم له لسان في فهم القرآن يختص به، وأسند الحديث.صحب إبراهيم المارستاني والجنيد بن محمد ومن فوقهما من المشايخ.

وكان أبو سعيد الخراز يعظم شأنه. وقال حسين بن خاقان: كان ينام في اليوم والليلة ساعتين.

قال أبو سعيد الخراز: التصوف خلق، وليس إنابة، وما رأيت من أهله إلا الجنيد، وابن عطاء، مات سنة تسع وثلاثمائة أو إحدى عشرة وثلاثمائة، في ذي القعدة.

انظر: طبقات الصوفية (٢)، (ص٢٦٥)، وحلية الأولياء (٣٠٢/١٠)، والطبقات الشعرانية (١١١/١)، وشرح الأنفاس الروحانية للديلمي (تحت قيد الطبع).

إليه يد السارق والغاصب فلا يشتق هذا منه.

والذي علَّله الجنيد ﷺ أو معناه أنَّ ليس مَن آلم نفسه كمن أراح نفسه -وهو الذي أراه، وإنْ كنت في الحقيقة لا أرى بالتفضيل لكن بالتمييز- فلمَّا ردَّ على الجنيد قوله دعا عليه فقال: اللهم أَذْهِبْ مالَه وعقلَه وأمت ولدَه، فذهب ماله ومات ولده وبقى أربعين سنةً مجنونًا يقول: أصابتني دعوة الجنيد.

فانظر يا أخي رحمك الله تعالى، إلى هذه الحكاية مع عِظم شأن الجنيد، وإنَّه ما كان مِمَّن يخرج إلا أنَّ الحال اقتضى ذلك، ويقوي ذلك أنَّ الجنيد كان الحق معه لإجابة الدعوة.

روايات في الكرامات

وحكى لي الشيخ عبد العزيز الشريف ﷺ أنَّه صحب فقيرًا وكان ذلك الفقير يرقَى إلى حالة يجري الله تعالى على لسانه ما يريد وقوعه.

قال الشيخ: فمشيت معه يومًا وإذا شخص ربَّما قال: يسرق من النخلة شيئًا من ثمرها فقال: قع فوقع فمات من ساعته.

وأنَّه كان ليلَة أراد أن يدنو من زوجته، فقالت له عن أولاده الصغار يستيقظون فقال: أماتهم الله تعالى -وكانوا سبعةً- فأصبحنا صلَّينا على السبعة.

وذكر من ذلك شيئًا غاب عني، قال: فقلت له في ذلك فقال ما هو باختياري أو مالي في هذا شيء، فقلت له: أماتك الله تعالى أو أراح الله تعالى منك، ولو لم يمت من قريب كان قد أهلك خلقًا كثيرًا.

فانظر رحمك الله تعالى إلى هذه الحكاية، حيث كان محلاً لمجاري الأقدار.

وحكى لي الشيخ يعيش بن الشيخ محمود رحمه الله تعالى قال: لما خرج ابن الدامعاني من بغداد لجباية الخراج والأموال وكان صاحب ديوان الخليفة حصل للناس منه خوف شديد، فجاءوا إلى سيدي إبراهيم الأعزب، وكان قد جلس في الرِّواق -ولعله ابن بنته- وكان عظيم الشأن ﷺ فجاءوا إليه من جميع الجهات من البطائح وغيرها وهم فلاحون ومماليك وفقراء، وشكوا إليه ابن الدامعاني وجَورَه فقال لهم: ما يصل إليكم، وصاروا كلّما قرُب جاءوا إلى الشيخ فيقول لهم: ما يصل إليكم، إلى أن صار بقريةٍ قريبةٍ جدًا فجاءوا إليه وصاحوا وقالوا: وصل فقال: يا أرنبة، اكسري رقبته.

فبينما هم جلوس -أو بينما نحن جلوس- وقد ورد ساعي بكتاب إلى الشيخ وقال: يا سيدي ابن الدامعاني راكب على فحل وهو جائي، وأرنبة خرجت من تحت شجرةٍ، جفل الفحل منها فرماه انكسرت رقبته.

وكان الشيخ إبراهيم الأعزب عظيم الشأن جليل القدر لا تكاد أحواله تنحصر، ورأيت من أصحابه الشيخ زكري الحِيني وكان مقيمًا بأسوان ووصل إلى قوص وكان يصحبه المسافرون والمجرَّدون، وكان يحملهم وكان مفتوحًا عليه وكان أميًّا وأحواله شريفة، وله أولاد، رحمه الله تعالى.

سيدي إبراهيم الأعزب رضي الله عنه(١)

وأخبرني الشيخ عبد العزيز عن سيدي إبراهيم الأعزب -رحمهما الله تعالى- قال: أخبرني فقير قال: دخلت العراق، فوجدت خلقًا لا يكادون ينحصرون، الكلُّ يقول: يا سيدي إبراهيم، فقلت في نفسي: هذا يعرِف عدد هؤلاء فضلاً عن أنْ يربِّيهم قال: فلمَّا دخلت على الشيخ وجدتُ عليه ثوبًا أزرق وطاقية من ثوبه، وهو جالس في الرِّواق فقال لي: ماهم الكل على ما رأيتهم قلت: نعم قال: قلوب الكل في يدي قال: ثم قام ووقف على باب الرِّواق، وجمع كفَّه في الهواء وإذا هم يصيحون ويخرجون من الرحال ويجيئون من كل مكان، ويقولون: لبيك يا سيدي إبراهيم، لبيك يا سيدي إبراهيم حتى صاروا بين يديه -ولو رمى القمح ما وصل إلى الأرض- ثم بسط أصابعه أو بسط كفَّه فراح كل واحد منهم إلى جهته التي جاء منها حتى لم يبقَ بين يديه أحد.

فانظر يا أخي، رحمك الله تعالى، إلى هذا التصريف الأول :والثاني، وهذا الرجل

---

(١) هو من أعيان مشايخ البطائح، وأعلام العارفين، وصدور المحقيقين، صاحب الكرامات الظاهرةو والأحوال الفاخرة، والمعارف الزاهرة، وهو أحد من أظهره الله إلى الوجود، وصرفه في الكون، وخرق له العادات، وأظهر على يديه الخارقات، وأنطقه بالمغيبات، وأجرى على لسانه الحكم، ومكنه من أحوال النهايات، وملكه أسرار الولاية، ونصبه قدوة وحجة.

خلف أباه الشيخ أبا الحسن عليًّا بعد وفاته بالمشيخة برواقي أم عبيدة، وكان أجل أهل بيته يومئذٍ، وكان قيما بحل المشكلات الواردة مؤيدًا في كشف مخيفات الأحوال. وانظر: قلادة الجواهر للصيادي (ص٤٤٩)، وبهجة الأسرار ومعدن الأنوار للشطنوفي (ص٤٠٦) .

وما أعطيه من العطاء.

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

وصفات الشيخ إبراهيم كثيرة ولسنا بصددها الآن، لكن نحن نتكلم فيمن أُجري على لسانه قضاء الله تعالى كالشيخ مفرج- رحمه الله تعالى.

الشيخ مفرج الدماميني ﷺ

وحُكي أن ظالِمًا قصد الوصول إلى دمامين أو إلى بلاد مدينة قوص، فجاء أهل دمامين وشكوا إلى الشيخ مفرج فقال لهم: ما يصل إليكم وجعلوا يقولون: جاء من العقبة إلى أن قالوا: جاء إلى المعدية فقال لهم: ما يصل إليكم، فلمّا وصل المعدية وقَدِمُوا إليه ليعدّي فيها ما فعل ينزل مِن على فرسه وهمز الحصان ليطلع المركب فطاح به الحصان من الجانب الآخر فغرق، ولا أحقق هل غرق هو وحصانه جملًة أو لا، والأغلب أن الحصان أيضًا غرق معه.

وهذا يدلُّ على الكشف الصحيح والتصريف.

ويعضِّض ذلك ما حكاه لي الشيخ ناصر الدين بن عبد القوي -رحمه الله تعالى- عن شخصٍ من أحبَّائه قال: كنت مع الشيخ مفرج، وكان قد خلع ثوبه، ففلَّيته وفتشت جيبه، وكان له جيب على كتفه، ولم يكن فيه شيء، ولبِسه الشيخ.

فبينما نحن نمشى إذا بفقير قد طلب منه شيئًا، فأخرج له من جيبه قيراطًا أسودًا، وكان ذلك الوقت يتعامل الناس في الصعيد بالوِرق فقلت: يا سيدي، أنا فتَّشت ثوبك ولم يكن فيه شيء فقال: يا فلان -أو يا مبارك- أوَّل ما يضع الفقير قدمه في الإرادةِ يُعطَى ثلاثُ خصال: يمشي على الماء، ويطير في الهواء، وينفق من الغيب.

وحُكي عنه أنَّهم كانوا قيدوه في الأخذة التي أُخذ فيها، فزعموا أنّه مجنون حتى أتوا إليه يومًا بطاجن فيه فراخ مطبوخة فقال لهم: طيروا فطاروا فأطلقوه.

وحدثونا عنه أنّه لما جاءه ابن قاضي دارا يزوره، فأخذ الشيخ في مئزره تقدير قدح حمُّص مقلي، فجعل يعطي أصحابه كل واحدٍ قبضة، وكانوا كثيرًا، فتعجب ابن

قاضي دارا، فلمّا خرج طلب مماليكه وأصحابه وقال: كلُّ مَن أخذ شيئًا فليحضره، فاحضروه فاكتاله، فجاء إمّا ثلاثةَ أمداٍد وقدحًا وإمّا ستةَ أمداٍد.

وكان الشيخ مفرّج مجذوبًا، وكان كبير الشأن وقد كتب حكايات الشيخ صفيّ الدين في رسالته، حين صحبه في مصر.

وحدَّثني الفقيه -نجم الدين بن حفَّاظ- وكان عدلاً وكان يجمع القراءةَ بالسبعِ ويجيزُ بذلك ويسمع عليه، قال عن الشيخ أبي يحيى قال: خرج بنا الشيخ أبو الحسن ابن الصبَّاغ- ربما قال ماشيًا- إلى أنْ وصلْنا إلى أبنود مساءً ثم أصبحنا دخلنا إلى قوص، وبتنا ثم أصبحنا جئنا إلى دمامين فأدخلنا على الشيخ مفرج قبل أنْ يعرف فقال الشيخ أبو الحسن: هذا المجذوب، هذا المخطوب، هذا المدلل على ربه، هذا مفرّج، وظهر الشيخ مفرج رضي الله عنه وعن جميع الأولياء والصالحين والسالكين طريقهم، وجعلنا منهم ومن محبِّيهم ولا أخرجنا عنهم لا في دنيا ولا آخرة بمحمدٍ وآله.

وأخبرني قال: كان عندنا وكنَّا مجتمعين بزاوية الشيخ عمر قال: دخلت على الشيخ سلمان السَّبْتِي وكانت له أحوال عجيبة، تركنا ذكرها خشية على مَن لا يعرفها فينكرها قال: دخل عليه فقير فتكلَّم معه فقال له الفقير: ما هذا بالفقيري فأشار سلمان بيده وقال: هذا بالفقيري، فوقع ذلك الفقير واضطرب ومات من ساعته.

ومن مروءة الشيخ مفرّج -قدس الله روحه- ما حكاه كمال الدين بن إبراهيم ابن الصابوني -وكان من العدول وأكابر الأقصرين- رحمه الله تعالى- أنَّ الملك الصالح لما طلب عز الدين بن الفقيه نصر، وكان قد احتاط على بني الفقيه نصر وأموالهم، وطُلِبُوا واستُخِفّوا، فسافر الشيخ مفرج إلى مصر.

وكان عز الدين بن الفقيه نصر يصحب الشيخ مفرج ويعتقده، فسافر الشيخ مفرّج إلى مصر بسببه، واجتمع بالسلطان الملك الصالح، وكان الشيخ مفرّج، رحمه الله تعالى، غير متصنعٍ في كلامه ولا في حركاته ولا في شيء من أفعاله، رحمه الله تعالى، فقال للملك الصالح: أنت السلطان؟ فقال: كذا يقولون يا سيدي فقال: مالك مع عز الدين بن الفقيه نصر؟ فقال: يا سيدي، المطلوب منه لبيت المال مائةٌ وعشرون ألفَ دينارٍ، ولكن ما مع وجودك محاققة، قال الشيخ: مالك عنده شيء؟ فقال له السلطان:

يا سيدي، مالي عنده شيء؟ قال: فخلّيهم ينادوا. فأمر السلطان الوزير أن يخرج ويُنادي بالإفراج عنهم جميعًا لأجل الشيخ مفرّج، رحمه الله تعالى.

وكان يمشي في حوائج المعلمين ويكثر الشفاعات ويسعى بنفسه.

وأخبرني شرف الدين أبو طالب بن النابلسي(١) حين وصل إلى قوص كاشفًا قال: جئت المرةَ الأولى مع والدي، واحتطنا على العماد بن الصيفي، وطلب منه مالاً، فجاء الشيخ مفرّج وشفع فيه، فترك له ألفَ دينارٍ.

وبلغني أنّ الشيخ مفرّج -رحمه الله تعالى- كان يرى أن يهدي لمن يشفع عنده شيئًا قبل الشفاعة ويتلو قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً**﴾ [المجادلة:١٢].

ولعله كان يرى باستمرار الحكم فيها، فإنّه ذُكر أن ذلك كان مذهب الإمام السيد علي، كرم الله تعالى وجهه، وكلُّ ذلك كان من حسن مقصدِه وتلطّفه في قضاء حوائج المسلمين حتى لا تتوقف حاجة.

وقد يُكاشف الوليُّ بأنَّ الحاجة لا تُقضى ويشفع للحديث الوارد:

«**اشفعوا تؤجروا** (٢)» ولنصِّ التنزيل في قوله تعالى: ﴿**مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا**﴾ [النساء:٨٥].

ولم يُشترَط في الآية الكريمة ولا في الحديث الشريف قبول الشفاعة، ولأنَّ في ذلك إطابةَ قلبِ المشفوع فيه وإبلاغ النفس عذرَها، لأنَّ في التوقُّف عن الشفاعة إيلام قلب المشفوعِ فيه مع القدرةِ الظاهرةِ على الشفاعة. وقد يقع من يقع في الشافع إذا لم يشفع، فيحميه من وقوعه في الغيبة أولاً.

والوجه الآخر أنَّ الشَّفاعة قد تكون من دائرة المحو والإثبات فيما كوشف به، فلله أن يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء في كل زمنٍ فردٍ.

وحُكي أنّ أحد الصالحين توجه إلى زيارة شقيق البَلخِي(٣)، فلمّا وصل إليه وبات

(١) له ذكر في الوافي للصفدي (١/١٨٢٦).

(٢) رواه البخاري (٢/٥٢٠)، وأحمد في مسنده (٤/٤٠٠).

(٣) هو الزاهد العابد، العلي الشان، العجيب البرهان، من أكابر السادة وأعاظم مشايخ الطريق القادة.
=

عنده رأى في الرؤيا لوحًا فيه أسماء السعداء وأسماء الأشقياء، ورأى اسم شقيق فيه، فاستيقظ مرعوبًا متألِّمًا، فنزل إلى الشيخ، فوجده على اجتهاده وتوجّهه فقال الشيخ: مالك؟ رأيت اللوح؟ فقال: نعم قال: وهل نحن إلاعبيد يفعل بنا ما يشاء؟

ثم قام الشيخ إلى عبادته وتوجّهه ولم يتغير ولم يضطرب لذلك.

فلمّا كان ثاني ليلة رأى الرجل اللوح الذي رآه، ورأى اسم الشيخ شقيق من السعداء، فاستيقظ فرحًا مسرورًا، فنزل إلى الشيخ فوجده على اجتهاده فنظر له الشيخ وقال له: محي وأُثبت؟ قال: نعم.

وللشيخ شقيق من الشرف والآيات والكرامات كثير، وإنّما ذكرنا هذا الاستدلال لأنّا لا نخرج فيما قصدناه عمّن رأيناه وسمعنا من رآه ورأى من رآه بحسب أهل الزمان.

وحُكي أنّ الشيخ شقيق ورد عليه جماعة من الفقهاء قال: فبينما هم عنده، وإذا بواحد من قطّاع الطريق دخل عليه ومعه جمل محمّل دقيقًا، فقال: يا سيدي نحن اليوم قد خرجنا فوجدنا قافلة وأخذناها، وخرجنا عن هذا الجمل لك أو جعلناه نصيبك- أو كلامًا هذا معناه- فقال الشيخ للخادم: افتح الدقيق، ففتحه فوجد فيه سكر، فقال: اعمل الخبز والحلاوة واذبح الجمل واطبخ الطعام -أو كما قال- ففعل، فلمّا فرغ ومدَّ السّماط وقالوا: الصلاة، تقدّم الشيخ وأكل، وأكل الفقراء، وبقي الفقهاء لا يأكلون؛ لأنّهم قوم مستمسكون بالظاهر، ولا يعرفون غيره.

=

كان يقول بطرح المكاسب والمطالب، والتوجه في الأسباب والمذاهب، قدّم للمعاد، وتنعّم للوداد، وثقّ بكفالة الكفيل فتوكل، واجتهد فيما ألزمه فتحمّل وحصّل.

وقد قيل: التصوف الركون والسكون ونحول الأعضاء والغضون، والتخلي عن القرى والحصون.

كان من أجل مشايخ خراسان، له كلام حسن في التوكل فاق به الأقران، طالما خاض في المجاهدة الغمرات، واصطلى في الرياضة حرّ الجمرات، حتى قامت الأدلة على فضله، وأجلب إلى النفس والشيطان بخَيْلِه ورجله.

وانظر: حلية الأولياء (٨/٥٨)، وصفة الصفوة (٤/١٥٩)، وشذرات الذهب (١/٤٣١)، وطبقات الشعراني (١/٧٦)، وسير أعلام النبلاء (٩/٣١٣)، والكواكب (١١٣).

فأكلوا، فلمّا كان بعد ساعة، إذا بإنسان من التجار المأخوذين قد جاء إلى الشيخ ومعه كتاب من عند أحد أصحابه بأنه أرسل الحمل الدقيق والسكر صحبة ذلك التاجر، والتاجر متألم، وقال، يا سيدي، لم يؤلمنى ما راح لي، إلا الجمل الذي أُرسل إليك وما عليه، فقال له الشيخ: أمّا الجمل وصل إلينا، والدقيق والسكر، أتعرف الجمل؟ فنظر إلى رأسه فعرفها، وعرف الأحمال والعلامة.

وقد تكون الشفاعة لتأكيد الحجة على المشفوع عنده، وقد يكون يشفع من وراء هذه الأطوار؛ إذ لله تعالى أن يفعل ما يشاء كما يشاء فلا تقف مع كشفه، لأن الحكم لا يحكم على حاكمه.

وفى إخبار الله تعالى بأنه استثنى فيه من الأشقياء والسعداء، وفي القرآن كفاية، ومن مكاشفات الشيخ مفرّج ما حدثونا به أنه كان في السَّماع فربّما قال لهم: أمسكوا؛ فإنَّ أخي الشيخ أبا الحجاج توفِّي الساعةَ، وركب من دمامين إلى الأقصرين حتى صلّى على الشيخ أبي الحجاج- قدس الله تعالى روحهما-.

وكان الشيخ أبو الحجاج جليل المقدار كبير الشأن ولم أجتمع به؛ إمّا أن يكون الشيخ توفي قبل أن أكون موجودًا أو كنت صغيرًا فى ذلك الوقت. ولوالدي معاصرة به، ولأصحابنا الجميع معاصرة به واجتماع لأنهم في بلدٍ واحدٍ، وكان الشيخ -كما حدّثونا- مُجرّدًا، وأنّه كان تجرّد وتوجّه، وصحب الشيخ عبد الرزّاق[1] صاحب الشيخ أبي مدين[2]، وهو مدفون بالإسكندرية- أعني عبد الرزاق- وكان للشيخ أصحاب كثير

(١) له ذكر في الكواكب (٢/١٩٥)، .

(٢) هو غوث الأغواث، ويلقبه الأكابر بشيخ الشيوخ الأستاذ الأعظم العارف الأفخم، عظيم الأكبار، رأس الصوفية في وقته، ورئيسهم المشهور، علم نعته زاهر، زاهد مراقب مشاهد، يُقصد ويزار من جميع الأقطار، وببنان العرفان إليه يشار، يوصل ويقطع ويخفض ويرفع.

ولد ببجاية ونشأ بها واشتهر حتى ملأ الآفاق وصار إمام الصديقين في وقته بلا شقاق، وأخذ عنه الكبراء كالعارف ابن عربي ﷺ وقال: كان سلطان الوارثين. ومكث في بيته سنة لا يخرج، فاجتمع الناس ببابه يسألونه أن يتكلم عليهم وألزموه، فخرج، ففرت منه عصافير على سدرة بداره فرجع وقال: لو صلحت للحديث عليكم ما فرّ مني الطير ولا الوحش، فرجع فمكث سنة، فأتوه فخرج فلم تفر منه، فتكلم عليهم، وترك الطير تضرب بأجنحتها وتصفق حتى مات منها كثير، ومات رجل ممن حضر.

=

انتفعوا على يده عرفت منهم جماعة، وهو مشهور بالعلم وله كلام، وزاويته وضريحه بالأقصرين، وكان له ابن عم يُسمَّى الشيخ جبريل، وكان جليل القدر عظيم الشأن.

أخبرني عنه قاضي عيذاب شرف الدين محمد بن مسلم، قال: قلت له: يا سيدي، لم لا تخبرنا كما يخبرنا الشيخ أبو الحجاج؟ قال لي: يا ولدي، شيخي قال لي: ابقَ تيسًا إلى أن تموت.

وأخبرني أيضًا أنّ رجلاً صالحًا كان يقول: تكروری مسكَنِي ومشى بي- ربما قال ليلا- حتى أوقفني على باب الشيخ جبريل وقال لي: ما رأيت علم الولاية إلا على هذا الباب أو رأيت علم الولاية على هذا الباب.

وكان الشيخ عبد الغفار بن بنت الشيخ أبي الحجاج يخدمه.

وكان يخبرني بالعجائب والغرائب، وكان الشيخ أبو الحجاج يَسمع السُّمَّاع، وكذلك الشيخ أبو يحيى.

أخبرني الشيخ أبو الطاهر إسماعيل أنّ الشيخ أبا الحجاج كان عندهم في السَّماع وأنّه كان يصيح: يا حبيب يا حبيب، وكذلك رأيت بعض أصحابه في السَّماع كأبي زكريا بن القاضي إسماعيل اليمنى يحيى، وكان يخدم الشيخ أبا الحجَّاج وكنا نثق بقوله، وتسكن نفسي لِمَا أسمعه منه عن الشيخ، وكان والدي يسمع قوله في الشهادة، وكان لا يكاد يفارقنا مدةَ حياتِه وسافر معي من مكة، شرفها الله تعالى، إلى مصر ومات بعد ذلك.

=

وكان الشيخ أميًا، وعلوم الأمي تأتي خالية من الإشكال.

وقال العارف ابن عربي ﷺ: كان حال وقته التجريد، وعدم الادخار.

اتفق له أنه نسى في جيبه دينارًا، وكان كثيرًا ما ينقطع في جبل الكواكب، وكانت هناك غزالة تأتيه فتدر عليه لبنها فيكون ذلك قوته، فلما جاء إلى الجبل جاءت الغزالة على عادتها وهو محتاج إلى الطعام فجاء ليشرب من لبنها فنفرت عنه وما زالت تنطحه بقرونها، وكلما مد يده إليها نفرت منه، ففكر في سبب ذلك فتذكر الدينار، فأخرجه من جيبه ورماه، فجاءته الغزالة وأنست به ودرت عليه.. وانظر: أنس الفقير وعز الحقير لابن قنفذ، والكواكب (٤١٧).

قال أبو زكريا: كان الشيخ يجلس في بيتي يستريح، وقال: كنت أجيء إلى الشيخ في بعض الأوقات فأجده يتحدث وما عنده أحد، فربّما سألته فيقول: إنّ بعض الجن المؤمنين كانوا عنده.

وشهرة الشيخ أبي الحجاج غير محتاجة إلى تكثّر، واعتقاد الناس فيه بعد وفاته كثير.

وأخبرني والدي -رحمه الله تعالى- قال: اجتمع عندي الشيخ أبو الحجّاج، والشيخ مفرّج، والشيخ مجد الدين المدرّس؛ وقدكانوا جاءوني في حاجة وعملت لهم شيئًا فأكلوا و غسلوا أيديهم، فرأيت الفقراء وهم يشربون غسل أيدي المشايخ، رضي الله تعالى عنهم.

ولقد أعجبني ذلك منهم؛ لأن صفة معتقداتهم تعود إليهم، فبها يقيلون إلى مطلوبهم، وكذلك سوء الظن يرجع على صاحبه حتى لا يخطئه شيء منهم سي ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ [الأنعام:١٣٩].

وأخبرني جعفر بن داود عن أبيه أنه صحب الشيخ أبا الحجاج الأقصري وأقام عنده مدة بالأقصرين، فلمّا جاء إلى مدينة قوص اجتمع بأصحابٍ كانوا له فتغلّبوا عليه، وأطعموه الحشيشة المشهورة، وكانوا على موضعِ ماءٍ، وفيه شجرة- إمّا نزعة أو عترة — قال: فأخذني شيء رماني في ذلك الماء، وتعلقت ثيابي بالشجرة وكدت أن أموت، فرأيت الشيخ أبا الحجَّاج فقال: هات يدك، فأخذ بيدى وأطلعني، فلمّا رحت إليه مسك أذني وفركها وقال لي: لا ترجع تأكل الحشيش.

ومِمَّن رأيته من أصحابه وعرفته وكان ملازمًا لي ولوالدي ولأصحابنا الشيخ أبي زكريا يحيى بن القاضي إسماعيل اليمني. ومن عرفناه عبد الرزاق الفاوي، وكان صاحبنا، وكان كثير الاشتغال بالذكر مع كثرة العيال لا يمنعه ذلك من الاشتغال، وكان أبو زكريا قليل السؤال، بخلاف أصحاب الشيخ، وربما كان له سبب.

وحكى الظهير موسى بن الصبّاغ أنّ الشيخ عبد الله السُومي أحد أصحاب الشيخ أبي الحجاج قال: كان عندنا قطٌّ نسميه مرزوق، فوقعت هجمة في الحاجر، فقال لي القط: يا سيدي، ما بال الناس؟ قلت: هم يقولون أنَّ القومَ جاءوا الحاجر

فقال: هى بطالة الساعة كما جئت من الحاجر ولا فيه شيء فقلت لزوجتى :توصّي بهذا القط فقالت: ولِمَ توصيني عليه؟ وألحت إلى أنْ عرّفتها فقلت لها: هذا قطٌّ من الجان فاحتدت نفسها وقالت :لا قعدتُ في بيتٍ فيه جنيٌّ أبدًا، إمّا أنا وإمَّا هو، وكنت أحبُّها، فقلت له: يا مرزوق، هذه المرأة ما تقعد في البيت وأنت فيه قال: فدار في البيت، وعاد يرقص ويقول: هُوَّ هُوَّ كالفقراء، وحطَّ رأسه وخرج فما رأيناه بعد ذلك.

ومَن رأيناه من أصحاب الشيخ، الشيخ علي اللبَّان الفاوي، وكان مشتغلاً خفيف الروح، وكان يحبُّنا ونحبُّه رحمه الله تعالى.

وحدَّثني الشيخ ظهير الدين موسى بن الصبَّاغ عن الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد القشيري رحمه الله تعالى قال: أخبرني أبو عمران المالقي -وكان من أصحاب الشيخ مجد الدين بن دقيق العيد مِمَّن تفقه عليه- قال: قدمنا الأقصرين مع الشيخ مجد الدين لزيارة الشيخ أبي الحجاج الأقصري، فدخلناها ليلاً، فقال الشيخ مجد الدين: ما ينبغي أنْ ندخل على الفقراء هذا الوقت.

فنزل عند أحد أولاد الصابوني بالأقصرين، فلمّا كان بعد العشاء الآخرة، واذا بالباب يطرق، فقال قائل: من هذا؟ فقال: يوسف، فخرجنا فوجدناه الشيخ أبا الحجاج، فدخلنا على الشيخ مجد الدين فقال الشيخ أبو الحجاج، رأيت رسول الله ﷺ الساعةَ فقال لي: أبو الحسن المنفلوطي قد جاء إلى زيارتك، قم سلّم عليه قال: فكنّا نراها عظيمة من الشيخين.

وحدّثني أيضًا الشيخ ظهير الدين عن الشيخ تقي الدين إجازة، قال: سمعت الشيخ عبد العزيز المهدويّ(١) يقول: قصد شيخنا أبو الحجاج زيارةَ الشيخ عبد الرحيم

(١) هو سيدي عبد العزيز بن أبي بكر القرشي المهدوي، أخذ عن الشيخ أبي مدين.

كان ذا اتصاف جميل، وعلم جليل، وحال فضيل، يقرأ القرآن مع كونه أميًا.

وأثنى عليه الأئمة، وأخذ عنه الأكابر، كان يلبس مرقعة زنتها تسعون رطلاً، ويؤدب نفسه بالمجاهدة، حتى إذا أنس منها الفتور دخل البحر بمرقعته، ولا يزال يصلي حتى تجف عقوبة له.

وكان إذا دخل الخلوة، واصل أربعين يومًا.

=

بقنا، فاجتمع في طريقة تلك بأبي العباس المرسى- رضي الله تعالى عنهما- في حكاية طويلة فقال له الشيخ أبو الحجاج: أوصنِي فقال:

عليك بتقوى الله تعالى في السرِّ والخلا، وليكن عملك واحد في الخلوة والملا، ما فاتك من الدنيا فلا تبكِ عليه، وما فاتك من العمل فنُح عليه.

إيَّاك أن تأمن سفيهًا ولا جاهلاً، واحذر المداهنة والْمِرَا ينجلي منك الْمِرْآ، واكتم سرَّك واخفِ أثرَك تبلغ من الله تعالى أملك، فقال له الشيخ: ادعُ لي فقال: اللهم يا من أخفاني عن أعين الخلائق، أسألُك أن تظهر له الحقائق، وتيسّر له الطريق، يا من إذا دعي أجاب، يا من أظهر الجميل وظهر عن الخفاء لسالك، أنْ تخفيه كما أخفيتنى، وأنْ تيسّر له الطريق كما وصّلتني، وأن تسقيه بكأس المحبة كما سقيتني.

وحكي لي أيضًا عن الشيخ تقي الدين المذكور، وقال :سمعت شيخنا أبا الحجاج يقول :قيل لي أن مَن جاء من أهل الطريق للطلب فدُلّه علينا، وأمّا الوصول فمنّا، فمَنْ رأيناه صادقًا محقّقًا أدنيناه ووصّلناه إلينا ،ومَن رأيناه غافلاً طردناه وأبعدناه؛ فإنّه لا يصلُ إلى المحبوبِ مَن هو بغيره محجوب.

وحدّثني أيضًا عن الشيخ جلال الدين الدشنائي قال: سمعت الشيخ أبا العباس الطائفي يقول: دخلت على الشيخ أبي الحجاج الأقصري، فرأيت له عينين من فوق الحاجبين.

وحدثني أيضًا عن القاضي وليّ الدين الدشنائي أخو الشيخ جلال الدين المذكور قال: دخلت على الشيخ أبي الحجَّاج وهو ببشلا وفي قرية بغرب قموله وعنده جماعة من الفقراء، وهم يتكلمون في الفتوة، فقال لهم الشيخ أبو الحجاج: وأيُّ شيءٍ حصل لكم من الفتوة؟ وأنا كنت وأخي أبي الحسن بن الصبّاغ سالكين إلى الله تعالى، فكان إذا شاهد مقامه يعلو علا مقامي فيدعو الله تعالى أن يعلو مقامي على مقامه، ثم

=

ومن كراماته أن إمام المهدية بلغه مواصلته ، فقال: إن مات لم أصلّ عليه؛ لأنه قاتل نفسه. فبلغه فقال: هو الذي يموت، وأنا أصلي عليه، فكان كما قال.

مات سنة واحد وسبعين وستمائة، ودفن بمرسا عبدوه. وانظر: الكواكب (٥٢٩).

أشاهد أنا مقامي يعلو على مقامه فأدعو الله تعالى أن يعلو مقامه على مقامي، فكنا ككفتي ميزان يرجح عليّ تارَةً وتارَةً أرجح عليه.

وحدّثني أيضًا عن الفقيه نجم الدين قال: دخلت على الشيخ أبي الحجاج، وهو بقوص، فرأيت عنده جماعة من الفقراء وهو يتكلم عليهم فسمعته يقول: كنت في بدايتي مرة فقلت: لا إله إلا الله، فقالت لي نفسي: من ربُّك؟ فقلت: ربِّي الله فقالت لي: لا، ما لَكَ ربٌّ إلاّ أنا، حقيقة الربوبية امتثال العبودية وأنا أقول لك: أطعمني تطعمني؛ ثم نِم؛ تنَم؛ قُم تقُم؛ امشِ تمشيِ؛ اسمعْ تسمعُ؛ ابطشْ تبطشُ؛ فأنت تمتثلُ أوامري كلَّها فإذًا أنا ربُّك وأنت عبدي.

قال: فبقيت متفكرًا في ذلك، فظهرت لي عيْن من الشريعةِ فقالت لي: جادلْها قلت: بِمَاذا؟ قالتْ: بكتاب الله تعالى، قلتُ: فما أقولُ لها؟ قالتْ: إذا قالتْ لك نِم فقُل: ﴿**كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ** ﴾ [الذاريات:١٧].

وإذا قالت كُلْ فقل: ﴿**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا**﴾ [الأعراف: ٣١].

وإذا قالت لك امش فقُل: ﴿ **وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً**﴾ [الإسراء:٣٧].

وإذا قالت لك ابطشْ فقُل: ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط**﴾[الإسراء: ٢٩].

وذكر أشياء من هذا الجنسِ فقال: فقلت لتلك الحقيقة: إذا فعلتُ ذلك فما لي؟ قالت: أخلع عليك خُلَعِ الْمُتّقين، وأُتوّجك بتاج العارفين، وأُمَنطِقُك بِمَنْطَقَة الصدّيقين، وأُقَلِّدُك بقلائدِ الْمُحَقِّقِين، وأُجلسُك على كرسي العارفين، وأنادي عليك

في سوقِ الْمُحبِّين: ﴿**التَّائِبُونَ العَابِدُونَ الحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ الْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ المُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [التوبة: ١١٢].

وحدّثني القاضي تاج الدين بن السُّكري، نفع الله تعالى ببركته سلفه الكريم عن علي المؤذن بالسيد الإمام الشافعي بالقرافة الصغرى.

قال: حضر عندنا في هذا الجامع -يعنى جامع القرافة المجاور لقبة الشيخ الإمام الشافعي- إنسان يقال له الشيخ حسين البعلبكي، أقام بالمقصورة البحرية أيامًا، ثم

حصل له ضعف فدخلت عليه ليلة، وحوله جماعة من أصحابنا الفقراء، وكان بعد العشاء الآخرة، فحصل لي مغص في فؤادي، منعني الاستقرار، بحيث أنّه لم يشعر به أحد من الحاضرين، فقال الشيخ حسين: هذا المغص إذا حصل للإنسان ينبغي أن يستعمل له الشمار والأينسون، فقلت في نفسي: وأين في هذا الوقت ما ذكره الشيخ وقد قفل السوق، ولا عندي شيء، وأنا إذ ذاك مجرّد؟

فلم يكمُل الخاطر عندي حتى قال الشيخ لخادمه: أعطني الجراب الذي لي، فأحضر له جرابًا صغيرًا فأخرج له صرةً فيها شمار وأينسون وقال لي: استعمل هذا، فاستعملته، فحصل لي البرء في تلك الساعة، ثم حضرنا عنده بعد تلك الليلة وقد اشتدَّ به الضعف، فقال لجماعة الحاضرين: أنا أموت في هذه الليلة، فإذا أنا مت فلا تكفنوني إلا بأوّل كفنٍ يحضر إليكم، وادفنوني تحت شباك الإمام الشافعي، ثم قال: ائتوني بالجراب، فأُتِيَ بجرابه، فأخرج منه رقًّا مكتوبًا وقال لخادمة: إذا أنا مت وتوجهتم إلى البلاد فأعطوا هذا المكتوب لولدي، فهو نسبتي للشرف وأخشى أن ينقطع نسبه، فقال لي خادمه: والله لي أخدمه أربعين سنة وما علمت أنّه شريف، ثم قال: سبب إرادتي دفني تحت شباك الإمام الشافعي أنّ لي حاجة بالاجتماع بأقوامٍ من الأبدال يأتوا إلى هذا الشباك، فأردتُ أن أجتمع بهم عنده وقد حضر الأجل، فأحبُّ أن أكون في المكان الذي قصدت الاجتماع بهم فيه.

ثم قال: قوموا اخرجوا عني، فخرجنا من المقصورة وقعدنا عند المنبر بالجامع، فلم يكن إلا قريب نصف الليل أو بعده، وإذا بالخادم يصيح، فدخلنا وجدنا الشيخ قد قضي، فحصل لنا ما حصل وغطيناه وخرجنا عنه، وجلسنا إلى أنْ صلّينا الصبح فلم نشعر إلا وباب الجامع قد فتح بعد صلاة الصبح، فدخل خادم ومملوك فسألا عن الشيخ حسين فقلنا لهم: قد توفي البارحة، وها هو الآن لم يدفن فقالا: لا إله إلا الله، نحن الساعةَ في صلاة الصبح في القلعة، ونحن نسمع إنسانًا يقول: الصلاة على الشيخ البعلبكي بجامع القرافة، وكان النداء قبل فتح باب القلعة وقد أحضرنا كفنًا ومؤنَةَ الجهاز من دار السلطان من جهة أم الملك السعيد -وكانت الحكاية في الدولة الظاهرية- ثم حضر في أثناء النهار جماعة من أعيان الناس والتجار بأكفانٍ متعددةٍ فلم

يقبل الخادم منهم شيئًا غير الجهاز الأول :كما وصّاه الشيخ، ثم حضر الصاحب تاج الدين واختار أن يأخذه في التربة التي لهم -وكذلك جماعة من أعيان مصر- واحتجّوا أنّ المكان الذي وصّى عليه الشيخ مشغول بالأموات، فقال الخادم: والله لي أصحب الشيخ أربعين سنًة ما رأيته ذكر شيئًا إلا جاء عقباه خيرًا كثيرًا.

ثم توجّهنا وحضّرنا له تحت الشباك، فأقام الحفار يحفر من طلوع الشمس إلى قرب العصر من صلابة الأرض، إذ هي بكر لم يكن بها مدفن أصلاً، ثم تطاول الحال بعد أن دفناه مدةَ أشهر، وسافر أصحابه إلى بلدهم وأُنسيت القضية التي ذكرها الشيخ بالأصالة، فلم أشعر يومًا وأنا جالس على باب قبة الإمام الشافعي، وإذا بجماعة فقراء لباسهم أبيض وجِمالهم بيض وفيهم إنسان شيخٌ أبلجٌ بعذبةٍ لطيفةٍ على صدره، فدخلوا القبةَ للزيارةِ فدخلت في أثرهم، فوجدت الشيخ واقفًا وظهره إلى الشباك والجماعة حوله وهو يدعو، ثم بعد ساعةٍ، جلس على الشبّاك، وأشار للجماعة بالجلوس، فجلسوا تحت الشباك من داخل القبة، وجلست معهم، ثم بعد ساعة التفت الشيخ إلى الشباك الذي دفن تحته الشيخ حسين فقال: رحمك الله تعالى يا حسين وأشار بإصبعه إليه، وقال: أتيتَ لتجتمع بنا فأدركك الأجل، فخطر لي ما قاله الشيخ حسين أنّهم من الأبدال، ثم قال إنهم يدخلون من الشباك، فقلت في نفسي: هؤلاء دخلوا من الباب، فقد لا يكون هؤلاء، فقال الشيخ في الحال: نحن نخرج إلى زيارة الإمام الشافعي بالليل، فيفتح لنا باب زاويته، ثم نأتِي إلى باب القرافة فيفتح لنا، ثم نأتي إلى هذا الشباك، وأشار بيده هكذا فَرُفِع الشباك، فواللهِ لقد سمعت الشباك يقعقع قعقعًة خطر لي أنه كُسر وقال: تُفتح لنا طاقة، ثم وضع يده على الأرض فسكن الشباك، فغبت عن حسّي تقديرَ ساعةٍ من النهار، ثم أَفقت فلم أجد لهم أثرًا.

الشيخ جبريل بن مدين [١]

(١) هو جبريل بن عبد الرحمن الأقصري. شيخ مشهور بالكرامات، معروف بالمكاشفات.
صحب الشيخ عبد الرحيم القنائي، وظهرت عليه بركته.وزار أحدهم قبره، فوجد عنده أوساخًا فقال: ما هذا يا سيدي؟ ما ينبغي أن يكون ذلك عند قبرك. ثم عاد لزيارته فوجد المكان في غاية النظافة.
وكان الشيخ أبو الحجاج الأقصري يكثر. مات سنة خمس وتسعين وستمائة، وقيل: وسبعمائة الطالع =

ومِمَّن كان بالأقصرين الشيخ جبريل بن مدين بن غزي، صَحِبَ الشيخ الإمام العارف عبد الرحيم المقيم بقنا، وضريحه بالجبانة، قدس الله تعالى أرواحهم.

كان الشيخ جبريل جليل القدر، منقطع إلى الله تعالى، مُؤثِرًا للخمول وترك المخالطة للناس، وهو ابن عم الشيخ أبي الحجاج الأقصري، وهما أقصريان، وكان أسبق من الشيخ، وتوفي قبله- قيل بخمسة عشر سنَة- وكان بدء أمرهما أنَّهما كانا مشارفين بالأقصرين في خدمة السلطان، فأدركتهما العناية الربّانيّة فصارا إلى ما صارا إليه.

حدّثني الشيخ ظهير الدين موسى بن الحسن بن الصباغ القوصي عن الشيخ عبد الغفار بن محمد ابن بنت الشيخ أبي الحجاج الأقصري قال: سمعت الشيخ جبريل يقول: لَمّا صحبت الشيخ عبد الرحيم -قدس الله تعالى روحه- عاهدنِي على ثلاثٍ: ألاّ آتي مكانًا يشار إليّ فيه، ولا أكون إمامًا، وأكون في الفقراء كالتيس بين الغنم- هذا كلام الشيخ- رضي الله تعالى عنهما.

ولعلّه إنّما أرادَ يَضربُ المثل للتيس بين الغنم إلا أن يكون بين الفقراء كذلك؛ فإن التيس لا ينطق بلسان الآدميين، ولا يعقل عن أحوالهم من الخير والشر والزيادة والنقصان، غافلاً عمّا الناس فيه، مشتغلاً بما هو عليه، وإلا فالتيس بين الغنم له صورة، فليس المراد ذلك لمفهوم الكلام المتقدم.

وحكى لي أيضًا قال: تقاصر النيل في بعض السنين إلى أن خُشي فواته في تلك السنة، وحصل في النفوس القحط، فأخبرني الشيخ عبد الغفار بن محمد الأقصري المذكور قال: بينما أنا ذاتَ ليلةٍ نائمًا في بيتي، فلم أشعر نصف الليل إلا والباب يطرق فقلت: من هذا؟ فقال: جبريل قال: فنزلت وفتحت الباب فرأيت الشيخ جبريل فقال: امش بنا إلى ساحل البحر إلى تحت جميزة كانت هناك قال: فخلع ثيابه وأعطانيها ونزل في الماء وأبعد إلى أنْ غطّاه الماء، وأبطأ عليّ كثيرًا حتى خشيت عليه الموت. قال: ثم طلع والماء يتبعه في أقدامه وهو بين يديه نور، وهو يسرع في المشي والماء يتبعه إلى أن غشي الأرض، فلبس ثيابه وسرت معه إلى بيته فقلت له: يا سيدي، بالله عليك، ما

=

السعيد (١٧٧)، الكواكب (٤٩٥)، والطبقات الصغرى للمناوي (٤/٢٤٤).

هذه الحكاية؟ فقال: والله يا ولدي كنت في بيتي فسمعت قائلا يقول لي: يا جبريل، قم فاخرج إلى البحر وانغمس فيه، واقسم على الله تعالى بهذا الاسم يطلع النيل.

فقمت وفعلت ما أُمرت به. فقلت له: يا سيدي، بالله عليك، أفدني هذا الاسم فقال: والله يا ولدي حين رفعت رأسي من الماء لم أعرف منه شيئًا.

وحكي عنه أيضًا قال: كنت أخدم الشيخ جبريل ابتداء منّي من غير مشورة الشيخ أبي الحجاج، وكنت عند الشيخ أبي الحجاج في زاويته، فكلّما طلبني يقولون له: هو عند الشيخ جبريل قال: فحصل في نفسه من ذلك شيء قال: فبقيت في تلك المدة تغيب صورته عني ولم أشهد في قيامي وقعودي إلا الشيخ مفرّج -قدس الله تعالى روحه- فقلت في نفسى: لعلّ نسبتى من الشيخ مفرّج.

فخرجت من الأقصرين، وجئت إلى دمامين، فرأيت الشيخ مفرج واقفًا وهو يحفر في بئر الساقية، فبقيت واقفًا طويلاً إلى آخر النهار فقال لي: يا صبي، تعالَ إلى هنا، مَن تكون؟ فقلت: أنا ابن بنت الشيخ أبي الحجاج فقال: ما حاجتك؟ قلت: والله يا سيدي لي مدُة كلّما قمت وقعدت أراك ولا أرى الشيخ أبا الحجاج فقلت لعلّ نسبتي من عندك. قال: فبكى الشيخ مفرّج وقال: والله يا ولدي ليس الأمر كذلك، ولكن جدك متغير عليك، فصار يَظهر لك في صورتي.

قال: فخرجت من عنده، وجئت إلى قوص وإلى سوق الغرابليين، وهناك مسجد معلّق، فطلعت إليه فوجدت فقيرًا أرمنيًّا راقدًا في المسجد وتحت رأسه لبنة قال: فابتدرني وقال: يا عبد الغفار، أنا طلبتك من الله تعالى، ارجع إلى الأقصر وادخل على جدِّك فإنه يطيب عليك قال: فرجعت إلى الأقصرين، فدخلت على الشيخ في بيته وكشفت رأسي، ووقفت في الاستغفار.

فبينما أنا واقف وإذا بالشيخ جبريل قد دخل بنا وعليه درواسه وإسباطة يتوكأ عليها كالعكاز، فجلس إلى جانب الشيخ وقال له: يا ابن عمى، عندك المريدون كثير والأتباع والفقراء، وهذا بيني وبينك، تنحصر منه في خدمته لي حتى تهجحه فيروح إلى دمامين وإلى قوص؟ فقال الشيخ أبو الحجاج: لا والله، يا فقراء، أقبلوا عليه، ثم قال لي: يا عبد الغفار، من اليوم التزم خدمة الشيخ جبريل، ولا يخدمه إلا أنت.

قال: فكنت أخدمه، وكان قبل وفاته بأربعة أشهر، وكان الحرُّ شديدًا فقال لي: اطلع إلى سطح البيت- يعني بيت الشيخ جبريل- وانصب لي خُصًّا من الجريد، وخذ فصًّا من هذه الحجارة اعمله لي وسادَة، ثم طلع الشيخ إلى ذلك الخُصِّ وجعل يقاسي حرَّ النهار وحرَّ الليل، وكنت أملأ له الماء من البحر في عديلة عنده، وكنت أتعانا الرياضة والوصال، وربما كنت أواصل أربعة أيام، وأحمل العديلة من البحر إلى أن أجيء بها إلى البيت، فأصعد في الدرج فتسقط قواي، فأرى العديلة ترتفع عن كتفي بقدر شبرين، وتطلع بطلوعي إلى أن أصل إليه فأضعها بين يديه.

وحدثني عنه أيضًا أنَّه قال: كنا نكون عند شيخنا أبي الحجاج فيقول -ونحن جلوس عنده غير مرةٍ- قيل لي: في هذه الساعة، بيت فلان فيه من المنكر كذا، ومن النسوان كذا، وهم مجتمعون على غير حالة جيدة، يا فقراء، قوموا لهم قال: فيخرج الفقراء، فيطرقون عليهم الباب، فلا يفتحون لهم، فيتسوروا الحيطان ويكسروا الأبواب، فيهرب أصحاب البيت، فيكسروا ما يجدوه من الخمور وغيرها. فكان هذا دأبه دائمًا.

وكان الشيخ جبريل يتجمع من هذا ويقول: لم يكلفنا الله ﷻ أن نتسور عليهم، ولا نفتح عليهم الأبواب، قال: فحصل شيء بين الشيخين، وبقى ذلك مدة قال: فبينما أنا ذات ليلةٍ ألبّس الشيخ أبا الحجاج بعد العشاء الآخرة إذ قال لي: يا عبد الغفار، كنت أنا وابن عمى جبريل في هذه الساعة تحت ساق العرش، فتعانقنا وتطايينا وتحاللنا. قال: فوالله لم يتم كلامه إلا والشيخ جبريل قد جاء، ونحن نسمع طلوعه من الدَّرج إلى أن اجتمع بالشيخ قام إليه وتعانقا وتطايبا فقال الشيخ جبريل: والله يا ابن عمى، الساعة كنا هكذا تحت ساق العرش تعانقنا وتطايينا وتحاللنا.

وحدّثني أيضًا قال: سمعت الشيخ جبريل يقول: اجتمع أصحاب الشيخ عبد الرحيم، وقالوا له: نحن نجد في أنفسنا من جبريل من ثلاثةِ أمور، أوّلها أنّه إذا جاء إلى قِنا يجتمع بأحد أصحاب الشيخ عبد الرحيم قبل اجتماعه بالشيخ ولا يحضر معنا السّماع ولا يحضر الميعاد.

قال لهم الشيخ: أمّا اجتماعه بفلان قبلي؛ فهو أخوه في الله تعالى، وقد قال الله تعالى: ﴿**إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ**﴾ [الحجر: ٤٧].

وأمّا امتناعه من الميعاد؛ فإنّه يخشى أن يسمع شيئًا من أخبار القوم ولا يعمل به فيكون حُجة عليه.

وأمّا امتناعه من حضور السّماع فاطلبوا لنا جبريل. قال: فحضرت، فقال الشيخ عبد الرحيم: اطلبوا لنا قوّالاً يقول شيئًا، فحضر قوّالٌ، فأخذ القصب وضرب على فخذه وأخذ يقول، فلمّا شرع يقول غُمي عليه وسقط إلى الأرض فلم يفقْ إلاّ بعد فراغِه، فقال الشيخ: من كان عندي يحضر السّماع على هذه الصورة وإلا فلا يحضر.

الراوي عن الشيخ جبريل، عبد الغفار بن محمد بن بنت أبي الحجاج.

ولم يُعلم للشيخ جبريل أتباعٌ بالأقصرين، فإن يكن بغيرها فالله تعالى أعلم بذلك، أو يكون له أتباع رجال من الغيب أو مِن الجان أو غير ذلك، فذلك موجود في هذه الطريق.

وقد يكون الرجل كاملاً في نفسه مُكمّل لغيره ولا يؤذن له في ذلك، وكان للشيخ أبي الحجاج أصحاب كثير وأكثرهم من غير الأقصرين.

ومِمَّن رأيته منهم البهاء مسعود خادمه أيضًا الفرجوطى والبرهان، وكان يمشى ومعه رقاية.

الشيخ فرج البوقي

ومِمَّن كان يعتقد الشيخ أبا الحجاج الشيخ فرج البوقي، وما رأى الشيخ، وكان رجلاً صالحًا عمّالاً، وكان فيه تجريد وإيثار وباطن سا لم، وكان يخالطنا كثيرًا، وكان مولى لابن عبد الظاهر النفيس وعُتق.

الشيخ علي الأفواهي

ومنهم الشيخ علي الأفواهي، ولم أجتمع به، ولا يقدح عدم الاجتماع في المحبة والاعتقاد، وقد تقدم أنّا نحب الله تعالى ونحب رسوله ﷺ ونتبعه ونعتقده، وما رأينا الله تعالى ولا رسوله ﷺ، ولأنّ صورةَ المعتقدات إذا ظهرت لا تحتاج إلى صورة الأشخاص، وصورة الأشخاص إذا ظهرت تحتاج إلى صورة المعتقدات، فإذا حصل الجمع بينهما فذاك كمال حقيقي، وأصحاب الشيخ أبي الحجاج ومعتقدوه كثير، لا سيما في الكورة البحرية.

الشيخ يعيش بن محمود الشامي

ومِمَّن رأيناه وأقام عندنا سنينًا كثيرةً وزوَّجه والدي الشيخ يعيش بن محمود الشامي، من أصحاب الشيخ أبي الحسن بن الرفاعي بن بنت سيدي أحمد، وكان فقيهَ البيت، جمع بين التصوف والعلم، أخبرني الشيخ يعيش عن الشيخ أبي الحسن قال: كنت أكبس رجلى الشيخ وهو راقدٌ على باريةٍ، وإذا بمُولّه قد دخل وهو معانق مرساة حديد كما خرجت من الكير وهي نار وهو يحملها على صدره ويرقص بها، فنظره الشيخ وقال: ارمها، فرماها، فوقعت على البارية فقال: يا سيدي، قتلني فقال: فعل الله بك.. -كلمة قالها وانزعج عليه- ثم قال لي: يعيش قلت: لبيك قال: ارمها قال يعيش: فخفت أنْ أمسكها وهي نارٌ فقال لي: أما أذنت لك؟ أو أما أمرتك؟ فقال: والله، لقد حملتها مثل العصاة، فرميتها في القاعة، وكان هناك قشُّ أُرز فوقد وطلعت النيران.

الشيخ أبو الحسن بن الرفاعي (أبوشباك) (١)

وحكى الشيخ عبد العزيز أنَّ الشيخ أبا الحسن كان يحضر مجلسه الفقهاء والفقراء، وكان ذات يوم جالسًا، وإذا بحيةٍ قد وقعت من السقف، فقام الشيخ والفقهاء إلى مجلس آخر وبقي فقير جالس لم يتحرك، فلعلَّ الشيخ قال: اقتلوها فقتلوها، ثم عاد إلى المجلس، فقال الشيخ للفقير: ألا قمت مع أصحابك؟ فقال: يا سيدي، ما هذه إلاّ دويدة، فقال له الشيخ: تضيف إلى الهذيان الكذب؟ يسميها الله تعالى حَيّة وتسميها دويدة؟ لو عرفْتَ الله تعالى لخفتَ مِمَّا خوّف اللهُ تعالى منه.

وحدّثنا الشيخ عبد العزيز أنَّ صدر الدين أبا القاسم ولد الشيخ أبي الحسن بن الرفاعي وصل إلى مصر في دولة العز، و كانِ له صورةٍ كبيرة خَدَمَه الناس والأكابر.

عائشة الرفاعية

وكان بالقاهرة فقيرة تسمى: عائشة الرفاعية، وهى مريدةُ والدِه، وكانت امرأةً

(١) ولد سنة ستمائة وثمانية وثلاثين، وماتت والدته بعد ولادته، وبقي في بيت أخواله آل الملك الأفضل، إلى أن بلغ حدّ الرجال، وكان أبوه من أكابر الأولياء، وزهد وتصوف وعظم أمره، وأعرض عن الدنيا بالكلية، وقبره بمصر بالقرب من القلعة ظاهر يزار، يتبرك به. وانظر: قلادة الجواهر للصيادي (ص٤٦١).

صالحة، و كانت شجرة الدر تعتقدها وكذلك بيوت الأمراء، فجاءت إلى الشيخ صدر الدين وخدمته، وخدمه لأجلِها بيوتُ الأمراء، فعزمت عليه امرأة الصيرفي- أمير مشهور- فراح إلى عندها وأكل طعامها.

فامتنعت وقالت: ما أحضر إليه، فعزم السلطان الملك الْمُعز وعمل له سُماطًا، فامتنع من الرَّواح، فأرسل إليه السلطان يقول له: يا شيخ، نحن قصدنا إكرامك، و النبي ﷺ يقول: من دعي فليُجب. فقال: إذا كانت لي امرأة تقضي عليّ في بلدك، فإيش حاجتي أجيء إليك؟

فأرسل السلطان الطوائية الخدام فقال: قولوا لها تروح إلى شيخِها، فقالت لهم: سلّموا على السلطان وقولوا له: الملوك ملوك والفقراء فقراء، وهذا ما هو شيخي، شيخي أبوه، و أنا فما أروح إليه لأنه فعل ما لا ينبغي، والمحبةُ ما هي بالقهر، المحبة بالاعتقاد.

فراح الخدّام بلَّغوا السلطان، فعزَّ عليه ذلك لكونها خالفتْ أمره، و أراد أن يشوّش عليها فقامتْ شجرةُ الدر ومنعته من ذلك وقالت: والله ما بيننا وبين هذه المرأة معاملة، تنفصل هذه وابن شيخها وأنت لا تدخل بينهم فيروح ملكك، قال: فتخرج من بلدي؛ ما تقيم عندي امرأةٌ تخالف أمري.

فراحوا إليها فقالت: السمع والطاعة فأَكْرَتْ الجمالَ وخرجت وخرج أخوها يودِّعها وهي مسافرة إلى الشام، فبكى أخوها فقالت له: لا تبك، هو أخرجني من القاهرة و أنا أخرجه من الدنيا كلِّها.

فكان يوم دخولها دمشق يوم قتِل الملك الْمُعز.

بيان صدقها مع الله

فانظر يا أخي رحمك الله تعالى إلى صدق هذه المرأة مع الله تعالى، ولم تراعِ غير الله تعالى، لا ملك و لا شيخ؛ لأن المتابعة على الصدق والنصيحة والمتابعة لرسول الله ﷺ، فلمَّا رأته قد أحلَّ بشرطٍ هو عندها نقصٌ، وإن لم يكن يتحقق الحرام في ذلك الطعام، لم توافق على صحبته مع المخاطرة لمخالفة السلطان؛ لأنَّها ترى مخالفتها له طاعةً لله تعالى؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، واختارت الخروج من الوطن على تلك الصورة، و مفارقة الأهل ومشقة الطريق، وعلمتْ ما يئول إليه الحال.

فيا ليت لنا مثلها؛ فلقد أحسن المتنبِّي في قوله:

ولـو كـان النِّسـاءُ كَمـا ذكَرْنـا   لفُضِّـلَتِ النِّسـاءُ علـى الرجـالِ

وحكي الشيخ يعيش بن محمود قال: جئت أنا والقليبُ البحَّاري وشخص آخر إلى زيارة الشيخ علي الحريري[١] بعد الصبح، فوقفنا على الباب بأدبٍ، وإذا بالخادم قد خرج وقال: يدخل يعيش و القليب ويروح هذا العلق يستحمَّ؛ فإنَّه جنب قال: فدخلنا عليه وقد خفنا، أو وقعت رُكبُنا -أو كلام هذا معناه- فوجدنا الشيخ متكئًا ثم قال الشيخ عن الشاب: إنَّه واقفٌ على الباب مستغفرًا، خلُّوه يدخل، فدخل، فجئتُ إلى الشيخ وقلت: يا سيدي، خرج شيء يقال له القادوس، ما دستورك؟ فقال: قل يا يعيش، فقلت شعرًا:

المليـحُ قلـبي عليـقٌ يُحقّـقُ   لا يَمـرُّ، مَـن يبْصـرُه يعشـقُ

مسـكينٌ عبـدُ القـادوسِ كُسِـر

صَـار شـفافًا مـن بعـد مـا قـد هُجِـر

أنْ يَجِـد لـه بالوصـالِ مُجْـبِر

ويعـودُ قَوِّمُـوا الـذي طُلِّـقُ   ويعـودُ غُصْـنُ السّـرورِ مُـورِقُ

قَـد يلَـي القـادوسَ بهـم طويـلُ

---

(١) هو الشيخ علي الحسن بن منصور البُسري-وبضم الموحدة وسكون المهملة- أبو محمد الحريري، شيخ الطائفة الحريرية بدمشق. كان معروفًا بالزهد والفضيلة، موصوفًا بسلوك الطرقة الجميلة.

ولد سنة ثمانٍ وأربعين وخمسمائة، ومات أبوه وهو صغير، فعلمه عمه نسج الحرير، فلزمه دين فحُبس، فصلى بأهل السجن الصبح، وذكروا حتى تعالى النهار، وبقى كل من يجيء إليه شيء من أهله يرفعه حتى فرغوا من الذكر، جمع جميع ما حضر، ومد سماطًا، فأكلوا كلهم معًا، ولا زال يفعل ذلك كل يوم، ثم أمرهم بقضاء دينه ففعلوا، فأُطلق، فسعى في خلاص أولئك من السجن، فأُطلقوا، فصاروا أتباعه، واخترع لهم ذكرًا واظبوه، وأقام شعار السماع، فاجتمع الناس عليه.

وقد نقل عنه ابن إسرائيل كرامات كثيرة، ومكاشفات غزيرة.

مات سنة خمس وأربعين وستمائة. وانظر: الكواكب (٥٣٣).

تميـــــل الــــرأسُ ودمــــع أســــيلُ

بــــالقرصِ قــــد رُبِــــط والسَّــــجِيلِ

وجَمِيعُـــــه بالْجِبــــالِ مُوثَـــــقُ والفِكْـــــرةُ في النَّهــــار تغــــرقُ

مـا تَـراه نـازلاً علـى قِمتِـه

وحبلنـا يشـوِّشُ في رقبتِـه

قدْ عَجَزَ و تناقَصَتْ همتُه

لــــه رفيـــقٌ بقليـــلٍ يســـبقُ لــه ســنين يجــرِي و مَــا يَلحــقُ

قال: فقام الشيخ علي ودار وجعل يقول لي: سنين أجري وما ألحق، وحصل لنا ليلَة لم يحصل مثلَها، وخلع علينا الشيخ فروة، وبقينا عنده ثلاثةَ أيامٍ، فلمَّا أردنا الخروج قال لولده: يامسبب، قل لوالدتك الصرّة التي جاءت لنا البارحةَ، فجاءت لنا صرّةٌ فيها ثلاثمائة درهم.

وكان الشيخ علي الحريري جليل القدر عامر البطن، لا يكترث بظاهره وكراماته والحكايات عنه كثيرة.

ومِمَّا حُكي لي عنه أنَّه جاء يومَ الجمعة قبل الصلاة على أنّه يصلّي الجمعة فرجع ولم يصل وقال: ما يريدونا نُصلّي ما نُصلّي، فلمَّا وصل إلى منزله قال: إنّما يكون الفقير جالسًا فيُدعي فيُجيب، ثم مات قبل الصلاة- رحمه الله تعالى.

وكان الأمير ناصر الدين قد صحبه وكان يحكي عنه أمورًا جليلَة.

وحُكي عن الشيخ أبي الحسن علي ابن أخت سيدي أحمد، أنَّه قال: جئت مرة لأجد سيدي أحمد يتحدَّث في زاويته -أو قال في خلوته -مع شخص، فتحدثا طويلاً، ثم خرج ذلك الشخص من كُوّةٍ في الحائط، ومرَّ في الهواء كالبرق الخاطف، فدخلت على الشيخ، وقلت: يا سيدي فمَن الرجل؟ فقال: أو رأيته؟ قلت: نعم فقال: هو الرجل الذي يحفظ الله تعالى به قُطرَ البحر المحيط، وهو أحدُ الأربعة الخواص، إلاّ أنَّه هُجر منذ ثلاث ليال، وهو لا يعلم.

فقلت: يا سيدي، وما سبب هجرانه؟ فقال: إنَّه بجزيرة في البحر المحيط، فأُمطرت منذ ثلاث ليال حتى سالت أوديتها، فخطر في نفسه، لو كان هذا الماء في العمران، ثم استغفر الله تعالى فهُجر بسبب اعتراضه؛ فقلت: يا سيدي، أو ما أعلمته؟ فقال: لا، استحييتُ منه.

فقال الشيخ أبو الحسن: لو أذنت لي لأعلمنه، قال: أو تفعل؟ قلت: نعم، قال: زيّق،؛ فرمقت، ثم رفعت رأسي فإذا صوتٌ: يا عليّ، ارفعْ رأسَك؛ فرفعتُ رأسي، فإذا أنا بالجزيرة.

فقُمتُ ومشيتُ فوجدتُ الرجلَ فحدّثتُه، فقال: ناشدتك الله تعالى إلاَّ فعلت ما أقول لك؟ قلت: نعم، قال: ضعْ خرقتي في عُنقي، واسحبْني على وجهي، ونادِ عليَّ: هذا جزاء من يعترض على الله تعالى.

فوضعت الخرقة في عنقه، وهممت بسحبهِ، وإذا قائل يقول: يا عليَّ، دعه، فقد ضجت ملائكة السماء باكيةً عليه وسائلةً فيه.

قال: ثم أغمي علي، فرفعت رأسي لأجدني بزاوية الشيخ، ووالله ما علمت كيف ذهبت ولا كيف أتيت.

حكى لي هذه الحكاية الشيخ رشيد الدين أبو عبد الله كما نقلها.

حبيب العجمي(١)

ومِمَّن رأيته الشيخ حبيب العجمي صهر الشيخ علم الدين المنفلوطي، ترك زوجته

(١) من ساكني البصرة صاحب كرامات، مجاب الدعوة، وكان سبب إقباله على الآجلة واشتغاله عن العاجلة أنه حضر مجلس الحسن البصري فوقعت موعظته في قلبه فخرج عما كان يتصرف فيه ثقة بالله تعالى، مكتفياً بضمانه سبحانه وتعالى، واشترى نفسه من الله تعالى بأربعين ألف دينار في أربع دفعات تصدق بعشرة آلاف في أول النهار، فقال: يا رب قد اشتريت نفسي منك بهذا.

وقال الخطيب عن المعتمر بن سليمان عن أبيه: قال: ما رأيت أحداً قط أعبد من الحسن البصري، وما رأيت أحداً أورع من ابن سيرين، ولا أزهد من مالك بن دينار، ولا أخشع من محمد بن واسع، ولا أصدق يقيناً من حبيب العجمي. وانظر: الحلية (١٤٩/٦، ١٥٥)، اللمع للطوسي (٣٢)، كشف المحجوب (٨٨، ٨٩) وميزان الاعتدال (٢١٢/١)، والتهذيب (١٨٩/٢)، وروضة الحبور لابن الأطعاني ().

حاملاً وبنته طفلة -كما حكى الشيخ أبو الطاهر- وغاب عني، فكبرت ابنته وتزوجت وولدت أولادًا، فحضر بعد ذلك، ونفعهم نفعًا كبيرًا.

وكان رجلاً صالحًا خفيفَ الروحِ، مبسوطًا يقول بالسّماع، وسمع عندنا مراتٍ وكان يقوم ويدور، وكان حاله يعجبني- رحمه الله تعالى.

ورأيت فقيرًا عجميًّا، وكان يخرج ظاهر مدينة قوص ويجلس في ساقية ويضع تحت يده خده، وكنت أعتقده وأهابَ أن أكلّمه، ولَمَّا كان يومٌ من الأيامِ وهو وحده، سألته الدعاء، فانتهرني نهرةً آلمت قلبي، وقال: مَن أنا حتى أدعو لك؟ ولعلّ الخوف كان غالبًا عليه، فحصل لي بذلك حالةٌ، ولم أشعر بنفسي إلاّ وأنا معانقٌ لورية من النخل وأقول:

إلهي، أنت تعلمُ ما طلبي إلا أنت، ولو شئتَ لأوصلتني إليك.

وأنا أبكي وشوك النخلة في جسمي ولا علم لي، وأنا كذلك إلى وقت، فأجد بردًا بين كتفي وانشراحًا في باطني، فمِن ذلك الوقت ما سألني أحد أنْ أدعوَ له إلاّ دعوتُ له، وكان ببركات ذلك الفقير.

الشيخ عبد الرازق بن حسام(١)

ومِمَّن كان لي صاحبٌ من أرباب المروءة والفتوة، الشيخ عبد الرازق بن حسام، كان يتيمًا بقفط، وأصله من البهنسا، وكان قاضيًا وترك الحكم وتصوف، وكان صوّامًا قوّامًا، أقام عندي أربعةَ أشهر، ما رأيته وضع جنبه الأرض، وكان يتورع وله طاحون وحدها، وكان يطعم وتوفي بالدَّمّام، وكانت مروءته تقع بينه وبين الناس - رحمه الله تعالى- وما كان منذ عرفته ما يكاد يومٌ ينقضي إلاّ ويحضر من قفط يجتمع بي ذلك النهار إلى آخره، لا سيّما في رمضان ولا يخصُّ نفسَه بما يأكله حتى يُحضِر منه نصيبًا - رحمه الله تعالى- وإن لم يحضر، حضر رسوله.

ومن مروءته أنَّ شخصًا غريبًا جاء إلى قفط يطلب عتبة يبنيها في داره، فطلب الشيخ شمس الدين عبد الرازق له عتبة فلم يجدها، فسيّر خلف البنَّاء وقلع عتبة داره – أعني: دار نفسه- وجعل مكانَها خشبة، وسيّر العتبة إلى ذلك الرجل الذي طلبها

(1) هو عبد الرزاق بن حسام بن رزق الله بن حاتم شمس الدين زريق البهنسي. كان مقيماً بقفط وقيل: من البلينا ونشأ بقفط وتولى الحكم بها وتركه تزهداً وتصوف. وكان صواماً قواماً. وانظر: الوافي بالوفيات (٢٦٥١/١)، ونقل الصفدي ترجمة الشيخ زريق عن المصنف في الوحيد.

بساحل البحر.

وكان له من هذه الحكايات لا سيما في الشدائد والمعضلات، ومَن يقصده في أمرٍ من الأمور أو عليه طلب من السلطانِ وهو خائف يفعل في ذلك الأفاعيل-رحمه الله تعالى.

وأخبرني الشيخ شمس الدين عبد الرازق أن الشريف الأحمر جاءه، ومعه بدوي فقال لي: أشتهي أن تقرضنا دينارين أو تقرض هذا دينارين وتركب معنا لله تعالى أو كما قال، فدفعت لهما دينارين وركبت معهما، فسقنا في الحاجر ساعة، فقلت للشريف: ما تقول لي أنت أين يطلب بنا؟

فقال: هذا البدوي كان أودع أناسًا من العرب سَخلة في الحجاز من أحدَ عشرَ سنة، وهو يطلب وديعته، فقلت له: ضيَّعت عليَّ دينارين، وأتعبتنا؛ فقال لي: هذا الدينار الواحد معي والأخر اشترى به هذا الحمار، فإن وجدنا شيئًا وإلاّ رددنا لك رحلك.

فسرنا حتى جئنا إلى أبيات أعراب هناك، فجلسنا بعيد، وتقدم الأعرابي ونادى: يا فلان فكلّمه إنسان، وقال: من تكون؟ أو من تريد؟ فقال له: الله تعالى يعلمُ أنِّي كنت أودعتُ لكم بوادي الصفراء في الحجاز في السنة الفلانية سَخلة.

قال: فجاء الرجل الذي كلّمه ونحَّى القرمزية عن رأسه، ونظر إلى شجةٍ في رأسه وقال: واللهِ أنت إيَّاه، وأبو فلان مات، وأنا أخوه، اقعد حتى تروّح إبلنا.

قال: فقعدنا حتى روّحت عليهم إبلهم، فعزل منهم تسعةَ نوق، وقال: الله تعالى يعلم أنَّ السخلة ولدت أولادًا، وولد أولادُها فبعناها واشترينا هاتيك الناقة، فولدت وتوالدت، فالذي كان منها ذكرٌ بعنا الذكرَ وأبقينا الإناث وأخرجنا عنك الزكاة، وأخرج صرّة ورِق مربوطة بخيطٍ، وقال: هذا من ثمن الذكورِ ففتحناها ووجدنا فيها مالاً- إمّا قال: تسعةَ عشرَ دينارًا ذهبًا أو قال: اثنين وثلاثين دينارًا- غاب عني أيُّهما لطول المدة.

فقال الأعرابيُّ: أمَّا هذا الذهبُ فخذوه لكم ولا حاجة لي به، ولكفاني النياق. قلنا له: والله ما نأخذ إلاّ الدينارين فأخذنا الدينارين ورجعنا.

ومِمَّا حكى الشيخ عبد العزيز في الفتوَّةُ أنّ البهاء الشيرازي حدّثه قال: احتجت، فكتبت ورقة على الشيخ عبد الله الماردانِي إلى أبي شعرة -وكان أبو شعرة أميرًا كبيرًا من أمراء الكامل، وكان مريدًا للشيخ عبد الله- وكتب في الورقة أنّ هذا الفقير يقصد الحجاز فيزوده أو شيء من ذلك.

قال: فجئت فوجدت الأمير راكبًا، فقعدت حتى جاء ونزل من الركوب، فناولته الورقة، فلمَّا قرأ اسم الشيخ عبد الله قَبلها قال: اجلس فجلست، وأحضر شيئًا للأكل فأكلنا، وقال لأستاذ داره: إيش معك؟ فقال: معي عشرة دنانير، فقال: ادفعها له، فدفعها لي، وقال: أعطه عشرةَ أرادب قمحًا وجملاً يركبه ومائتي ذراعٍ من القُطن للسفر، وأخذَ رقعةً يكتب الجواب للشيخ، ويعتذر من كونه لم يجد إلا ذلك عن الذهب، فبينما هو يكتب، وخادم قد دخل، وقال: سيدي الشيخ عبد الله قد جاء، فلحقني من الخجلِ ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فدخل الشيخ، فوجد الأمير له، وقبّل يدَه وقال: والله يا سيدي إذ بي أنْ أكتب الجواب، فأخذ الشيخ الورقةَ منه ونظر إليها وفهم المقصود، ومسك الشيخ لحيةَ نفسهِ وقال: واللهِ والك يا أبا شعرة ما بقيت لحية عبد الله تساوي عندك شيئًا، كثرت عليكم، الماء إذا قعد في الزير عطن.

فقال: يا سيدي قتلتني، لا تقل هذا الكلام- أو كلام هذا معناه- فقال: ولك أرسل إليك فقيرًا، وأقول لك: إنّه مسافر الحجاز، تقابله بعشرةِ دنانير؟ ما أخسَّ همتك فقال: يا سيدي، والله أنا ما أُمسك فضة إلا هذا أستاذ الدار، وأنا أدخل عند الجوارى.

فدخل الأمير إلى عند جواريه، وقال لهن: أيًّا مَن كان معها شيء تعطيني حتى أعطيها أكثر، رابونِي، فخرج وكفُّه -أو كفَّيه- مملوءة ذهبًا وفضة، فدفعها، فأخذتُها ورحت على أنني لا آخذ الجمل ولا القمح ولا الثياب.

فبينما أنا أمشي وإذا بحسٍّ مِن خلفي وقائل يقول: يا بهاء، قف، فوقفت لأجد الشيخ عبد الله خلفي، فقلت: يا سيدي، كذبتُ عليك فقال: لا، ارجع خذ الجمل والقمح والثياب، فرجعت وأخذت الجميع.

ومِمَّا حُكي عنه من الكرمِ أيضًا قال: أخبرني فقير قال: ولدت زوجتي، ولم يكن

عندنا شيء، وكنت بمصر، فرحت إلى الشيخ عبد الله بالقاهرة فأخبرتُه بذلك، فجعل يدَه في جَيبه وأخرج صرّة، وكان الليل قد أقبل، فدفع إليّ الصرَّة وقال: لا تبات إلا عند زوجتك، وقال لخادمه: رُح معه حتى يفتحوا له الباب.

قال: فخرجت من القاهرة، وفتحت الصرّة لأجد فيها مائةَ دينارٍ ذهبًا، فقلت في نفسي: الشيخ غلط؛ أراد أن يعطيني فضّة فوقع في يده ذهب، فبتُّ ظاهر البلد، فلما أصبحت أتيت إلى الشيخ؛ فقال لي: رُحتَ إلى بيتك؟ قلت: لا، قال: لِمَ؟! قلت: يا سيدي، هذه الصّرة ذهب، لعلّ سيدي غَلِط، أراد أن يعطيني فضّة فغلط فيها؛ فقال: والله يا ولدي ما معي غيرها بيت الأمير - أو كما قال-نَذَرُونِي أنْ جاءهم ولد، فهي لك، فأخذتُها.

وكان عبد الله كبير الشأن، وكان أبو شعرة يحبُّه محبةً عظيمة، وكان قد رأى منه أمورًا عظيمة، من جملتها أنّ الشيخ عبد الله جاء يومًا إلى عند أبي شعرة، فوجد عنده ابن الأزرق؛ فقال: إيش يعمل هذا؟ فقال: يا سيدي، عندنا جارية اعتراها شيء من الجان، فقال الشيخ: خلِّي هذا يخرج؟ فلمَّا خرج دخل الشيخ عبد الله، وقال: يا ابن أخي، ما أنا ابن الأزرق، أنا عبد الله المارداني(١) والله متى رجعت لتعترض هذه الجارية قتلتُ قبيلتَك من الجنِّ كلِّها. قال: فسترت الجارية وجهها في ساعتها وزال عنها ما تجده، ولم يرجع يعترض لها شيء.

فانظر يا أخي -رحمك الله تعالى- في هذا التصريف في الجن والإنس، وهؤلاء هم الملوك حقيقة؛ لأنَّ ولايتهم عامَّة من الله تعالى، وتصريفهم صار أمرهم نافذ على الجن والإنس والطيور والوحش وعلى جميع الموجودات والملوك وغير الملوك، يولّون ويعزلون ويقولون ويفعلون.

كما حكى صاحبي القاضي زين الدين البوشي، وكان قاضي كورة بوش عن والده عن الفقيه عن الفقير عبد الرحمن النويري، أنه جاء إلى زيارة الشيخ عوض البوشي ببوش، وأقام عنده أيامًا، وخطر لهما زيارة الفقيه عبد المهيمن بدلاص، وكان شروني

(١) له ذكر في خلاصة المفاخر في مناقب الشيخ عبد القادر لليافعي، ضمن الرواة الذين روى عنهم (ص١٣٥) .

والي البهنا وبوش، يبغض الفقيه عوض البوشي لشقاوته.

فخرجا في جمع من أصحابِهما وفيهم الفقيه عبد الحق نائب الحكم، فوجدوا صيرفيًّا نصرانيًّا قد جبى الجوالي والزكاة في علبة كبيرة وهو راكب والمشايخ مشاة، وفيهم نائب الحكم، وهو راكب.

فشقَّ بين المشايخ الفقيه عبد الرحمن والشيخ عوض ومن معه، فصفع نائبُ الحكم الصيرفي، وقال: تشق بين المشايخ؟ فاغتاظ الصيرفي ونثر الدراهم والدنانير من العلبة في الغيط، ومضى إلى شروين ببوش مكشوف الرأس صارخًا، وقال: إنَّ الفقيه عوض وأصحابه ضربوني ونثروا مال السلطان في الغيط.

فاغتاظ شروين(١)، وأمر رسولين بإحضار الفقيه عبد الرحمن والشيخ عوض من دلاص إلى بوش، وأمرهما بإحضارهما مسحوبين بلحاهما على وجهيهما، فتوجه الرسولان إلى مسجد الفقيه عبد الرحمن بدلاص فطردهما الفقراء، فرجعا إليه وقالا له: طردونا وسلِمْنا من الضرب، فأمر ولده أن يركب ويركب معه جمع كبير ويتوجهوا إلى المشايخ، ويُحضورهم مسحوبين بلحاهم على وجوههم، فلمّا انتهى إلى باب المسجد ونظر إلى الفقيه عبد الرحمن والفقيه عوض البوشي والفقيه عبد المهيمن بينهما فتقدّم إليهما، وأشار برأس فرسه راجعًا إلى أبيه متغيّر اللون، فلمَّا حضر قال له: وأين مطلوبي؟ فقال له: رأيت سبعًا خرج من المسجد وفتح فاه، فأراد أن يلتقمني، فقام الفقيه عبد الرحمن والشيخ عوض ومسكاه عني.

فأنكر عليه وقال: هؤلاء سحرة ومبتدعون، شدّوا لي حتى أركب.

ثم ركب على أنه يجيء إليهم ومعه الأمراء والأجناد وأمراء العربان، فلم يخرج من المكان إلا بمقدار قصبتين، وإذا بساعٍ قد جاءه ومعه ورقة بخط الملك العادل يأمره فيها بسرعة الحضور، فتنكّد لذلك وتوجّه نحو مصر وهو راكب، وأميران يلحقاه بقماشة، ودخل إلى مصر خائفًا وَجِلاً، فاجتمع بالسلطان فأكرمه وأخلع عليه وزاده ولايةً أخرى، فكتب لولده يبشره بذلك ويأمره بأن يتحفظ بالفقيه عوض والفقيه عبد الرحمن إلى حين يحضر، ويفعل بهما ما خطر له من السوء، وأمر المقدّمين أن يفصّلوا مقارعًا

(١) انظر: الوافي في الوفيات للصفدي (٢٢٩٠/١).

جددًا لذلك، وأمر ساعيًا يقال له: نصران أن يسرع في التوجه إلى ولده بالكتاب.

فجاء الساعي إلى الفقيه عوض وأخبره بذلك، فقال للفقيه عوض: يخلي الفقيه عبد الرحمن يتوجه إلى بلده، وتستخفي أنت، فقد اتفق كيت وكيت -وقصَّ عليه صورة الخبر- فقال له: ادفع إلى ولده كتابه، فحلف الساعي أنَّه ما يوصله له تلك الليلة.

ودخل الفقيه عوض وعرَّف الفقيه عبد الرحمن الصورة، فأطرقا برأسيهما والفقراء منقبضون زمانًا، فرفع الفقيه عبد الرحمن رأسه وقال: يا إبراهيم-وكان ذلك كنية الفقيه عوض؛ لأن له ولد اسمه إبراهيم- اعزل شروين، فلم يُرضِ الفقيه عوض ذلك، ورجعا إلى حالهما.

وإذا بغراب يصيح ثلاثَ دُفعاتٍ: غاق غاق، فقال الفقيه عوض: يا فقيه عبد الرحمن، أتدري ما قال الغراب؟- فما أدري أسكت أم قال لا- فقال: هوّ يقول: إن كان الفقيه عبد الرحمن قد عزل شروين من الولاية فقد عزلناه من الدنيا.

فلم يمضِ زمان إلاّ وبطاقة وقعت أن شروين قد خرج من مصر متوجهًا إلى بوش، فلمَّا خرج من باب القنطرةِ تقنطرَت به الفرس فمات.

وهؤلاء الثلاثة من الأكابر المشهورين لهم من الكرامات وخرق العادات، والحكايات عنهم كثيرة جدًّا، وإنما اقتصرنا من ذلك لما التزمناه.

قوص.. بلد الأكابر

ومات بمدينة قوص **المؤدِّبُ إبراهيم** -من الأكابر أيضًا- عظيم الشأن وله كرامات وحكايات كثيرة تركنا الكلام فيها.

أخبرني والدي عنه أنَّه دخل دار الولاية في واقعةٍ من الوقائع؛ فقال للوالي -أو الأمير في ذلك الوقت-: أَدعو الساعةَ على الأصل يروح الفرع.

وكان بها أيضًا الفقيه ابن ناشيء من الصالحين، اشتغل بالقرآن العظيم ولم أجتمع به ولا بالمؤدِّبِ إبراهيم.

وكان الفقيه نجم الدين بن ناشيء مستديم العبادة يحبُّ الطائفةَ متصوفًا مع العلم والفقه الظاهر، مبسوطًا، وله في رسول الله ﷺ مدائح كثيرة، وكان يقرأ الميعاد بعد صلاة الصبح بالجامع بقوص ويطيل الدعاء- رحمه الله تعالى.

ومِمَّن عرفناه الشيخ **عبد العزيز بن المكين القناوي** من أصحاب أبي يحيى، عمَّالاً كثيرَ العبادة منشرحًا مبسوطًا محبًّا إلى الناس.

ومنهم الشيخ **كمال الدين بن عبد الظاهر الإخميمي**، صَحِبَ الشيخ على الكردي حين كان بقوص، وتجرّد وهو في بدء إرادته، وصَحِبَ بعده الشيخ إبراهيم بن معصاد وأقام بإخميم وبها مات- رحمه الله تعالى- وكان على حالتِه لا يعيى ولا يفتر إلى أن لقي الله تعالى، طريقتُهُ لطيفة نظيفة، ظاهرة بالنِّعم والغنى.

ومنهم **أبو عمرو قاضي طنجة** ترك القضاء ببلده وتجرد وأقام عندنا مدة حين كان متوجهًا إلى الحجاز الشريف، ومعه أصحاب مباركون، وسافر وأقام بمكة سنين وعاد وحده، ثم رجع إلى مكة- شرّفها الله تعالى.

ومنهم **قاضي همدان** تجرّد وسافر من بلاده، وأخبرني أنّه كان ماشيًا، ونزل عندنا وتوجه إلى الحجاز، وكان مع ذلك مسنًا، أخبرني أنّه كان جنديًا حين أُخِذَتْ بغداد، وكان سنّه خمسةً وعشرين سنة، فسألته عن عاران: هل كان مسلمًا؟ فأخبر أنّه تولّى عنه القضاء بهمدان، وهدم الكنائس في بلاده، وأنه كان مسلمًا، قلت له: فلِمَ تزوَّج بزوجةِ أبيه؟ قال: إنَّ والده كان كافرًا، ولم يكن له كتاب، فزوَّجه ابن النضير الناظر على مدرسة بغداد على مذهب الإمام الشافعي ﷺ واستكتبه إلى البلاد.

وأخبرني الشيخ عماد الدين بن السُّكري أنَّه رأى هذا النضير الذي أفتى عاران بزواج زوجة أبيه، وقد ترهّل وتغيرت أحواله.

وأخبرني أيضًا ابن مدرس همدان كان اتفق معه على الخروج، وأنّهم أخذوهم في الطريق.

ومِمَّن رأيته أيضًا بمكة -شرفها الله تعالى- **الشيخ عبد القوي القرافي**، كانت له أحوال عجيبة، وكان مجردًا مقيمًا بأحد الرُّبط بمكة- شرفها الله تعالى، وكان إذا جرى حديث الطريق يغيب ويصيح القوم، وأخبرني أنَّه كان يومًا جالسًا بالحرم، فنظر إلى الحجر الأسود وقد خرج من مكانه ومشى وله يدان ورجلان ووجه، وأنَّه جاء إلى عنده -فربما لم يطق ذلك -فرجع الحجر إلى مكانه وعاد إلى حالته الأولى، وأخبرني أيضًا أنّه كان يطوف ليلةً بالكعبة، فسمع صوتًا من جوف الكعبةِ يقول: يا عبد القوي -وكان

رفاعيًا- رحمه الله تعالى.

الشيخ محبُّ الدين الطبري رضي الله عنه[1]

ومنهم الشيخ محبُّ الدين الطبري -رحمه الله تعالى، كان عالِمًا متصرفًا محبًا للطائفة مؤمنًا بكراماتِهم، عمَّالاً ليلاً ونهارًا، يطوف في وقت الظهيرة وفي حدَّة الشمس، ونحن نعجز عن ذلك، مع كبر سنِّه، وكونه ولد بمكة- شرفها الله تعالى، وربِّي بها، فتراه تحت الأستار باكيًا كأنَّه ما رأى الكعبةَ إلاّ تلك الساعة.

أخبرني أنّ له خمسةً وسبعين حجّة.

ولقد كنت يومًا أطوفُ أنا وهو يكلمني، وإذا شخصٌ عليه زيُّ الفقراء قال: يا شيخ، لا تتكلم في الطّواف، وأنكر عليه، وربما قال له: ما يحلُّ لك، فرأيته لم يزد على أن قال: غفر الله تعالى لك.

وبلغني أن شخصًا رآه يبكي تحت أستار الكعبة؛ فقال: يا شيخ، تبكي على أيِّ شيء؟ أنت شيخ السلطان وشيخ الحرم، وابنك قاضي مكة، وأنت الآخر خطيب، فأيُّ شيء تريد من الله تعالى يعطيك؟ فقال: يغفر لي يا ولدي، يغفر لي.

وكان كثير الأعمال، كثير الاحتمال في التعليم لكثرة الجهّال الذين يأتون من جبال اليمن، واختلاف مذاهبهم، وتعليمهم بالقول والفعل والهيئة، ويدوسون بنعالهم وأرجلهم ما يجلس عليه إن كان على شيء، وربما مسكوا لحيته.

وكان رضي الله عنه في التواضع وسكون النفس في الملبس وغيره على ما كان عليه السلف، وربما رأيت عليه ثوبًا وطاقيّة على رأسِه، ويشدُّ فوطة فوق ثوبه حين يطوف.

وكنّا بمكان مقابل للحرم الشريف، وله دَرَج، فكان الشيخ يصعد ذلك الدَّرج، فسقط فشُج رأسه، فتألمت لذلك، وقلت له: يا سيدي، نحن نأتي كل يوم إلى الحرم، وسيدي يتفضل فلا يفعل فنحن نأتي؛ فقال: إن كان عزَّ عليك، فقلنا: نعم؛ فإنه ما

---

(١) هو المحب الطبري الإمام المحدث الفقيه أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي بكر المكي الشافعي، مصنف الأحكام الكبرى، وشيخ الشافعية، ومحدث الحجاز، ولد سنة خمس عشرة وستمائة وسمع من ابن المقير وابن الجميزي وشعيب الزعفراني، وكان إمامًا زاهدًا صالحًا كبير الشأن. مات في جمادى الآخرة سنة أربع وتسعين وستمائة. وانظر: تذكرة الحفاظ للذهبي (ص٥١٤).

كان في يوم يمرُّ حتى يأتينا فيه، فقال: والله ما أتيت بعد إلا حافيًا؛ فكان يأتي حافيًا.

فانظر رحمك الله تعالى، إلى هذا التواضع من هذا الرجل العظيم الإمام مع واحدٍ مثلي لا علم له ولا عمل وإنما نظر -لكوني على زيّ القوم- رحمه الله تعالى.

وسمعنا عليه مختصر سيرة النبي ﷺ تصنيفه في المسجد الحرام تجاه الكعبة العظيمة، وكان -رحمه الله تعالى، رقيق القلب لطيف الروح، وله نظم رقيق.

وكان ولده القاضي جمال الدين من العلماء الصالحين، ولم يقع اجتماعي به، وولد ولده قاضي مكة نجم الدين من العلماء المعتقدين في الطائفة، كثير النفع لخلق الله تعالى كثير التواضع، وبلغني أنَّه يحمل النعش على كتفه مع جملة الناس.

وله أخٌ مبارك يُسمى زين الدين، أقام عندنا مدّة بمدينة قوص، وهو على خير كثير.

الشيخ عبد الله الدلاصي رضي الله عنه (١)

ومنهم الشيخ عبد الله الدلاصي بمكة- شرفها الله تعالى- خرج من بلاده وأقام بمكة- شرفها الله تعالى، وقد ذكرنا بعض أحواله، وأخبرني أنَّه لم يصحّ له إلاّ صلاةٌ واحدة، أو قال: ما صليت إلا صلاةً واحدةً في عمري؛ وذلك أنِّي كنت بمكة -شرفها الله تعالى- بالمسجد الحرام صلاةَ الصبحِ، فلمَّا أحرمَ الإمام وأحرمت أُخذت أخذةً فرأيت رسول الله ﷺ يُصلي إمامًا، وخلفه العشرة فصليت معهم -وكان ذلك في سنة ثلاث وسبعين وستمائة- فقرأ رسول الله ﷺ في الركعة الأولى: سورة المدثر، وفي الثانية:

---

(١) هو الشيخ عبد الله بن عبد الحق بن عبد الأحد المخزومي المصري الدلاصي.

ولد سنة ثلاثين وستمائة، وتوفي سنة إحدى وعشرين وسبعمائة، وتلا لنافع على أبي محمد بن لب سنة خمسٍ وثلاثين ثم تلا بعده كتب علي بن فارس وسمع القصيدة من قارئ مصحف الذهب.

وأقرأ دهراً بمكة وتلا عليه بالروايات عبد الله بن خليل والمجير مقرئ الثغر وأحمد بن الرضا الطبري والوادي آشي وخلق. وكان صاحب حال وتألهٍ وأورادٍ أحيا الليل سنوات وتفقه لمالك ثم الشافعي ومناقبه غزيرة.

وانظر: الوافي (١/٤٢٠٦)، ومعرفة القراء (٢/٦٦٥)، وتاريخ الإسلام (١/٤٦٥٩).

عمَّ يتساءلون، فلمَّا سلَّم دعا بهذا الدعاء وهو:

اللهم اجعلنا هداة مهتدين، غير ضالين ولا مضلّين، لا طمعًا في بِرِّك ولا رَغْبَةً فيما عندك؛ لأن لك المنّة علينا بإيجادنا قبل أن لم نكن، فلك الحمد على ذلك، لا إله إلاّ أنت.

فلمَّا فرغ رسول الله ﷺ من الدعاء سلَّم الإمام، فعقلت تسليمه فسلّمت.

وحكى لي الشيخ عبد الله عن زوجته ابنة أمين الدين بن الشيخ قطب الدين القسطلاَّنيِّ قال: قلت لها يومًا: انظري إلى ما بدا من ماموسان – يعني: طاقيتين لا يرون الناس النساء منها- فقالت له: يا شيخ عبد الله، كيف يحلُّ لك تقول لي هذا؟ آية الحجاب اختصّت بالرجال دون النساء؟ كما يحرم عليه أن ينظرني يحرم على أن أنظره.

انظر رحمك الله تعالى هذه المرأة، ووقوفها مع قوله تعالى: ﴿**وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ**﴾ [النور: ٣١].

وكان والدها الشيخ أمين الدين من المحدثين المباركين نفع الله تعالى بهم وبأسلافهم أجمعين.

قطب الدين القسطلاَّنِيِّ رضي الله عنه

ومنهم الشيخ قطب الدين القسطلاَّنِيِّ جمع بين التصوف والعلم ومكارم الأخلاق والنفع لعباد الله تعالى أقام بمكة- شرّفها الله تعالى- سنين كثيرة وهبط إلى القاهرة وأقام بها مدرسًا.

وكان يلبس الخرقة الشيخ شهاب الدين السهرَوَرْدِي، ورأيته وما خالطته، وصفاته مشهورة- رحمه الله تعالى.

الشيخ أبو عبد الله القرشي رضي الله عنه (١)

(١) قال ابن بادس: هو أحد المشهورين من أكابر المشايخ العارفين، والأولياء المذكورين، والأفعال الخارقة، والأحوال الصادقة، والأنفاس المحققة، ومات الإمام القرشي عام سبعين في السادس والعشرين من ذي الحجة وخمسمائة.

وقال المناوي: عارف جلل سمت أعلامه، وصوفي نبيل حسنت تربيته وطابت أوقاته وأيامه، وأصله من =

وحكى لي الشيخ عبد العزيز- رحمه الله تعالى- أنَّ الشيخ القرشي ﷺ اشترط على أصحابه ألاَّ يطبخ أحد في بيته إلا لونًا واحدًا، حتى لا يتميز أحد عن أحد، فاتفق أنَّ أحدَ أصحابه قال لزوجته: أيُّ شيء تشتهون؟ أو أيُّ شيء تطبخون؟ قالت له: شاور ابنتك؛ فقال لابنته: أيُّ شيء تشتهين؟ فقالت له: ما تقدر على شهوتي؛ فقال لها: لو يكون ألف دينار لا بد وأنْ تقولي فقالت: تزوّجني بالقرشي، قال: فخرج وجاء إلى الشيخ ووقف على رأسه؛ فقال له الشيخ: قل، فاستحى؛ فقال له: أيُّ شيء قلت؟ -أو ما بالك، أو كلمة هذا معناها- فأخبره بما جرى وما قالت له ابنته، وكان الشيخ ﷺ أعمى جَذِمًا، مشاهدةُ حالَه ما ترضى به النساء.

فقال: سيدي أخبر، قال الشيخ: اطلبوا الحاكم، فطلبوا الحاكم وعقد عليها وأصلحوا شأنها وأحضروها إلى عند الشيخ، فلمّا خرجت النسوة، دخل الشيخ المرحاض وخرج، وهو شابٌّ جميلُ الصورة -وربَّما قال: أمرد- بثيابٍ حسنةٍ وروائحٍ طيبةٍ، فسترت وجهها؛ فقال لها: لا تستري، فقالت له: من أنت؟ فقال لها: أنا بعلُك، أنا القرشي. فقالت: يا سيدي، أنت القرشي؟ فربما حَلف، فقال: والله الذي لا إله إلا هو أنا القرشي. فقالت له: يا سيدي، ما هذا الحال؟ فقال: أبقى معك على هذه الحالة، ومع الناس على تلك الحالة. فقالت: يا سيدي، فما المطلوب منك؟ قال: تلك الحالة أو أكون على ذلك الحال. فقالت: وأنا أيضًا أطلب تلك الحالة.

قال: فكان الشيخ يضع شيئًا تحت أقدامه -أو أصابع أقدامه- ينزل فيه الصديد والأذى، فكانت زوجته إذا خرج من الحمّام، تشرب ذلك الصديد عوضًا عن الشراب، فلمَّا قُبض الشيخ ﷺ كانت حرمتها بين أصحابه كحرمته، وكان الناس يعظمونها.

وبلغني أن الشيخ مجد الدين بن دقيق العيد كان يأتي ويسمع عليها، فلمَّا كان ليلة من الليالي أصبحت قالت: للفقراء أصحاب الشيخ القرشي -رحمه الله تعالى- أنَّها

=
بلاد الأندلس من الجزيرة الخضراء ثم تحول إلى مصر فقطنها ثم إلى بيت المقدس، وكان من أعيان مشايخ المغرب ومصر، ولقي نحو ستمائة شيخ، وجد واجتهد، وأخذ عنه كثيرون منهم البوني.
وانظر: الكواكب الدرية (٤٤٣) .

رأت القرشي في المنام، وقال لها: تتزوجي بالشيخ أبي العباس القسّطلاني، فإنّه يأتي منك برجلٍ عالمٍ.

فامتثل الشيخ أبو العباس أمر الشيخ في المنام، وتزوّج بها، فولدت قطبَ الدين.

وكان الشيخ أبو العباس من المخصوصين بالقرشي ومن الأكابر، وله غرائب وعجائب.

وحكايات القرشي كثيرة وجلالته عظيمة وآياته خارقة، ولسنا نذكرها لشهرتها.

فانظر، رحمك الله تعالى، إلى هذه الحكاية وما تضمنته من الأسرار وحسن الاعتقاد من هذه المرأة، وما ظهر من إخبار القرشي في المنام ونتيجته وظهور ذلك، وامتثال الشيخ أبي العباس ما أمره به في منامه كأمره في يقظته إذ حال الأكابر في المنام واليقظة سواء.

الشيخ الدّهروطي رضي الله عنه

ومِمَّن رأيته واجتمعت به الشيخ عبد المؤمن الدهروطي، جمع بين العلم والعمل والورع والتصوف، جاء إلى الأقصرين وزار ضريح الشيخ أبي الحجاج -وكنا بالأقصرين- ونزّلناه عند صهر لنا في داره، وكان معه جماعة من أصحابه فقهاء، وكان قد حضر معه أكابر وعلماء ومشايخ، كالشيخ تقي الدين بن دقيق العيد، والشيخ ناصر الدين بن عبد القوي صاحب ابن شعبان، والشيخ أبو الطاهر، وعز الدين الحمامي، وابن الشيخ مفرج عبد الرحيم، وجماعة كثيرة.

وكان فيه اطّراح في نفسه وتَخَلِّي رضي الله عنه.

ومن كرامات الشيخ عبد المؤمن ما حدثني به القاضي زين الدين البوشى، عن الشيخ عبد الغفار البهنسي -وكان عدلاً ومدرّسًا ورجلاً مباركًا ومات بقوص- قال: بينما أنا ليلةً عند الشيخ عبد المؤمن بدهروط ففرغ الزيت من السراج، فقال بعض الجماعة: خلوا أحدًا منكم يطلب الزيت، فوجدوا الدروب مغلقة، وكانوا يشتهون الحديث مع الشيخ، فقال لخادمه عبد الرحمن درويش بن أبي الفرج: خذ هذا الإبريق واسكب في السّراج، فقام وصبَّ الإبريق في السراج فوقد إلى الصبح.

قال زين الدين: واجتمعت بالشيخ عبد المؤمن بعد ذلك وقلت له: أخبرني الفقيه

عبد الغفار بكذا وكذا، قال: نعم، وجرى من هذا كثير، وإنما سألت الله تعالى الستر، وحديثه بمصر مشهور.

الشيخ يوسُف بن سلَمان رضي الله عنه

وحكى لي الشيخ عبد العزيز عن الشيخ عبد العظيم خال الشيخ عبد المؤمن قال: خدمت الشيخ يوسف بن سلمان مدّة، وكان من خواص أصحاب القرشي رضي الله عنه وكان القرشي يقول: واسطة عُقْدِنا يوسف بن سلمان.

قال: دخل الشيخ يوسف يومًا السقاية يتوضّأ، وفرشنا مئزرًا له ليصلِّي عليه، وإذا بشيخٍ قد أقبل وتحت إبطه كارة ففتحها، وأخرج منها سجادة كلآلئ وجواهر وهي تضيء، فنحّى مئزر الشيخ وفرش السجادة وجلس ناحية ولم يتكلم، فخرج الشيخ ونظر إلى السجادة ونحّاها وفرش مئزرَه وصلّى عليه، فقام ذلك الشيخ وطوى السجادة وجعلها في الكارة أو البقجة وجعلها تحت إبطه، ولم يتكلم الشيخ ولا تكلم يوسف أيضًا.

فلمَّا فرغ الشيخ يوسف من صلاته قلت له: يا سيدي، سألتك بالله تعالى ما هذا الشيخ؟ وما هذه السجادة؟ فقال: يا عبد العظيم، ما أنت من أصحابي لكن لك علي حق خدمتك، ووالله متى تكلمت بهذا وأنا حي أعرضت عنك يومَ القيامة، ثم قال: أمَّا هذا الشيخ فهو السيد الخضر، وأمَّا هذه السجادة فهي رتبةُ المشيخة، وقد أَذن لي بالجلوس، وأنا عنده صلحت وأنا عند نفسي ما صلحت.

فلم يتكلم الشيخ عبد العظيم بذلك حتى توفي الشيخ يوسف بن سلمان.

فانظر يا أخي رحمك الله تعالى إلى قول الشيخ يوسف: أذن لي بالجلوس، ولم يقل أمرني؛ إذ لو أمره لما وسعه إلا الامتثال؛ لأنَّه لا يفعل شيئًا عن أمره.

وقد أخبر الله تعالى في قصة السيد موسى عليه السلام فقال: ﴿**وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي**﴾ [الكهف:٨٢].

والإذن للتخيير، فإن الله تعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا البَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا

اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة:٩،١٠].

ففي أوّل الآية الأمر بالسعي إلى الصلاة، وهو واجب، وقد كان من المتقدمين من إذا سمع النداء إلى الصلوات، كل من كان في صنعة أو معاش أو تجارة تركها حتى تفرغ الصلاة، ولقد كانت الأسواق تخلو في أوقات الصلوات ولا يبقى فيها إلا الصبيان أو مَن لا تكليف عليه أو من لا دخل في الإسلام كالنَّصارى وغيرهم، وكان الحداد منهم إذا رفع المطرقة فسمع الأذان رماها إلى ورائه ولم يضرب بها، والنّجار كذلك، والخياط والخراز، إذا غرز غرزَة أو طعن طعنة لا يستكملها، وقد قال الله تعالى: **﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾** [النور: ٣٧، ٣٨].

وأمَّا الانتشار في الأرض فلا يفهم منه إلا التخيير والإذن في الانصراف، فلو جلس أحدهم في المسجد إلى العصر لكان مأجورًا على ذلك، لا سيما إنْ كان ينتظر الصلاة أو نوى الاعتكاف. ففهم الشيخ يوسف بن سلمان، الإذن في الجلوس، ولم يأمره وإنما خيّره فلم يختر.

وممَّن كان بمكة حين كنّا بها ابن مطرق وجماعة من الصالحين -قدس الله تعالى أرواحهم- وكان بها الشيخ **محمود الأصفهاني** وكان هو وأخوه مجتمعين على الشيخ نجم الدين الأصفهاني، نفع الله تعالى ببركاته وطريقته مشهورة.

ومنهم أبو الغيث بن جميل- رحمه الله تعالى- من الفقهاء الصالحين المفتين بفهمهم في الظاهر، متمسك بالشريعة، أخبرني عن والده قال: كنت جالسًا مع الشيخ أبي الغيث أتحدث معه، وإذا بالأشراف قد جاءوا ونزلوا عن خيولهم، وقبلوا رجليه ويديه؛ فقلت في نفسي: يا رب، هؤلاء أشراف وسلالة نبيِّك، وهذا مولى أو عبد، فلمَّا خطر لي ذلك منهم، أعرض الشيخ أبو الغيث بوجهه عنّي وجعل يقول: نعم، عبدٌ أنعمنا عليه.

عُمَر الهوري ﷺ

ومنهم الشيخ عمر الهوري، خرج من هور وجاور مكةَ- شرفها الله تعالى- وكان في مدتِه على صورة الْمُحرِم مشتملاً بشيء عليه مكشوفَ الرأس ولعلّه حافي القدم،

وكان يحفر بمكة الآبار، ويُعين الفقراء ويؤثرهم بما يحصل له من الفتوح، وكان أكثر اشتغالِه حفرَ الآبار وإصلاحها وإصلاح الصهاريج، ويحصل عنده الليمون المالح لأجل من يطلبه ويهديه.

وكانت أحواله شريفة، وله أخٌ بهور يُسمَّى الشيخ إبراهيم بن عثمان، كثير النفع للفقراء وغيرهم، وكان كما بلغني في ذلك الغلاء له أردبُّ كلَّ يومٍ يخرجُه للفقراء، وكان قد جمع عنده المشايخ بعيالهم، ودُفن عنده الشيخ نجم الدين بن الشيخ عبد الله الجَبَلي -ورحنا إلى هور حين وفاته- ثم دُفن عنده بعد ذلك الشيخ كمال الدين بن الشيخ عبد الله، وكان رجلاً جليلَ القدر- رحمهم الله تعالى.

الشيخ المُرجاني رضي الله عنه(١)

ومنهم مَن ورد إلى مدينة قوص قاصدًا الحجاز الشريف، كالشيخ أبي محمد المرجاني، كان كبير الشأن جليل المقدار شريف الأحوال، يظهر حاله في كلامه فتنجذب القلوب إليه.

حسن الأخلاق مبسوط الذات حافظ النظام، متمسّك بالشَّريعةِ، بها نصيبه من آثار صفة الجمال، فلذلك جُذبت إليه القلوب.

وسافر من مدينة قوص إلى الحجاز الشريف على طريق القصير، وكنت بمدينة قوص ولم يقع الاجتماع به، والمرة الأخرى كنت غائبًا عن البلد، ووقع به الاجتماع في غير هذه الدار.

وشهرته بمصر مشهورة، وأحواله معروفة ورجع إلى الغرب ومات هناك - رحمه الله تعالى.

أخبرني الشيخ الإمام الخطيب عماد الدين بن السكري قال: كنت معه في طريق الحجاز الشريف ونحن بصحراء عيذاب بمنزلة من منازل الصحراء، فعمل لنا ميعادًا بمَدِّ

---

(١) هو عبد الله بن محمد أبو محمد المرجاني الواعظ المذكر الزاهد القرشي التونسي. كان مفتياً عالماً مفسراً مذكراً حلو العبارة كبير القدر له شهرةٌ في الآفاق. قدم الإسكندرية وذكر بها وبالديار المصرية وكان بارعاً في مذهب مالك عارفاً بالحديث له قدمٌ في التصوف والعبادة والزهد ولم يصنف شيئاً ولا كان أحدٌ يقدر يعيد ما يقوله لكثرة ما يقول على الآية ولربما فسر في الآية الواحدة على لسان القوم ثلاثة أشهرٍ . خلف كتباً كثيرةً . توفي -رحمه الله تعالى- بتونس سنة تسعٍ وتسعين وستمائة. وانظر: الوافي في الوفيات (١/ ٢٥٠٠).

صلاة الصبح، فأتى فيه بالغرائب؛ فقلت له: يا سيدي هذا ميعاد لم يُر مثله، قال: أنا أسمع كما تسمعون، وهذا يدل على عظم شأنه، وأنه لِمَا يرد عليه من الله تعالى سطحًا لِمَا يلقى فيه، ولوحًا لِمَا يكتب فيه، ومحلاً لمواردِ الإرادة. وهو ما قدَّمناه.

الشيخ ابن أبي جمرة رضي الله عنه (١)

ومنهم مَن كان بالقاهرةِ كالشيخ محمد بن أبي جمرة كبيرِ الشأن، مقبوضِ الظاهر، معمورِ الباطن، غلبت عليه آثار صفة الجلال، كان معظمًا لشعائر الدين قائمًا بحق الشرع والمشرع، واتفق له ما اتفق في المجلس الذي عُقد لقيامه بحقِّ رسول الله ﷺ وأقام ببيته لا يخرج إلا لصلاةِ الجمعةِ، وظهر أثر ذلك فيمن شوّش عليه، وكان يذكر رؤيتَه لرسول الله ﷺ كثيرًا ؛ولذلك أتيته ولم أجتمع به وشهرته تغني عن ذلك، ومات بالقاهرة المحروسة ودُفن بها- رحمه الله تعالى-(٢).

الشيخ الكناسي رضي الله عنه

ومنهم مَن كان بمدينة قوص كالشيخ عبد الله الكناسي، أقام بها سنين كثيرة برباط ابن الفقيه نصر، وكان عمَّالاً مواظبًا على العمل لا يفتر عنه لا يترك صلاة الصبح بالجامع إلاّ عند الضرورة.

ولقد رأيته عند قراءته في الصلاة، إذا قرأ آية مخوّفة بكى بكاءً ظاهرًا، وإذا قرأ آية منجية ظهر السرور عليه، وأسنّ وكبر وهو على ذلك إلى أن مات- رحمه الله تعالى.

وذُكر مَن رأيناه وسمعنا عنه لا أستطيع حصره في هذا الوقت المسرع لطول المدة، وإنَّما ذلك على قدر ما حضرني في هذا الوقت مع حجاب الشواغل.

الشيخ شمس الدين بن الصابوني

ولقد كنّا مرّة بمسجد ظاهر الأقصرين، والشيخ شمس الدين بن الصابوني وجماعة من الفقراء المسافرين قد أقبلوا، وما كان وقتنا يسع أحدًا من جهة الاجتماع بالناس

---

(١) هو الإمام الحافظ المحقق المتحقق المكاشف: عبد الله بن سعيد الأزدي الأندلسي، له كتابه المبارك النفيس «بهجة النفوس وغايتها بمعرفة ما لها وما عليها».

(٢) قلت: وضريحه الشريف، بجوار خلوة سيدتنا نفيسة-عليها السلام- والشيخ ابن سيد الناس، وسيدي ابن عطاء الله.. بجبل المقطم.

خاصة؛ لأنَّ ابتداء السلوك يحتاج السالك فيه إلى الوحدة؛ لأنَّ الاجتماع يشوّش عليه، فكَرِه شمس الدين أن يجيئوا إلينا، فلمّا وصلوا إلى باب المسجد وقف فقير منهم أسود اللون على باب المسجد كالمانع لمن يدخل، فمَن جاء منعه، وتعرّض في الباب، فقال له شمس الدين: ادخل فقال: أنا أسود، وقلبي أسود، وأنت ما اشتريتنا ندخل إليكم، وراح ولم يدخل.

وكنت مرّة أخرى بجامع قوص أنا وشمس الدين، وقد دخل فقيران فوقفا في الصفِّ الذي قُدامنا وعليهما زيُّ المسافرين، وعلى الفقير الواحد شيء من لباسهم قصير جدًّا، فقلت لشمس الدين خفية: هذا إن ركع ظهرت عورته ولا تصحُّ صلاته، ولا يجوز لنا السكوت إنْ لَم نعلمه.

فحين قلت ذلك أدخل يديه في قلنسوةٍ، وأرخى سِترة إلى أنْ غطتْ ساقيه.

ورأيت مرّة فقيرًا من جنس المسافرين مكشوفَ الرأس، وكنت إذ ذاك منقطع في مكان بمدينة قوص، فدخل عليَّ، وهو ينشد شعرًا(١):

دَواؤُك فِيكَ وما تَشعُر ... ودَاؤُك مِنكَ وتستَخبِرُ

أَتَزعُمُ أنَّك جرمٌ صغيرٌ ... وفِيك انطوى العالم الأكبرُ

وجلس يتحدث إلى أنْ طلع الفجر، لم يمنعه من الحديث إلا تخلل أوقات الصلوات، وغاب عني فلم أجده بعد ذلك.

وكنت مرّة راقدًا في مسجد الأقصرين بالليل، ودخل عليَّ فقيران، فقلت: مَن هذا؟ فقال أحدهما: فقير وكأنَّهما على زيِّ المسافرين، أمَّا أحدهما فرقد ونام، وأمَّا الثاني: فورد عليه كلام عظيم أزالَ عني النومَ إلى أنْ طلع الفجر فلم أره.

ورأيتُ مرة الفقراء مجتمعين -أعني: الفقراء المسافرين- بمسجد الأفرم ظاهر مدينة قوص، وكنت شابًّا، وقصدت برؤيتهم التبرك بهم، وكان أحد الأصحاب قد أخبرني عنهم أنَّهم مجتمعون ليلةَ السابعِ والعشرين، يعملون فيه علي الحريري رضي الله عنه.

فقلت: لعلّ فيهم وليّ الله تعالى، فرحت، ورأيتهم يدورون في سماعهم حول ما

(١) البيتان في ديوان سيدنا علي -كرم الله وجهه- من قصيدة البيت الأول مطلعها.

عملوه من فاكهة وجلاسات موقودة، ورأيت فيهم فقيرًا حصل لي من رؤيته خير، ورأيت خيرًا تلك الليلة.

ورأيت منهم مرّة جماعة بدير أسوان، وكان عندي بعض أفكار لِمَا يصدر منهم عمَّا لا يخفى من مخالفةٍ، أحوالٍ لا أرضاها لأهل طريق الله تعالى، فرأيت تلك الليلةِ واحدًا في المنام منهم، وأشار بإشارة فهمت منها الخيرة، وكان فيهم شباب وليس عليهم ثياب إلا ما يستر العورة وطواقي خفاف على رءوسهم.

فقمت بالليل لأجدهم متوجهين، وكان الشتاء والبرد، وهم في أوقات الصلوات متحفظون، يحفظون أوقاتها، وفيما بعد ذلك يزمرون ويرقصون، وكان فيهم خادم الشيخ علي الحريري، الذي كان يغني له، وأنشد وغنَّى في ذلك الوقت عقيب الإشارة والرؤية:

أأظمأُ وأنت العذبُ في كلِّ موردٍ وأُظْلَمُ في الدنيا وأنت نَصِيرُ

وعارٌ على حامِي الحِما وهُومنجدٌ إذا ضَلَّ في البَيدا عِقالُ بعيرُ

ورأيت مرّة في المنام -وكان عندي من حركات المسافرين شيء- وهم يقولون قريبا منا، فرأيتُهم مجتمعين على عادتهم من سماعهم وأحوالهم، وشخصًا منهم نظر إليَّ، وقال لي: الرحمة تسعُنا -أو الرحمة تشملنا- فما رجعت بعد ذلك أظهر لهم إلا الوداد وأَنِسُوا بِي، وقد كان قبل ذلك عندي نفرة من بعضهم لأمور لا تخفى، وعَلِمُوا أنَّني ما قصدي لهم إلا ما هو خير، والغيرة على هذه الطريقة الشريفة.

فإياك أن تقف مع الأوهام، وكثرة ما يلقيه العوام من الكلام، وأن تقيس الصالح على الطالح، والخسيس على النفيس، أو ترجع إلى من له غرض أو كان في قلبه مرض؛ فقد كان الأنبياء -صلوات الله عليهم وسلامه- من الله تعالى بالمحلِّ الأعلى، وجاءوا بالبينات والهدى، وأظهروا الآيات والمعجزات، وتحدَّوا بها، وأتوا بما طُلب منهم في وقته، وبعد ذلك كذّبوهم وحاربوهم وقاتلوهم، وذاك مستقر من السيد آدم عليه السلام وإلى الآن، ويكفي في ذلك قوله تعالى: ﴿**لا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِين إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**﴾ [هود:١١٩].

وفي بيان كثرة الضلال قوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:١١٦].

وفي الآية الأخرى :﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شيئًا *

فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم: ٢٨-٣٠].

فالأولياء كثير في كل زمان وكل أوان، لا يعرفهم إلاّ مَن كان له نسبةً منهم، يعرفه الناجب من جنسه، وقد قال أحد العارفين: لا يفهم عنك إلا مَن أشرق فيه ما أشرق فيك، لا سيما في زمن الفترات، وظهور الظلمات، وحجاب القلوب، وكثرة الذنوب؛ فإن كان فيما تقدم من الزمان وما عبر عن الدهور والأعوام، وما مضى في ظهور الأنبياء - عليهم السلام- تكون الفترة ما بين النبي والنبي الذي يأتي بعده تكون فترة يقع فيها ما يقع من الهرج والمرج وعبادة الأوثان حتى يأتي النبي الآخر بما يأمره الله تعالى به، ويستأنف دعوةً ثانية إلى الله تعالى.

دعوة الولاية

ودعوةُ الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ظاهرة، ولَمَّا كان العلماء ورثة الأنبياء- عليهم السلام- وعلماء هذه الأمة كأنبياء بني إسرائيل كما ورد، ودعوة الولاية باطنة-إذ الولاية سرٌّ من أسرار الله تعالى يودعه الله تعالى مَن شاء من عباده، ونور يقذفه في قلوب أوليائه- والفترة في قلوب السالكين موجودة، وهي باطنة وإن لم يكن بين الوليّ الداعي إلى الله تعالى أو القطب أو الغوث أو الإمام أو الخليفة أو الوارث وبين من يأتي بعده مدة حسيّة معقولة؛ إذ بوفاة هذا قام غيره في رتبته، ونظام الأمر في الباطن مستمرٌ على حالتِه، كما أنَّ أحكام الشريعة باقية بعد غيبة شخص رسول الله ﷺ .

وإن كان مَن تقدمه من الأنبياء -عليهم السلام- كانت شرائعهم باقية في أمتهم إلى أن يأتي نبي آخر على تلك الشريعة، كالتوراة، أتى عليها أنبياء كثيرة؛ إذ شريعة نبينا محمد ﷺ ناسخة للشرائع، فما وافق منها مَن تقدّم من الأنبياء -عليهم السلام- أقروا لا نسخ.

وكما أن النبي ﷺ دعوته ظاهرة لعموم الخلائق فاكتفى من الناس بالظاهر في الأقوال والأعمال؛ فقال: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله؛ فإذا**

قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله تعالى»[١].

وقوله ﷺ لأسامة بن زيد -رضي الله تعالى عنهما: «**أفلا شققت عن قلبه**»[٢] حين قال: إنّما قالها من السلاح.

واكتفى من السؤال حين قال لها: «**أين الله تعالى؟ قالت: في السماء، فقال له: أعتقها؛ فإنها مؤمنة**»[٣].

فلا يكتفي الداعي إلى الله تعالى في الباطن إلاّ بتجديد التوحيد والصدق والإخلاص في الأعمال، ونفي ما سوى الله تعالى من الباطن، وجمعية القلب بكليته على الله تعالى.

ولا يرجع إلى الأعمال الظاهرة، ويكفي في ذلك ما نصّه الله تعالى في القرآن الكريم في قصة السيد موسى والسيد الخضر -عليهما السلام.

و**إيّاك** أن تتوهم أنّ ذلك نقصٌ في دعوة الرسول الظاهرة للعموم؛ إذا كان العمل على حقائق القلوب في الدار الآخرة عند انكشاف الغطاء، ومحل الجزاء بين يدي عالم السر وأخفى، وإنه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا.

فاعلم أن هذه الدعوة الخاصة مندرجة في دعوته العامة، وهذه الأسرار مطوية في أعماله الظاهرة، وما حصل لهذا الوليّ الداعي إلى الله تعالى بالقلوب والضمائر، واستجلبت له الحقائق والسرائر؛ فهي من ميراثه من نبيه ﷺ، وهو الداعي في الحقيقة إلى الله تعالى في البواطن والظواهر والأوائل والأواخر.

ألا ترى إلى ما ورد عنه ﷺ: «**آدم فمن دونه تحت لوائي يوم القيامة**»[٤] وكيف كان الحوض والساعة مخصوصة به ﷺ، فلا يتقدمه أحد في الشفاعة.

فمهما أتى من الشفاعة؛ فهي مندرجة في شفاعته، وقوله ﷺ: «**أوتيت جوامع**

---

(١) رواه البخاري (١/١٧)، ومسلم (١/٥٣).
(٢) رواه مسلم (١/٩٦).
(٣) رواه مسلم (١/٣٨١).
(٤) رواه الترمذي (٥/٣٠٨)، وأحمد (١/٢٨١).

الكلم»(١) فكانت الحكمة في المعاني والألفاظ مندرجة في كلامه ﷺ، وكيف ختم به الرسالةَ فلا نبي بعده؛ لأنَّه الخاتم، فخُتِمَت به الدوائرُ واجتمعت في دائرتِه الأوائلُ والأواخرُ، والبواطن والظواهر، واستجابت لدعوته الظاهرة الأقوال والأعمال، ولدعوته الباطنة القلوب والأسرار.

وعرفنا الآن ذكر فترات القلوب في الطالبين، ومقابلة الفترات بين مَن تقدّم مِن الأنبياء والمرسلين، كما بين النبي اللاحق فترةٌ يقع فيها ما وقع حتى يأتي النبي الآخر، فكذلك هذا الزمان، ما بين الوليّ الداعي إلى الله تعالى المربّي، الظاهرة آثارُ دعوته الباطنة في العوالم، إلى ما بين مَن يظهر بعده فترةٌ في القلوب، وحجاب عن الأسرار عن مطالعة الغيوب، يجد ذلك في نفسه مَن له ذوقٌ من هذه الطريق، ويعرفه من نفسه. وتحت ذلك أسرار، ووراؤه حقائق وأنوار.

فالطبقة التي كان فيها السادة الأولياء المشايخ المذكورون في رسالة عبد الكريم ابن هوازن، كالسيد السرّي والسيد الجنيد والسيد سليمان الداراني -رضي الله عنهم- وأمثالهم وأتباعهم، ومن كان فيها من الأكابر والعارفين وأرباب الأحوال والمكاشفين والطلبة للطريق والسالكين؛ ومع هذا بعدهم فترة حتى ظهر غيرهم، والطبقة التي كان فيها من السادة الأكابر كالسيد ابن الرفاعي والسيد الكيلاني والسيد القرشي والسيد أبي مدين والسيد أبي يعزى والسيد أبي النجا وأمثالهم؛ فقد كان بعدها فترة، والطبقة التي أتت بعدهم من السادة ، كالشيخ أبي الحسن بن الصبّاغ والشيخ أبي الغيث والشيخ الواسطيّ أبي الفتح والشيخ أبي الحجّاج الأقصري والشيخ أبي يحيى القناوي والشيخ مفرّج الدماميني وأتباعهم من السادة والأكابر مِمَّن ذكرناهم في هذا الكتاب مِمَّن عرفناه وسمعنا به، ومنهم مَن لا نعرفه ولا سمعنا به وهو معروف لغيرنا ومنطوٍ في علم الله تعالى، والفترة بعدهم موجزة حتى يظهر من يظهره الله تعالى ويقيم الدعوة إليه، مع استمرار حالات الأولياء فيما أقيموا فيه في الباطن وقوام العالم بهم.

فلو خلا الوجود مِن الغوثِ والأقطابِ والأوتادِ والأعيانِ والأبدالِ وأولي الأمر(٢)؛

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) **فائدة جليلة:** قال الشيخ عبد الحليم الرومي: قال الأستاذ سيدي شمس الدين الحنفي -يعني الشيخ =

=

الحنفي الكبير قدس سره- حينما سئل عن القطب؟. فقال: الأقطاب كثيرٌ فإن كل من أمَّ قومًا فهو قطبهم.وأما القطب الغَوث الفرد الجامع فهو واحد.

وتفسير ذلك أن النقباء: هم ثلاثمائة وهم الذين استخرجوا خبايا النفوس، ولهم عشرة أعمال منها أربعة ظاهرة، وستة باطنة.

فأما الظاهرة: فكثرة العبادة والتحقق بالزهد والتجرد عن الإرادة وقوة المجاهدة.

وأما الباطنة: فهي التوبة والإنابة والمحاسبة والتفكر والاعتصام والرياضة، فهؤلاء الثلاثمائة لهم إمام منهم يأخذون عنه ويقتدون به فهو قطبهم.

ثم النجباء أربعون، وقيل: سبعون. أقول: في هذا دلالة على أن القطب لا يعلم عدد النجباء بيقين لقوله.

وقيل: سبعون. وهو إذ ذاك هو القطب الغوث الفرد إلا أن يحمل أن سؤال الشيخ له بعد توليته القطبانية فليتأمل.

قال: وهم مشغولون بحمل أثقال الخلق، فلا يتصرفون إلا في حق الغير، ولهم ثمانية أعمال: أربعة باطنة، وأربعة ظاهرة.

فأما الظاهرة: فالفتوة، والقوة، والتواضع والأدب، وكثرة العبادة.

وأما الباطنة: فالصبر، والرضا، والشكر، والحياء. وهو أهل مكارم الأخلاق.

وأما الأبدال: فهم سبعة رجال، وهم أهل فضل وكمال واستقامة واعتدال قد تخلصوا من الوهم والخيال.

ولهم أربعة أعمال ظاهرة، وأربعة أعمال باطنة.

فأما الأربعة الظاهرة: فهي الصمت والسهر والجوع والعزلة.

ولكل واحد من هذه الأربعة ظاهر وباطن.

فأما الصمت فظاهره ترك الكلام بغير ذكر الله تعالى، وأما باطنه فصمت الضمير عن جميع التفاصيل والأغيار.

وأما السهر: فظاهره عدم النوم، وباطنه عدم الغفلة.

وأما الجوع فعلى قسمين: جوع الأبرار بكمال السلوك، وجوع المقربين لموائد الأُنس.

وأما العزلة: فظاهرها ترك مخالطة الناس، وباطنها ترك الأنس بهم.

وللأبدال أربعة أعمال باطنة: وهي التجرد والتفريد والجمع والتوحيد، ومن خواص الأبدال أن من سافر منهم من موضعه، وترك جسدًا على صورته فذلك هو البدل لا غير.

والبدل على قلب إبراهيم عليه السلام فهؤلاء الأبدال لهم إمام مقدم عليهم يأخذون عنه ويقتدون به، وهو قطبهم لأنه مقدمهم. ويؤيد هذا القول ما أخرجه الطبراني في «معجمه» من قوله ﷺ:

«لا يزال من أمتي أربعون على قلب إبراهيم الخليل». قال صاحب «مجمع الأحباب»: هو نصٌ على ثبوت الولاية إلى يوم القيامة.

وقيل: الأبدال أربعون، والسبعة هم الأخيار، وكل منهم لهم إمام منهم هو قطبهم.

=

لخرب الوجود دفعةً واحدة، فإذا أراد الله تعالى أنْ يخرب هذا الوجود ويعيد النشأة الأخرى قبضهم إليه، حتى أن الوقت الذي تقوم فيه القيامة لا يكون في الأرض من يقول: لا إله إلا الله.

ولما كانت الفترات ما بين الأنبياء يُعبدُ فيها الأصنام وتُرفضُ فيها الشرائع وتُرتكب فيها المحارم، ويستحلُّون الدماء، ويحكمون بالهوى، ويتولاّهم الشيطان، ويُعرضون عن الرحمن، ويزعمون أنّهم قاموا في عبادتهم بالوفاء، وأنّهم ما عبدوهم إلا ليقربوهم إلى الله زلفى؛ ففي هذه الفترة التي بين الأولياء -المقابلة للفترات التي بين الأنبياء عليهم السلام- أيظنُّ أقوام من سوء المعتقدات ما هو أقبح ممّا أظهره عبَّاد الأصنام من العبادات؟!

فإنَّهم، وإنْ كانوا كفارًا وعبَّاد الأوثان؛ فإنّهم ما نفوا الإله، بل قالوا عن الأصنام: ما نعبدها إلا ليقربونا إلى الله تعالى، أمّا هؤلاء فقد استحكم في قلوبهم الفساد

=

أقول: وهذا أيضًا فيه دلالة على أن القطب لا يعلم عدد الأبدال بيقين من عدد غيرهم من الأخيار كما تراه، إلا أن يكون ذلك قبل تولية الشيخ القطبانية، فلم يطلع على ذلك.

ثم الأوتاد هم عبارة عن أربعة رجال منازلهم منازل الأربعة أركان من العالم شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالاً، مقام كل واحد مقام تلك الجهة.ولهم ثمانية أعمال: أربعة ظاهرة، وأربعة باطنة.

فالظاهرة: كثرة الصيام، وقيام الليل والناس نيام، وكثرة الإيثار، والاستغفار بالأسحار.

وأما الباطنة: فالتوكل، والتفويض، والثقة، والتسليم. ولهم واحد منهم هو قطبهم.

وأما الإمامان فهما شخصان أحدهما: عن يمين القطب، والآخر: عن شماله، فالذي عن يمينه: ينظر في الملكوت وهو أعلى من صاحبه، والذي عن شماله: ينظر في الملك، وصاحب اليمين هو الذي يخلف القطب.ولهما أربعة أعمال ظاهرة وأربعة باطنة.

فأما الظاهرة: فالزهد والورع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وأما الباطنة: فالصدق والإخلاص والحياء والمراقبة.

والغوث: عبارة عن رجل عظيم، وسيد كريم، يحتاج إليه الناس عند الاضطرار في تبيين ما خفي من العلوم المبهمة من الأسرار، ويطلب منه الدعاء لأنه مستجاب الدعاء «لو أقسم على الله لأبر قسمه» مثل أُويس القرني في زمان رسول الله ﷺ.

قال: ولا يكون القطب قطبًا حتى تجتمع فيه هذه الصفات التي اجتمعت في هؤلاء الأولياء. انظر: رياض السادات (ص١٨٣) .

والضلال، واستولى على طبائعهم الخيال والمحال، وعكسوا الأحوال في الأقوال والأفعال؛ فحكموا على المستحيل بالواجب، وعلى الواجب بما استحال، وألحقوا الموجود بالعدم والحادث بالقدم، ورأوا أن كلَّ واحدٍ منهم هو الإله، وأن عين هذا الوجود الحادث هو عين الله تعالى من الجماد والنبات والعقارب والحيات والأرض والسموات من حيوان وإنسان وملك وشيطان.

ولولا تنزيه اللسان عن سوء ما يعتقدونه وقبح ما يضمرونه وما يوحونه إلى أوليائهم لأبديته في ذلك، وإن كان القول والأمان والطباع منافرًا، وخشيت أن يخسف الله تعالى بنا عند الكلام به، وإن كان حاكى الكفرَ ليس بكافرٍ؛ إذ يجعلون أنَّ عين كلِّ شيء موجود هو عين الحق، وأنَّ الخالق هو نفس الخلق، فيدخل في ذلك الخسيس والنفيس، والمرءوس والرئيس، والملائكة والأباليس؛ وهذا كلامٌ لا يرضاه لعقله أهلُ الجنون كما قيل [(١)]:

جُنونُك مجْنُونٌ ولست بواجدٍ طبيبًا يداوي مِن جنونٍ جنونِ

على أنَّ إبليس لو ظهر، وخوطب بهذا المعتقد، لَمَا رَضِيَ أنْ يَعزي ذلك إلى نفسه، وإن كان يلقي إليهم ليُوبقَهم في العذاب، كما أخبر الله تعالى عنه في قوله تعالى: **﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ العَالَمِينَ * كَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾** [الحشر:١٦، ١٧].

وفي قوله تعالى: **﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ الفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ﴾** [الأنفال:٤٨].

وهؤلاء أخس الطوائف، وهم الزنادقة الذين لا يرون لا بحساب ولا بعقاب، ولا جنة ولا نار، ولا دنيا ولا آخرة، ولا حلال ولا حرام، ولا لهم دين يرجعون إليه، ولا معتقد يجمعون عليه، وإبليس في نفسه ليس له إلا التخييل والتزيين والجدال والقياس، وهو أوَّل من ضرب القياس، فلا يعزي لنفسه ذلك؛ لأنَّه لو زين ذلك لمِن له أدنى مَسْكَةُ مِن عقلٍ، ليُقَرِّعَنَّه، وإنَّما هو يزيّن بما يناسب كلَّ عقلٍ بحسبِ ضعفِه وقوتِه

(١) البيت قائله الإمام الشافعي في ديوانه من قصيدة البيت مطلعها.

وفسادِ خيالِه أو صحته، فيأخذ نصيبَه مِن كلٍ واحِد بحسب ذلك التخييل والتسويف والتزيين.

ومثل هؤلاء ليس هم من الطوائف الذين يُحتاجُ معهم إلى كلام؛ لأنَّهم خالفوا الْمَعقُولات والمنقولات، والمعاني والأديان والشرائع، والحقائق والعلوم والعبادات، ولا أعلم أنَّ هذا القول قال به أحد من طوائف الكفار -فضلا عن طوائف المؤمنين- فإنَّ الأنبياء -صلوات الله تعالى وسلامه عليهم- جاءوا عن الله تعالى بما أمرهم به من الشرائع والأحكام، فبلَّغوا الرسالةَ وأدَّوا الأمانة، وأظهروا المعجزات الباهرات والآيات البينات، وتحدَّوا بها، فلم يكن في الشرائع ولا في الأديان ولا في المعقول، ولا في النقول ولا في الأذواق ولا في المكاشفات ولا في طائفةٍ من الطوائفِ مَنْ اعتقدَ هذا.

فإنَّ النَّصارى منهم طائفة اعتقدت أنَّ المسيح هو الله، وقال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ**﴾ [المائدة:١٧].

وطائفة من اليهود اعتقدت أنَّ عُزَيرًا ابن الله، فكُفِّروا لاعتقادهم فيمن أظهر إحياء الأموات وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك.

وهؤلاء يعتقدون في كلِّ شيء من الخسيس وغير الخسيس أنّه عين الله تعالى، ومَرَقُوا عن الدين بل عن كل دين، واتّبعوا غير سبيل المؤمنين، قال الله تعالى في كتابه المبين: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الهُدَى، وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً**﴾ [النساء:١١٥].

فأمَّا الشرائع فهي مسطورة في كتابه العزيز، وأمّا أرباب الأذواق والمكاشفات وذوي المعارف والمخاطبات وذوي المعارف والبصائر والكرامات وخرق العادات فسلوكهم معروف، لم يكن أحدٌ منهم يعتقد خلاف ما جاءت به الشرائع، ولا يصحُّ اعتقاد مَن اعتقد خلافَ ذلك، ولا تظهر عنه كرامة ولا خرق عادة عن حقيقة؛ إذ الساحر والسيمياوي إذا خرقوا العادة كان ذلك مِمّا خيَّلوه، ويعتقدون بطلانه.

وأمَّا أرباب طريق الله تعالى، هم والسالكون إليه والعارفون به، فمواجيدهم وأذواقهم وشهودهم ومكاشفاتهم وتجلياتهم وأسرارهم وحقائقهم وأنوارهم يعرفونَّها فيما بينهم؛ إذ الحقائق شاهدة لأنفسها، فالدليل لها حجاب عليها، كذائق العسل والصَّبر

لا يقوم عليهما الدليل؛ لأنَّهما أوضح من دليلهما، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا العِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ**﴾ [آل عمران: ١٨].

وذلك لأنَّ معرفته حقيقة على ما هو عليه لا يعرفها غيره، فشهد لنفسه تبارك وتعالى، وشهادتُنا له إيمان وتصديق وإيقان بحسب ضعفنا عن معرفته، فإذا انتهتْ بنا المعرفة به إلى الغاية من عقولنا وشهودنا، وغايات أهل الكشف والتحقيق فينا ومنا هو العجز عن معرفته، ونحن في ذلك العجز عاجزون عن معرفة العجز، فكيف بالاستحقاق؟ فأهل السلوك إذا صفت سرائرُهم وخلت من الشواغل بواطنُهم وظواهرهم، وتوجهت هممهم إلى الله تعالى، واجتمعوا بجمعية قلوبِهم على الله تعالى، وتجلَّت عليهم الحقائق في صقالِ تلك المرآة، واستولى سلطان التجليات، وظهرت الصفات الإلهيّات تدكدكت الجبال، واستولى على وجود أهل الشهود والاضمحلال، وصار وجودهم إلى العدم، وتحكّمت صفاتُ القدم.

فإذا أحياهم بعد مماتِهم وأبقاهم بعد فنائهم، عرفوا نفوسهم المخلوقة من العدم، وأقرّوا لربِهم بالربوبية والقدم، وكان معرفتهم نفوسهم بربهم، لا بنفوسهم، وشهادتهم بما أشهدهم فرجعوا منه إليه، واستدلُّوا به عليه، وقاموا بحق العبودية بحسب قوَّتِهم فيما أعطاهم ذلك التجلِّي من وصف الربوبية، فصاروا به يسمَعُون وبه يتصرّفون، وبه يتكلمون، ودعوا الناس إلى الله تعالى على ألسنة الرسل، وحققوا حينئذ كرامة الأنبياء على ربِّهم، ودخلوا تحت أحكام الرسل على الشهود والعيان، وخُرقت لهم العوائد في كلِّ أوان ومع كل زمان، وتحقّقوا بحقائق الخوف والأمان، ولم يكن من هذه الطوائف وأهل المعارف أحد ينكر قِدَمَ الخالق ولا حدوثَ الخلْق، وأنَّ ما سوى الله تعالى باطل، وأن الله تعالى هو الحقُّ كما ورد: « **أصدق بيت قاله العرب قول لبيد:**

ألا كل شيء ما خلا الله باطل»(١).

فيا ليت شعري ما بال هؤلاء الضُّلاَّل -وهم أقلُّ من الضُّلاَّل وأجهلُ من

(١) رواه البخاري (١٣٩٥/٤)، ومسلم (١٧٦٨/٤).

الجُهَّال- وتكذيب الأنبياء والمرسلين والملائكة والمقربين والأولياء والصالحين وجميع طوائف المؤمنين وغير المؤمنين؟ بغير حجة، ولا برهان ولا عقول ولا أديان ولا قياس ولا إجماع ولا طائع ولا مطاع، إلا أنواعًا من فساد الخيال، وضروبًا من مُحال المحال يستفزون بها من استضعفوه، وخيَّلوا إليه حتى أَلِفُوه مِمَّن فقدَ عقلَه وعَدِمَ لُبَّه من حمقاء العوام وذوي البلاهة من الأنام، حتى يستحلُّون الحرام، ويأكلون ما عندهم من الحطام، ويطلقونَهم في الأوهام، وينخلِعون عن الشرائع والأحكام.

ولو طولب أحدُهم ببعض دليلٍ وبرهانٍ على أيِّ دينٍ كان من سائر الأديان، لعجز عن الجواب، وتلجلج في الخطاب، وتكلَّم بالخطأ لا بالصواب، وأنكر ما يدّعيه، وحاد عمَّا يضمره ويخفيه، وحلف أنَّه ما اعتقد ذلك ولا سلك هذه المسالك، فكيف لو قيل له: ما واجب الوجود؟ وما حقيقة صفات المعبود؟ وما يستحقه الإله؟ وما يستحيل عليه من النقص والمحال؟ وما يجوز في العوالم من الأفعال؟

إذ الإلهُ من حيث هو إلهٌ مستحقٌّ لجميعِ صفاتِ الكمالِ، منعوتٌ بجميع أوصافِ الجمالِ والجلالِ، يستحيل عليه وفي حقِّه النقائصُ والمحالُ، ويجوز له فعلُ ما يشاء ويختار، من جميع الوجوه والأحوال، لا إله إلا هو الكبير المتعال، والنِحَلُ والْمِلَلُ وذوو الأمراضِ والعلل، من سائر الأمم، لا تختلف في كمال صفات الإله من حيث هو إله، ولا في استحالة النقص عليه، ولا في تفرّد إرادته فيما أراد، فيقال فلِمَ جعلتموه حجارةً وجمادًا ونباتًا وحيوانًا ومائعًا وجامدًا ورطبًا ويابسًا وترابًا وهواءً؟ وغيرَ ذلك مِمَّا ينسبون من النقائص؟ ويحلفون عليها من الكمال مع وجود العجز فيها بشهود الحس وما يظهر فيها من الآثار؟ وكيف يتصرفون فيها بالقهر والإعدام بالأكل والشرب؟ وقضاء الحاجات والمعايش وغير ذلك؟ وكيف يقتلون العقارب والحيات؟ ويركبون الخيل والبغال والحمير من الحيوانات؟ ويحملون على الأنْعام؟ ويذبحون من الأبقار والأطيار والأغنام؟ وكيف يبولون ويتغوّطون ويبصقون ويتمخّطون وينامون ويمرضون ويموتون؟ ومَنْ الذي يتألم من الأمراض؟ ومن الذي ينال من أعدائه وأحبابه الأغراض؟

وإذا قُطعت يدُ السارق، وجُلِدَ الزانِي، وقُتل المقتول وفقئت عين معيان، أو كُسِرتْ منه الأسنان ووجعته الضروس والآذان، فمَنْ هو المتألم لهم بهذه الآلام؟ ومَنْ

هو المتصفُ بهذه الأوجاع والأمراض والأسقام؟ إذ يجعلون كل شيء موجود هو عين الإله المعبود، من الخسيس وغير الخسيس مِمّا لا يُستَطَاع ذكرُه من القاذورات وغير القاذورات، وما يتحكم به الفساد من كل نوع وجنس ومأكول وملبوس ومشموم ونبات وحيوان وجماد، وكيف يصنعون بمَن مات؟ من سالف الأيام وتعادم الدهور والأعوام، واضمحلال تلك الرسوم وزوال تلك العلوم؛ فإنْ كان مَنْ مات هو الإله؛ فمَنْ يدبِّر هذا الوجود؟ وإنْ كان الباقون آلهَة، فيكون ميتًا حيًا أو أمواتًا أحياء، ويكون ناقصًا كاملاً وجودًا عدمًا قائمًا قاعدًا، وهذا لا يُقال.

إنَّكم مِمَّن يُحتاجُ إلى الكلامِ في أمره؛ لأنَّكم أجهلُ من الجهلِ، وأضلَّ من الضلالِ، وأنتم في ذلك في مرتبة الأقلِّ؛ إنْ أنتم إلا كالأنعام بل أنتم أضلُّ، فتعالى الله عمّا يقولُ الظالمون والجاحدون علوًا كبيرًا: ﴿**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً**﴾ [الإسراء:٤٤].

ولولا خشية أن يعمَّ الفسادُ، ما تكلَّمنا في معنى هؤلاء الضُّلاَّل؛ لأنَّهم أقلُّ مِن ذلك، وليس لهم إلا الهلاك والصلب أو يُنفوا من الأرض.

رتبة الولاية

ولنرجع إلى ذكر مَن أقامه الله تعالى في رتبة الولاية مِن أُولي الأمر وغيرهم، وأولو الأمر معروفون عند أهل الطريق، والأولياء والصالحون لا يعلم عددَهم وأحوالَهم إلا الله تعالى.

وأمَّا طبقاتُهم ورُتَبُهم له- وإن عُلم أو عُرف -من أحكام الظاهر والعادة أنَّ التابعَ ليس كالمتبوع، والعالِمَ ليس كالجاهل، وصاحب الحال ليس هو كالعارف، والآمن ليس هو كالخائف، فالأدبُ مع الله تعالى فيمَن أقامَه في رُتْبَةٍ مِن الرُّتَبِ واجب، وحقائقهم عند الله تعالى وتفاضلهم لا علم لنا به: ﴿**هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ**﴾ [آل عمران:١٦٣].

ولأنَّ الله تعالى فعل ما يشاء، والأفضليةُ الظاهرةُ لا يلزم منها الأفضليةُ الباطنة، فما لنا من حيث أنفسنا إلا المحبةُ للجميع، والوقوفُ عند ما أمر الله تعالى فيهم، وأتباعهم ومحبيهم وإن كان نصٌّ من القرآن، أو حديثٌ من النبيِّ الرسولِ في تخصيصِ

واحِد، وقفنا عنده ولا نريد ننقص ولا نقدم ولا نؤخر؛ لأنَّ الأفضلية عند الله تعالى، قال تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [الحجرات:١٣]، وورد عن النبي ﷺ أنه قال: «**التقوى هاهنا، وأشار إلى قلبه**»(١) وهي إشارة إلى القلب من حيث الجملة والقلب لا علم لنا بما فيه لا يعلمه إلاّ الله تعالى، الذي عِلمُه من وراء علوم الملائكة والأنبياء والمرسلين- عليهم الصلاة والسلام- فكيف بمن سواهم؟

وقول النبي ﷺ: «**هلا شققت عن قلبه**»(٢) كافٍ، فيلزم الأدب مع أولياء الله تعالى كلُّ مَن اعْتُقِد أنَّه عبد الله وإلاّ فالخسار واقعٌ في الدنيا، فوالله منذ عقلت وإلى الآن ما رأيت أحدًا شوّش على فقراءٍ أو أساء الظنَّ بهم فأفلح، ولا رأيت أحدًا أحسنَ إليهم أو صحبهم أو أحسن الظن بهم فخاب.

وقد حُكي عن القرشي ﷺ أنَّه قال: استحقار الفقراء سببٌ لكلِّ رذيلةٍ، وقد كان أبو محمد السرجاني يقول: من غصَّ من عارفٍ بالله تعالى أو وليٍّ ضُرِبَ في قَلْبِه، ولا يموت حتى يفسد معتقدُه.

---

(١) رواه مسلم (١٩٨٦)، وأحمد (٢/٢٧٧).

(٢) سبق تخريجه.

حكايات في سوء العاقبة

١- المرض المجهول

وأعرف أشخاصًا مِمَّن حصل منهم بعض إساءة لبعض الفقراء، منهم واليًا كان بالأعمالِ، وكانت له صورة كبيرة وأموالٌ جمَّة، وحوزة، وأصحاب، وإخوةٌ عدّة، وهم بقدر ستة أو سبعة، وكانوا في نعْمةٍ ظاهرةٍ وجاهٍ واسعٍ، إذا جَلَسُوا في مَجْلسٍ زيَّنوه زينةً دنيَوية، وإذا ركبوا لهم غلبة، ومع ذلك كانت فيه صدقة ومعروفٌ كثير، ولم يكن لغيره من الولاةِ، فبدت منه كلمة في حقِّ فقيرٍ، ولم يكن بالأمر الكبير إلا أنَّ الفقير تألَّم منه، فسمع الفقير في تلك الليلة قائلاً يقول: ﴿**فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا**﴾ [النمل:٥٢].

ويقول:﴿**فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ**﴾ [القصص:٥٨].

فحصل لذلك الأمير مرض في بطنِه، فعُولج بكلِّ علاج فلم يفد فيه علاج، وبقي أشهرًا في تعذيبٍ شديدٍ، ولقد رأيته وبعض أصحابِه يدوسُ جوفَه، ويجعل رجله في جوفه، ويجمعه بفوطةٍ من شدّةِ ما يجدُه، وبعض الأوقات يربطون فؤاده ربطًا شديدًا ويعصره مَن له قوةٌ من أصحابِه وهو يصيح لذلك مدّة، واسترخت يداه وربما عولج بشرب شيء من المنكر.

وأخبرني بعض الحكماء المعالجين له أنَّه لا براء له، وأنَّه ربَّما رأى في المنام أنّه شوَّش على فقيرٍ.

٢- ضريح الشيخ عبد الله

وأعرف فقيرًا شوَّش عليه أمير كبير في الدولة، فجاء إلى الفقير رجلٌ من العدول، وقال له: أنت فلان؟ قال: نعم، قال: رأيت البارحة في المنام رجلاً من كبار الصالحين مدفونًا بإخميم اسمه الشيخ عبد الله، وضريحه مهدوم، وسجّاده مرمي، فقلت: مَن فعل هذا؟ فكلّمني الشيخ من داخل الضريح، وقال: أنا فعلت هذا بنفسي، والله لا فرشت

السجادة، ولا [بنى ....] [١] أو تُقضي حاجة فلان –وسمّاك- فقلت: ومَن هو؟ فعرّفني بك فبقيت قاعدًا، وإذا بشخصٍ قد أقبل وعليه ثياب خضر، وسراويل خضر، فقال: مَن فعل هذا بهذا الضريح؟ فقلت: الشيخ، قال: إنه لا يبنى ولا يجعل السجادة عليه أو تقضي حاجة فلان، فقال: قد قضيت حاجته وقُطِعتْ رأس غريمه، فتوجه ذلك الأمير حين توجه العسكر فقتل في وقعة عازان هو وجميع أصحابه إلا القليل.

٣- الغارقون

وأعرف أيضًا شخصًا كان من الولاة، أطلق لسانه في فقيرٍ أعرفه، فكلّمته في ذلك فلم يرجع، فلمّا جُهِّزَت الشوان إلى بلاد الروم، انقلب به الشيني فأُغرق وكان مقدّمًا على ذلك الشيني.

وأعدادهم لا ينحصرون، وسأذكر جماعةً أعرفهم.

٤- فتوة الشيخ أبي العباس الدمنهوري رضي الله عنه

أخبرني الشيخ شمس الدين بن الفقيه -وكان موثوقًا به محبًّا للفقراء، أقام بمدينة قوص وصحب جماعة من المشايخ كالشيخ أبي العباس المرسي والشيخ أبي الطاهر والشيخ أبي العباس الدمنهوري وله معهم صحبة وحكايات- أخبرني أنَّ امرأةً جميلة مِن القاهرة لها صورة وجمال باهرٌ، شكت إليه –أعني: الدمنهوري- أحدَ المقدِّمين الذين كانوا بين يدي علم الدين الشجاعي، وأنَّه يراودها عن نفسها، وأنَّ زوجَها طلّقها له خشيةً أن يؤذيه بسببها، وأنه لا يقصدها إلا في الحرام.

فسار الشيخ خلف ذلك المقدّم، وتحدّث معه في زواجها فامتنع وأَبَى إلا ذلك، وربّما أسمع الشيخ كلامًا مؤلِمًا، فقال لها الشيخ- وكان رحمه الله يخاطب الناس بسيدي-: تتزوجيني؟ فقالت: يا سيدي، ومَن لي بهذا؟

فتزوّج الشيخُ بها، فحصل مِن ذلك المقدّم ومِن أصحابِه المقدِّمين مِن الإساءة في حق الشيخ ما لا يليق سماعه، ونسبوه إلى ما في نفوسهم، وجعلوا يتكلمون عليه في القلعة وعند الأمراء، فبلغ ذلك الشيخ؛ فقال: دعوهم، فقد نفذ السهمُ -أو كلمة في

(١) ما بين [ ] كلمة (بنى الجملون)، ولعلها لفظ دارج قديم يقصد به -غالبًا- هيكل الضريح.

هذا المعنى في نفوذ السهم- قال: فوالله لقد رأيتهم وقد صادرهم الشجاعي وضربَهم واحدًا بعد واحد، حتى ماتوا تحت العقوبة، وصاروا في أيّامٍ يسيرةٍ فى مقبرة -وربما قال في جمعة- فلمّا ماتوا طلَّق الشيخ تلك المرأة، وطلب زوجها، وقال له: خذ زوجتك، فإنَّني لم أتزوجها إلا لأحفظِها لك من هؤلاء الظلمةِ وأرحتك من شرِّهم- أو كلام هذا معناه- وربما كان الشيخ قد أشار عليه أولاً بطلاقها خشيةً عليه من ذلك المقدَّم.

فانظر يا أخي، رحمك الله تعالى، إلى هذه الفتوة من هذا الشيخ، كيف عرَّض نفسه لإساءة هؤلاء لخلاصِ هذه المرأة منهم وخلاص بعلِها وهذا مع نفوذه فيهم.

٥- الشيخ والأمير

وحدّثني الشيخ عبد العزيز- رحمه الله تعالى- أنّ امرأةً جاءت إلى أحد المشايخ في الشام، وطلبت منه شفاعةً إلى بعض المقطعين له عليها خَرَاج، وأنَّه أخذ لها مُهرًا، فأرسل إليه خادمه يشفع في ذلك؛ فقال له ذلك الأمير: الشيخ يقعد في زاويته، فإنّه ما يعرف حديث الترك وما تحتاجه الأجناد -أو كلام هذا معناه- ولم يعطِها شيئًا، فرجع الخادم وحكى للشيخ الصورة؛ فقال له: وما يعطها؟ قال: لا، فقال: وأنا الآخر، ما أخليه يبول.

ثم إن ذلك الأمير تغذى وشرب، وحصل له الاحتياج إلى الإراقة فلم يقدر على ذلك، فأكل البطيخ فازداد ولم يقدر على البول، فطلب الأطباء وعملوا له ما يصلح لذلك فلم يقدر على البول، وانتفخ بطنه وأشرف على الهلاك، وكان شخص قد علم بمقالة الشيخ؛ فقال للأمير: ما تبعت للشيخ؛ الشيخ قال: ما يبول أو يعطي المرأة مُهرَها، فقال: احملوني إليه، فحملوه في عباءٍة -وربّما كان قال الشيخ: تحملوه في عباءة أو كلام هذا معناه، أو هو في واقعة غيرها؛ فالله تعالى أعلم أي ذلك كان، غيرَ أنَّهم حملوه في عباءٍة- وأحضروه بين يدي الشيخ، وسأله الشيخ أن يطلق لها مهرها فقال: أطلقته قال: ويطلق خراج الفدان، قال: أطلقته، وترك لها الفدان -وربما قال: له الشيخ: قم بُل أو قم فبُل- فقام وبال ما تقديره ملاء مطر.

٦- الوالي وابنة الصيّاد

وحكى لي رجلٌ مباركٌ محبٌ للطائفة أنَّ شخصًا سمَّاكًا كان يصطاد السمك

ويبيعه، وكان من الصالحين، وله ابنةٌ مباركةٌ، وكان يقتات هو وابنته مما يصطاده.

فاتفق أنَّه اصطاد حوتًا فطلبه منه الوالي فامتنع مِن بيعه للوالي للورع، فضربه الوالي وسجنه واغتصب منه الحوت، فجاء إلى ابنته وليس معه شيء، فقالت له ابنته: أين الذي اصطدت؟ فقال: أخذه الوالي وضربني وسجنني، فرفعت طرفها إلى السماء، وقالت: يا رب، أين كانت قدرتك عند عجز أبي؟

وبكى الحاكي عن ذلك، وكان يحكي الحكاية وهو يبكي، ثم إنَّ الوالي شوى ذلك الحوت ومدَّ يده ليأكل منه، فضربته شوكةٌ من الحوت فورمت يده وذراعه وبقي كالطبلِ العظيم، وورم كلُّه وجاءه الهلاك؛ فقال: احملوني إلى ذلك الفقير، فحملوه ووضعوه عند بابه وسألوه فيه، فقال الفقير: والله لم أدعُ عليه، ولكن لي ابنة دعت عليه.

فدخل على ابنته وسألها في العفو عنه والدعاء له، فقالت: لعلّه ما يتوب، فقيل: قد تاب، وربما أبصرَته فأشفقت عليه، فدعت له فعوفي.

وأعرف حاكمًا شوّش على فقيرٍ، فرآه ذلك الفقير في المنام وقد دوَّروه في مدار البقر، وخُسف به في الزبل ورآه رجل صالح وقد علَّقوه بشعرة في الهواء، وقيل له: هذا غريم فلان وسمّوا ذلك الفقير وعُزل ذلك القاضي وحصلت له إهانة ومات بعد ذلك.

وأعرف جماعة من أكابر بلد شوَّشوا على فقير لغرض في نفوسهم، وقصتهم طويلة، وكان فيهم رجل جليل القدر، فرأى الفقير في المنام السيد جبريل ﵇ وقد نزل من السماء وبيده نار وهو يرميهم بها، فأصبح ذلك اليوم واحترق لذلك الرجل الكبير جملة من الجواميس، ورآهم الفقير الذي شوَّشوا عليه، الجميع، وقد جُعِل عليهم كساءٌ أسودٌ وغطّوهم به، فوالله ما دارت السنةُ إلاّ والجميع تحت الأرض، وكانوا جمعًا كثيرًا.

وأعرف شخصًا من الفقهاء، وكان خطيبًا صعد المنبر وقرأ كتابًا ونكت فيه على فقير، وقرأ آيَة يفهم منها أذى لذلك الفقير، وأراد الانتصار للقاضي على ذلك الفقير، فنزل من المنبر وحصل له مرض وخلط وعطبت رجله ومات في الطريق ولا رجع يطلع منبرًا بعدها إلى أن مات.

وأعرف شخصًا كان واليًا شوّش على فقيرٍ، أو فعل فعلاً تشوَّشَ الفقير منه، فرآه

الفقير في المنام وقد رمُوه مِن على فرسِه، وجعلوا رأسَه إلى الأرض، فما أفلح بعدها، وعُزل ومات في سفر على حالةٍ عجيبةٍ.

ولا أقدر أحصي مَن عرفتُه غيرَ مَن سمعتُه، فمنهم مَن أُوذي وعلم بذلك، ومنهم مَن حصل له الأذى وهو لا يعلم، ومنهم مَن تغلُب عليه نفسه، ولا يجعل ما أصابه بسبب أذى لذلك الفقير، وهو يعلم من نفسه أنَّ أحدًا لو أساء على غُلامِ غُلامِه أو صفعَه أو أهانَه فإنَّه لا يصبرُ على ذلك، ويعمل على أذاه بكل طريقٍ، فكيف به إذا آذى مملوكَ أميرٍ؟ أو مملوكَ سلطان؟ وغضب السلطانُ أو الأميرُ، هل يستطيع يقاوم السلطان ويحاربه ويقاتله؟

فانظر إلى هذا المثال، فأين الملك من مالك الملك؟ الذي يؤتي الملك من يشاء ويعزَّ من يشاء ويذل من يشاء، وأين السلطان الذي ملكه بيد غيره؟ إلى سلطان الدنيا والأخرى؟ وأين محاربة الله تعالى إلى محاربة ملوك الدنيا؟ بل لو كان جنيًّا لا تُبْصره لعجزتَ عن محاربته، فكيف بمَلك من الملائكة؟

فانظر إلى مَن خسف الله تعالى بهم الأرض، وإلى قوم لوط وما فُعل بهم، وانظر إلى قوم نوح كيف أغرقهم إلى آخرهم؟

وانظر إلى قوم صالح كيف أهلكهم؟ وانظر إلى ملوك الدنيا كنمرود بن كنعان وفرعون ذي الأوتاد وملوك البلاد وما فعل بهم.

وانظر إلى قارون مع السيد موسى عليه السلام، وانظر إلى هامان وغيرهم من الجبابرة، كيف أهلكهم الله تعالى؟ ﴿**إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ**﴾ [البروج:١٢].

فكيف تستطيع محاربة ربِّك تعالى بعد أن قال لك على لسان نبيّك محمد ﷺ: «**من آذى لي وليا؛ فقد بارزني بالمحاربة**»(١) فإمّا أن تكون مؤمنًا بالقرآن الكريم ومصدقًا بالرسول العظيم فيكفيك الكلام، وإمَّا أنْ تكون غير مؤمن ولا مصدق بما جاءت به الرسل؛ فقد خسرت الدنيا والآخرة.

فإنَّ عدم إيمانِك بما ورد عن الله تعالى على لسان رسوله ﷺ لا ينجيك من

---

(١) سبق تخريجه.

الهلاك، فقد تحقّقت ما جرى على الأمم السالفة من مخالفتهم لأنبيائهم وجحودهم ما أتوا به عن ربهم سبحانه وتعالى، وهذا لا يخالف فيه من له عقل؛ إذ هو مشهود بالعيان الآن، فيمن يقع بِهم الأذى بإيذائهم لأولياء الله تعالى، أو مَن انتسب إلى الله تعالى مِن هذه الطائفة.

وأمَّا هلاك الأمم الماضية فهذا أمر لا يقدر على إنكاره، لأنَّ الخلَف ينقلون عن السلف، والجمُّ الغفير عن الجمِّ الغفير، وآثارهم مشهودة، تشهد سوء أحوالهم، وآثار الأنبياء والأولياء مشهودة، تشهد لحسن أحوالهم.

وانظر، هل ترى من أسلافهم أحدًا؟ أو تعرف منهم أحدًا؟ ﴿**فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ**﴾ [الحاقة:٨].

فمن ذا الذي له طاقة بغضب الله تعالى أو عقابه أو بطشه أو محاربته؟

والمحاربة هاهنا ضرب من المثل، كمحاربتك من لا تستطيع محاربته، فإنَّ العصفور المقطوع المنقاد المنكسر الأرجل المقصوص الجناح إذا قاتلته، كمحاربة البازي الكاسر والشواهين؟ فقد أنزلتَ نفسَك منزلة الاستهزاء والأضحوكةِ، فكيف بمقاتلته لجميع البزاة والشواهين والكواسر من الطيور والعقبان والغربان؟ -وهذا في نوع من أنواع الطير- فكيف بك في محاربة الله تعالى، وأنت أضعف من العصفور على هذا المثال بالنسبة إلى بعض الملائكة؟

بل إلى أدنى مَلك من ملائكة الله تعالى، بل لا مقابلة بينك وبينه ولا مقايسة بوجه من الوجوه؛ إذ الملائكة لهم الشدّة والسطوة في نسف الجبال وخسف الأرض وهلاك الأمم.

وانظر إلى قوله تعالى في قصة قوم السيد لوط عليه السلام ومدينتهم سدوم، وهي سبع مدائن: ﴿**فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا**﴾ [الحجر:٧٤].

وورد أنَّ السيد جبريل عليه السلام حملَها على خافقةٍ من جناحه بعد أن اقتلعها من الأرض السفلى، وصعد بها إلى عنان السماء حتى سمعت الملائكة صياح الديكة وعواء الكلاب؛ فقالوا: مَن هؤلاء المغضوب عليهم؟ ثم قلبها.

وهي الآن أرضٌ سَبِخَةٌ يقاسى السالك فيها شدَّة، وذلك الماء لا يشرب منه طير

ولا بهيم ولا ينبت حوله شجرة ولا زرع، وجاء وقت الصلاة فكرهت الوضوء منه، فلطف الله تعالى بي فوجدت قليلاً من الماء فتوضأتُ وشربتُ منه، وكنت قد تشوَّشت وكرهت أنْ أتوضأ من مكانِ قوم غَضِبَ الله تعالى عليهم.

فانظر إلى حالك في مقاومة مَلِك من الْمُلوك، بل الْمَلَكُ أعظم مِن أنْ يُتوهم أن يقابلَ بالإنسِ والجنِ وجميعِ من في الأرض، وقد علمت منزلةَ النمرود بن كنعان من الشدَّة والحروبِ، وقد أهلكه الله تعالى بأضعف الجند من الناموسِ، وكَسَرَ عَسْكَرَه وأَهْلَكَهُ بناموسةٍ، وهرب ودخل إلى بيته وأرخى الستور، وجاءت ناموسة فدخلت في أنفه وصعدت إلى دماغه، وتربَّت فيه وأكلت من مخّه، حتى كان أعظم الناس عنده منزلة مَن يضربه في رأسِه بما أعدَّه لذلك مِن مطرقةٍ أو مرزبَّةٍ، لاعتقاده أنَّ ذلك يخفّف عنه، حتى ضُرِب مرّةً وانفلقَ رأسُه وخرجتْ الناموسة قدر الفَرْجِ، ومات على تلك الحال.

وهو نوع من أنواع جند الله تعالى، ﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ**﴾ **[**المدثر: ٣١**]**.

وأنت أضعف مِنْ أنْ تكونَ مِن أحدِ غلمانِ النمرودِ؛ فمَنْ ذا له طاقة بعذاب الله تعالى وتسليط جند من جنده؟ منها ما فعله الله تعالى بقوم عاد بالريح، وبقيت امرأة منهم؛ فقيل لها: ما أشدُّ ما رأيتِ مِن عذاب الله تعالى؟ فقالت: كلُّ عذاب الله تعالى شديد، لكن سلام الله تعالى على ليلةٍ ليس فيها ريح، فلقد رأيت العيرَ بأحمالِها طائرةً بين السماء والأرض.

وإذا استقصيت الأخبار وجدت ما ليس له حد، وتفرغُ الدُّنيا ولا تستوفي ذلك، فمَن كان لا قدرة له على مقاومةِ أضعفِ أضعفِ جندِ الله تعالى مِن أيِّ جنسٍ أو نوعٍ كان، بل لا نسبة بينه وبين ذلك، فكيف بمحاربة الله تعالى؟ وأنت في نفسِك عدم مع وجود الحقِّ؛ إذ خلقك مِنْ لا شيء، ويُميتُك ويحييك ويبعثُك بعد أن كنت عدمًا، فأوجدك على هذه الصورة التي أنت عليها، ثم يميتك كما أمات مَن قبلك ثم تصير رفاتًا، ثم يعيدُك شخصًا سويًا ويبعثك ويحاسبُك على أقوالِك وأفعالِك.

وعلى ذلك؛ فانظر أين أنت فيما عرَّضت نفسك له؟ فالزم الأدب، وقف عند

أوامر الله تعالى ونواهيه، وما جاءت به الرسل، وتأدَّب مع أنبياء الله تعالى ورسله، وإيَّاك ثم إيَّاك والوقيعة في أولياء الله تعالى، والأذى لهم، فوالله لا أحصي مَن عرفتُه مِمَّن بسببهم.

وقد ذكرت ما حضر لي مع كثرة الشواغل، وأمَّا ما سمعت فكثير، وأمَّا ما تقدّم في كتب المتقدمين، كأبي طالب المكي، وأبي القاسم القشيري، والإمام الغزالي، وغيرهم مِمَّن تقرَّب إلى الله تعالى بتصنيف الكتب في كرامات الأولياء وذكرِ مناقبهم، وحذَّر من التعرُّض إلى مثل ما حذَّرنا منه، وذكر ما أصاب من تعرض إليهم.

وقد حكى لي الشيخ عبد العزيز عن خادم الشيخ أبي العباس الحوَّال شيخ الشيخ صفي بن أبي المنصور قال: كنت أمشي مع الشيخ حتى يخرج بعد المغرب أو في الليل، حين كان الغلاء بمصر، ذلك الغلاء الكبير.

فكان الشيخ يأخذ معه إبريقًا من الماء وكِسراتٍ، فمَنْ وَجَدَ فيه رمقًا أن يطعمَه أطعمَه، ومَن وجده لا يقدر على الأكل سقاه، والناس مطروحون في الطرقات والأسواق أمواتًا وغير أموات، فقال لي: انظر، هل ترى في هؤلاء فقيرًا؟ فإنَّ الله تعالى لا يبتلي الفقراء بذلك، فقلت له: يا سيدي، رأيت فلانًا، وذكرت له شخصًا، فقال لي: أمَا تعلم أنَّه كان يقع في الفقراء، والله يتولّى السرائر.

وقد حكى لي الشيخ عبد العزيز عن امرأة مِن أصحابِ الشيخِ الفخر الفارسي رضي الله عنه وكانت جميلة، وكانت برذعية، وربَّما كانت تُسمى البراذعية، وزوجها يسمى البراذعي، وكان يُجمع عندها الفقراء وتعمل السَّماع وهي بينهم، وتجمع عندها الجموع، وربَّما جرَّست مرّةً، فوجدت الفقراء في الطريق فقالت لهم: روحوا إلى البيت حتى أدور هذه الدورة وأعود إليكم، وربما كانت تدع من يكبّسها، وأمورًا لا تُوافقُ الظاهرَ، فاتفق أنَّه قُفل عليها الباب وعندها جماعة، وراحوا إلى الوالي، وكان الوالي ابن الشعار، فخرجت إلى الباب وصاحت في القفل فتقطعت المسامير، وخرجت هي وزوجها إلى الشيخ الفخر الفارسي فسبَّهما الشيخ وشتمهما، فقالت له: يا سيدي، ما هذا وقته، ابن الشعار قد فعل وترك، فطلب الشيخ ابن الشعار فحضر إليه، فزَجَرَه، وقال: أنت تتعرض إلى الفقراء؟ -أو قال: هذه المرأة الصالحة أو كما قال- إذا جاء ولدي خليته

شنقك.

وكان السلطان الملك الكامل يتولّى محبة الشيخ الفخر، فبكى الوالي وكشف رأسه ودخل على الشيخ، فقال له: رُحْ فأرضِها وزوجِها، فراح ووقف على بابِها أو زاويتهما وهو مكشوف الرأس حتى رضيا عنه، وحمل لها جملةً من الغَنمِ وغير ذلك، ليعمل الشكران.

فانظر يا أخي، رحمك الله تعالى، إلى تعظيم الشيخ لنسبة الفقراء، وإنْ كان لا يرضيه تلك الحالة وأنكر عليهما.

وحكى لي الخطيب جمال الدين- نفع الله تعالى به المسلمين- خطيب مصر الآن ابن القسطلاني، عن الشيخ عبد العزيز، عن الشيخ عبد الرحيم المدفون بقنا أنّه دخل عليه كلب فوقف له إجلالاً؛ فقيل له في ذلك، فقال لهم: رأيت في حلقه خيطًا أزرق.

فانظر- رحمك الله تعالى- إلى هذا السيد الكبير وإلى هذا النظر السديد، حيث لحظ إكرامَ الكلب لِما يلبس به من خيط من زيّ القوم مع وجود صفات نجاساتٍ يُعْتَقَدُها فيما يولِغ فيه من الآنيةِ وغسلُها سبعَ مراتٍ إحداهُا بالترابِ، وكَون الملائكةِ لا تدخلُ بيتًا هو فيها.

وهذه إشارة عظيمة من هذا الإمام العارف، والذي سلك على طريق الله تعالى أكابر، فكيف إذا كان إنسانًا؟ فكيف بفقيرٍ؟ فكيف بسالكٍ متصفٍ بالزِّي؟ فكيف بولي أو عين أو وتد أو بدلٍ أو غوث أو عارفٍ أو قطب أو خليفة؟

وقد تكرّرت هذه الحكاية لمصلحةٍ في الموضعين، وتعظيمٍ لأولياء الله تعالى، ومن يرى بالله تعالى ويسمع بالله تعالى ويتكلم بالله تعالى.

وأعرف مِمَّن كان يحبُّ هذه الطائفة ويحسن الظن بمن تزيى بزيِّ أهلِها أو سلك في طريقٍ من طرقِها، منهم شمس الدين شيخ الخانقاة بالقاهرة المحروسة، كان فيه محبةٌ وحسنُ ظنٍ، مع علمِه في التفسيرِ وعلومِ الشرائعِ والحقائقِ -رحمه الله تعالى.

ولقد رأيت منه في حسن الظن بالطائفة العجائب والغرائب، وكان يمشي إلى مَن يسمع عنه أنه فقير، وربما عُوتب في ذلك عمَّن لا يستحق المشي إليه؛ فقال: أليس هم

من الطريق؟ أو في ابتداء الطريق.

وممَّن كان يحب الفقراء من الأكابر في هذا الزمان الصاحب تاج الدين، ولم يكن مثله في الدنيا لِمَا رأيتُ منه مدةَ معرفتِنا به من سنين متقدمةٍ إلى حين وفاته، يغضب لغضبهم ويرضى لرضاهم، ويحمل الأثقال لأجلهم، ولا يقدر أحد يصدّه عن ذلك، ولا يسمع فيهم لومةَ لائم، ولَها بذله وإيثاره.

فمنه ما هو ظاهر معروف للناس، ومنه من لا يعلم إلا الله تعالى لإخفائه ذلك، ولما تُوفي -رحمه الله تعالى- ظهر من ذلك شيء كثير مِمَّن كان يرقب لهم في كل سنةٍ شيئًا مخصوصًا، منهم من له مائة مثقالٍ في السنة، ومنهم مَن له دون ذلك، ومنهم مَن أعطاه أكثر من ذلك.

وأمَّا ما أعطاه في وقت واحدٍ كما أخبرني صدر الدين بن الشيخ تاج الدين عن عمِّه تقي الدين بن دقيق العيد، أنَّه أرسل إليه خُرجًا فيه آلاف الدراهم -غاب عني كم، هي غير أنها فوق العشرة آلاف- وأخبرني الشيخ شهاب الدين بن الشيخ أبي الحسن الشاذُلي أنَّه يرسل إليه مائة مثقال في كل سنة.

ولقد ذُكر عن جماعةٍ بعد موتِه أنّ لهم رواتب عليه، ووجدوا عليه دَينًا بسبب ذلك، وأخبرني الشيخ عز الدين بن مسكين(١)، والذي رأيته بحضوري أنَّه ملّك فقيرًا جميع ما يملكه، وأَشهَد الله تعالى عليه بذلك ما خلا الموطوءات، وقال الفقير: ما لي عذر عند الله تعالى إلاّ أنك أمرتني وأنا أفعل في أمورٍ، قال له: افعلها، مع كونه متصرفًا في الوزارة.

ولقد حُكي أنَّ الشيخ أبا القاسم المرائغي قال له: إيش الدليل على محبتك للفقراء؟ قال: لأَنِّي إمامٌ في أَخْراجِ القِبلةِ، وإذا قلت لي: هي كذا- أعني: خلاف ما تعلمه- رجعت وتركت علمي.

وأوصافه في محبة الفقراء لا تكاد تنحصر وخدمته بنفسه لهم، ولقد حكى تاج الدين بن الدشنائي -وكان عدلاً بمصر- أنَّه رأى النبي ﷺ في المنام فجئت عن يمينه؛

(١) هو الحارث بن مسكين بن محمد بن يوسف الأموي المصري المالكي المتوفى سنة ٢٥٠ هـ، قال السيوطي في حسن المحاضرة: له تصانيف. انظر: هداية العارفين (١/١٤١).

فقلت: يا رسول الله، أنا من أهل الجنة؟ فحول وجهه أو أعرض -أو كما قال- فجئت مقابل وجهه، وقلت: يا رسول الله، أنا من أهل الجنة؟ فقال لي: ذلك من أهل الجنة وأشار بيده، فوجدت الصاحب تاج الدين واقفًا إلى عمودٍ في الجامع بمصر.

فانظر -رحمك الله تعالى- إلى هذه السعادة.

وهكذا أخبروا جدهم الصاحب بهاء الدين في خدمته للفقراء ومحبته لهم، ولم أجتمع به، غير أنهم كانوا يحكون عنه الغرائب والعجائب.

وإنّ ممَّا حكي عنه أن إنسانًا رأى بغلتَه بعين الكيمان في طريق القاهرة من مصر، وجدها؛ فخشي عليه قال: فمشيت لأحد الصاحب نزل مِن على بغلته وهو يجري خلف فقيرٍ، والفقير لا يرضى أن يقف له ولا يكلمه، وخشي الغلام على الصاحب فجرى خلفه، وكذلك يحكي غيرهم أن الصاحب زين الدين -رحمه الله تعالى- مع عِلمِه الظاهر محبٌّ لهذه الطائفة، قائمًا بحقوقها، معظمًا لها، لا جرم بقي بينهم محفوظًا مدةَ حياتِه، ولهم في الآخرة ما هو أعظم من ذلك.

الشيخ الرضا بن أبي المنى

ومِمَّن كان محبًّا للفقراء ومؤثرهم الإيثار العظيم بالصعيد، الرضا بن أبي المنى بقنا، ولم أجتمع به.

أخبرني الشيخ أبي الطاهر إسماعيل بن عبد المحسن -رحمه الله تعالى- أنَّ القاضي الرضا بن أبي المنى رأى مرّةً فقيرًا على دُكَّان بياعٍ، فقام بنفسه ومشى إلى دكان البياع؛ فقال للفقير: إيش طلبت مِن البيَّاع؟ فقال: بفلس قطن، قال: ولم لا طلبته مني؟ فقال له: يا سيدي، هذا أمر خسيس؛ فقال له: أنا لا فلس ولا ألف ولا تأخذ من أحدٍ غيري شيئًا.

وإذا كان رمضان طلب الجزارين، وقال لهم: لا تذبحوا في البلد شيئًا إلا مِن غَنمي؛ لأنَّهم حلال، ثم يكتب للربط، كلّ رُباط بما يحتاجه، وللفقراء المتزوجين والأصحاب بما يحتاجونه، ولا يأكل أحد في البلد لحمًا إلاّ مِن عنده.

ولما كان أوان بيع الثمرات في السواقي، ولا سبيل إلى أنْ يطلق البيع حتى يحمل لكلِّ رُباطٍ حملتين من العنبِ والفاكهةِ كالتينِ والرُّطبِ، مِنْ كُلِّ شيء حملتين، فإذا فعل

ذلك خرج المشترون فاشتروا، ثم يكتب لكل رباط بخمته أرادب ثمرًا، ولكل فقير متزوج ثلاث وليات- أظنه قال: لكل رُباط من العسل خمسين مطرًا ومن التند والسكر ما لا أحقق ما قاله لي- وفي كل ليلة جمعة سكرًا يعملونه حلاوة، وإنّ بيت الشيخ أبي يحيى طلبوا مُحْلِيًّا حالا؛ فقال الطبَّاخ: إنَّ الوضعة لبتت، فقال الرضا: احملوها جميعها إلى بيت الشيخ، فحملوا الوضعة جميعها.

وذكروا عنه من ذلك عجائب لم تحضرني الآن، وجاء فقير؛ فقال: شيءٌ لله تعالى فأعطاه دينارًا، فقال السائل: بحمد الله فأعطاه دينارًا آخر، فقال: الحمد لله فأعطاه دينارًا آخر، فكرَّر السائل الحمد لله وكرَّر له العطاء إلى تسعة عشر مرّة، فقال له: غفر الله تعالى لك، فقال: والله لو حمدت الله تعالى لم أُبقِ معي دينارًا ولا درهمًا، لكنك دعوت لي.

فانظر يا أخي رحمك الله تعالى إلى هذا التحقيق، كونه رأى أنَّ الحمد لله، وأنَّه يقوم بذلك لأجلِ حمده لله تعالى، فلمَّا دعا له رأى أن ذلك نوع من المجازاة فترك العطاء.

وهكذا من يعطي لله تعالى، والمحبون كثير يطول ذكرهم، وإنما ذكرنا المشهور، حتى إنّ هذا الرضا المذكور مدفون بجانب قبر الشيخ عبد الرحيم بقنا في بطن قبره، وكان مرّة قد توجه شخص ليرافع القاضي الرضا، فتحدث الأصحاب في شيء يعطى له حتى وصلوا إلى تسعمائة دينار فلم يقبل، فحلف القاضي الرضا ما يُعطى له شيئًا، وأخذ تلك الدنانير والألف دينار وجعلها في صرر وفرّقها على الفقراء والمحتاجين، وسافر المرافع فغرق في الطريق فمات.

فما خاب مَن أحبهم في الدنيا ولا في الآخرة، حتى لو أحبَّهم كافر يحصل له الخير والإسلام.

ولقد حكى لى الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- أنَّ يهوديًّا كان ببغداد، وكان يحب الفقراء، ويجلِّهم ويكرمهم ويعظِّمهم، فأتوا إلى الشيخ أحمد الدبَّاس يقولون له عن ذلك اليهودي ومحبته للفقراء مرّةً بعد مرةٍ، فقال الشيخ أحمد الدباس: اطلبوه فطلبوه، فحضر؛ فقال: هؤلاء الفقراء شكروا منك، وإنَّك تخدمهم وتعطيهم وتكرمهم وتقوم في

حوائجهم -أو كلام هذا معناه- فقال له: يا سيدي، أنا أحبهم؛ فقال: إن كنت تحبهم فاسلك طريقهم -أو تكون على دينِهم ، الله تعالى أعلم كيف قال- فقال: يا سيدي، ما رأيت شيئًا، فقال لخادمه -أو لأحد أصحابه-: خذ عمامته من على رأسه، فأخذها، وكان في عنق الشيخ منديل، وهو قاعد يوقد تحت الدست؛ فأخذ الشيخ العمامة جعلها في المنديل وربط عليها ورماها في النار إلى ساعة، ثم أخرجَها فخرج منديل الشيخ صحيحًا لم يصبه من النار شيء، ففتحه فوجد العمامة التي في وسط المنديل قد صارت رمادًا، فأسلم اليهودي.

فانظر يا أخي، رحمك الله تعالى، إلى هذه المعاني اللطيفة؛ فهؤلاء القوم مَن أحبَّهم أحبَّه الله تعالى، ومَن أبغضهم أبغضه الله تعالى، وفي هذا الكلام كفاية لمن آمن بالله تعالى واليوم الآخر، ومن لم يؤمن فيكفيه عدم إيمانه.

وأخبرني الشيخ أبو القاسم الأدناوي أنَّه كان اشتغل بقراءة القرآن حتى احترق بأنواره وعَدِمَ الأكلَ والشربَ وهام على وجهه، وتجرد عن ماله وتصرف تصريفًا غير المعتاد من تكسير الآنية ودفع الأغنام وغير ذلك، حتى حَبسوه وقيَّدوه وزعموا أنّه مجنون، وظهرت له كشوفٌ عجيبة، وسُلِك به طريق عجيب، وظهرت له علوم البرابي، واطّلع على الكنوز.

وتنزّلت روحانية الحاكم برأس من تُفتح له الكنوز قال: وتنزلت عليَّ روحانية الكواكب، ووقفت روحانية المريخ بين يدي، فإذا جاء أحد يزورني تقدمتْ إليَّ، وقالت: هذا فلان حضر، وفي نفسه كذا وكذا فما تأمر به؟

ولقد حضر شخص من أكابر بلدٍ -وسمّاه لي، ولا أرى أن أسمّيه- فقالت تلك الروحانية: هذا فلان حضر، وفي نفسه كذا وكذا، أتريد أن أضرب عنقه؟

قلت: لا، قالت: فأرمي عليه النخلة؟ قلت: لا؛ بل احلق لحيته، فخرج ذلك الرجل، ولحقته في لحيته حكة شديدة؛ فاستدعى الحلاق وحلق لحية نفسه.

وقد أخبرني أنه اطّلع من هذا الكشف على علم الحساب، وقال: إذا أريت الفدان القصب أعلم كم يجيء من رطل عسل وكم رطل قند فلا يختل عن ذلك شيء.

وكان يخبر بالعجائب والغرائب ممّا عاين في هذا السلوك، وكان بدؤه قراءة القرآن،

واستدامته ليلاً ونهارًا حتى استولت عليه أنوار القرآن وغيبته عن العادات، وهام وامتنع عن الشراب والطعام.

والذي ذكره من كثرة القراءة شيئًا لم أحضره من الآلاف، ختمات يختمها في اليوم والليلة، أو في الساعة - الله تعالى أعلم كيف قال- وانكشفت له حقائق العلوم، وسُلك به طريق عجيب في علم الأفلاك وروحانيات الكواكب، ولله تعالى أن يتعرّف إلى عَبدِهِ بما يشاء كيف يشاء.

الشيخ عتيق والدعاء

ومِمَّن أحسن الظنَّ بالفقراء التاجر العجمي، وقد حكي الشيخ عبد العزيز- رحمه الله تعالى- أنَّ الشيخ عتيق رأى جارية -ربما قال بمصر- نودي عليها؛فبلغت خمسمائة دينار، ووقفت، فقال الشيخ عتيق لذلك الرجل العجمي: يا خواجا، تبيعها لي بالدعاء، وكان العجمي غير مستعرب، فقال لأصحابه المستعربين: ما يقول هذا؟ درويش إيش يكون الدعاء؟ فقال له بلسانهم: درويش قريب من الله تعالى يسمع منه، فقال العجمي: يا خواجا، بعتك، خذ الجارية، فأخذها الشيخ عتيق وراح.

فلمَّا أنْ سافر العجمي خرج القُطَّاع عليه في الطريق، فكشف رأسه، وقال: يا ذاك الفقير، هات ثمن الجارية، قال: فخرج أقوام ملثمون طردوا القطّاع وعملوا بهم ما عملوا مِمَّا لا أتحققه، وهرب القطّاع، وبقي في مقدم القافلة فارس، وفي وسطها فارس، وفي مؤخرتها فارس يحرسون القافلة، قال: وكان فقير في القافلة في مؤخرِها قال: قلت لذلك الفارس: أنتُم مِن أيِّ العرب الذي مَنَّ الله تعالى علينا بكم؟ فقال: يا فقير، ما نحن عرب، الخضر قال لنا: إنَّ وليًّا لله تعالى اشترى جاريةً بدعوة مجابةٍ، وقد أمركم الله تعالى بحفظه وحفظ ماله -أو كلام هذا معناه- كما ذكره الشيخ عبد العزيز عن ذلك الفقير الذي كان بالقافلة وأخبره بذلك.

وهذه الحكاية في أخذ الشيخ رضي الله عنه الجارية، وإن لم يكن بيعًا فلعلها في صورة الهبة أو الهدية بالمجازاة.

وقد زوّج رسول الله ﷺ أحد الصحابة على ما معه من القرآن، وفي ذلك تأنيس لهذه الواقعة، أو لعلّه عن ذلك، فالله تعالى أعلم بأي الوجوه أخذ الجارية، فإن الشيخ

عتيق كان من الأكابر ﷺ وكان قد صحب قضيب البان وصحب الشيخ عتيق الشيخ صفي الدين بن أبي المنصور وأخبرني عنه شيئًا لم يحضرني الآن، وصحب الشيخ عتيق أبا النجا سالم.

ومِمَّا حُكِي عن الشيخ عتيق بالرواية المتقدمة أنَّه نزل عند قاضي دمشق، وكان السلطان الملك العادل قد طَلَبَ منه أربعةً وعشرين ألفَ دينارٍ وزيادة عن ذلك والله تعالى أعلم، فقال القاضي للشيخ عتيق: أشتهي تشفع لي عند السلطان؛ فقال له الشيخ: أشفع لك عند سلطاني أم عند سلطانك؟ فقال القاضي: يا سيدي، أشتهي أن تمشي إلى السلطان وتشفع لي -وكان السلطان قد أخذ منه أربعة آلاف دينارٍ وبقِي الطلب عليه بالباقي- فقام الشيخ عتيق، ومشى إلى السلطان الملك العادل، وتحدَّث معه في أمر القاضي، فجعل السلطان يحسن الكلام ولم يقض له حاجة.

فرجع الشيخ وتوجّه إلى الله تعالى، وكان السلطان قد نام فاستيقظ فزعًا مرعوبًا، وأمر بفتح القلعة، وأن تحمل الأربعة آلاف دينارٍ للقاضي، ويترك له ما طلب منه، وذلك أنَّه رأى في المنام إن لم يفعل وإلا هلك -بصيغة غائبة عني- فقال الشيخ عتيق: قلنا لكم نشفع عند سلطاننا قلتم إلا سلطانكم.

الفقير والمملوك

وحكى الشيخ عبد العزيز أنَّ فقيرًا حكى له أنَّه رأى مملوكًا جميلاً ينادى عليه لعله بمدينة «سرت»(١) فبلغ خمسمائة دينار، قال: فخطر لي أنْ أشتريه وأصونه من الفسّاق، وأعلّمه القرآن وأَعتقه، ولم يكن معي إلا ثلاثمائة دينار ورثتها، فقلت للتاجر: يا خواجا، تبيعني هذا المملوك؟ فقال: وإيش تعمل بهذا؟ هذا ما يشتريه إلا ملك أو أمير- أو كلام هذا معناه – فقلت: تبيعني؟ فقال: هات ثمنه، قلت له: ما معي إلا ثلاثمائة دينار؛ فقال: هذا قد دفع فيه خمسمائة دينار.

---

(١) مدينة ليبية معروفة.

وجعل التجار وغيرهم مِمَّن حضر يسخرون بي ويتهموني لِمَا يعلمونه فيمن يقصد المماليك للمقاصد الفاسدة، ومع ذلك الخاطر يقوى عندي ويتزايد، ولا معي شيء إلا ذلك القدر، وكلما كلمه التاجر أخذ من الناس من الألم ما لا أعبر عنه قال: فلمّا اشتد الحال جئت إلى قبر الشيخ حسين النَّجار السعرتِي، فاستجرت به، وقلت: يا سيدي، أنت تعلم قصدي في شراء هذا المملوك وأشتهي إعانتك -أو كما قال- ثم طلعت البلد، فوجدت التاجر والمملوك خلفه، فقلت: يا ناخودا -أو يا خواجا- تبيعني هذا المملوك؟ فمسك يدي وأدخلني إلى زقاق، وقال لي: يا فقير، سألتك بالله تعالى، إيش قصدك في شراء هذا المملوك؟ قلت له: وما لك ولهذا؟ أنا أشتريه- أو كلام هذا معناه- فأقسم علي ثانيًا؛ فقلت له: والله قصدي أن أصونه وأُعلّمه القرآن وأعتقه، فقال لي: هو حر لوجه الله تعالى، خذه وعَلّمه القرآن وصنْه، قال: فأخذته وعلّمته القرآن وكبر وجاء منه فقير.

ومِمَّا حكاه أنَّ فقيرًا ورد على مدينة سرت فوجد الأبواب قد غُلّقت، قال: فجئت إلى ضريح الشيخ حسين لأجده مقفولاً، فقلت: يا سيدي، أنت تعلم أن السباع كثيرة، وما لي مكان آوي إليه. قال: فوالله لقد ارتفعت الأرض بي حتى وصلت إلى سطح الضريح، فوضعت رجلي على السطح فأخذتني هيبة، فبقيت واقفًا حتى طلع الفجر وجاء الإمام وفتح الباب فخرجت.

والشيخ حسين هذا هو الذي ذكرناه آنفا في كونه لم يقدروا يحملوا نعشه حتى غنَّوا عليه.

ومِمَّا حكاه لي أيضًا عن الشيخ زين الدين الفقيه- رحمه الله تعالى- أنَّه اشترى جاريةً بخمسمائة دينار حتى يفتح الله تعالى لي بثمنها، وقال لصاحبها: إذا أردت السفر جئ إلينا، فلمَّا تجهز التاجر للسفر جاءه، وقال: قد تجهّزت؛ فقال له: تصبر ثلاثة أيام وخلّي قماشك يخرج.

فلمّا فرغت الأيام ولم يأت الشيخ فتوح-التاجر- أخذ عكازه، وقال: أطلع إلى القلعة إلى السلطان الملك الكامل، وأطلب منه ثمن هذه الجارية؛ فإنَّني واعدت هذا الرجل أولاً وثانيًا.

فطلع الشيخ إلى القلعة، ودخل على السلطان، وجلس يتحدّث معه، وإذا بخادم قد دخل وعلى رأسه صندوق لطيف وبيده مفتاح، ففتح السلطان الصندوق وأخرج أوراقًا والتفت إلى الشيخ، وقال: يا سيدي، لنا عندك خمسمائة دينار؛ فقال له: ومن أين لكم عندي خمسمائة دينار؟ فقال له: والله يا سيدي في ذمتك لبيت المال خمسمائة دينار، فقال له: يا رجل، أنا طلعت اليوم أطلب منك خمسمائة دينار لتاجر اشتريت منه جارية وميعادي معه اليوم، ولم يحصّل لي شيء، فجئت إليك أزورك في ذلك، فقال: يا سيدي التاجر، قد مات وهو حشرجي وهذه تركته، ووضع يده في الصندوق وأخرج صَرّةً فيها خمسمائة دينار، وقال للشيخ: خذ هذه، اكسو بها الجارية.

فانظر يا أخي- رحمك الله تعالى- إلى هذه الحكاية ما أعجبَها، وهذه من اللطائف.

وحُكي عن أحد المشايخ أنه دخل عليه فقير؛ فقال له: يا سيدي أنا أشتهي القطائف -أو كان فقير يشتهي القطائف- ولم يكن مع الشيخ شيء يشتري به، فخلع جبة وقال للخادم: بع هذه واشتري بها قطائف. فباعها واشترى بها قطائف، فأكل الفقراء، فلمَّا فرغوا دخل شخص من أصحاب الشيخ والجبة، قال: يا سيدي، وجدت هذه تُباع، وهي قياسك، فأخذها الشيخ ولبسها، وقال: لله لطائف أحلى من القطائف.

ومنهم مِمَّن عندنا الآن بمدينة قوص بالرُباط المستجَد بظاهرِها محفوظ البدوي مستديم الاشتغال من شبيبته، وهو مجتمع بي من ذلك الزمان إلى أن بُني هذا المكان، وقال: قد كبر الأولاد وقاموا بنفوسهم، وما بقي له في الوجود حاجة وهو على حالة شريفة، وهو أمّي، وله عندنا سنين عديدة.

وأخبرني ولدي والفقراء بالرُباط وإسحاق الحموي الخادم وغيره، أنهم كانوا جلوسًا، وزريق رأى فعل محفوظ ارتفع في الهواء، واعتدل للمشي بين يدي محفوظ؛ فصاح صيحةً، وقام فقيل له: مات أخوك، فجاء ولده بعد خروجه، قال: مات أخوه الساعة.

ومِمَّا حكاه الشيخ عبد العزيز حكايةَ الشيخ محمد «الماضي لا يعاد» أنَّه كان إذا فعل أحد فعلاً أو بدا منه شيء يقول الشيخ محمد: يا فقراء، الماضي لا يعاد فغلب

عليه هذا الاسم فصار الفقراء يسمونه «الماضي لا يعاد»، فلمّا توفي الشيخ محمد رآه فقير في المنام فقال له: يا شيخ محمد، ما فعل الله تعالى بك؟ فقال: أوقفني بين يديه، وقال: يا محمد، غفرت لك، رُحْ الجنة، الماضي لا يعاد، ﴿**سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ**﴾ [الأنعام:١٣٩].

وقد قلت:

عَفَا كَرَمًا قَبْلَ الحسَابِ إِلَهُنَا وجَادَ بإنعامِ الجنانِ مع الصَّفْحِ
وجِئْتُ بأَثْقالِ الذنوبِ مدفرا فأَعْفَى عَن الْمَاضِي وأَجْزَلَ في الربحِ

اللهم لا تُخْجِلْنا عند الوقوفِ بين يديك وروِّحنا بأرواح السرِّ قبل القِدَمِ عليك؛ فإنَّك تَعْرِفُ سوءَ أفعالِنا فنخاف من الخجل مع شدة الوجل.

قالُوا غدًا نَدْنُو ديارَ الحبيبِ وينزل الركبَ بمعناهُمُ
فقلتُ في ذنبي فمَا حِيلَتي بأيِّ وجهٍ أتلقاهُمُ
فَقِيل إنَّ العَفْو مِن شَأنِهم لا سيما عَمّن تَرجاهُمُ

جَزَاءُ الإِحْسَانِ

وحكى لي زين الدين عيسى بن مظفر الأرمنتِّي -رحمه الله تعالى- أنَّه توجّه إلى قرية «دنفيق»، وكان في أيام النيل، وفي الطريق ترعة، فوجد امرأةً نَصرانيَّة قد غرق ابنها في الترعة، وهي تصرخ عليه، قال: فنزلت الترعة، وأطلعت الصغير وهو حي وعاش، ثم إني توجهت إلى القرية أو إلى ساقية له هناك، ثم رجعت آخر النهار إلى مدينة قوص.

قال: فلما وصلت قريب المبرز - وهي ترعة هناك قريبة من البلد- وإذا بإنسان يبشرني بسلامة ولدي، فقلت له: وما الذي أصابه؟ قال: غرق في الترعة وأطلعه نصرانيٌّ قبل أن يموت.

فانظر يا أخي -رحمك الله تعالى- إلى هذه الحكاية في المقابلة في اليوم الواحد، والمجازاة محققة وبُعد الزمان وقُربه إنّما هو بالنسبة إلينا وتأخير ذلك إلى قيام الساعة إنّما

هو جملة الخفاء ظاهرًا وباطنًا، وقد يظهر هنا منه قضايا منها ما هو للتنبيه ومنها ما هو لإقامة الحجة، وحيث تقرُب الآخرةِ يظهر بعض أحكامِها في هذه الدار؛ فافهم ذلك.

وحكي عن أحد الوزراء أنَّه كان إذا عاقب أحدًا، وسأل أن يرحمه؛ فيقول له: الرحمة خور في الطباع، فلمّا غضب عليه الملك صار يسأل الرحمة، فقال له: الرحمة خور في الطباع.

كما تدين تدان

وحكي عن أحد الوزراء أنَّه كان فرك أذن إنسان، فلمَّا غضب عليه الملك أخبروا الوزير أن الملك أمر بقتله ثم قطع يده وغير ذلك، فقال الوزير: ما يقول ذلك؛ فقيل له: إن الملك قد أمر بفرك أذنك، فقال: نعم، فلمّا فرك أذنه، قيل له: من أين لك العلم بذلك؟ فقال: إنني حين وزرت لم يصدر مني شيء مما قلتم أن الملك أمر أن يفعل بي، غير أنني فركت أذن شخص، فلمَّا قلتم أنه أمر بفرك أذنك علمت أنني فعلت ذلك، وأنَّه لا بد منه.

فهذه وأمثالها من الوقائع والحكايات في ذلك كثير لا تكاد تحضر لمن استقصاها ويكفي المؤمن ما ذكره الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿**إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [الطور:١٦].

وقوله تعالى: ﴿**سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ**﴾ [الأنعام:١٣٩].

وقوله تعالى: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ**﴾ [الزلزلة:٧، ٨].

والآيات في المجازاة والمقابلة بالوصف في كتاب الله تعالى كثيرة، كالنفس بالنفس، والأعضاء المقابلة من العين والسن والأذن والمقاصَّة في الجراح كاف.

ومن اقتصَّ منه في هذه الدار فذاك رحمةً في حقه؛ لأنَّه أخفُّ من القصاص في الآخرة؛ إذ يقابله من صفة العدل المماطلة بوفاء الحق وعدم التخلص من الغريم، ومخالفة الله تعالى فيما قدم عليه وتأخير التوبة منه، ولم يبذل القصاص من نفسه، ويدعو إليه كما فعل رسول الله ﷺ.

بين العفو والقصاص

فلا بد من المقاصصة في العرض والمال أو مسافحة الغريم ثم التوبة من ذلك؛ لأنَّه في تعدّيه مخالفًا لله تعالى، وفي كل حقٍّ من حقوق الآدمي حقٌّ لله تعالى، وحقُّ الله تعالى أوجب أن يُقضى، فلا تمهل بأولى ما ذكرناه، فإنْ فعل في غيرك من خير أو شر هو فعلك في نفسك فزد في ذلك أو انقص.

ولقد كتبت إلى أحد الأصحاب، وقلت في ذلك: أيُّها الأخُ الموجود في المثل كالمرآة، والناظر فيه يرى صورة نفسه بحسب حسنها وقبحها، فإن كان جاهلاً خاطب غيرَه بصفةِ نفسه، والعارف مَن عرَّفها، ونعوذُ بالله من قولٍ بلا عملٍ، ومن علمٍ بلا عملٍ، ومن عملٍ بلا نيةٍ، ومن نيةٍ بلا إخلاصٍ، ومن إخلاصٍ بلا قصدٍ، ومن قصدٍ قُصِدَ به غيرَ الله تعالى، والسلام.

يا نوق ما بَعد الغُوير مَعْرَسُ ... جِدِّي فصبحُك قَد بَدا يتنفسُ
واستَصْبِحِي غرمًا يبلغُك المنى ... ليظَلَّ يغبطُك الجوارِ الكنَّسُ
سِيرِي على ثقةٍ بنَيلِ المرْتَجَى ... مِن عزّةٍ وسعادةٍ لا تُحْبَسُ
لا تَسْأَمِي طولَ الْمَسِيرِ إليهُم ... فَلِمِثْلِ عزّهم تُذَلُّ الأَنْفُسُ
ولَقَدْ أقُولُ لحاسدٍ أَكْمَدْتُه ... فإذا خَطَرت ببالِه يتنفسُ
بُشرَى إلى عَقَارِبِ مَرْسِيَّةٍ ... فأَرُدُّها وأديمُ عَرَضِي أَمْلَسُ
يا مُبْغِضِي ومُؤَدِّبِي يصغُوا له ... فإلامُ قلبِك بالرَّدى مُتَدَنِسُ
أنا أنت فالعَيْبُ الذي تَرْمِي به ... عَرْضِي مَتَى تُفَكِره يَعْكِسُ
مرآةُ قلبِك كيف تقبلُ صورَتِي ... والنَفْسُ فيها دائمًا يتنفسُ
لَو كُنْتَ تُدْمِنُ بالعُلومِ صقالَهَا ... لَتَنَورَتْ والعلمُ نِعْمَ المدرسُ

وهذه القصيدة طويلة، وإنما عرضنا منها ما نحن بسبيله؛ إذ الناظر في المرآة إنَّما يرى صورة نفسه، فلو جعل إصبعه في عين الصورة المرئية في المرآة فما ترى ذلك إلا وضعه في عين نفسه، وكذلك كل فعل يفعل بها، وهي له ضرب مثالٍ؛ فإذا كان في الآخرة صار ذلك حسًّا.

وقولنا في الآخرة لعموم الجزاء، والجزاء في هذه الدار يقع كثيرًا، وإذا وقع القصاص بالرضا مع التوبة ارتفع حكمه، وكذلك إذا أخذه متولّي ذلك وتاب المقتصّ منه؛ فإن الله تعالى أعدل من أن يقتصّ مرتين أو يبدل الحكم، وإن لله تعالى فعل ما يشاء كما يشاء؛ فإنّ الحكم لا يحكم على حاكمه، والعلم لا يحكم على عالمه، والمخلوق لا يحكم على خالقه، ولا حَجر على مشيئة الله تعالى وقدرته، فيلزم العبد الأدب مع الله تعالى، ويقف عندما أمره به ونهاه عنه، ولا يعترض على خالقه فيما له فعله.

العبودية من أوصاف الكمال

كما قال القرشي ﷺ: الزم الأدب وَحِدَّك من العبودية، ولا تتعرض لشيء؛ فإنْ أرادك له أوصلك.

وهذا الكلام مليح جليل؛ لأنّ العبودية من أوصاف الكمال- أعني: عبودية الإخلاص- وتخليص القلب بكليته من الميل إلى ما سوى الله تعالى، وتحرّزه من غير الله تعالى؛ لأنّ ميله إلى غير ربِّه تعالى والتفاته إليه عبودية لمن التفتَ إليه، ومَن لم يكن حرًّا مِمَّا سوى الله تعالى لا يطلق عليه حقيقةُ العبودية لله تعالى؛ لأنّ المكاتب مَن ما بقي عليه درهم، ولذلك قال الجنيد -رحمه الله تعالى-:

أَتَمَنَّى على الزَّمانِ مُحالا أَنْ تَرَى مُقْلَتي طَلْعَةَ حُرٍّ

فإنْ وقفتَ مع عبوديةِ العموم، وعبيدِ العدد لقوله تعالى: ﴿**إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَداًّ**﴾ [مريم:٩٣، ٩٤].

فهذه عبودية المِلك؛ إذ كلُّ مخلوق مِلكٌ لله تعالى، ويدخل في ذلك الجماد والنبات والحيوان والإنسان والحشرات والكلاب والخنازير وطوائف الكفار والمبتدعين، إذ الكل عبيد الله تعالى ومِلكٌ له، وإنَّما غرضنا عبيد التخصيص، فقد أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ بذكرهم؛ فقال تعالى: ﴿**وَاذْكُرْ عِبَادَنَا**﴾[ص: ٤٥].

وأضافهم إلى نفسه إضافة تخصيصٍ وتكريمٍ، وقوله تعالى عن أيوب عليه السلام: ﴿**إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾ [ص: ٤٤].

وقوله تعالى عن نبينا ﷺ: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾ [الإسراء: ١].

وأضافه إلى نفسه سبحانه إضافةَ التكريم والتخصيص وأفرده بذلك، وقول النبي ﷺ: «**نعم العبد صهيب**»، وبيَّن الوصف، وقال: «**لو لم يخف الله لم يعصه**»[١].

فانظر يا أخي -رحمك الله تعالى- أين التخصيص لهؤلاء العبيد الذين ذكرهم ووصفهم وأثنى عليهم؟ وإلى غيرهم مِمَّن قال في حقهم أنَّهم عبيد الشيطان في قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ**﴾ [يس:٦٠]، وإن لم تكن عبودية سجود ولا تألُّه، وقوله - عليه الصلاة والسلام-: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة**»[٢].

وإن لم يكن أحد يعبد الدينار والدرهم عبادةَ تألُّهٍ ولا سجد له، وأنه لما كان القلب ليس له إلا وجهة واحدة إذا توجّه إليها حجب عن غيرها، ولا يصحّ أن نُوجّهه لغير خالقه ومُوجده في عبادته وسجوده وركوعه وصلاته وصيامه وصدقته وحاجاته ومقاصده، فإذا مال بقلبه، والتفت إلى ما يزيّنه الشيطان ويلقيه إليه من مخالفة ربِّه تعالى في شهواته ومقاصده، وأعرض عمَّا أمر الله تعالى به، واتّبع خطوات الشيطان، فقد أَنْزل الشيطان منزلة الإله المعبود، وكذلك في هواه لقوله تعالى: ﴿**أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**﴾ [الفرقان: ٤٣].

وقوله ﷻ: ﴿**لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ**﴾ [الإسراء: ٢٢].

وكذلك الميل بالقلب إلى الدنيا والدرهم والخميصة، فحين ميلك إلى غير الله تعالى حين إعراضك عن الله تعالى؛ فقد أنزلتَ الدّنيا منزلةَ الإلهِ المعبودِ من نفسك، وإن لم تكن عبادة سجود ولا ركوع.

وكذلك في صلواتك وتوجّهك إلى ربّك إذا كنت في الصلاة، فالتفتَّ بقلبك إلى اشتغالِك وأحوالِك ومقاصدِك فقد أعرضتَ عن الله تعالى، وأعرض الله تعالى عنك، ولا سيّما الصَّلاة؛ لأنّك أنزلت ما اشتغلت به في صلاتك منزلةَ الإله الْمُتوجَّه إليه، والله

(١) كشف الخفاء (٢/٤٢٤).

(٢) رواه البخاري (٣/١٠٥٧).

تعالى يتوجّه إلى عبده بحيث توجَّه عبده إليه بالوجه الأكمل، ولذلك ورد: **«ما تقرّب إليّ شبرًا إلاّ تقربتُ له ذراعًا، ولا تقرّب إليّ ذراعًا إلا تقربتُ له باعًا، وما أتاني يمشي إلا أتيتُه هرولة(١)».** بطريق ضرب الأمثال.

فضل صلاة الجماعة

ولذلك كانت صلاة الجماعة تفضل على صلاةِ الفذِّ بخمسٍ وعشرين درجة، والدّرجات لا يَتناهى ثوابُها، وفي كونها خمسٌ وعشرون بحصر العدد لا للتحديد، فإنَّ الفضل لا يتناهى، وإنَّما لَمَّا كانت الصلاة خماسيةٌ، والخمس في الخمس خمسٌ وعشرون، والحق تعالى يعطي كل متوجِّهٍ إليه بحسب ما يعطي الجميع في الفضل، فإن الكرم الإلهيّ له التعظيم، وصلاة الفذِّ ليست كذلك؛ لأن صلاته ترتبط بغيره، وقد يكون يدخله الوسواس، وكل هؤلاء لا بد فيهم من صلّى حقيقة، فإذا أعرض العبد عن الله تعالى في توجّهه في صلاته أو جميع مقاصده إلى غيره أعرض الله تعالى عنه بالوجه الأنقص، ونسبه لعبوديةٍ ما توجَّه إليها، ولذلك ورد أنه لا يكتب له من صلاته إلا ربعها أو خمسها، وذلك بحسب ما يحضره بقلبه؛ فإن صلاة الغفلة غير محسوبة له، ولذلك قال السيد قضيب البان للإمام الذي صلى به: سوّدتَ الصلاة؛ لأنّه تفكّر في الصلاة في حِمل فحم واستعمل الفكرة في ذلك، فاشتغل قلبه من الصلاة بحملِ الفحم.

وأنا أعرف فقيرًا قام يصلي صلاةً وحده بالفاتحة، لا يقدر أن يزيد على ذلك، خشيةً أن يلتفتَ القلب عن الله تعالى في الصلاة، ولأن جمعية القلب على الله تعالى في الصلاة وغيرها حالة عزيزة، فلا تطول له المدة المستطيلة في قراءة الإمام وغيره فقصد ذلك لأجل جمعية توجه القلب على الله تعالى.

كما قيل:

مَـــا لِي إلى غـــيرِك التفـــاتٌ ... إذا تَرامَـــــت بِي الجِهـــــاتُ

وأينَمَـــا كنْـــتَ يـــا حَبيـــبي ... فلِـــي إلى وجهِـــك التفـــاتٌ

(١) رواه البخاري (٦/٢٦٩٤)، ومسلم (٤/٢٠٦١).

العبودية للّه.. حرِّية ممّا سواه

والعبودية لله تعالى من أخصِّ المراتب، ذكرها الله تعالى في أخصِّ العبيد في كتابه العزيز حيث ذكر السيد أيوب والسيد داود وغيرهما -عليهم السلام- وأمر النبي بذكر عباده، وذكر نبينا محمد ﷺ بعبوديته، وأضافه إلى نفسه سبحانه وتعالى، فإذًا لا تصحُّ العبودية لله تعالى من حيث العبد في هذا الموطن إلاّ بالحرية مِمَّا سوى الله تعالى، فإذا تحرّر العبد مِمَّا سوى الله تعالى أطلق عليه عبد الله، وإلاّ فلا وكان من جملة الْمِلك، لا من جملة عبيد التخصيص.

والعبودية والحرية متلازمان، والحر لا سبيل للشيطان عليه؛ لأنّه عبد الله تعالى وقد قال تعالى: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ**﴾ [الإسراء: ٦٥].

وقال تعالى مخبرًا عن إبليس: ﴿**إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾ [ص: ٨٣].

ولذلك قال النبي ﷺ للسيد عمر رضي الله عنه: «**ما سلكت فجًّا إلا سلك الشيطان فجًّا غيره**»[١] وكما أنّ الإنسان إذا قرُب من النار تحرقه؛ فكذلك الشيطان إذا قرب من الحُر يحرق به، وقد قيل شعر:

لا تَـدْعُني إلاّ بِيَـا عَبْـدَها فإنَّـه أَشْـرَفُ أَسْمَـاي

إذَا دَعَـانِي يَـا عَبْـدَ الْهَـوى لَبَّيْتُـه بـأَلْفِ مَـولاي

وحُكي أن رجلاً صالحًا وجد إبليس واقفًا على زاوية، فقال له: ما يوقفك هاهنا؟ فقال: هنا رجل عابد حسن العبادة، فأردت أن أفسد عليه عبادته، فمنعني رجل نائم بجانبه، كلّما تنفّس أحرقني نَفَسُه.

أو كما قال: فتسوّرت المكان، ووجدت رجلاً حسن العبادة واقفًا ورجلاً نائمًا، فملّستُ على النائم، فقال لي: ما تريد؟ فقلت له: أشتهي أن تخبرني بما عبدتَ الله تعالى به فقال: عبدته بما افترضه عليّ، ثم تركني ونام، ولم يحصل لي المقصود، فملَّستُ عليه حتى استيقظ؛ فقال لي: ما بالُك؟ فقلت: يا سيدي، رأيت الشيطان لا يدخل هذا المكان لأجلك فقال: أو ما علمت السبب؟ قلت: لا، قال: تركت الدنيا لأهلها.

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٥٦/٦).

ثم إنّه رُؤِيَ إبليسُ وهو يحيد عن القرافة، فقيل له: ما بالك؟ فقال: الفخر الفارسي في القرافة.

ولا يصحُّ أن يكون حرًّا حتى لا يميل بقلبه إلى شيء في الدنيا والآخرة، ولا يملكه شيء بالميل إليه دنيا ولا آخرة غير الله تعالى.

أمّا في الدنيا: فلا يميل إلى مالٍ ولا جاهٍ ولا بقاءِ ساعةٍ ولا لحظةٍ ولا زمنٍ فردٍ، وهذا هو المطلوبُ.

وأمّا الآخرة: فلا يميل إلى رتبة ولا محل ولا جنة ولا منزلة غير الله تعالى فقط؛ لأنّ المكاتب هو من بقي عليه درهم، ومن وصل إلى مقام العبودية فقد كمُلت طريقته، وساد على الناس بعبوديته لربه ﷻ، بل مَن نشق نسيمَ النّسبة إلى الله تعالى تاه.

النسبة إلى الله

وحُكي عن عتبة الغلام أنه نظر إلى الحجاج بن يوسف والجلاوزة[١] مطرقون بين يديه، فقال عتبة لخادمه: أطرق بين يديّ، وجعل يهمس في مشيته، فلمّا وصل قيل له: يا أستاذ، ما هذا؟ فقال: يا ولدي، لَمّا رأيت الحجاجَ على هذه الصورة وهو منسوب إلى الدنيا، ونظرت إلى نِسبي إلى الله تعالى ففعلت ذلك.

وقد قلت شعرًا:

مُذْ صحَّ عندي أنَّني عَبدٌ لَكُم ... صغرَ الوجودُ بأَسْرِهِ فِي هِمّتي

ونَعَمْ أَتيهُ عَلى الوجُودِ تَعَزّزًا ... لِمَّا نُسِبتُ لَكم وصحّت نِسْبَ

ومِمّن رأيته وحدثني، الشيخ محمد العجمي، قال: صحبت الشيخ كمال الدين الشيرازي، وكان قد أسنّ وبلغ مائةً وستين سنة، قال: وكنا في صحبته أربعمائةَ فقير قال: قال لي الشيخ كمال الدين: صحبت زين الهندي أو قال: رأيت خواجا زين الهندي، وقال لي: أنه حضر حفر الخندق مع النبي ﷺ، وأنّ الشيخ كمال الدين فتح بلادًا كثيرةً في الهند، ورجعوا إلى الإسلام، وقال: جئنا مرّة نزلنا ظاهر مدينة، فخرج الوزير إلينا، وقال: إن هذا الملك كافر، وهو يريد أن يمتحنكم قال: فجلسنا دائرة

(١) لفظ أعجمي يعني به رجاله أو أفراد حاشيته، والله أعلم.

واحدة، وأخذ السلطان الفِيَلة، فسقاهم الخمور وأطلقهم علينا -وكانوا أربعمائة فيل- فوقف كل فيل على رأس فقير وأرخى زلومته على رأسه، ونحن سكوت لا نتكلم من بكرةٍ إلى العصر، والشيخ كمال الدين صاح، وذكر الله تعالى وذكر رسوله ﷺ فولّت الفيلة هاربة، وربّما قال: وأسلم الملك.

وأخبر أن فقيرًا انقطع عن الشيخ في بلد من بلاد الهند ثم لَحِقنا على الطريق بعد أيام؛ فقال له الشيخ: ما الذي أبطأ بك؟ فأخرج قطبانًا من ذهبٍ، ورمى بها بين يدي الشيخ، وكان قد صنعها فأخذ الشيخ رحمه الله تعالى، قليلَ ترابٍ جعلَه في يدِه، وبصق عليه، ولتّه وعجنه وفتله- كالنِّدف[1] أو أكبر أو كما قال- وأعطاها لي وقال لي: أطبق يدك عليها ورُح إلى فلان الجوهري، وقل له: كم قيمة هذه؟ فأخذتها ورحتُ إلى ذلك الرجل قُرب المغرب، فأدخلني بيته، فقلت له: سيدي يقول: كم قيمة هذه؟ وفتحت يدي فأضاء البيت منها، وإذا هي جوهرة؛ فقال لي: سلّم على الشيخ، وقل له: إن كان يقترض عليها مالاً -وقال شيئًا كثيرًا- فأنا أدفعه، وأما قيمتها فما أعرف أقوّمها، فأخذتُها ورجعت إلى الشيخ وحكيت له ما قاله الجوهري، قال: فأخذها الشيخ وفركها فصارت ترابًا ونفخها في الهواء -رحمه الله تعالى.

ولعلّه إنّما أراد بذلك تحقير الدنيا وتحقير ما فعله ذلك الفقير الذي اعتقد أنّ ما أقعده إلا ذلك الذي أظهره وأنه شيء عظيم.

وحكى لي الشيخ العالم عماد الدين بن السّكري المدرس بالمدرسة بمنازل العز والخطيب بالقاهرة المحروسة في الرابع من جماد الأول :سنة ثمانٍ وسبعمائة عن الشيخ إسماعيل الفارقي، أنه حدثه عن خواجا زين الدين الهندي عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**خذ من القوت ما كفى، ومن العيش ما صفى، ومن الإخوان ما وفى، واترك الغدر والجفاء، فالناقد بصير**».

وبإشارة عنه أيضًا عن النبي ﷺ أنّه قال: «**قُسّمت الأقاليم فجُعلت لي الغرب ولسليمان فارس ولصهيب الروم ولبلال الحبشة ولك يا زين الهند**» وقد أجازوا

---

(١) الندف، قطعة من القطن أو الصوف.. والله أعلم.

برواية ذلك مع ما له من غيره.

وذكر عن إسماعيل الفارقي المذكور عن خواجا زين الدين أنه أسلم على يد رسول الله ﷺ، وذكر عن إسماعيل الذي روى عنه أيضًا أنه مقيم بوريز، وأنه حضر إلى توريز بمالٍ أنفقه على فكاكِ الأسرى، وبنى مسجدًا تحته عين ماء مُسْبِلة[١]، والمسجد على يمين الداخل من باب القلعة وله بيت مقابله يأوي إليه، وذكر أن له خمسين سنة مقيم بتوريز، ولم يدخل بيت أحد من أهلها، ولا دخل القلعة وهو على بابها، وحضر رجلان عنده وعرضا عليه مالاً جزيلاً فأبى قَبولَه، وقال: إنِّي رحت إلى بلاد الهند مرّةً ثانية فوجدت الشيخ قد مات- رحمه الله تعالى- وبني عليه مشهد، وهو يُزار.

وعماد الدين هذا الراوي، جَدُّه قاضي القضاة، وهو عماد الدين بن السكري من أصحاب الشيخ القرشي، كان كبير الشأن وله حكايات جليلة وكان السيد الخضر عليه السلام يجتمع به مع كونه قاضيًا.

وحكى الشيخ عبد العزيز رضي الله عنه أنّ قاضي القضاة عمادالدين بن السّكري كان جالسًا عند الشيخ القرشي رضي الله عنه، وقد جاءوا إلى الشيخ بقصبٍ، والقصبُ في قشره وعراجينه، على عادته حين يحضرونه، فقال الشيخ لعماد الدين: خذ من هذا لأهلك واحمل من هذا- أو كما قال- قال:

فلمّا قام عماد الدين وخرج، حمل على كتفه من ذلك القصب وركب على بغلته والشهود أمامه، فقالوا له في أن يحملوا عنه فقال:أخالف لفظ القرشيّ؟ وكان للشيخ القرشيّ أصحابٌ ملاحٌ أكابرٌ أصلاً، يُحكى عنهم الغرائب والعجائب.

وحكى لي الشيخ عبد العزيز رحمه الله تعالى أنّ أصحاب القرشيّ رضي الله تعالى عنهم قالوا مرّة: يا سيدي، لم لا تحدّثنا بشيء من الحقائق؟ فقال لهم: كم أنتم أو كم أصحابي؟ فقالوا: ستمائة فقال: أخلصوا منهم، ثم قال: استخلصوا منهم عشرين، ثم قال: استخلصوا منهم أربعة، ثم قال: من الأربعة ابن القسطلاني -ولعله قال :أبو

(١) مسبلة أي: مرسلة.

الطاهر وعماد الدين بن السكري، وأظنه قال: ابن الصابوني، وترددتُ في اسم الرابع، ولعله القرطبي أبو عبد الله-فقال الشيخ:

لو تكلمت بكلمةٍ مِن الحقيقة أو بشيءٍ من الحقيقة؛ أوّل من كان يفتي بقتلي هؤلاء الأربعة.

فانظر يا أخي- رحمك الله تعالى- إلى هذه العلوم الغامضة عن العقول، المودعة في السرائر والقلوب، المصونة في خزائن قلوب الأولياء، المصون لهم عن أكابر العلماء، مثل هؤلاء السادة مع ولايتهم وكشوفهم ومشاهداتهم وكراماتهم وما حُكي عنهم مِمَّا يطول ذكره كأبي الطاهر كان كبير القدر.

ومنهم الخطيب جمال الدين بن القسّطلاّنيّ خطيب مصر، عن والده أنَّه حكى له أنّ الفقيه أبا الطاهر كان يلقي الدرس، وشخص من الطلبة قد رأى في منامه كأنه مع زوجته يجامعها وكاد أن يُنْزِلَ، فضرب الفقيه أبو الطاهر الأرض بالمروحة، فأيقظه وقال له: سالم؟ فقال: سالم.

ولكل واحدٍ من هؤلاء خوارق وكرامات، وقول الشيخ: «أوّل مَن كان يُفتي بقتلي هؤلاء الأربعة» يحتمل معان:

منها أن يكون قد أطلعه الله تعالى على حقيقة علم الجبروت، وسر القدر الذي لا يجوز إظهارُه، وإفشاؤُه كفر، فيفتون بما يعلمون مِمّا تعبّدوا به ظاهرًا، ويجب عليهم ذلك، ولا يقفون على ما طولع به من ذلك العلم، ولذلك قال: يفتوا بقتلي، ولم يقل يقتلون.

الوجه الآخر أنّ الأسرار الإلهية المودعة في قلوب العارفين بالله تعالى هي أمانة الله تعالى عندهم، وهي العقد والعهد، وهم مطالبون بالوفاء بالعهود والعقود وأداء الأمانة إلى أهلها، وحضّ على ذلك القرآن العظيم مع علمه ﷻ أنَّهم لها حافظون؛ لأنّ الله تعالى أعلم حيث يضع سرَّه كما قال الله تعالى: ﴿**اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾ [الأنعام:١٢٤].

فلو قُطّعوا إربًا إربًا لَمَا أظهروا سرَّه ولا خانوا عهدَه.

وعنه إلى قصة السيد إبراهيم عليه السلام حين ألقاه المنجنيق في نار النمرود، واعترضه

السيد جبريل الطَّيْلاً وقال له: ألك حاجة؟ قال: أمّا إليك فلا.

قال: فاسأل ربَّك. قال: هو أعلم بي.

فانظر إلى صيانة سرّه عن السيد جبريل الطَّيْلاً مع كونه أمين الله تعالى على الشرائع، والواسطة بينه وبين الرّسل. وكيف صان السرَّ عن سؤاله، وردَّ علم ذلك إلى الله تعالى في مثل هذه الواقعة وهو هابطٌ إلى النّار.

لا جرم قال الله تعالى: ﴿**وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى**﴾ [النجم:٣٧].

ومدحه بهذه الْمُدحة العظيمة مع علمه به ﴿**اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾ [الأنعام:١٢٤].

فلو قدر أن يفشي شيئًا من تلك الأسرار التي أودعها الله تعالى قلوب أوليائه لوقع القتل؛ للغيرة على الأسرار، وإباحة الكتمان، ويكون ذلك في قدر الله تعالى ملازمًا لذلك في قدر الله تعالى لِمَا تحت ذلك من الأسرار، ولِمَا لله تعالى فيه من الحكمة التي هي من وراء سائر العقول.

قتلى الحقيقة

وقد قتل جماعةٌ من الأكابر بما تكلموا به وعجز الناس عن فهمه فكفّروهم وقتلوهم، ومنهم مَن لم يُقتل؛ لأنّ كلامه ما اقتضى إفشاء سرَّ الله تعالى فحُبس وأطلق، ولا أكاد أحصيهم.

فمَن قُتل بغير قاتلٍ معلومٍ ولا شهودٍ، حَكى لي الشريف الكلشمي أنّه كان هو وفقيران قد أخذوا العمرة وراجعين إلى مكة، شرّفها الله تعالى، وأحد الفقراء بينهما - وربما قال: كان أعجميًّا- فتكلّم بكلامٍ فقُلعت رأسُه من بين كتفيه وبقي جثةً بلا رأس، قال: فتركناه وأسرعنا خشيةً أن يُنسب إلينا أمرُه.

فانظر رحمك الله تعالى إلى هذه الحكاية الغريبة، والشريف الكلشمي موثوقٌ به، وهو موجود، وهو من الأخيار الفقراء، نفع الله تعالى به.

وللشيخ عبد العزيز بن عبد الغني الشريف أبيات من قصيدة له في هذا المعنى منها قوله:

وإنَّ نَفْحَتَــــه نَفْحَـــــةٌ أَحَديــــــةٌ   فمَـــا أَرْوَحَ الأَسْـــرار فِيهـــا ومَـــا أَهْنَـــا

هُنَـاك تَحُـطُّ الْعِـيسُ عَنْهـا رِحَالَهـا وَيُلْقِـى عَصَـاه راشـدًا إذْ وَصَـل الْمَعْنا

وَتَطْلُعُ شمسُ العِزِّ مِنْ مَشْرِقِ الوَفَا يُبَشّـــرُنا أَنَّـــا غَـــدونَا وَمَـــا رُحْنَـــا

غَـدَونا بِمَعْـنَي السرِّ فلمَّـا كَـسَتْ ســـرائرَنا مَـــا لا يُسَـــمَّى ولا كنَّـــا

كَتَمْنَـا ولَـو بُحْنَـا أُبِيحَـتْ دماؤُنـا وسَـالَتْ عَلـى حـدِّ الصَّـوارِمِ لَـو بُحْنَـا

ولَكـــنَّ أَلْطَـــافَ الإلـــهِ خَفيـــةٌ تَـدُلُّ بِنَـا سُـبُلُ الْهَـوى حَيثمَـا كُنَّـا

عَلَـى أنَّ أَحْكَـامَ الشَّـريعةِ أَسْكَتَـتْ لَنَـا أَلْسُـنًا يَبْـدوا الجِـدَادُ إذا فَهِمْنَـا

القتيل الأول: ابن برجان(١)

... وإنْ كان لم يثبت عليه ما يوجب القتل في الحكم الظاهر، فقد رأيتُ تواريخَ مقتلِه في غير ما موضعٍ، وفي تاريخ ابن خلكان كان، ولم يثبت شيء مما يوجب قتله، وقتل ابن برجان بالمغرب.

القتيل الثاني: ابن قسي(٢)

---

(١) هو سيدي عبد السلام بن عبد الرحمن اللخمي الإفريقي (ابن برجان) ثم الإشبيلي الصوفي المشهور بين الأعيان بابن برجان، تورّع وتزهّد وتنسّك وتعبّد وتقمّص بالصوف، وترك لبس الشفوف، وسلك طريق النجاة، وقص جناح ذوي الجناح.

قال ابن الأبار: كان عارفًا بالقرآن والحديث والكلام والتحقيق والتصوف، وبه اشتهر مع الزهد والورع والاجتهاد في العبادة.

قلت: و شرح الأسماء، والتفسير (أتم الله لنا تحقيقهما).

انظر: وفيات الأعيان (٢٣٦/٤)، الشذرات (١١٣/٤)، الكواكب (٤٢٥).

(٢) بفتح القاف وخفة السين المغربي، صاحب «خلع النعلين»، عارف أشرق نور كماله، وأرق غصن جماله، كان مقيمًا بألمرية ثم ارتحل إلى شلب فقطنها وابتني بإحدى قراها مسجدًا، وانتشر صيته وكثر أتباعه وحاسدوه وقالوا: هو فلسفي التصوف، وأراد الثورة على ملك المغرب عبد المؤمن فظفر به وسجنه ثم أطلقه، وقد تفرقت الناس في شأنه شيعًا -كما وقع للعارف ابن عربي ﷺ ونحوه- والمذهب واحد والطريقة واحدة. ومن مشاهير كتبه كتاب «خلع النعلين» شرحه العارف ابن عربي ﷺ فأتى بالعجائب بين أسرار الكتاب ما لم يكن للناظرين فيه حساب. وانظر: الكواكب (٤٠٨).

وابن قُسيّ، وإن كان لم يثبُت مَا يُوجِب القتل في الحكم الظاهر.

وقد وقُتل غيرهم.

الأسرار الإلهيـة

والأسرارُ الإلهيةُ، وسرُّ القَدر لا استطاعة لقلوب المحققين بإفشائها، فإن وقع ذلك عن حضورٍ أو غيبةٍ أو حالٍ حصل القتل؛ لأن الغيرة تقتضي ذلك، وسأضرب لك مثلاً:

وهو أنَّه إذا ركب السلطان في الموكب وحوله العساكر والجيوش وهو ظاهر للناس، فلو قلت: هذا السلطان، هل كان عليك في هذا القول شيء؟ فهذا لا يؤاخذك أحد به، فلو رَكِب خفيةً وظهر بصورةٍ لا يعتادها الملوك، ومشى في الأسواق، وظهر في صورة تاجرٍ وقلت أنت: هذا السلطان. فهل كان السلطان يتركك؟ وربّما قتلك؛ فإن الملوك في الدنيا عادتهم يقتلون على مثل ذلك.

فإذا كان هذا إفشاءُ سرِّ ملوك الدنيا، فكيف بإفشاء أسرار الإلهية؟ والحِكَم الربّانية والمملكة المالكية الخالقية القادرية وملك الملوك ورب الأرباب رب العالمين ومالك يوم الدين ومهلك الأولين والآخرين.

وقد ورد عن الإمام السيد على -كرم الله تعالى وجهه ورضي عنه- أنّه قال: إنّ بين جنبيّ علمٌ لا أحدَ له حملُه، وعنه أيضًا أنّه قال: علّمَنِي رسولُ الله ﷺ علمًا لو أفشيتُه لخُضِّبَتْ هذه من هذه. وأشار إلى لحيته وعنقه.

ورُوي عن السيد علي رضي الله عنه أنه قال:

يــا رُبَّ جَــوهَر علــمٍ لَــو أبُــوحُ بِــه ... لَقِيــلَ لِي أَنــت مِمَّــن يعبــدُ الوَثنــا

ولاسْـتَحَلَّ رجــالٌ مُسْـلِمُون دَمِــي ... يَـرَونَ أَقْـبَحَ مَـا يَأْتُونَـه حَسَـنا[١]

وحديث السيد أبي هريرة رضي الله عنه ومعنى الحديث -أخذتُ عن رسول الله ﷺ جرابين من علمٍ قال: أحدهما أثْبَتُهُ فيكم والآخر لو ثَبَّتُهُ لقُطِعَ مِنِّي هذا البُلعُوم والآخر به العلم، وقوله لو ثبته فيكم لقطع مني هذا البلعوم، كما أن خرق العادة ينكرها مَن لا

(١) البيتان من البسيط، وهما ينسبان للحلاج في ديوانه من قصيدة مطلعها:

إنِّي لأكتُم مِن عِلمي جَواهِرَهُ ... كي لا يَرى العِلمُ ذي جَهلٍ فَيَفتَتِنا

رآها ولو سَمِع بها ولا له إيمانٌ قوي ولا تصديق لِمَن أتى بها، كما فعل الكفار حين أتاهم الأنبياء، وكونهم خمدوا على عاداتهم من عبادة الأوثان، فكذلك إذا ظهر ما لا يدركه العقل، ولا تصل إليه الفهوم والعلوم، ولا يقابل بقياس ولا يدخل في عوائد الناس، يُنكِرونه ويكفروا به ويُكَفِّرون قائلَه وهم بتكفيره يكفرون فيما يتعلق بالخلق ولا يجوز إفشاؤه ألا ترى إلى قوله ﷺ: «**بعثت لأخاطب الناس على قدر عقولهم**[1]».

وأما ما يتعلق بالأدب مع الخالق ﷻ فحيث كان المطلوب الظهور لظهر، وحيث كان المطلوب الستر أخف، وحيث وقعت المخالفة وسوء الأدب كان السيفُ:

مَنْ بَاحَ بالسرِّ كانَ القتلُ سِيمَتُه   بينَ الرّجالِ ولا يُؤخَذُ لَه ثَأرا

وأَخبر أصحاب الشيخ القرشي عن أبي عبد الله القرطبي، كذلك حكى القاضي كمال الدين عن الشيخ ضياء الدين- والده- عن والده الشيخ أبي عبد الله القرطبي ﷺ أنّه كان معه بمدينة النبي ﷺ سبعون فقيرًا، فحصل لهم فاقة، فقال الشيخ: أَروح أزور بكم النبي ﷺ، فدخل الضريح الشريف على تلك الحال، فحصلت له سِنَةٌ مِن النّوم، فرأى رسول الله ﷺ، فدفع له دينارين، فَفَتح عينيه فوجدهما في كفِّه، فأخذهما وقام وجاء إلى بيته، فوجد الدقيق والعسل والسمن ولم يعلم مِن أين هو؟

قال لي كمال الدين: كان الديناران مع والدي عند وفاتِه فأعطاهما لي وقال:

يا ولدي هذان الديناران اللذان أعطاهما النبي ﷺ لجدك، ولم يأخذ أحد منهما شيئًا إلا العامري، أخذ مني وزن خَرُّوبة وجعلها في فص خاتمه، فلمَّا اجتاز الفارسي أقطاي في حرَّاقة والعامري في الخيام، فدخل الفارسي أقطاي البرَّ وجرَّد سيفه وجاء إلى العامري ليقتله، وقال له: يا كذا يا كذا، أنت تدفع المال للملك المعز ولا تعطيني؟ - وإنه كان على حاله- قال: فرفع العامري فص الخاتم في وجهه، فأرخى رأسه وغمد سيفه وراح.

قال القاضي كمال الدين: فأخذت الدينارين وهما في حِرز، وتركتهما في الصندوق.

وكان كلَّما وقعت لنا واقعة، أجعل ذلك الحِرز على ذراعي وأدخل إلى مدينة

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (٤/١٥٥)، والديلمي (١/٣٩٨).

قوص وأخرج طيبًا ولا يقع لنا تشويشٌ.

فلمّا كان ذات يوم، وأنا قرُبت فقط، فوجدت الكمال بن البرهان وشهاب الدين بن النجيب والتقي بن الأصفوني، فحلفوا على أن أبات معهم في فقط، فبتنا جميعا، وأصبحت فلم أجد الحِرز، فمِن ذلك اليوم حصل لنا التشويش والأكدار والضرر- أو كما قال.

فهذه الحكاية تدل على جلالة الشيخ وعظم شأنه، ووصلته برسول الله ﷺ وصحة ميراثه منه.

فالأنبياء -صلوات الله تعالى عليهم وسلامه- يستوي في حقهم اليقظة والمنام، ويوحى إليهم في منامهم، ويحكمون بالوحي في المنام كما يحكمون في اليقظة.

قال الخليل إبراهيم لولده عليهما السلام: ﴿**يَا بُنَي، إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ**﴾ [الصافات:١٠٢].

فمنهم عليهم السلام، مَن كان يُوحى إليه في منامِه، وإذا انتفت الأغيار من باطن الفقير، وطهُرت نفسه وقلبه وسره وصار في محل الاستواء والاستقامة، كان الوجود في قَلبِه كرؤية الناظرِ للصورة في المرآة من غير زيادة ولا نقصان، ويستوي عند ذلك اليقظة والمنام، وذلك نصيبه من ميراث نبيه ﷺ.

عَصَيتُ هواي فِي زمانِ غَرَامِي   وقَيّدتُ نَفْسِي عَن طلاَّبِ مُرَامِي

فصارَ مَعِينِي فِي الحقِيقةِ شَاهِدِي   فَسيَّانَ عِنْدِي يَقَظَتِي ومَنَامِي

وللقرشيّ -رضي الله تعالى عنه وعنهم- كرامات كثيرة، اقتصرنا منها على حكايات يسيرة للتنبيه على محلِّهم وخشيةَ التطويلِ في الكتاب، ولقدكانوا فيما بينهم إخوانًا على الحقيقة.

ولقد حكي الخطيب جمال الدين بن القسطلاني خطيب مصر، عن والده أنَّ الشيخ مجد الدين الإخميمي، والفقيه عيسى القليوبي توجّها إلى قليوب، فسأل الفقيه عيسى القليوبي الشيخ مجد الدين: هل معك شيء أرسله إلى أولادي؟ قال: ما معي شيءٌ، فمدَّ الفقيه عيسى يده إلى العمامة التي على رأس الشيخ المجد - وكان يتعمم بفوطة على رأسه- فأخذها، وأمر مَن نادى عليها، وبِيعت، وأخذ ثمنها أرسله إلى

أولاده بمصر، ودخلا إلى قليوب هو والشيخ المجد وعلى رأس الشيخ المجد طاقية، وصعدا إلى سطح الجامع، وصلّيا المغرب وقعدا.

وإذا بشخص من القزّازين(١)، أتى الشيخ المجد بفوطتين، فقال: يا سيدي، هؤلاء كنت عملتهما لك، فاعتمَّ الشيخ المجد بالواحدة وجعل الأخرى تحت ركبتيه فقال له الفقيه عيسى: لو بعتُ عمامتي ما جاءني غيرُها، وأمَّا أنت، أخذت لك فوطة جاءك اثنان، لا رحم الله من يرحمك.

فانظر يا أخي رحمك الله تعالى إلى هذه الصحبة، ما ألذَّها وأحسنَها، وانظر قوله: لا رحم الله من يرحمك، فقد يكون ذلك على طريق الدعاء له والتحابب والتهكم لتصغير المحبوب، كقولك لولدك: يا ولدي ويا حبيبي، ومن ذلك قول امرىء القيس:

بذيالك الوادي أهيم ولم أقل بذيالك الوادي وذياك من زهد
ولكن إذا ما حب شئ تولعت به أحرف التصغير من شدة الوجد(٢)

وقوله: لا رحم الله من يرحمك، دعاءٌ له؛ إذ هو في الحقيقةِ رَحِمَ الله مَن يَرحمك وقد يكون نظر إلى الفاعل الأول، وإمداد العطاء من الله تعالى، فتستحيل الشفقة والرحمة على الله تعالى، بل هو الراحم للعباد، الذي لا يَمَلُّ العطاء ولا ينفد ما عنده، فمَن نظرَ هذا النظر وتحقق العطاء من المعطي، والرزقَ مِن الرازقِ، وغاب عن الوسائط في العطاء والرزق بقوة الحضور مع الله تعالى، فتكون الأيادي ظروفًا وخزائنًا لمجاري الأقدار عنده، إنْ رآها فلا يشفق ولا يرحم من يأخذ من الله تعالى على يده، لأنه ليس له في ذلك تعلُّقًا إلا جريان ذلك على يده، فتارَة يجريه الله تعالى على يده بالرِّضا، وتارَة يُجرِيه على يدِه بغيرِ رضا ولا اختيار، وليست هذه مِن المسائل التي يُكتَفى فيها بظاهر الحال؛ إذ هي من أحوال القلوبِ فإنَّ الحديثَ: « **لا يحل مال امريء مسلم إلا عن طيب نفس منه**(٣)» وطِيبُ النفس لا يُعلم، ويجوز إذا عُلِم مِن حال صاحبه أو صديقه

(١) اسم حرفة على الأرجح.
(٢) انظر: درة الغواص للحريري ص (١٢).
(٣) رواه أحمد في مسنده (٥/٧٢).

طِيبَ القلب بذلك، لقوله تعالى: ﴿**أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً**﴾ [النور: ٦١].

والآية الكريمة ظاهرها في الأكل خاصة، وقد يقاس به على غيره، وقد تُحقَّق طيبة قلبه بمقدمات جرت له في ذلك، وأحوال تقتضي ذلك، وهذا ما لم تكن الأخوّة المتحققة التي بين الطائفة الشريفة التي أشرنا إليها في هذا الكتاب آنفا.

فقد جرى لفَتْحِ الموصِليّ وغيرِهِ مِن الْمُتَقَدّمين مَا جَرى، وقد جرى لغير الفقراء من كرماء العرب ما جرى.

من كرماء العرب

١- مَن الأكرم؟

كما حُكي أنَّ ثلاثةً تكلَّموا في كرماء العرب فقال أحدهم: عُرابةٌ أكرمُ.

وقال الثاني: عبد الله بن جعفر الصادق.

وقال الأخير: قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري، فقال: أحدهم كلُّ واحدٍ يمضي إلى صاحبِه.

فأمَّا صاحبُ عبد الله بن جعفر فأتاه وهو يريد أن يضع رجلَه في الرِّكابِ، فسألَه أو قال: سائل مُنْقَطَعٌ به، فردَّ جعفرُ رجلَه عن الرِّكاب، وأعطاه الناقة وما عليها.

وأمَّا صاحبُ قيس فأتاه، فطرق الباب، فكلَّمتْهُ جاريتُه وقالت: ما تريد؟ قال: أريدُ سيدَك قالت: هو نائمٌ قال: نبِّهيه فقالت له: وما حاجتُك؟ قال: أريد منه ألفَ دينارٍ فقالت: حاجتُك أهونُ مِن أن أوقظَ سيدي، ودخلت فأعطته ألفَ دينارٍ، فلمَّا استيقظَ أعتقَ الجاريةَ وأعطاها ألفَ دينارٍ.

وأمَّا صاحبُ عُرابةَ فطلبَهُ، فوجده في السوقِ -وهو أعمى- متوكئًا على عبدين، فسأله فقال: خُذْ هذين العبدين فقال: ما كنتُ بالذي أقطعُ رِجْلَك فقال: إن أخذتهما وإلاّ فهما حُرّان، فواللهِ لا أَمْلِكُ غيرهما، فحكموا لعُرابةَ بالكرمِ لأنَّه تكرَّم بجميعِ ما يملكه.

هذه بعض أوصاف الطائفة الشريفة، فمِنَ الناس مَنْ يسره أن يأخذ صاحبُه مالَه ويتصرف فيه، فألذُّ ما أكله إخوانك، وأحسنُ لباسِك ما رأيته على أصحابك، وأبقى

مالُك ما أنفقته لله تعالى وفي سبيله وفي مصالح المؤمنين والمسلمين.

ذُكِرَ عَنِ السيد الإمام علي، كرّم الله تعالى وجهه، أنَّه قال: لقمةٌ تجتمع عليها يدُ الإخوان أحبُّ إليَّ من أن أنزلَ إلى سوقِكم فأعتقَ العبيدِ وأتصدقَ بالدنانير.

ومِنَ الناسِ مَن يعجبه العطاء والكرم، وأعرف فقيرًا يتلذذُّ بالعطاء أكثرَ مِن الأخذ، ولا يقدر أن يأكل مع الناس إلا لضرورة، وهذا طَرَفٌ مِن فقراء زمانِنا ومَن آثر على نفسِه في حالةِ العطش والموت وطباع العرب في المكارم مشهورة.

قال المتنبّي(١):

وإِذَا سَكِرْتُ وَهَبْتُ ما مَلَكَتْ يَدي ... مِن غَيرِ إشفاقٍ ولا إملاقِ

وإِذَا صَحَوتُ وعَاوَدَتْنِي هِمَّتي ... فَرَجِعْتُ نَدْمَانًا لِتَرِكِ الْبَاقِي

٢- أخت الكريم الطائي

وكانت أخت حاتم الطائي كريمة، ولا تُبقي شيئًا، فحجرَ عليها أهلُها حتى أضرَّ ذلك بِها، واعتقدوا أنَّ ذلك نافعًا لها، فلمَّا وصلت إلى ضرورة شاقة، سَيّروا لها صرمةً من الإبل، فدخلت عليها عجوز فشكتْ إليها حالَها فأعطتها صرمةَ الإبلِ، فلاموها على ذلك، فأنشدت شعرًا:

لَعَمْرِي لقَد وَعَظَنِي الدهرُ عِظةً ... فيَا ليتَ ألاّ أَمْنَعَ الدهرَ جَائِعًا

فقُولُوا لِهَذا الأيّمِيّ اعتقْ ... وإنْ أنْتَ لم تستطعْ فعُضَّ الأصَابعَا

فهلْ مَا تَرَونَ اليومَ إلاّ طبيعَة ... وَكَيفَ بِتَرْكِي يا ابنَ أمَّ الطَّبَائعَا

٣- اللئيم والوزير الكريم

وحَكى لي والدي أو ابن اللمطي أو كلاهما- رحمهما الله تعالى- فيما حكياه عن إسحاق النديم قال: دخلت على الرشيد- أميرِ المؤمنين- فأعطاني شخصًا وقال لي: خذ من هذا ألف ألف درهمٍ إلى العصر أو إلى قبل العصر أو ائتني برأسه بلا

(١) غير موجود في ديوانه.

معاودة، قال: فعلمت أنَّه ما قصد إلا قتلَه؛ فإنّ الرجل ليس له شيء، فأخذته وجئت إلى بيته، وقلت: إيش تعمل؟ قال: دعني أدخل أودّع أهلي وآخذ كفني وأخرج قال: فدخل، فإذا بالبكاء والصراخ، فلحقتني شفقةٌ عليه، فخرج، فأخذته وأتيت عند الوزير يحيى بن خالد البرمكي، فدخلتُ على الوزير وقلت له: يا سيدي ألف ألف درهمٍ أو نفسٌ مؤمنُة تقتل؟ قال: فأطرق ساعة ورفع رأسه وقال لخادمه: افتح هذا الصندوق وأَخرج ما فيه، فإذا فيه مائةُ ألف درهمٍ قال: ثم أطرق ساعة وقال له: رُحْ إلى جعفر وقل له: ضياعًا كنتَ قلتَ لي، اشتريتها لك- قال للصدقة أو قال غير ذلك- وقد حصَّلْتُ: احملْ المالَ قال: فراح وأتى بمائتي ألف درهمٍ فقال له: رُحْ إلى أبي الفضل وقل له: كنتَ قلتَ لِي اشترِ لي أوقافًا أو قلتَ أملاكًا وقد حصَّلْتُ: احملْ المالَ قال: فراح وأتى بمائتي ألف درهمٍ ثم أطرقَ ساعة، ورفع رأسه وقال لي: اطلع إلى ابنتي فاطمة وقل لَهَا: العِقد الذي وهبه لك أميرُ المؤمنين، أرسليه، فأتى بعِقٍد كعظم الذراع فقال له: يا إسحاق، هذه خمسمائة ألفَ درهٍم، وهذا العِقدُ شراه عليَّ أميرُ المؤمنين بسبعمائة وخمسين ألفًا فهذه ألف ألف درهمٍ ومائتي وخمسين ألفًا، احمل المالَ وأطلِقَ الرجلَ.

قالَ فحملْتُ المالَ وخَرجتُ، فلمَّا وصلتُ عتبةَ الدَّارِ أو باب الدار أنشد الرجل:

فمَـــا بَقِيتمـــا عَلَـــيَّ تَرَكْتُمَـــانِي ... وَلَكِـــنْ خِفْتُمَـــا صَـــرْدَ النِّبَـــالِ

وقال: والله لا أعلم على الأرض -أو كما قال- أكرمَ مِمَّن خرجنا مِن عنده ولا أَلأمَ منك.

ثم دخلتُ على أميرِ المؤمنين بالمالِ فقال لي: يا إسحاق، مِن أين لك هذا؟ فقلتُ: مِن وزيرِك يا أمير المؤمنين فقال: صدقت، ليس لهذه الواقعة غيرُه.

ثم إني أردتُ أنْ أقول له عمَّا قاله الرجلُ فخشيت أن يقتله، ثم إن أمير المؤمنين قال: احمل المال إلى بيت المال، وأمَّا العِقد فردَّه إليه؛ فإنَّا كنَّا وهبناه لفاطمة. قال: فأخذتُ العِقد، ورجعتُ إلى الوزير فقلت: هذا العقد قدْ ردَّه أمير المؤمنين وعَرفَه فقال: والله ما أردت هذا، فقلت له: أمير المؤمنين لا يُراجع، على أن الوزير غرسها في صِباخٍ لا يَنْبُت. فقال: ولِمَ ذلك؟ قلت له: إنَّ الرجل عندما أنشد:

فمَـا نقيـا علـيّ تركتمـاني ... ولكِـن خِفتُمَـا صَـرْدَ النِّبـالِ

فقال: الله الله هذا رجلٌ مَعتوه، وأَعْرِفُ إيش قال. فلا تؤاخذْه، وجعل يَعْتَذِر

عنه.

ولو بسطنا القول في حكايات أرباب المكارم، ومكارمِ الأخلاقِ مِنَ المتقدمين والمتأخرين لطال الحال، وإنَّما قصدُنا أهل زماننا، ونستدلُّ بمَن تقدَّم على من تأخر، وقد ذكرنا نبذةً يسيرة.

رأيتُ من أصحاب الشيخ أبي الحسن الشاذلي ﷺ فقيرًا بمسجد السدرة بمدينة قوص، وكانت له صورة، وجئت إلى زيارته، ورأيته يدقُّ حوائجًا فإذا دقَّ الحويج يقطر من زنده ماءٌ فقلت له: يا سيدي ما هذا؟ فقال لي: كنت سائحًا في البرِّ فلَحِقَني الجوعُ فوقَ سبعةَ أيامٍ والعطشُ، فأقبلت على وادٍ فيه ماءٌ وخضرُة فشربتُ وتوضّأتُ، وطلعت لأجد ثعبانًا -أو قال حية عظيمة- مطوَّقَة على نفسها فخطر لي أنّ الثعبان القريب من الماء ما فيه سمٌّ أو سمُّه قليل، وأنا جوعان، أو مضطر فجعلت دلقِي وكان مائةُ رطلٍ فرميته عليه وجلست فوقه فكان يحملني أنا والدلق إلى علوّ القامةِ- أو كما قال- وأنا بيدي أحفظ جوانب الدلق خشيةَ أن يُخْرِجَ رأسَه فيمسكُ أيَّ مكانٍ يقطعُه- أو كما قال- فبينما أنا كذلك، وإذا برأسه قد خرجت فقبضت على رقبته بيديّ الإثنين وخنقتُه حتى دَلَعَ لسانُه وخرجت عيناه، فأخذتُ الموسَ بيدي الواحدةِ وذبحتُه ووثبتُ بعيدًا عنه، فبَقِيَ ساعة، وماتَ فجئتُ وجمعتُ حطبًا وأوقدتُ نارًا ورَميتُ عليه الحطبَ حتى إذا استوى جئتُ وأكلتُ منه حتى اكتفيت فهذا الماء الذي يقْطُرُ مِنْ يَدي مِن ذلك الوقتِ، وكان مغربيًا أمَّا أكلُه الثعبانَ عِندَ الضرورةِ فجائزٌ والقَدْرُ الذي يجوزُ مِن القَدرِ معلومٌ، وقَدْ تَكُون الزيادةُ عن القَدْرِ المعلومِ جائزٌ في مذهب الإمام مالك ﷺ لكونه يأخذ بقوله تعالى: ﴿**قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ**﴾ [الأنعام:١٤٥].

ورأيتُ مِن أصحابِه جنديًّا وكان فقيرًا يعجبني، ولم أره في هذه الأيام، حكى لي الشيخ عبد العزيز، رحمه الله تعالى، أنَّ فقيرين دخلا على شيخ من المشايخ فلقَّم أحدَهما تسعَ لقمٍ حلاوَة، ولقَّم الآخرَ سبعةً، فقال الفقير: اكتفيتُ ولم يلتَقِم مثل صاحبه ثم خرجا من عند الشيخ وسافرا، فضلاّ الطريق فبقي الذي التقم السبعةَ لُقم سبعةَ أيامٍ ما عطش ولا جاع، فلمَّا فرغت السبعةُ أيامٍ تخلّل ولم أدر هل مات أم لا؟ وأمَّا الذي لقَّمه الشيخُ تسعةَ لقمٍ فبَقِيَ تسعةَ أيَّامٍ ما جاع ولا عَطِشَ حتى وَصَلَ إلى مقْصدِه.

* * *

نساء صالحات

ورأيت من النساء الصالحات بمدينة قوص الست سلاّمة وكانت تلبسُ الأزرقَ وتسألُ في العلوم وتشارك في ذلك، وكان لها اجتماعٌ بأكابرِ العلماء وكانت لها حالة جليلة، والمشهور عنها مواصلةُ الأربعين، وكذلك الفعَّالية، رحمهم الله تعالى.

وكذلك مَشْرَف الفقيرة.

وخديجة وفتّوحة، وكانتا بالأقصرين، وكان لخديجة أحوال جليلة، وكانت تخبرني بأمورٍ عظيمةٍ مِمَّا تطَّلِع عليه، من رؤيةِ وتنزُّل الملائكةِ، وانشقاقِ السماء، وكذلك في صلاتها، حيث كان يشوّش عليها بعضٌ من الشياطين في الصلاة، قالت: يأتيني بعضَ الأوقات أقوامٌ بطراطير على رءوسهم، يرقُصون وأنا أصلي يشوّشون عليَّ؛ لأنَّهم يرقصون بيني وبين القِبلة، فتأتيهم شهبٌ من نور، قالت: فيهربون أو يحترقون.

وصابرة، كانت ظاهرة بالأقصرين وما رأيتها، أخبرني عنها سراج الدين حسّان أحد عدول الأقصرين، وكان رجلاً مباركًا محقّقا في شهادته، وأخبر عنها بعجائب، رحمهما الله تعالى.

والْمُراكشيّة، كانت جليلة القدر، ولها كلام مليح، وكتب عنها، وكانت تتكلم، ورأيت رسالة القشيري بخطها بإخميم، ولم أجتمع بها، وكان ولدُها يتكلم ويُعْزِي إليها ما يتكلّم به غيرَ أنَّه قِيل لي أنَّه يدّعي المهديةَ فما اجتمعتُ به كذلك.

المهدّي المزعوم

وحدَّثني الشيخُ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- أنَّه وردَ في زمان الْمَلكِ الكامل فقيرٌ جميلُ الصورة، وله علوم ظاهرة وعلوم باطنة، شريفٌ يُسَمّى محمد بن عبد الله، وكان يجلس من بعد العصر إلى الصبح ما يتكلّم، وكانت له أحوالٌ جليلة قال بنفسه أنّه المهديُّ، وصنَّف كتابًا وأشار إلى نفسه، فحصلَ الكتابُ عند السلطان الملك الكامل، فجاء، وكان السلطان دخل عند الحريم فجلس على مرتبة السلطان، فبَعدَ ساعةٍ والسلطان قد خرج متخففًا متوكئًا على سيفِه وبيده الكتابُ، فلم يقُم للسلطان، فقال له السلطان: شيخ، هذا الكتاب كتابك أو تصنيفك؟ فقال: وما هو؟ فقرأه عليه

فقال: نعم فقال: فأنت تقول أنت المهدي، والحديث الذي ورد:

«**أنه يخرج بين الصفا والمروة**»، وأين الصفا والمروة هنا؟ إنها الطوب والحجارة، هي صفا ومروة العلماء والفقراء. قال: إن الحديث يقول: «**يخرج من بين هذين الخشبتين رجل هو المهدي**(١)» وأنا ذلك الرجل.

فلم يكلّمه السلطان الملك الكامل، ولا شوّش عليه، وإنّما قال لفخر الدين عثمان: جهزوه إلى الإسكندرية يجهزوه إلى المغرب، فجهّزوه وسفّروه إلى المغرب.

قال الشيخ عبد العزيز: فاستخبرت عنه فقال لي فقير: رأيت رأسه معلقةً على مراكش.

مدّعو المهديّة

والكلام في أمر المهدي ودعوى المهدية كثير، وقد يكون ذلك الدّاعي مهديًّا في نفسِه، فيقولُ من حُمْقِه ما يجدُه في نفسه، لا أنَّه المهدي المشار إليه الآتي؛ فإن له معاد قبل خروجه.

المقبُورُون و ابن برموت

وقد كان ابن برموت لَمَّا ادّعى ذلك اهتدى على يده خلق كثير مِمَّن كان لا يعرف الله تعالى، ولا يعبده، واحتال على إسلامهم بحيل كثيرة ووسائل عديدة. وحدّثنا به أنَّهم سألوه إظهارَ آيةٍ يُسلِموا بِها، فأعطى جماعةً مِمَّن يثِقُ بِهم مِن أَصْحابِه مالاً جزيلاً، على أنَّه يحفر لهم قبورًا ويسقّفها عليهم، ويكلّموه منها إذا سألهم، ويخرجهم بعد ذلك، ففعل ذلك -وربّما قيل كانوا سبعة أو غير ذلك فالله أعلم- فلمّا سألوه قال لهم: إني أسأل أهل القبور عن الإسلام، ويخبروكم أنَّه الحقَّ، فخرج بهم إلى تلك المقابر وناداهم فأجابوه، فأقرّوا وأسلموا، وترك القبورَ على حالِهم، خشيةً أن يخرجُوا فيظهر ذلك فيرتدُّوا عن الإسلامِ.

ولعلَّه رأى ذلك للمصلحة الأكبر، ولعلَّ المقبورين كانوا على دين غير دين الإسلام، لكن قد أقرّوا وأسلموا وهم في القبور، فالله تعالى أعلم أيُّ ذلك كان.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٤/٥٩٦).

وذكروا عنه أنهم كانوا لا يعلمون القراءة، فسمّى كل واحد منهم بآية من الفاتحة، فسمّى واحدًا «الحمد» وآخر «لله» والآخر «رب»، والآخر «العالمين» إلى آخر الفاتحة، فلمَّا عَلِمُوا أسماء بعضهم بعضًا أمرهم بالصلاة بالفاتحة، وصلّوا بها.

ولا يعلم اسمَ المهديّ كثيرٌ من الغربِ، وذُكر أنَّهم إنَّما قتلوا ابن قسي وابن برجان من أجله، وخشيةً على الْمُلك.

ولقد رأيت كتابًا من ابن قسي إلى بعض أصحابه يقول فيه: إنهم خطبوا لنا على مائةٍ وسبعةِ منابرَ، أو مائة وأربعةِ منابرَ، فالله تعالى أعلم أكان ذلك من عنده أو هو خطّه أم لا.

وكان علمه وجلالته وعظم شأنه مشهورًا، وهو صاحب كتاب «خلع النعلين» وبقي جماعة من الغرب إلى هذه البلاد يعرفهم، ويعرف أسماءهم، ولا حاجة لذكرهم، وفيهم أكابر وأولياء ولا عار عليهم في ذلك، فإنَّ المصادرة موجودة، ولا بد لكل ولي من أعداء في الله تعالى.

فقد حُكي لنا أنّ أبا يزيد البُسطامي السيد نُفِي مِن بَلَدِه سبعَ مراتٍ مع جلالته وعظم شأنه وكراماته.

وحكي لنا أن السبكي السيد ﷺ كانوا يزلقونه بالحجارة ويقعد في الطريق، ولا يجد مَن يخلّصه مِن الصبيان.

ومثل ذلك كثير، وإنَّما تركناه لِمَا نحن بصددِه، وذكرنا هذه النبذةَ اليسيرةَ تحذيرًا للسالِكِ ألاّ يقف في طريقه مِن شيء من ذلك، ويطلُب الله لذاته العلية؛ فإنّ القطّاعَ في الطريقِ كثيرٌ.

ومن المقامات المحقّقة والأحوال السنيّة الكشوف والمخاطبات وعلوّ الدرجات والتصريف في الكَونِ، وقد حُكِي عن الشيخ أبي يزيد عن الراوي للحكاية قال: جئت للشيخ أبي يزيد لأجده قاعدًا تقرفصًا من أول الليل إلى آخره، وأنا في ناحيةٍ أنظرُ إليه، وإذا هو يقول: إلهي، إنّ قومًا سألوك المشى على الماء والطيران في الهواء وأنا أعوذ بك من ذلك، وسألوك كذا وكذا وأنا أعوذ بك من ذلك، وذكر عشرين مقامًا -أو قال أكثر من ذلك- ويقول: وأنا أعوذ بك من ذلك، ثم التفتَ فرآني فقال: من كم أنت

هنا؟ فقلت: مِنْ كذا وكذا، ولم أحقق ما قاله بعد ذلك.

غير أنَّه حُكِي عنه في غير هذه الحكاية أنَّه قيل له: ما تريد؟ فقال: أريد ألاّ أريد. ولم يكن قوله: «أريد ألاّ أريد» إرادة؛ لأنّا لا نعلمُ صيغةً نعلم بها ترك الإرادة إلا ذلك، ولو قيل في كل شيء كما يُقال أنَّ نفي الإرادة إرادة لتسلسل القولُ ولا يُفهم المعنى وإنَّما هو عين سلب الإرادة.

وقد حُكِي عن الشيخ عبد الرحيم ﷺ أنه قال: أُعْطِيتُ كُن فأَبيتُها.

وقوله: «أبيتها» لا تقتضي ردًّا على الله تعالى فيما أعطاه، ولا إساءة أدبٍ، هم أعلم بالله وأعرف بالأدب مع الله تعالى، لكنَّ هذا مِن بابِ الإذنِ في التصريف، فله أنْ يتصرف وله ألاّ يتصرف، والدليل عليه قوله تعالى للسيد سليمان عليه السلام: ﴿**هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [ص:٣٩].

فجعل العطاء هنا للتصريف.

سيدي أحمد بن كرار

وقد حُكِي عن سيدي أحمد مِن كتاب أحمد بن عبد الرحمن بن كرار عن الشيخ عمر بن جنديّه -وكان من كبار أصحاب الشيخ أحمد، وملازمه في سفره وحضره، وكان له بيتٌ في الرُباط إلى أنْ مات- قال: كنَّا بين يدى سيدي أحمد جماعة من الخَواصِ، فتذاكرنا من أحوال الرّجال والبداية والنهاية ما شاء الله تعالى، فالتفتَ إليَّ سيدي أحمد وقالَ: أى عمر، دبّرها سيدي الشيخ منصور- قدّس الله تعالى روحه- عليّ -ويرْوي سبع سنين وسبعة أشهر- وسلَّم السيفَ إلى مَن بعده إلى رجلٍ صفحٍ عفوٍّ، ثم سألته فقلت: لا شَكّ نهايةُ سيدي منصور بدايةُ هذا الرجل فقال: أي عُمر، الأمر كما تقول.

فاعلم أيُّها العاقل أنَّ العبد إذا تمكَّن من الأحوالِ بَلَغَ محلَ القُربِ مِن الله سبحانه وتعالى، وصارت همته خارقة السبع سماوات، وصارت الأرضين كالخلخال برجله، وصار- كما قال سيدي أحمد- له صِفاتَ الحقِّ جلَّ جلالُه، لا يعجزُه شيء، وإنَّما الحق يرضى لرضاه ويسخط لسخطه، والدليل عليه ما ورد عن النبي ﷺ أنَّه قال:

«**اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالي**[١]»، ورد عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: حاكيًا عن ربِّه تبارك وتعالي يقول: «يا بني آدم، أطيعوني أطعكم، واختاروني أختركم، وارضوا عني أرضَ عنكم، وأحبّوني أُحبكم، وراقبوني أراقبكم، وأجعلكم تقولون للشيء كن فيكون، يا بني آدم، من حصلتُ له حصل له كل شيء، ومن فُتُّه فاتَه كلُّ شيء» هذا ما ذكره صاحب الرواية عن سيدي أحمد أنه صار صفةً من صفات الحق، لعلّه أراد التخلّق والاتّصاف، لا أنّه عين صفات الله تعالى، وإنَّما هو بصفاتِ اللهِ تعالى كقوله« **فبي يري وبي يسمع وبي ينطق**[٢]» وما أشبه ذلك.

ومن كراماته التي منحه الله ﷻ بها ما رواه يعقوب بن كرار أنّه قال: كان سيدي أحمد- قدس الله تعالى روحه- إذا صعد الكرسيّ لا يقوم قائمًا، وإنَّما كان يتحدث قاعدًا، وكان يسمع حديثه البعيدُ مثل القريب، حتى أهل القرى التي حول «أمّ عبيدة» مثل فرجوان والقماسية، حتى المنارة كان أهلها يجلسون على سطوحهم يسمعون صوته، وجميع ما يتحدث به، لا يفوتهم منه شيء إلا كانوا يسمعون كما يسمع القريب من مجلسه، حتى كان في مجلسه الأصمّ والأطرش الّذان لا يسمعان شيئًا، يفتح الله تعالى سمعهم لكلامه، حتى الشيخ عبد العظيم بن الهيتة، والشيخ علي بن هاشم وأخيه، كانوا إذا صعد سيدي أحمد الكرسي يتحدث، أو كان بين يدي أصحابه قاعدًا يتحدث، يبسطُ أحدُهم حجرَه، فإذا فرغ ضمَّ حجرَه إلى صدره وقصّوا الحديث على أصحابهم على جليته.

فانظر يا أخي، رحمك الله تعالى، إلى هذا العطاء العظيم، وإلى هذه المنحة اقتداءً وأسوةً بأبينا السيد إبراهيم عليه السلام الخليل، حيث أمره الله تعالى بالنداء لَمَّا بَنى البيتَ فقال تعالى: ﴿**وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ**﴾ [الحج:٢٧].

فقال: إلهي وسيدي، مِن أين لي صوتٌ يسمعه الناس؟ فأوحى الله تعالى إليه: يا إبراهيم، عليك النداء وعلينا البلاغ. قال: فنادى السيد إبراهيم عليه السلام فسَمِعَ صوتَه

(١) رواه الترمذي (٢٩٨/٥).
(٢) تقدم تخريجه.

البعيدُ مثل القريب، وبلَّغ الله تعالى ما شاء من خلقه، والبلاغ من الله تعالى، وإلا فمِن أين لهذه البشرية الضعيفة على هذا؟ وذلك حين عظُمَت منزلةُ الحقِّ عنده عظَّم الله تعالى منزلتَه وأعلى ذكره ومرتبته، والحق تعالى ينزل العبد من حيث ينزله العبد من نفسه.

ومِن مآثرِهِ ما رواه عنه سيدي إبراهيم الأعزب قال: سألني أحد الفقراء عن حالةٍ مِن أحوالِ القطبِ، فلمَّا وصلت إلى سيدي أحمد سألته عن ذلك فقال لي: يا إبراهيم، ما أقبحَ الكذبُ، أي إبراهيم، أوّل ما تبدو العناية بالعبد إذا أراد الله تعالى أنْ يؤهّله إلى هذه المنزلةِ وإلى هذا الأمر وإلى هذه الأحوال، يكلّفه أمرَ نفسِه أولاً، فإذا ما رآها وأدبَّها واستقامت معه، كلَّفه أهلَه، فإنْ أحسنَ إليهم وداراهم[1]، كلَّفه جمعةً مِن الأرضِ، فإن هو داراهم وأحسن سيرتَه مع الله تعالى كُلِّف ما بين السماء والأرض، فإنَّ بينهما خلقًا كثيرًا لا يعلمهم إلا الله تعالى ومن سبقت له العناية من خلقه، ثم لا يزال يرتفع من سماءٍ إلى سماءٍ حتى يصل إلى مَحل القُرب، ثم ترتفع منزلتُه ويسير صفةً من صفاتِ الحقِّ سبحانه وتعالى.

ثم قال: أي إبراهيم، ومازال يهدى من وطن إلى وطن حتى يستقر له في الصدق أوطانٌ، فإذا صَلَحَ لهذا الأمر صار لله تعالى غيثًا في أرضِه، فبه يُنزل الغيثُ، وبه يرتفعُ البلاءُ، ويطلعه الله ﷻ على خلقه، لا تنبت شجرة ولا تخضر ورقه إلا بنظره.

فانظر أيُّها العاقل إلى هذا العلم الجسيم والسرِّ العظيم والاطلاع على هذه الأمور، وذلك حيث ترك الرياء والإسراف بلغ إلى هذه المرتبة، وهذا المقام وهذا الكشف، وسألتُ بعضَ العارفِين عن علمِ الباطنِ أيُّ شيءٍ هو؟ قال: شيء من أسرار الله تعالى يقذفه في قلوب أوليائه، ولم يطلع على ذلك السرِّ ملك ولا بشر ثم قال: ﴿**يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ**﴾ [البقرة:١٠٥].

وعنه -قدس الله تعالى روحه- أنَّه سُئل ذاتَ يومٍ عن شيءٍ من قدرةِ الله تعالى ومخلوقاتِه فقال: إنَّ لله تعالى في السماء بحرًا مِن رَملٍ يجري جريان الرياح العاصفةِ له منذ

---

(١) داراهم أي: لاينهم. مختار الصحاح (٨٤/١).

خلق الله تعالى السموات والأرض إلى يوم القيامة، لا يدرى من أين؟ وإلى أين؟ للحق سبحانه وتعالى بعددِ كلِّ ذرةٍ منه دنيا مثل دنياكم هذه وما من ساعةٍ تمضي من ليلٍ أو نهارٍ إلا ولله تعالى فيها قيامةٌ تقومُ على قومٍ، وميزانٌ ينصب، وصراطٌ يُمَدُّ وقوم يدخلون الجنة وقوم يدخلون النار، وهي غيرُ الجنّة والنّار التي تُوعدون.

وهذه أمور لا يقدر علي سماعها إلا من ثبت إيمانه، ويَعرف قدرة الله تعالى الذي لا يعزب عنه شيء؛ لأن هذه الأمور أمرٌ ربَّانِيٌّ حقيقي؛ لأنَّه بحر عميق قد غرق في ساحله خلق، وهلكت به أمم كثيرة، وذهب به إيمان جماعة من العالم، وقد قال أحدهم: لم يحصل منه أهل السماوات والأرض إلا على الصفات والأسماء.

فانظر إلى هذه المنحة العظيمة والعطاء الجزيل، زاده الله تعالى مِنْ فَضلِه وكَرمه، رضوان الله تعالى عليه.

وما رواه أحد أصحابِه قال: انحدرتُ إلى البصرة لزيارة سيدي أبي محمد بن عبد لما كان سيدي أحمد يوصي بزيارته، فلمَّا دخلتُ إليه ودخلت مسجدَه فوجدته جالسًا على كرسيِّه فردّ عليَّ السلام، ثم إنِّي جلستُ والشيخ يتحدث، فعَرَّضَ بذكر الصالحين وفضلِهم ولم يذكر سيدي أحمد، قال الفقير: فأخذتني الغيرةُ، فقمت إليه وقلت له: يا سيدي، أراك تذكر جميع الصالحين ولم تذكر سيدي أحمد فقال لي الشيخ: أي فقير، أيُّ الأحمدين؟ فقلت: أي سيدي، كانت المسألة واحدةً صارت اثنتين، أخبرني مَن هم الأحمدان؟ فقال لي: أحمد الأرزق بن سيدي منصور وأحمد بن أبي الحسن.

فأمَّا أحمد الأرزق فإنَّ النبي ﷺ يصافحه في اليوم والليلة خمسَ مراتٍ، وأمَّا أحمد بن أبي الحسن فإنَّ فضلَه وظلَّه علي داري هذه كما يُري على هذه رمَّانةِ الكُرسي، ثم قال: أي فقير، إن قال لك قائل: وصلَ أحدٌ إلى مقام أحمد بن أبي الحسن، فكذّبْه ولا تصدّقْه؛ فمَا أحدٌ عَرَفَ طريقَه التي سلكها.

ثم إنَّ الشيخ قال لأصحابه: هذه جهةٌ، وأشار بيده إلى الشرق، وهذه جهة، وأشار بيده إلى الغرب حتى أشار إلى أربع جهات الدنيا ثم قال: كم في كل جهة من هذه الجهات طريق؟ فقالوا: كثير، قال لهم: تُعرف الجهةُ ولا تُعرف الطُّرق، ثم قال: أي

فقير، إذا رجعت إلى سيدي أحمد فاقرئه عني السلام وقل له: يدعو لى.

قال الفقير: فلمَّا رجعتُ إلى «أمِّ عبيدة» دخلت على سيدي أحمد وسلمت عليه وقلت له: إنّ سيدي أبا محمد بن عبد يُسلِّم عليك، فقال: سلَّم الله تعالى عليه، ثم قال: أي ولدي، مَن أنا حتى أصلح أن يسلم علي مثل هذا الرجل المحتشم؟ أي ولدي، إن قدّر الله تعالى لك أن تنحدر إليه تسلّم لي عليه وتقولُ له: سوّانةُ يسلّم عليك ويسألك الدعاء، فلمَّا قَدَّرَ الله انحدرتُ إلى البصرة فدخلتُ على الشيخِ أبي محمد بن عَبْد، وبلَّغتُ السَّلام عن سيدي أحمد والذي قاله.

وكان الشيخ قاعدًا في المجلس، فلمَّا سَمِع كلامي قام واقفًا علي قَدَميه ولَطَمَ على رأسه، ونادى بأعلى صوته: ويلاه مَن هذا الرجل؟ أي فقراء، هل تدرون ما معني هذه الكلمة «سوّانة»؟ فقالوا: لا والله فقال: سوّانة يمشي على الطين لا يُري له أثرٌ، و يمشي بين القميصِ والجسدِ لا يُرى ولا يُحسُّ بها ، سوّانة مرحومةٌ بين سائرِ الخلقِ، سوّانة لا يُغلَقُ دونَها حجابٌ.

أي: فقراء، لو علمتم ما سوّانة ما طاب لكم عيش، ثم قال: أي فقراء، ما سلك أحد طريق هذا الرجل.

فانظروا يا إخواني إلى هذا الذُلِّ العظيمِ، وهذه الخصالِ المحمودةِ عند الله تعالى وعند الخلق، فهل فينا نحن أيُّها الإخوان شيء من جلالته؟ وندّعي أنّنا من أصحابه! فمن لم يعمل بعمل شيخه، ويتبع منهاجه فكيف يطمع أن يكن صحبه أو بالقرب منه؟ هيهات، هذا أمل بعيد، نروي أقوالهم ونترك أفعالهم، وقد صرنا نتعلّق بالنسبةِ قولاً لا فعلاً.

فإنَّ المحبَّ إذا كان صادقًا في محبته وافقَ محبوبِه في أفعالِه، فعساه أن يُكتبَ من أصحابه، فكيف نحب نحن شيخنا، ونطمع بالقرب منه ولا نسلك طريقه؟ هذا أمر بعيد.

وقد كان -قدّس الله تعالى روحه- يقول لولده صالح: أي ولدي، حدِّف لكانونك حطبًا، إنْ لم تعمل بعملي فلستُ لك أبًا و لا أنت لي ولدًا.

من نصائحه لأهله

وقد كان يقول لزوجته أمِّ صالح: أي بنت الشيخ، إن سَرَّك لحاقُك بي؛ فأقلّي الطعامَ واهجري المنام.

حتى كان -قدس الله تعالى روحه- يوقظها بالليل ويقول لها: قومي إلى وردِك؛ فإنَّ العبدَ إذا سلك طريقَ القومِ كان قريبًا.

فلا تقلْ يا أخي إنَّ الدنيا تعوقُنا؛ فإنَّ الله تعالى تكفَّل لك بالرزق، فقال تعالى عَزَّ مِن قائلٍ: ﴿ **نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ**﴾ [الإسراء:٣١].

وقال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ**﴾ [الذاريات:٥٨].

وقال تعالى: ﴿**نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ [الزخرف:٣٢] فإذا كان هو الرازق وهو الذي يقسّم فلِمَ تتعب نفسك؟ ولا تجتهد وتسلك الطريق الذي كان شيخك سالكه؟

وذُكر عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول: «**الصاحب قدر المصحوب**[(١)]».

وعن سيدي أحمد، قدس الله تعالى روحه، أنَّه كان يقول: من لقي مفلحًا ولم يفلح متى يفلح؟

والحديث عن رسول الله ﷺ: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**[(٢)]».

فبيَّن الدليل وأوضح السبيل ﷺ.

حُكي لي عن الشيخ أبي المنذر المهميدرحي[(٣)] -قدس الله تعالى روحه- أنَّه سُئل عن فضل سيدي أحمد قال: لا أقدر أشرحه و لا أقدر أشرح لكم حاله، فألحَّ عليه أصحابه وأقسموا عليه بالعزيز سبحانه وتعالى، فقال لهم: أختصر لكم شيئًا مِن فضله، ثم قال لهم: ما أقول لكم في رجل ما اعترف لنفسه قدرًا أبدًا؟ و لا خطر له غيرُ ربِّه ﷻ؟ ولا رضي نفسه يومًا واحدًا أن تكون مُنَعَّمة برائحة من روائح الدنيا؟ وله عند الله تعالى من القدر والمنزلةِ ما لا يُحدُّ.

ثم قال: هذا الرجل سلك طريقًا لم يسلكْها أحد، وكلّما ازداد قدرُه عند الله

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (٨٢/٥).

(٢) رواه البخاري (٢٣٣١/٥).

(٣) هكذا في المخطوط (ق/٣٥٥).

تعالى ازداد ذُلاًّ ومسكنةً وانكسارًا لله تعالى وللمخلوقين، وهذا طريق فضل، ثم قال لأصحابه: ومع هذا كلِّه لم يرَ روحَه شيئًا!

وأيضًا ما كان معروفًا بالصَّلاح، حدَّثني خطيب الصليبة قال: كنت أنا والشيخ حسين ذاتَ يومٍ في المسجد لعمارةٍ فقال لي: أي عثمان، ثلاثُ رجالٍ مِن رجال الغَيبِ يدخلون علينا في هذه الساعةِ وهم جياع، وقد خطر في سرِّهم: تُرى أحدٌ بالعراق يدري علينا؟ وقد طلبوا خبزًا و لبنًا، ثم قال عثمان: منك اللبن ومني الخبز. فما استتمَّ الكلامَ إلاّ وقد دخلوا المسجد ولم يسلّموا قال: فقمت إليهم وسألتهم من أين وإلى أين؟

قال: وقمت وقفت على باب المسجد وقلت: سلامٌ عليكم.

قال: فرفع أحدهم رأسه وقال: عليكم السلام، السلام من السلام.

قال: ثم رجعت إلى الشيخ حسين وقلت له: ما لهؤلاء القوم إلا أنت.

فقام الشيخ حسين إليهم، وسلّم عليهم فردُّوا عليه السلامَ كما قالوا لي في الأولى:، فقال لهم الشيخ حسين: من أين وإلى أين؟ فقالوا له: أي شيء على الناس؟ فقال لهم: أنتم أحوجتمونا نسألكم، قلتم: تُري بالعراق مَن يدري علينا؟ ثم قال لكل واحد اسمه ومن أين هو، ثم أحضر لهم الخبز واللبن فقالوا: هذا الذي طلبناه، صدقت فيما قلت، ثم أكلوا الطعام، فقال لهم الشيخ حسين: أخبرونا ما شاهدتم في طريقكم هذه؟

فقالوا له: بينما نحن سائرون في طريقنا هذه إذ شممنا رائحة المسك، فما زلنا نتقصى آثارَه حتى أتينا إلى جبلٍ عليه عين ماء تجري، وهناك رجلٌ سطيحٌ، فسلَّمنا عليه فردَّ علينا السلامَ، ثم قال لنا: إلى أين؟ قلنا: إلى زيارة الصالحين في بلد العراق، فقل لنا: مَن نزوره منها؟ فقال لنا: في البطيحة أحمد بن الرّفاعي، وفي البَصرةِ أبي محمد بن عبد فقلنا له: أي سيدي، فأيُّ الرجلين أكبر؟ فقال: أحمد بن الرفاعي. فقلنا له: صف لنا شيئًا من أحواله، فقال لنا: كان عندي على هذا الجبل وهو قطبُ الأقطابِ، ثم انتقل إلى قطب السّماوات ثم صارت السماوات السبع في رجله كالخلخال، وقد سلك بدنُه طريقًا لم يسلكها غيره، ثم قال لنا: اعلموا أنَّ هذا الرجل صار لكلِ جارحةٍ منه

سرٌّ يختصُّ به فقلنا: صفْ لنا ذلك وبيِّنه، فقال: صار القلبُ للتجلّي، والعينُ للمشاهدة، والإذنُ للسمع، واليدُ للبطش، والرجلان للسعي، والرُّوح والنفس للتّذللِ والوقوفِ بباب العجزِ.

وقد كان يدعو -قدس الله تعالى روحه- ويقول: اللهم اجعلنا من الذين فرشوا على بابِك لفرطِ ذلِّهم نواعمَ الخدودِ، ونكسّوا رءوسَهم مِن الخجل وجباهَهم للسجودِ، فبلّغتهم بذلك غايةَ الْمُرامِ والْمَقصودِ. وصلّى الله على سيدي محمد وعلي آل محمد.

ثم إنّه قدس الله روحه، استوى عنده الخير والشر والضرُّ والنفع والعطاء والمنع فصار الجميع عنده من الله تعالى، ثم إنَّه كان ينشدُ بلسانِ حالِه:

وبَقِيتُ لا شيئًا أشاهدُه إلاّ ظننتُ بأنَّه حُسبِي

وكان سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ يقول: ما رأيت شيئًا قط إلا رأيت الله تعالى فيه.

وعنه- قدّس الله تعالى روحه- ما حدّثنا به الإمامُ تاج الدين بن بهرودي(١) عن أبيه ﷺ عن أخيه الشيخ مكي قال: شاهدت سيدي أحمد ليالي كثيرة، فحفظت منه أربعين خصلة من خصال رسول الله ﷺ، على قدر علمي في الأحوال الظاهرة، فكيف بالأحوال الباطنة؟.

وعنه: قدس الله تعالى روحه، ما حدَّثنا به خطيب السّعدية -وكان من كبار أصحاب سيدي أحمد، وكان مِمَّن شَهِد له أنَّه مِن أصحابِ اليمين- قال: كنت بين يدي سيدي أحمد، والغيث يقع فقال: لكل قطرة تقع من السماء إلى الأرض مَلك مُوكَّلٌ بها، ينزل من السماء لا يعود إلى يوم القيامة.

ثم قال: انظروا، هل ترون قطرة تختلط بأخرى؟

ثم انصرفت عنه، ثم بعد ذلك لما حضرت عند الشيخ البادنيني في بلد [...] (٢) خبرته بذلك فقال: ليس هذا بصحيح، فعظُم ذلك عليّ، كيف ردَّ على سيدي أحمد؟

(١) هكذا في المخطوط (ق/٣٥٦).
(٢) غير واضحة في المخطوط (ق/٣٥٦).

فلمّا كان في بعض الأوقات اجتمع سيدي والشيخ البادنيني في بعض بلد الخاقاني وأنا بين يديه، والحديث يحوكُ في صدري، وكلّما هممت أن أتكلم نظر إليّ سيدي أحمد فأمسكت، فلمّا مرّت ساعةٍ أو أكثر هممت بالقول ولم أعقد السكوت، فالتفت إليّ سيدي أحمد وقال: رسول الله ﷺ كذا وكذا، وذكر الغيث ونزول الملائكة معه ولم يصعدوا أبدًا، ثم قال بالأمر وأنا أتبعه بالقول، ولم أسمع منه شيئًا غير هذه الكلمة، ثم قال: هُوَ ذي في بطن قائمة العرش.

أو قال: هو تحت قائمة العرش ملك عظيم الخلقة، خلق الله تعالى له جندًا من الملائكة يسيرون لسيره ويقفون لوقوفه، وهم تحت أمره ونهيه، بعدد كل قطرة تنزل من السماء إلى الأرض إلى يوم القيامة، فلا يعلم عددهم إلا الله تعالى.

ثم قال سيدي تمام الكلام: وكم لله تعالى مثل ذلك.

قال: فلما سمع الشيخ الباديلي الكلام سكت، ولم يتكلم بشيء أبدًا.

فهل يري هذه الأمنحة من الله تعالى علمٌ لا ينقطع أبدًا وبحر تُحيَّر فيه الأفكار؟ والدليل على قول سيدي أحمد -قدس الله تعالى روحه- ما كتب السيد عُمر ﷺ إلى أميرِ الأجنادِ: احفظوا ما تسمعوا من المطيعين لله تعالى؛ فإنَّه تتَجَلَّى لهم أمورٌ صادقَّة.

وكان إذا تحدّث بحديثٍ غريبٍ يقول: اسمعوا ما أقول لكم، ما على المستمعين من درك، إنما الدرك على القائل.

﴿ **مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** ﴾ [ق:١٨].

ومِمَّا حُكي عن سيدي أحمد -قدس الله تعالى روحه- في الشفقةِ على خلق الله تعالى أمور عظيمة، وجدناها في الكتب المرويّة عن محمد بن عبد الرحيم بن يعقوب، وإنَّما نقتصر منها على اليسير.

فمنها ما رواه الشيخ مقدامُ حلقةِ المقربين بالجداويه رحمه الله تعالى قال: كنت أنا وخادمه ماهان مع سيدي أحمد، قدس الله تعالى روحه، في يومٍ شديدِ البردِ وقت الصبح، وقد أسبغ الوضوء، ويده ممدودةٌ لا يحركها ولا يقوم من مقامه، وطال وقوفُنا، فلمّا مِلْنا إليه، وإذا على يده بعوضة -وهي البقَّة- وقد قبضت على يدهِ، وقد احمرّ مكانها، تعرّفنا أن قعوده لأجل ذلك فأشرنا إليها، فطارت فعظم ذلك عليه، وحرّد

علينا ثم قال: ما أحلُّ لكم تمنعوها مِن رزقٍ قسمَه الله تعالى لها؟ ثم قال: لا آخذكم الله تعالى، لا تعودوا إلى مثل هذه.

وعنه، قدس الله تعالى روحه، ما رواه الشيخ أحمد بن قِرّي قال: خرجت ذات يوم مع سيدي أحمد إلى بعض البساتين أسبغُ الوضوء، فتأخرت عنه وتقدّم هو، وكان الوقت كثيرَ الحر وأنا أنتظره، فعجلتُ فتقدّمتُ إليه، وإذا به قد قعدت على ثوبه جرادة، وهو قائم في الشمس لا يتحرك فعرفت ذلك، فتقدمت إليه وطردتها عنه، فبكى وقال لي: ما أحلُّ لك أنْ تطردَها وقد استظلت بنا؟ لقد تركت ذلك.

وعنه -قدس الله تعالى روحه- أنَّه كان في أحد الأيام نائمًا، وكان يومُ جُمعه، فاستيقظ فوجد هرّةً نائمةً على كمِّه، فنادى زوجته فقال لها: ائتني بالمقص فناولته المقصَّ فقصَّ كمَّه، ثم خرج إلى الصلاة فقالت له زوجته: ما أحوجُك إلى هذا؟ فقال: أي بنت الشيخ، حتى لا نزعجها.

فلمّا صلّى ورجع وجد الهرّة قد قامت، فأخذ كمَّه وإبرة فخيّطه، ثم قال لها: أي بنت الشيخ، ما كان إلا خيرة ما تعبنا وحصل الثواب.

وكان إذا رأى فقيرًا يقتلُ قملةً أو برغوثًا فيقول له: لا آخذك الله تعالى، شفيت غيظَك بقتلِها؟

ومن حكاياته ومروءته ﷺ أنَّه وجد كلبًا أجربًا، فحمل له الدهن ويُطليه ويحكُّ الجرب منه بخرقة، ويحمل إليه الطعام ويتردد إليه، فيراه الكلب فيهرب فيقول: أي مبارك، قف خذ طعامك حتى أداويك، فلمّا رآه قد طاب حمل إليه ماء وغسله.

فانظر يا أخي إلى شفقته على غير بني آدم، وذلك حيث كلف الأمر وتقلده.

وأمَّا الشفقةُ على بني آدم كان، قدس الله تعالى روحه، يمشي إلى الوَجِعِين -وهم الْمَجْزُومِين- والزُّمْنى يغسل ثيابَهم ويفلّي رءوسَهم ولِحاهُم، ويحمل إليهم الطعامَ، ويأكل معهم ويجالسَهم ويسألهم الدعاء، وكان يقول: هؤلاء القوم الزيارة لهم والشفقة عليهم واجبة.

وكذلك كان حاله مع الأعمى والمريض والأعرج.

ومن شفقته -قدّس الله تعالى روحه- أنَّ رجالاً من الصَّابئةِ جاءوا من أسكار -

وكان الوقتُ مسعّرًا كثيرُ البرد- فدخلوا الرباط وجلسوا مع الفقراء وناموا بينهم بحيث لا يعرفهم أحد، فجاء سيدي أحمد إليهم وهم نيام، فأيقظهم فقالوا: يا سيدي، نحن بعض الفقراء فقال: صدقتم، ولكن أظنُّكم جائعين فقالوا له: نعم، فأخذهم ورجع بهم إلى دار الفقراء وجاءهم بطحين وحطب وطاسة وقال لهم: هاكم الماء واعجنوا كما تختارون واخبزوا، وجاءهم بسمكةٍ فشووها وأكلوا فقالوا له: أي سيدي، أيُّ شيءٍ أغراك على هذا، ونحن قومٌ صابئةٌ؟

فقال لهم ﷺ: ﴿**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً**﴾ [الإنسان:٩].

فقاموا جميعهم وأسلموا علي يديه.

فانظر إلى صدق حالِه، حيث عُلم منه صدقُ السرِّ فهداهم الله تعالى على يده، وكان مع ذلك أبُ الأيتام والمساكين، وكان هينًا لينًا، لا يحرد لنفسه إلا لله تعالى.

وخرج مرّةً إلى حلقةِ الفقراء فوجد فيها شبابًا يلعبون، فلمَّا أبصروه هربوا منه وخلُّوا ثيابهم، فجلس عندها يحفظها لهم، ثم ناداهم وقال لهم: حاللوني مِمَّا روّعتكم، ارجعوا إلى ما كنتم عليه.

ومرّةً أخرى وكان خابز الدّرب، فوجد صغارًا يتخاصمون فخلّصهم ثم قال لأحدهم: أنت ابن من؟ قال: وإيش كان فضولك؟ فقال له: صدقت أي ولدي، جزاك الله تعالى الخير كما أدبتني.

ثم إنّه كان يبتديء مَن لَقِيَه مِن بني آدم بالسلام، ومن الأغنام حتى الكلاب. وكان إذا رأى خنزيرًا يقول له :أنعم صباحك أي مبارك.

وكان يعود المرضى، حتى إنّه كان يسمع بمريض في قرية من القرى ولو كان على بعدٍ يمشي يعوده بعد يوم أو يومين.

وكان يخرج إلى الطريق ينتظر قدوم العميان فيأخذ بأيديهم ويقودهم ويحسن إليهم و يسألهم الدعاء.

وكان إذا رأى أمرًا خيرًا عزم عليه، وإذا رأى شيخًا كبيرًا يُكْرمه ويحسن إليه، ويُخْلِعه ثيابَه ويغسلها، ويوصي الفقراء عليه بالشفقة وعلى أمثاله.

وكان يقول: قال ﷺ: **«من أكرم ذا شيبة سخَّر الله تعالى له من يكرمه عند مشيبه[1]».**

ثم كان يخرج إلى المعبر بالليل ويقف بها ينتظر مَن أمسى، وكان يتردد إلى أبواب المساكين ويتعرّض لحوائجهم، فكان يقوم سَحَرًا، ويأخذ قربةَ السّقايةِ للرّواق، ويملأُ لِمَن لا يكون فيه جهد ولا جَلد.

وكان إذا قَدم من السفر وقرب من «أم عبيدة» يشدُّ وسطَه، ويخرج حَبلاً مُدَّخرًا معه، ويجمع معه حطبًا، ثم يحمله على رأسه.

فإذا فعل ذلك فعل الفقراء كلهم مثله، فإذا دخل البلد فرّق الحطبَ على الأرامل والمساكين والزُّمنى والمرضى والعميان و المشايخ على قدر أحوالهم، حتى كان في «أم عبيدة» صغار المساكين يقولون: نحن لنا من يحتطب لنا.

وكان يقول: الشفقة على الإخوان مِمَّا تُقَرّب العبدَ مِن اللهِ تعالى.

وكان يري إنفاق المال من أكبر القربات إلى الله تعالى، وكان يأمر الفقراء بذلك.

وكان يقول: قال رسول الله ﷺ: **«الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله[2]».**

وحُكي عنه- قدّس الله تعالى روحه- أنَّه كان ذات يومٍ في المجلس وكان قد ربَّى طفلاً يتيمًا ما له أبٌ و لا أمٌّ، فجاء الطفل وقال له: أي سيدي، أريد كعابًا ألعب بها، فقال له: أي ولدي، كلُّ شيء إنْ أردتَ تمرًا أو خبزًا أوقصبًا، أمَّا الكعاب فمن أين لي؟

فبكى الطفل فقال: أي فقراء، مَن يشتريني بخمسِ كعاب؟ فقام رجلٌ -يقال له أبو بكر الحطّابي- فراح إلى منزله وأتاه بخمس كعاب، فأعطاه إياها، فأخذها الشيخ منه أرسلها إلى ذلك الطفل.

ثم قال أبو بكر: أي سيدي، أنت شرائي بهذه الكعاب؟ فقال: نعم، ثم إنَّ الشيخ خيط له كيسًا وجعل الكعابَ فيها، فصار الصغير يلعب بها، ثم يجيء بها إلى

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٥٧٥/٣).
(٢) رواه ابن عدي في الكامل (١٥٣/٧).

الشيخ يحبسها له، واقتدى في ذلك بحديث رُوي عن النبي ﷺ:

وهو «أنّ أبا بكر دخل على النبي ﷺ فوجده نائمًا والحسنُ والحسين على ظهره، وهو يقول لَهما أنا جَمَلُكما فقالا لأبي بكر: تشتري منا جملَنا فقال لهما: بكم تبيعوني هو؟ فقالا: بكم تشتريه؟ فقال: معي أربع جوزات فقالا له: قد بعناك. فأعطى كلَّ واحِد منهما جوزتين ونزلا عن ظهر رسول الله ﷺ فنزلَ السيد جبريل عليه السلام وقال له: يا حبيب الله يا محمد، الحقُّ تعالى يقرؤك السلام ويقول لك هذه المسألة: كنت تتفكر في بيع يوسف عليه السلام بسبعةِ دراهم فتَعْجَب من ذلك، فأنت بعت نفسك لأبي بكر بأربع جوزات».

وكان لا يجازي بالسيئة السيئة قط، وإذا سئل أن يدعو على ظالم فيدعو له بالرحمة والصلاح ويقول له :اللهم أصلحهم، واغفر لهم، واعفُ عنهم، ووفّقهم لِمَا تُحِبُّ.

وعنه- قدس الله تعالى روحه- ما حدَّثنا به الشيخ حسن النقيب والشيخ محبوب والشيخ يعقوب بن كرار وجماعة من الفقراء قالوا :كنَّا مع سيدي في طريق الهمامية، وكنَّا في السفر، وإذا بجماعة قد أقبلوا، فلمَّا قَرُبوا عرفنا أنَّهم أصحابُ السادة لَمَّا نادى والشيخ معهم، فلما رآهم سيدي نزل عن المطية وكشف رأسه وقبَّل الأرض وقال لنا: أي سادة، بحياتكم احملوا القولَ ساعة، ولو رأيتموه يضربُني أو يشتمُني، فلمَّا نزل إليه وقبّل يده التقاه بكل قبيح وشتم وقال له: أي أعور الدجال، أي مستحل المحارم، أي مبدّل القرآن، أي ملحد حتى قال له :أي كلب.. ومع هذا كله وسيدي يقبُّل يده ويقول له: أي سيدي، بفضلك ارض عني وحلمك يسعني وأنا عبدك.

فلمَّا طال ذلك بينهم نزلَ الشيخُ عن المطية ونادى بأعلى صوته: وإإسلاماه! واخليفتاه! واديناه!

أيُّ عمل أعملُ معك أكثرَ مِنْ هذا؟ ما بقي لي فيك حيلة عملت معك، هذا كله حتى تأخذك العزة وتتحرك ولو شعرة من جسدك أنزع بها الإيمان من قلبك ما وجدت لي. أيُّ شيءٍ تريد؟ جميعُ أبوابِ المشايخِ تقفلُها بهذا الذُلِّ والمسكنةِ ،والدولة تَبْقَى لك وترثها ذريتك إلى يوم القيامة؟

فقال له: أي سيدي، كلُّ هذا من بَرَكتِك، ثم إنَّ سيدي ودّعه وانصرفنا وقد هلكنا من الغيظ، فقلنا له :أي سيدي، ما أحوجك إلى هذا؟

فقال: أي أولادي -أو أي سادة- وحياتكم ما كان إلا خيرًا، لو بقي هذا كله عنده ضرَّه، وأثمنا نحن بطريقِه، فأرحناه مِمَّا كان في صدره لأجلنا.

وعنه- قدس الله تعالى روحه- لَمَّا حُمِل إليه كتابُ البستي فأخذ ثيابه سيدي إبراهيم الأعزب- قدس الله تعالى روحه- لَمَّا حمل إليه كتاب الشيخ فقال: أي إبراهيم، اقرأه عليَّ، فقرأه عليه، فإذا مكتوب: أي أعور الدجال، أي مبتدع، أي من جمع بين الرجال والنساء، حتى ذكر الكلب ابن الكلب -وكان فيه أشياء كثيرة- وكان سيدي قاعدًا وحدَه في الغرفة مستقبلَ القبلةِ، فقالت له زوجته رابعة: أي ولدي، إن كان عمره ما حرَّد فهذا اليوم يحرِّد.

قال: فلمّا فرغت منه أخذه هو وقرأه وقال: صدق، جزاه الله تعالى الخير عنّا فقالت له زوجته :أي سيدي هذا قوله وأنت تقول جزاه الله تعالى الخير؟!

فقال لها: أي مباركة، ارجعي، لا ينفع الناس إلا كلامُهم بالخير إذا كان العطاء من الله تعالى.. ثم أنشد :

فَلَسْـتُ أُبَـالي مَـنْ رَمَـانِي بريبِـة إذا كنــتُ عنْــد الله غَــير مُريــبِ

أي إبراهيم، اكتب الجواب إليه: مِن هذا اللاشيء حُميدة إلى سيدي الشيخ البستي، أمّا قولك الذي ذكرته فإنَّه خلقني لِمَا يشاء: وأسكنَ فيّ مَا يشاء: بل أريد من صدقتِك أنْ تَدعو لِي: ولا تُخْلِيني مِن فضلِك، وحلمِك يسعني.

ثم قال لي: أي إبراهيم، اكتب فقلت له: ما أكتب؟ فقال اكتب:

ألا قُــلْ لِمَـــن بـــاتَ لي حَاســدًا أَتَـدْرِي عَلـى مَـن أَسـأتَ الأدَب

أَسَــأَتَ ظُنونَـــك فِي خَـــالِقِي كَأنّـك لَم تَرضـى لِي مَـا وَهَـب

فكَـــــانَ جَـــــزَاؤَك أنْ زادَني وسَــدّ عليــك طَريــق الطَلــب

ثم أنفذ الكتاب إليه قال: فلمّا قرأه بكى وقال: صدقت والله، هذا الذي أحوجني إلى هذا.

ثم إن السبتي كان صاحب بصيرة، فلمّا قرأ الكتاب عميت بصيرته فخرج على وجهه هاربًا من هذه البلاد، لا يُدرى أين مات؟

فبلغنا عنه أنَّه لَمَّا قرأ الكتاب قال للشيخ أبي الشجاع: خذ على العهد حتى لا يفوتني شيء من هذا الرجل؛ فهذا هو آخر القوم لا شك فيه.

قال على لسان [...]:

ذَلَلْنــا لَكُــمْ حَقًّــا فَصِــرْنَا أَعِــزَّةً ولا عَجـب أَنْ يُوجـدَ العِزُّ في الـذُل

وصِـرْتُ لَكُـمْ عَبْـدًا فصـرتُ مُحَـرَّرًا ولا ذُلّ فِي عَبـــدٍ لِعَبـــدِكُم مثْـــل

ومَـنْ كـانَ عبـدَ العَبـدِ عبـدٌ لعَبـدِكم فَقَـد فاخَرَ السَّاداتِ فِي البَعدِ والقَبل

ومآثر الرجل عظيمة، وذُلّه الذي سلكه قصُر عنه الفحول، ولو استقصيناه لضاقت به الكتب، وإنما قصدنا من هذه النبذة التي ذكرتها التشويق، فلعل الله تعالى يهدي إلى طريقه من يشاء.

وكنت قصدت أن أقتصر على بعض الحكايات، إما حكايتين أو ثلاث أو أقل من ذلك فقط، لا سيما في ذُلّه، فرأيت في المنام في معنى ذلك ما عظّم به عندي ذكر الذُل واستعماله؛ فإن الله تعالى عند المنكسرة قلوبهم من أجلِه.

فنسأله الله أن يجعله كذلك.

كذلك أيضًا ما روته الثقاة، كما ذكر صاحب الكتاب، أن سيدي أحمد دخل إلى الرواق، وكان قد تخاصم رجلان من المنقطعين في الرباط قبل دخول سيدي أحمد، فلمّا دخل سكنا عن ذلك حتى لا يبصرهم الشيخ.

ثم إنهم ناموا وصلى سيدي ورده، وكان له عادة يخرج بوقت كثير من السّحر إلى الوضوء، فيتوضّأ ثم يرجع يقعد بين يدي الله تعالى يذكر إلى الصلاة، فعرض لفقير منهما حاجة فخرج، فظنّ ذلك الفقير الذي خاصمه صاحبه أن سيدي أحمد هو غريمه، فقام من مقامه وأتى إلى سيدي أحمد ورفعه ألقاه على ظهره، ثم إنه جلس على ظهره، ثم إنه جلس على صدره، وجعل يلكم فكّه ويلطم رأسه ويدوس في أحشائه، وسيدي لا ينطق ولا يقول له شيئًا، ولما أراد الانصراف فدخل ذلك الفقير، فقام

صاحبه من على صدر الشيخ.

فقام سيدي وقعد وهو مرضوض، فقال الفقير الذي دخل: أنعم الله تعالى صباحك يا سيدي، فردَّ عليه الصباح، فعرف الرجل أن الذي كان قبله سيدي أحمد، فخرَّ مغشيًا عليه غائبًا عن نفسه.

فقام سيدي أحمد وقعد عند رأس الفقير وجعل يغمره ويتلطف به ويقول له: أي مبارك، ما كان إلا خيرًا كسبنا الأجر والثواب، فجزاك الله تعالى عني الخير، ولم يزل يتلطف به حتى سكّن روعَته، فلمّا أفاق مِن غَشيته قال: أي سيدي، خذ هذا العهد أنيّ لن أعود إلى مثل هذا الأمر، فأخذ عليه العهد، ثم سأله العبور قبله فكان ذلك.

وعنه -قدس الله تعالى روحه- ما حدثنا به رجل من الثقاة أنه كان في السجنية رجل من أنساب الشيخ عبيد الله، وكان كلما أراد المجيء إلى أم عبيدة يقول له احمل لي رسالة إلى شيخك وقل له: أي ملحد، أي باطني، ثم يقول كل كلام قبيح، فيجيء ذلك الفقير ويخبر سيدي أحمد فيقول له: هذه الدريهمات أي ولدي احملها إليه وسلم عليه وطال ذلك.

وصار كلما أتى الفقير إليه ينفذ له معه دريهمات.

فلمّا كان في أحد الأوقات أتى ذلك الرجل إلى سيدي أحمد قدس الله تعالى روحه، وحدثه أن هذا كلما أنفذت إليه الدراهم ازداد بالقبيح فقال: يا سيدي، جزاه الله تعالى الخير.

فلمّا كان من الغد وأراد الفقير أن يمشي أعطاه سيدي دريهمات أكثر مما كان يبعثه أولاً، وأعطاه شُقة وقال له: أي ولدي، سلم عليه وقل يعذرني.

فلما وصل ذلك الفقير إليه وأعطاه ما بعثه سيدي أحمد قدس الله تعالى روحه بكى بكاءً شديدًا وقال: قد حرت بفعل هذا الشيخ، ثم قال للفقير: إذا أردت أن تروح إلى أم عبيدة فأعلمني. قال: فلما أردت الزيارة أعلمته، فجاء معي، فلمّا خرجنا من البلد كشف رأسه وأخذ مئزره وتركه في حلّته، ثم قال: علي بالله أن تفعل ذلك ففعلت.

فلمّا قرّبنا من أمِّ عبيدة وإذا بسيدي أحمد قدس الله تعالى رُوحه قد خرج وتلقّانا، فلمّا وصل إلينا ووجده على تلك الحالة قال له: ما الذي أحوجك إلى هذا؟ فقال: فعلي فقال له سيدي: أي ولدي، ما كان إلا الخير فقال له: خذ عليّ العهد، فأخذه

وتوَّبه وعاد يجيء إلى أم عبيدة مدةَ حياته.

آدابه في القراءة بين يدي الله تعالى.

روي جماعةٌ من الثقاة مما حدثنا به الشيخ مقدام شيخ القراء بالجداد قال: سيدي أحمد يقول: كأنما سيف القهر دائمًا يجدب في وجهي كل يوم خمس مرات ﴿ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا** ﴾[النساء : ١].

وكان يدخل إلينا الحلقة ويقعد ويقرأ على أستاذي عبد الرحمن بحسن الأدب ولا يلتفت يمينًا ولا شمالاً.

ثم يقوم مِن بين يديه ويقعد يقرأ على الصغير حتى لو أن الصغير يحفظ سورة أو سورتين فيجلس بين يديه ويضع يديه على ركبتيه، ويتأدّب له ولا يلتفت يمينًا ولا شمالاً ثم يقول: من استهان بكلام الله تبارك وتعالى: ﴿**وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ**﴾ [الحج:١٨].

وكان إذا مرّ بقارئ لا يجاوزه، ولو بقي يومًا وليلة حتى يسكت القارئ، ويقول: من أجوز عليه وهو يتلو كلام الله تعالى؟

وكان يقول: هذا الخلق سمعوا أن لهم ربًّا وما عرفوه، ولو عرفوه ما هنأ لهم عيش، وكذلك الأكثر منهم يسمعون أنَّ لهم شيخًا وما عرفوه.

وعلى ذلك أن السيد يوسف الصديق ﷺ ما تعرّف عليه غير السيد يعقوب وغير زليخا.

وسيدنا محمد ﷺ ما تعرّف عليه غير السيدة خديجة والسيد أبي بكر -رضي الله تعالى عنهما-وكان يقول ﷺ«**أنا أعرفكم بالله وأشدكم له خوفًا**[١]» وكان يقول قال الله تعالى: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ** ﴾ [الأنعام:٩١].

يقول قال رسول الله ﷺ« **حملة القرآن هم أهل الله وخاصته**[٢]».

وكان قدس الله روحه لا يقرأ القرآن إلا وهو على طهارة وكمال الوضوء، وهو مستقبل القبلة، وكان لونه يتغير مع كل آية أو حرف، وكنا نراه لا يعتز مَن حوله، وكان

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢٣١/١).
(٢) رواه أحمد في مسنده (١٢٧/٣).

إذا قرأ يمدّ ويحرك ويشدد و إذا قرأ:

﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ** ﴾[المائدة:٦٤].

يميل كما يميل الشجر في ريح عاصف لا يقدر على قراءتها.

ويقول على قراءتها: ﴿**غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا**﴾[المائدة:٦٤].

وكان إذا بلغه عن أحد من الناس أنه قد نسي شيئًا من القرآن يرتعد كما ترتعد العسفة في النخل يوم الريح ويقول له: من قال لك تتعرض للسُّم؟

ولا يزال يهدده حتى يعود يقرأ ويحفظ.

وكان يأمر الفقراء بقراءة **سورة الحشر** في ليلة الجمعة، وكان يقول: مَن قرأها صلّت عليه الملائكة.

ويأمر الفقراء بقراءة عمّ يتساءلون وسورة الطلاق ويعظّم شأنهما.

وكان يأمر الفقراء كلَّ ليلةٍ بقراءة ألهاكم التكاثر.

ويقول: القرآن محبة الله تعالى، فإذا كنت تحب الله تعالى فأنت تحب كلامه وإلا فلا.

مَـــنْ ادّعـــى دَعْـــوى بِـــلا شـــاهدٍ   لا بُـــــدّ أنْ تبطُـــــل دَعـــــوَاه

ولسنا نستقصي أحواله في القراءة، ولا في الأذكار ولا في الأوراد، وإنما كان ﷺ في كل أحواله كمال.

صفاء الصدور

وعنه حكاية في صفاء الصدور ونفي الكدر والغل والخبث منها، ولذلك دليل ما حُكي عن الإمام علي، كرّم الله تعالى وجهه، قال: احصد السرَّ من صدرِ أخيك تحْصدَه مِن صدرِك، وهذه الحالة جربناها كذلك وإن وقع خلاف ذلك فيكون في النادر الذي لا يحكم به.

وما حُكي عن سيدي أحمد الفقيه الخطيب خطيب «أُونيه» قال: كنت أنا وسيدي أحمد في أم عبيدة، فخرج للوضوء فخرجت معه ولم يكن معنا ثالث إلا الله تعالى، فلما وصلنا إلى أحد البساتين قلت له: أي سيدي، إن الطير ينفر من بني آدم ويستوحش منهم ويأنس إلى الوحوش والأنعام فقال له: أي خطيب جمال الدين، أمّا

علمت لماذا ينفر من بني آدم؟

فقلت: لا فقال: لأجل خبث صدورهم ووجود الغدر فيهم.

فقلت له: أي سيدي متى يأنس الطير؟ قال: إذا صفا الصدر.

فقلت: أي سيدي، فقد صفا الصدر -وكنت أعني بذلك عن نفسي-

فقال: لو كان قد صفا الصدر أنس الطير فقلت له: ما أنس الطير؟

فقال: بعد ما صفا الصدر، ثم راجعتُ القول عليه ثالثًا ويقول لي مثل ذلك فقلت له: أي سيدي، وما علامة صفائه؟

فقال: حتى لا يبقى فيه من الخبث شيء لا لعدوك ولا لصديقك ولا لأحد من خلق الله تعالى، ولا يبقى عندك من الخلق واسطة في الضرِّ والنفع إلا الله تعالى.

ويكون الخلق كلُّهم عندك بمنزلٍة واحدٍة، حتى لو أنك في طريق وأتى سهم من خلفك ويعبر من صدرك، فلا تطّلع لِمَن رماك، ولا يخطر لك إلا الله تعالى، فعند ذلك يكون صدرك قد صفى، وأنس الطير.

ثم إن سيدي أحمد فتح كمّه وهناك شجرة وعليها فاختة[1] فطارت ودخلت في كمّه.

ثم حدثني ساعة والفاختة قد باضت في كُمّ سيدي أحمد، ثم ناولني البيضة وتركتها في كُمّي، ثم ضممتُ كُمّي، وهو يجول في كمي يطلب الخروج، فقال لي: افتح كُمّك، ففتحت كُمّي فطارت. فقال لي: لو صفا صدرك ما نفرت منك.

ثم قال لي: اصعد إلى هذه الشجرة واعمل لها عشًّا واترك البيضة فيه حتى لا يطالبنا الله تعالى فيها، ففعلت ذلك، فرجَعَتْ وقَعَدَتْ على البيضة، ثم قال: أي جمال الدين، إذا صفى الصدر انسرَّ به كلُّ شيء، حتى الوحش في الآجام.

وحكى فقير قال: كنت في البرّيّة -أو قال: في السياحة- فكانت الغزلان تأنس بي، وكان فيهم ظبي صغير ربما قال يقعد في حجري، فخطر لي يومًا أنّني آخذه وأحمله إلى بعض أولاد أصحابي، فحين خطر لي هذا الخاطر، قام وجرى وراح، فلما رأيته فعل

(١) اسم طائر، كما في التاج (١/١٣٧).

ذلك استغفرت الله تعالى ومحوت ذلك الخاطر عني، فعاد وأنس بي على عادته وصفا قلبه عليّ.

فالصفاء حالة تستوي فيها الأحوال، وتستقيم على استقامة الاعتدال، وتظهر فيها الحقائق، ويُرفع المحال ويزول لها حكم الأضداد، وترتع الأغنام مع الذباب، والغزلان مع الآساد.

[.....] (١) في معنى الحاء والميم ﴿**إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾[هود:٥٦].

وليس هذا موضع إفشاء هذه الأسرار، ولا ظهور النهار في الليل ولا الليل في النهار، لما التزمناه.

وفاة الشيخ أحمد بن كرار

ولنذكر وفاة سيدي أحمد قدس الله تعالى روحه، مِمَّا حكاه الشيخ يعقوب بن كرَّار أنَّه لما مرض سيدي أحمد المرض الذي توفي فيه، قلت له: أي سيدي تجلي بالعروس في هذه المرة؟ فقال: نعم فقلت له: أين هذا القول من ذاك؟

فقال: أي يعقوب، جرت أمور اشتريناها بالأرواح شفقةً على الخلق فيه

قال: فقلت: وما ذاك؟ فقال: أي يعقوب، أَقبلَ على الخلقِ بلاٌء عظيم فسألت الله تعالى دفعه عنهم ثم شريته منه بما بقي مِن عمري.

قال: وحكت لي سيدتي رابعة -رحمة الله تعالى عليها- قالت: استيقظت ليلةً من منامي فلم أجد سيدي عندي، وكانت تلك الليلة قبلَ مرضِه بليالٍ وهي ليلةٌ باردة، فصعدتُ إلى السطحِ، فوجدته قائمًا على رأسه وهو يمرّغ خدَّه وشيبته في الأرض ويبكي، ويقول: العفو العفو.

قالت: فتقدّمت إليه وقلت له: أي سيدي، أي شيء جرى؟ قال: أي مباركة، قد أقبل على الخلق بلاء عظيم لا يُحتمل معهم، وهذا الخلق خلق ضعيف لا طاقة لهم على ذلك، لكن قومي واسألي ربك وتضرعي إليه أن يجعلني سقف البلاء عليهم، وأنْ ينفُذ أمرُه فيّ دونهم، ولم يزل على ذلك ليله أجمع، ثم إنَّه بعد ذلك بأيامٍ مرض مرض

---

(١) كلمة غير واضحة ص:٣٦٥.

الموت.

واجتمع إليه أهل البيت وداروا حوله فقالوا له: سيدي، على أي شيء توصنا؟ فقال لهم: أي أولاد عثمان، مَن عمل خيرًا قدم، فعلم قصده فقال: أي على، من لم ينتفع بأفعالي لم ينتفع بأقوالي، أي علي، وما هذا والفقراء؟ فإنّ العزيز سبحانه لَمّا بلّغني هذا الأمر عجزت عنه، فسلّمت إليه الحال وقَبِلَه منّي، وجعلني نائبًا ولا أَعْرِفُه منه إلاّ كما سلّمته إليه.

ثم قال: أي سادة، أي أولاد عثمان، عقدت لكم بيعةً مع العزيز سبحانه، لا تنحلُّ أبدًا مهما أنتم قيام بخدمةِ الفقراء.

ثم قال: أولاد عثمان، قد جعلكم الله تعالى قناطر للفقراء يعبرون عليكم وأنتم طريقهم، فانظروا كيف تكونون معهم؟ مِمَّن يسبقون مثل عبد الرحيم وسيدي إبراهيم وسيدي عبد السلام وجميع السلف، ثم قال لهم: أي أولاد عثمان، أنتم يعتقد الناس أنّ فيكم الخير، فكونوا كما يظنون، ثم قال: إن كنا مثل ما يظنون فينا فقد سعدوا وما شقينا، وإن لم نكن كما يظنون فقد سعدوا وشقينا.

قال الشيخ يعقوب: وكان مرض الشيخ بالخروج، فكان يخرج منه في كل يومٍ ما شاء الله تعالى، وبقي في المرض شهرًا، فقال له الشيخ سعيد: أي سيدي، من أين لك هذا كله؟ ولك عشرون يومًا ما تأكلُ ولا تشربُ، وفي كلِّ يوم تخرج ثلاثين مرة أو أكثر فقال لي: أي سعيد هذا اللحم يندفع ويخرج، وعدني العزيز سبحانه أنه ما يعيدني إليه وعلي شيء من لحم الدنيا، والآن فقد بقي المخ، يخرج اليومَ ونعود إليه غدًا إنْ شاء الله تعالى.

قال: فخرج منه شيء أبيض مرتين أو ثلاث وانقطع، وكان مع ذلك كلِّه لا يقول آهٍ، ثم إنّه درج إلى رحمة الله كما ذكروا، يوم الخميس وقت الظهر ثاني عشر جمادى الأول :سنة سبعين وخمسمائة وكان يومًا مشهودًا، ثم إنَّه ساعةَ عبورِه قال: أشهد ألاّ إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله ﷺ.

وكانت آخر كلمة قالها، ثم قضى نحبه ولَحِق بربّه تعالى، وغسّله تقي الدين- فقيه بحر دويلي- وحمله خادمه إلى الرّواق وصلى عليه جماعة المسلمين، ودُفِن في قَبر الشيخ

يحي النجار، عمّت بركته.

وهذا ما اقتصرنا عليه مما ذكره الراوي في كتابه، ونعوذ بالله تعالى من الزيادة والنقصان، ونسأله العفو والرحمة والغفران.

الشهيد سيف الدين علي بن عثمان

والإمام العالم العارف السعيد الموفق الشهيد سيف الدين علي بن عثمان خِتْن الشيخ وابن أخيه فأقام بعده سنين كثيرة، ولم يزل مُكْرِمًا أصحاب الشيخ -قدس الله تعالى روحَه- ويعرف فضلهم وكان حاله عجيبًا.

يحكى عنه الشيخ مقدام شيخ القراء [...] أنه رحمه الله تعالى قال: خرجنا معه للسفر ونحن خلق كثير، فرأيته وقد ألقى نفسه إلى الأرض، وجعل يمرّغ خدَّه وشيبَته على الترابِ ويقول: يا رب، لا تفضحني بين هؤلاء الخلق، آية من كتاب الله تعالى ولا خبر عن رسول الله ﷺ، ولم يزل كذلك زمانًا، ثمَّ إنَّه قام واتجه إلى السفر، فرأيت منه عجبًا، حتى أنَّه كان إذا ألقى يده في يد التلميذ يصير له بصيرة ويكشف، وينظر، ولا يقدر أحدٌ يقابله أبدًا ومع هذا كله كان كثير التواضع إلى الله تعالى، ثم إنّه قال للفقراء: لو جرى على أحد منكم سبب من أمر السلطان أو ضيعته من أمر الدنيا فيطالبني بذلك، لأنه كان متمكنًا والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين وحسبنا الله ونعم الوكيل.

فانظر إلى هذه الطريقة وهذا السلوك وهؤلاء السادة -نفع الله تعالى بهم ورضي عنهم وسلك بنا سبيلهم- ولا أخرجنا عنهم إنه أكرم الأكرمين.

وقد قلت شعرًا:

نجـومُ هُـدَى يَهْـدِي بِهـا كُـلّ سـالِكٍ ... وشـهب لأرجـاس الشـياطين قضـى

قَضَـى مـنهم بالْحَـالِ والفِعـل نـاطقٌ ... ونـاطِقُهم إِنْ قَـالَ فَهـو مُصَـدَقُ

فَهُـمْ فِي اقْـتِرَافِ القَـولِ والفِعـل واحُـد ... ومَـا مِـنهُم إلاّ إمـامٌ محقـقُ

فَمَـنْ سَـارَ سَـيرَ الْمُصْـطَفَى وسـبيلَه ... بِـه يَهْتَـدِي فِي نُـورِه ثُمَّ يلحِـقُ

فَسِـيرُوا بنـا نقفـوا سَـبَيلَ طريقِـه ... فـإنْ أنْتُمُـوا وافقْتُمـوِني نُوفَّـقُ

حكى السيد الشريف شرف الدين محمد الكلشمي قال: رأيت الإمام السيد عليًّا ﷺ في المنام فقلت له: يا أمير المؤمنين، ما حقيقة الفقر؟ فقال: قَد سألَنِي عن ذلك عبد العزيز قلت: وصفه عبد العزيز -قال الذي عرف بالمنوفي- ثم قال بعد ذلك: الشريف قلت له: فما قلتَ يا أمير المؤمنين؟ قال: قطع الأمل ثلاث مرات.

قال: فلمَّا استيقظتُ جئت إلى الشيخ عبد العزيز وقلت له: رأيت السيد الإمام على بن أبي طالب ﷺ قط؟ قال لي: نعم قلت: فما سألته؟ فقال: يا بطيطيل جئتَ تقول لي منامَك إذا خرج هؤلاء من عندي، فقال: وكان عنده أناس أجناد، فلما خرجوا من عنده جئت إليه فقال لي: أنت تقدر على قطع الأمل؟ ولا أنا هذا مما لا تقدر عليه- رحمه الله تعالى.

وكنّا ذكرنا ذلك في معنى الفقر وحقيقته، وإن لم نكن ممن قطع الأمل والفقير حقيقته لا أمل له، ودنيا الفقير حياته، فمهما طلب البقاء أو الحياة يومًا أو ساعةً أو لحظَةً أو نفسًا مِن الأَنْفَاسِ أو زمنًا مِن الأزمان، فقره بحسب طول أمله وقصره، والمكاتَب قِن ما بقي عليه درهم، ومحو الأمل هو الفقر، ولا فرق في وجود المال و عدمه إذا تحقق ذلك في القلب، والأولى: في مثل زماننا أن يكون خليَّ القلب من الآمالِ، والكفِّ من المال، لأنَّ الدعاوى كثيرة ودسائس النفوس غامضة.

وعلى الجُملة كيف كان حال رسول الله ﷺ ظاهرًا وباطنًا؟ فهو أكمل الأحوال، ومن كان على منهاجه وتبعيته فهو أكمل الرجال.

وحدثني الشيخ يعيش بن محمود قال: كنت يومًا بجامع دمشق، والشيخ عبد الرحمن شملة متكئ وأنا أغمر رجليه، والملك الأشرف قد جاء إلى زيارته وهو متكئ على حالته، وأنا أغمره فجلس السلطان الملك الأشرف على ركبته وقبَّل يده وقدَّم إليه ألف دينار وقال له: يا سيدي هذه اصرفها في حوائجك -أو كما قال- فقال وحياة أبيك ما لي بها حاجة فقال: يا سيدي أطعمها للفقراء قال له: وحياة أبيك ما عندي فقراء قال: يا سيدي فرّقها على فقراء الجامع فقال له: يا ولدي ادفع لهم بيدك حتى يبقى لك الثواب فقام السلطان ولم يأخذ منه شيئًا فلما قام قال لي: يعيش قلت: لبيك قال: هذا الطواشي من أين؟ قلت له هذا السلطان الملك الأشرف قال: بجاه أبيك؟ قلت: نعم.

فلمّا كان بعض أيام حضر السلطان إلى زيارة الشيخ عبد الرحمن، وقال يا سيدي لي عندك حاجة تقضيها لي قال: وما حاجتك؟ قال له: يا سيدي أبني لك رباطًا فقال: فقام الشيخ عبد الرحمن وأخذ بيد السلطان ومشى به في جامع دمشق

ودار به جميعه وقال له: تقدر تعمل لي زاوية مثل هذا قال يا سيدي مال الشام عشر سنين ما يكفي مثل هذا، فقال: هذه زاوية معمولة بلا تعب.

فانظر إلى هذا الفراغ لأنه لم يبق في الدنيا موطن ولا أمل.

وقيل الفقير من لا يطأ زوجته بعد الحمل لأنه لم يكن يطأها إلا لأجل النسل واتباع السنة لذلك وما بعد ذلك فإنّه لأجل الشهوة، وهذا يفترق بحسب النية في الباطن إن كان يقصد به رضا أهلِه وحسن المعاشرةِ المطلوبة منه والتحصين له أم لا.

وقيل: الفقير من لا يسأل الله تعالى حاجَة في الدنيا ولا في الآخرةِ، وهذا يفترق بحسب النية أيضًا؛ لأنه إذا سأله للتعبّد لقوله تعالى: ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ [غافر: ٦٠]، ولمصالح المسلمين الذين يقوون بها على دين الله تعالى، أو رفع السخط عنهم، مهما كان لاحقًا بأفعال رسول الله ﷺ كان أتم وأكمل وذلك لأن شأن الفقير سلب الاختيار مع الله تعالى، وعدم الاعتراض عليه في فعله وهو العالم الحكيم الفعال لما يريد فليس لسؤاله فائدة عنده، لأنه يدبر ملكه كيف يشاء وهو يرى سؤاله من حظوظ نفسه، وكيف ما كان صورة ويظهر فيها تعظيم خالقه وتصغير نفسه فعلها.

والفقير لا حظ له من حيث الجملة في دنيا ولا آخرة وحكي عن الشيخ الظهير بن كَساء أنّه لَمّا دخل بغداد أرسل إليه الخليفة ألف دينار ففرّقها بعصا المروحة ولم يمسَّها بيده، ولا ترك منها درهمًا واحدًا لنفسِه فقيل للخليفة ذلك فأراد أن يحمل إليه شيئًا آخر فقالوا له: لا فائدة فيه فإنه يفعل به كذلك، ولَمَّا وصل إلى مدينةِ قُوص لم يقع الاجتماع به.

وكان ينزل المدرسة النجيبية عند الشيخ مجد الدين وكان علمًا، فاتفق كما حكي لي أنه حلق رأسه وقعد يتوضأ على الفَسْقية وهو مكشوف الرأس، فجاء فقيران من المسافرين فقال أحدهما للآخر: هذا الظهير بن كساء إيش حسبك فيمن يضحك ويعصر نفسه؟! فتراهنا على ذلك فدخل أحدهما وصفعه فقام الفقهاء ليقتلوه فقام إليهم فربما قبّل يده، وقال: هذا الرجل خطر في نفسي خاطر سوء فأدّبني، وجعل يتبرّك.

وحدثنا عنه أنه كان كلّفوه القضاة لفقهه ودينه فركب والشهود أمامه وهو في محل فوجد في السوق إنسانًا يرقّص الدُّب وهو يقول: يا دَكس دَكس إنك ولد نَحس، فنزل مِن على البغلةِ وقال: هذه رقْصَتِي وجعل يَرْقُصْ فِي السوق وخلع ثياب الحكم فتركوه.

وكان أخوه نصير بن كساء جليل القدر ولم يكن مشهورًا كشهرة الظهير وكان من أصحاب الشيخ أبي الغيث، حدثني الشيخ عبد العزيز، رحمه الله تعالى قال: رأيت نصير بن كساء عند المدرسة الكاملية أو الصالحية واقفًا والفقهاء يبحثون في نجاسَةِ الماء وطهارته، فقلت له: ما يوقفك ها هنا؟ فقال: هؤلاء الفقهاء في تَعبٍ عظيمٍ فقلت له: هكذا ليبينوا للناس فقال لي: والله يا شيخ عبد العزيز ما أعلم أنا طهارة الماء ولا نجاسته إلا من الماء يقول لي: أنا طاهر فتوضأ مني أو يقول: أنا نجسٌ لا تتوضأ مني وهذا معناه:

قومٌ لهم عِندَ الإلهِ مكانةٌ فَليْسَ لَهُم مِن دُونه حِجَابُ

فما حُجِبَتْ عَنِ الظهورِ قلوبُهم ولا غُلِّقَتْ مِن دُونِهِم أبوابُ

* * *

خاتمة الجزء الأول من الوحيد في سلوك أهل التوحيد

تأليف الشيخ الإمام العالم العلامة عبد الغفار بن أحمد بن عبد المجيد بن محمد الأنْصاريّ الشافعيّ، رحمه الله تعالى، ونفعنا بعلومه بحمد الله تعالى دعوته وحسن توفيقه وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ورضي الله تعالى عن ساداتنا أصحاب أصحاب رسول الله أجمعين وحسبنا الله ونعم الوكيل وكان الفراغ من كتابة هذا الجزء يوم الأحد المبارك خامس عشر من شهر صفر سنة ٧٠٨ من هجرة خاتم المرسلين ﷺ.

١

١